

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٤

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

الرقم ١





الانعمال الأدبية الكاملة
المجلد الرابع عشر

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شيارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٢٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

المراهق
١

جميع الحقوق محفوظة

« المراهق » ، نشرت هذه الرواية اول مرة فى مجلة « حويات الوطن » ، المجلد ٢١٨ - ٢٢٣ ، من شهر كانون الثانى (يناير) الى شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٧٥

الجزء الأول

الفصل الأول

١



فرغ صبرى ، فهأنا آخذ بكتابة قصة خطواتى الأولى فى طريق الحياة • وكان يمكنتى مع ذلك أن أستغنى عن هذا • ان هناك شيئاً محققاً لا ريب فيه ، هو أننى لن أكتب سيرة حياتى عن غير هذه الفترة ، ولو قد رلى أن أعيش مائة سنة • فلا بد أن يكون المرء حقيراً فى شدة افتتانه بنفسه حتى يتحدث عنها بغير خجل ولا حياء • وشفيعى الوحيد فيما أفعله الآن هو أن الذى يحدونى الى الكتابة ليس ما يحدو اليها سائر الناس : اننى لا أكتب بغية الحصول على اعجاب القارى • ومديحه • ولئن خطر يبالى فجأة أن أسجل ، كلمة كلمة ، كل ما وقع لى منذ السنة الماضية ، فانما تدفعنى الى ذلك حاجة داخلية : ان الوقائع التى تحققت قد خطف بصرى وملأت على نفسى • وسأقتصر على تسجيل الأحداث ، متحاشياً ، بكل ما أوتيت من قوة ، أن أتعرض لما هو غريب عنها ، ومتحاشياً الأعيب الأدب وزخارف البيان • رب أديب يسلم من عمره ثلاثين عاماً فى الكتابة ، ثم هو يجهل آخر الأمر لماذا كتب طوال هذه السنين • ولست بالأديب على كل حال ، ولا أنا أحب أن أكون أديباً • وعندى أن استخراج ما تنطوى عليه نفسى ومحاولة وصف عواطفى

من أجل أن أعرضها في سوق الأدب هي في نظري من الأمور المعيبة التي تدل على صغار . ومع ذلك أتنبأ ، على كره مني واستياء ، أنه قد يستحيل عليّ أن أتجاشى وصف عواطفى تجاشيا كاملا وأن أتجنب عرض تأملاتي وأفكاري ولو كانت عامية : فإلى هذا الحد يسقط العمل الأدبي بصاحبه ولو كان لا يفعله الا لنفسه . وقد تكون هذه الأفكار على جانب عظيم من العامية ، ذلك أن ما تقدرونه أتم قد لا يكون له أية قيمة في نظر انسان غريب . على أن هذا الكلام كله استطراد . وهأنذا فرغت من التمهيد ، ولن أعود بعد الآن الى شيء من ذلك . فلأبدأ العمل ، وان لم يكن ثمة شيء أعسر من الشروع في تأليف كتاب ، وربما لم يكن هناك شيء أعسر من الشروع في العمل على وجه الاجمال .

سنوف أبدأ أو قل اننى أريد أن أبدأ مذكراتى بيوم ١٩ ايلول
(سبتمبر) من السنة المنصرمة ، أى على وجه الدقة باليوم الذى التقيت
فيه أول مرة بـ **

ولكن ** لأن أذكر الشخص الذى التقيت به سلفا على هذا النحو،
فى حين أن أحدا لما يعرف شيئا فذلك أمر عامى ؛ بل اننى لأعتقد أن هذه
اللهجة نفسها عامية ، فهأنذا أقع فى الزخرفة الأدبية بعد أن آليت
على نفسى أن أجتنبها . ثم انه ليس يكفى المرء أن يرغب فى الكتابة على
نحو معتدل حتى يستطيع أن يفعل ذلك . وأحب أن ألفت نظركم أيضا
الى اننى أعتقد أنه ليس هناك لغة أوروبية تصعب الكتابة فيها كما تصعب
الكتابة فى اللغة الروسية . لقد أعدت الآن قراءة ما كتبت فى هذه
الملاحظات ، فلاحظت اننى أذكر كثيرا من هذا الذى كتبه . فلماذا تكون
الأشياء التى يعبر عنها انسان ذكى أغبي كثيرا مما يبقى فى ذهنه ؟ لقد
لاحظت هذا الأمر فى نفسى غير مرة ، ولاحظته فيما أقوله للناس طوال
هذه السنة الماضية الحاسمة ، ولقيت من ذلك عذابا أليما .

ورغم اننى أبدأ باليوم التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) ، فسأقول
بكلمتين ؛ من أنا وأين كنت قبل ذلك التاريخ ثم ما لعله كان قائما فى
ذهنى ، ولو جزئيا ، فى ذلك الصباح من اليوم التاسع عشر من ايلول
(سبتمبر) ، بقية أن أيسر الفهم على القارىء ، وربما على نفسى أيضا .

أنا طالب قديم من طلاب المدارس الثانوية ، وقد بلغت الآن السنة الواحدة والعشرين من عمري . اسمي دولجوروكي ، واسم أبي الشرعي ماكار ايفانوف دولجوروكي ، وهو قن سابق من أقنان الأسياد آل فرسيلوف . أنا اذن ابن شرعي ، رغم أنني ولد غير شرعي الى أقصى حد ، ورغم أن نسبي أمر محقق لا يساور الشك فيه أحدا من الناس . واليكم تفصيل ذلك : منذ اثنين وعشرين عاما زار مالك الأيطان فرسيلوف (وهو أبي) أراضيهِ في مقاطعة تولا . واثني لأفترض أنه كان حتى ذلك الحين انسانا نافها ، وأستغرب كيف أن هذا الانسان الذي خطف بصرى منذ طفولتي الى هذا الحد ، وأثر في تكوين نفسي تأثيرا يبلغ هذا المبلغ من القوة ، وألقى ظله علىّ زمنا لعله طويل ، لا يزال الى اليوم لغزا في نظري من وجوه لا حصر لها . ولكنني سأعود الى هذا الأمر من بعد . ليس سهلا على المرء أن يأخذ بسرد قصة . ومهما يكن من أمر فإن هذا الرجل سيملاً كتابي كله .

كان فرسيلوف في ذلك الحين يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وكان قد فقد زوجته منذ زمن قصير . وكانت زوجته هذه فتاة تنتمي الى المجتمع الراقى ، ولكنها لم تكن على جانب كبير من الثراء ، وكان اسمها فاناريوتوفا ، وقد أنجب منها صييا وبتنا . ان ما أعرفه عن هذه الزوجة التي توفيت في سن مبكرة ناقص كثيرا ، ضائع في ثنايا الأمور التي عرفتُها وجمعتها . هذا الى أن كثيرا من ظروف حياة فرسيلوف تفوتني ، لأنه كان يعاملني دائما في كبر وتعال ، وكان يغلُق نفسه دوني ، وكان يهملني ، رغم ما كان يظهره تجاهي من مذلة تدعو الى الدهشة في بعض الأحيان .

يجب أن أذكر على سبيل العلم بالشيء أنه قد بدد أثناء حياته ثلاث ثروات ، ثروات ضخمة ، يبلغ مجموعها أكثر من ٤٠٠٠٠٠ روبل أو يزيد . وهو لا يملك الآن كوبىكا واحدا بطبيعة الحال .

لقد جاء يومئذ الى أراضيه « لا يدري لماذا الا الله » ؛ أو هذا على الأقل ما ذكره لى بعد ذلك شارحا . ولم يكن طفلاه الصغيران معه ، بل كانا عند أقارب له ، على عادته دائما ، فكذلك كان يفعل بأعقابه طوال حياته ، شرعيين كانوا أو غير شرعيين . وكان فى أملاكه عدد كبير من الخدم ، أحدهم هو البستاني ماكار ايفانوف دولجوروكى . وأضيف هنا ، حتى لا أضطر الى العودة الى هذا فيما بعد ، أنه قلَّ بين الناس من كرهوا اسمهم ولعنوه كما كرهت اسمى ولعنته طوال حياتى . كنت كلما دخلت مدرسة أو التقيت بناس تضطرنى سنى الى الاجابة عن أسئلتهم ، من معلمين أو مربين أو مراقبين أو كهنة أو أى أحد من هذا القبيل ، أسأل عن اسمى ، فاذا عرفوا أن اسمى هو دولجوروكى ، شعروا بالحاجة الى أن يسألونى :

- الأمير دولجوروكى ؟

فأضطر فى كل مرة أن أشرح لجميع هؤلاء الخليلين :

- بل دولجوروكى فحسب .

وانتهت هذه ال « فحسب » الى اتارنى اثاره تبلغ حد الجنون . يجب أن أقول ، من قبيل الاطلاع على هذه الواقعة ، أننى لا أذكر أن أحدا من الناس أغفل أن يطرح على هذا السؤال : صحيح أن بعضهم كان يطرحه دون أى اهتمام (ولست أدري فى الواقع فىم كان يمكن أن يهمهم هذا الأمر) ، ولكنهم كانوا يطرحونه جميعا ، من أولهم الى آخرهم . حتى اذا عرف السائل أن اسمى دولجوروكى فقط رمقنى فى العادة بنظرة حمقاء لا معنى لها ولا مبالاة فيها تدل على أنه كان لا يعرف

هو نفسه لماذا ألقى هذا السؤال ثم انصرف . ولكن الذين كانوا يجرحون شعوري أكثر من سائر الناس انما هم رفاق المدرسة . كيف يسأل تلميذ من التلاميذ رفيقا جديدا ؟ ان التلميذ الجديد ، التائه اللب المضطرب النفس ، فى اليوم الأول من دخوله المدرسة (أية مدرسة) هو فريسة للتلاميذ يتندرون عليه ويضطهدونه ويسومونه سوء العذاب : انهم يتحكمون فيه ، يغيظونه ، يعاملونه كما يعامل خادم . هذا طفل قوى البنية ممتلئ صحة وعافية يقف فجأة أمام ضحيته وجها لوجه ويتفرد فيه بضع لحظات ناظرا اليه نظرة قاسية وقحة ، فيجمد التلميذ الجديد أمامه صامتا ينظر اليه من جانب ، اذا هو لم يكن جباناً ، ويتنظر ما سيقع من أحداث .

- ما اسمك ؟

- دولجوروكى

- الأمير دولجوروكى ؟

- بل دولجوروكى فقط .

- ها . . فقط . . بلاهة !

وانه لعللى حق : فلا شيء أشد بلاهة من أن يسكون اسم المرء دولجوروكى دون أن يكون أميراً . وهذه بلاهة أجزها وراثى دون أن يكون لى فى فى ذلك ذنب . وفيما بعد ، حين أصبحت أغضب من هذا الأمر غضبا شديدا ، صرت أجيب دائما عن سؤال من يسألنى « هل أنت أمير ؟ » بقولى :

- بل أنا ابن خادم كان قنا .

وبعد ذلك أيضا ، حين أهاجنى السؤال فى ذات يوم اهاجة عنيفة ، وجدتنى أجيب عنه بقوة وحزم قائلا :

- بل اسمى دولجوروكى فقط ، وأنا ابن غير شرعى لمولاي السابق

الأمير فرسيلوف .

لقد أحسست حين اهتديت الى هذا الجواب بأننى كنت فصيحاً غاية الفصاحة ، ورغم أننى لم ألبث أن أدركت أن فى هذا الجواب حماقة لا محل لها ، فأننى لم أعدل عنه فوراً . أذكر أن أحد أساتذتى اكتشف - وهو الأستاذ الوحيد الذى اكتشف ذلك - أننى « ممتلىء النفس بمعانى الانتقام والتمرد » . ويمكن أن أقول على وجه العموم ان الناس استقبلوا غضبى هذا بجدٍ لا يخلو من اهانة لى . وقد اتفق أن قال لى أحد رفاقى ، وهو فتى قصير القامة سليط اللسان ، لم أكن أخاطبه الا مرة فى العام ، قال لى وقد لاح فى وجهه تفكير عميق وأشاح بصره عنى قليلاً :

- هذه المشاعر تشرفك طبعاً ، ولا شك فى أن هناك ما يدعوك الى الاعتزاز والفخر ، ولكننى لو كنت فى مكانك لما زهوت كثيراً بكونى ابن زنا . لكأنك من هذا فى عرمى حقاً !

وأصبحت منذ ذلك الحين لا أباهى بأننى ولد غير شرعى .

أعود فأقول ان الكتابة باللغة الروسية أمر شاق جداً : لقد سوّدت حتى الآن ثلاث صفحات من أجل أن أشرح كيف كان استيائى من اسمى طوال حياتى ، ولا شك فى أن القارىء قد خلس من هذا الى اعتقاد صادق ساذج بأن مرد غيظى الى أننى لسست أميراً ، بل دولجوروكى فقط . ولكننى لن أتدنى الى حيث أشرح الأمر وأبرىء نفسى مرة أخرى .

بين ذلك العدد الكبير من الخدم كان هنالك ، عدا ماكار ايفانوف ، فتاة كانت فى نحو الثامنة عشرة من عمرها حين أظهر ماكار دولجوروكى ، فجأة ، وهو فى الخمسين من عمره رغبته فى تزوجها . وأتم تعلمون أن الزواج بين الأقران الخدم فى عهد القنائة انما يتم بموافقة الأسياد ، وربما تم أحيانا بأوامر منهم . وكان يسكن فى المنطقة أيامئذ سيدة يسميها الناس عمه ، والحق أنها لم تكن عمه أحد . لكننى لا أدرى لماذا كان جميع الناس يسمونها عمه ، عمه على وجه العموم ، حتى لدى أسيرة فرسيلوف التى لعلها كانت تربطها بها صلوات قرابة . ان اسمها تاتانيا بافلوفنا بروتكوفنا . وكانت تملك هى أيضاً ، فى ذلك العهد ، فى تلك المنطقة نفسها ، خمسة وثلاثين « نفسا » . وكانت بحكم الجوار تدير أملاك فرسيلوف (٥٠٠ نفس) أو قل تشرف عليها ؛ وكان هذا الاشراف ، فيما قيل لى ، يسارى اشراف أى موظف من الموظفين المتعلمين الذين يملكون خبرة خاصة . على أن معارفها هذه لم تكن تهمنى فى شىء . وانما أريد أن أضيف ، متجنباً كل رغبة فى المديح أو التملق ، أن تاتانيا بافلوفنا هذه كانت مخلوقة نبيلة بل وأصيلة .

لم تعارض هذه السيدة رغبة ماكار دولجوروكى القاتم المزاج (يظهر أن مزاجه كان قاتماً جداً) ، بل شجته أكبر تشجيع . وكانت صوفيا أندريفنا (تملك الخادم التى كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وهى أمى) قد تيمت منذ سنين ؛ وكان أبوها الذى كان يحترم ماكار دولجوروكى احتراماً عظيماً ويضمّر له امتناناً كبيراً لا أدرى ما مصدره ، كان أبوها هذا قناً كذلك ، فلما وافاه المرض قبل ست سنين ، ورقد على

سرير الموت ، بل وقيل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بربع ساعة فيما يدعى بعض الناس ، حتى لقد كان يمكن أن تعد وصيته نتيجة من نتائج الهديان لولا أنه فن لا يملك أن يوصى بشيء ، دعا إليه ماكار دولجوروكى وقال له أمام الناس ويحضور الكاهن ، قال له بصوت عال وهو يومئء بيده الى ابنته : « تشئها واتخذها زوجة لك » . لقد سمع الناس جميعا هذا الكلام . أما ماكار ايفانوف دولجوروكى فتنى لا أدري ما هى العواطف التى حملته على الزواج : أهو تزوج راغبا فى هذا الزواج مبتهجا به ابتهاجا كبيرا ، أم هو تزوج قيما بواجب ووفاء بمهد ؟ أغلب الظن على كل حال أنه أقبل على هذا الزواج بمظهر من لا يبالي الأمر ولا يكثر به . لقد كان رجلا يعرف منذ ذلك الحين كيف يصطنع المظهر الذى يجب أن يظهر به . وهو على عدم درايته العميقة بالكتب المقدسة وعلى جهله القراءة والكتابة (ولكنه كان يحفظ الصلوات على ظهر القلب ، ويعرف خاصة تاريخ حياة بعض القديسين ، عن طريق السماع) ، كان ذا طبع حازم ، بل كان فى بعض الأحيان على جانب من جرأة ومجازفة . كان بطيء الكلام ، قاطع الأحكام ، وكان يعيش حياة كريمة فاضلة على حد تعبيره الغريب . كذلك كان هذا الرجل فى تلك الأيام . وكان طبيعيا أن يتمتع باحترام الناس كافة ، ولكن يقال ان الناس كانوا فى بعض الأحيان يستقلون ظله ولا يطبقونه . غير أن كل شيء قد تغير حين ترك المنزل : فلم يتحدث عنه أحد بعد ذلك الا حديثه عن قديس أو شهيد . ذلك كله أعرفه من مصدر مطلع .

أما أمى فقد احتفظت بها تاتانيا بافلوفنا قريبة منها حتى السنة الثامنة عشرة من عمرها رغم ارادة الخطيب الذى كان يريد أن يعلمها بموسكو ، فثقتها بعض الشيء ، علمتها الحياطة والتفصيل وآداب الحياة الاجتماعية بل علمتها القراءة قليلا . أما الكتابة فلم تتوصل أمى الى اجادتها يوما . وكان هذا الزواج بماكار ايفانوف أمرا مقررا فى نظرها

منذ زمن بعيد ، وكل ما وقع لها عندئذ قد بدا لها رائعا وقيدت الى المبدع طائعة مختارة ، يبدو على وجهها أكبر هدوء يمكن أن يظهر على وجه فتاة في حالة كهذه ، حتى ان تاتانيا بافلوفنا قد وصفتها حينذاك بأنها أشبه بسمكة . ان تاتانيا بافلوفنا هذه هي التي أطلعتني على ما يتعلق بطبع أمي في ذلك العهد . وقد وصل فرسيلوف الى أراضيها بعد هذا الزواج بستة أشهر تماما .

ولا أستطيع أن أحزر على نحو يرضيني كيف بدأت الأمور بينه وبين أمي . واني لأميل الى تصديق ما أكده لي هو نفسه في العام الماضي محمرا الوجه ، رغم أنه روى لي القصة كلها مسترسلا منطلقا « مرحا » ، فقال ان الأمر لم يكن حكاية طويلة ، وان كل شيء قد جرى من تلقاء نفسه « هكذا » . . . أعتقد أن ذلك صحيح ، وأن كلمة « هكذا » هذه كلمة موفقة رائعة . ورغم كل شيء فقد ظلت دائما شديد الرغبة في أن أعرف كيف بدأ هذا الأمر . لقد كنت دائما وما أزال أحتقر هذه الأشياء القذرة . وطبعي أن ما يؤجج في نفسي هذه الرغبة ليس من نوع الفضول السخيف . يجب أن أذكر لكم أنني حتى السنة الماضية لم أكن قد عرفت أمي ان صح التعبير ، فقد عهد بي الى غرباء منذ نعومة أظفاري ، من حرص فرسيلوف على تمتعه بالراحة وخلو البال (سأتكلم عن هذا فيما بعد) ، ولذلك لا أستطيع أن أتصور كيف كان وجهها أيامذاك . ترى اذا لم تكن جميلة ، فما الذي عساه أغرى بها رجلا مثل فرسيلوف ؟ تلك مسألة تهمني ، لأن الناس يرسمون لهذا الرجل هنا صورة غريبة بكل الغرابة . ومن أجل هذا تراني ألقى ذلك السؤال ، فأنا لا ألقيه من قبيل فساد الخلق وفضول الطبع . لقد قال لي هو نفسه ، هذا الرجل القاتم المزاج المغلق النفس ، قال لي بتلك السذاجة المحيية التي لا أدرى من أين كان يخرجها (كمن يخرج مندبلا من جيبه) اذا أراد أن يخرجها ، قال لي انه كان في تلك الأيام « كلبا صغيرا أبله » ، وانه دون

أن يكون من أولئك الناس العاطفين الحالمين كان قد قرأ منذ قليل قصة « انطوان الضحية » وقصة « بولين ساكس » ، وهما كتابان أدبيان أثرا في الجيل الجديد تأثيرا حضاريا لا يقدر مداه . وأضاف أنه لعله قد عاد الى الريف مدفوعا بتأثير « انطوان الضحية » ، قال ذلك جادا أكبر الجد . فلى أية صورة استطاع هذا « الكلب الصغير الأبله » أن ينشئ علاقة بينه وبين أمى ؟ يخطر ببالي فى هذه اللظة أنه لو كان هناك قارىء يقرأ هذا الكلام الذى أكتبه لانفجر يضحك على حتما ، ولعدتني مرافقا مضحكا لا يزال يحتفظ ببراءته الغبية ويطمع فى فهم أمور لا يفهم منها شيئا البتة ! وهذا صحيح ، فانى مازلت لا أفهم من هذه الأمور شيئا ، وأنا أعترف بذلك بلا فخر ولا اعتزاز ، لأننى أعرف أن فقدان التجربة هذا أمر ضعيف لدى شاب فى الحادية والعشرين من عمره ، ولكننى سأقول لذلك السيد القارىء انه هو أيضا لا يفهم فى هذه الأمور شيئا ، وسأبرهن له على ذلك . صحيح أننى لا أعرف من شئون النساء شيئا ، ولا أريد أن أعرف شيئا أيضا ، وسأظل استخف بهذا ما حييت ، فقد آلت على نفسى أن لا أحفل به ، ولكننى أعرف مع ذلك أنه رب امرأة تفتتك بجمالها أو بما لا أدرى ، فى طرفة عين ؛ و رب امرأة أخرى لا بد لك من ستة أشهر حتى تعرف مصدر السحر وأن ترى هذا السحر . فهذه المرأة الثانية ، اذا أردت أن تراها كاملة وأن تحبها لا يكفى أن تنظر إليها ، ولا يكفى أن تكون جريئا ، وانما ينبغى لك شيء آخر . اتنى من ذلك على يقين رغم أننى لا أعرف شيئا ، والا كان يجب أن تنزل جميع النساء الى منزلة الحيوانات الداجنة وأن لا نحتفظ بها لدينا الا على هذه الصورة . ولعل هذا ما يتمناه كثير من الناس .

وأنا أعلم من عدة مصادر أن أمى لم تكن على حظ كبير من الجمال ، رغم أننى لم أر صورتها التى ترجع الى ذلك العهد يوما ، وهى صورة موجودة فى مكان ما . فمن المستحيل اذن أن يقتن المرء بها من أول

نظرة . ولقد كان في وسع فرسيلوف لو أراد « التسلية » وحدها أن يختار امرأة أخرى ، وكان هنالك امرأة أخرى فعلا ، بل فتاة عذراء هي آنفيزا كونستانتينونا سابويكوكوفا ، التي كانت تعمل وصيفة في المنزل . أضف الى ذلك أن رجلا يصل الى هنالك قارئا « أنطوان جورميكا » كان لابد أن يرى ، بحكم قوانين الأسياد ، أن محاولته اغراء امرأة هي زوج قن من أقفانه شيء معيب . انه منذ أقل من شهر ، أى بعد عشرين عاما انقضت على ذلك العهد ، كان لا يزال يتحدث عن أنطوان المسكين حديثا يبلغ غاية الجذ ، مع أن ما سلب من أنطوان كان حصانه لا زوجته . فلا بد أنه قد حدث اذن يومئذ شيء جعل الأنسة سابويكوكوفا تخسر القضية (وأنا أعتقد انها ربحتها) . لقد أتبع لي مرة أو مرتين ، في السنة الماضية (ولم يكن في الامكان التحدث اليه كل يوم) أن ألفت عليه هذه الأسئلة جميعها ، فلاحظت أنه رغم لباقة كلها ، ورغم انقضاء عشرين سنة على ذلك العهد ، لم يكن يجيب الا بعد رجاء كثير . ولكنني وصلت الى غاياتي ؛ أو قل ، على الأقل ، انه بفضل ذلك الاسترسال والانطلاق الذي كان يبيحه لنفسه في كثير من الأحيان ، قد ثرثر يوما في أمور غريبة . فقال ان أمي كانت من تلك النساء التي لا تعرف كيف تدافع عن نفسها ، ولا يمكن للمرء أن يجيبها ، ولكنها ما تلبث على حين فجأة أن يشعر المرء نحوها بشفقة ، لا أدري لماذا ، أسبب عنوبتها أم بسبب شيء آخر ! لا أدري ! ولكن الشفقة تدوم وتبقى ، وبهذه الشفقة يتحقق ارتباط .. « وأوجز لك الكلام يا صغيري فأقول انه ليتفق للمرء أن يصح عاجزا عن الانفصال . . . ذلك ما قاله لي . فاذا كانت الأمور قد جرت على هذا النحو فعلا ، كنت مضطرا أن أرى فيه امرأة آخر مختلفا كل الاختلاف عن « كلب صغير غبي » ، كما وصف نفسه بهذا في ذلك الوقت .

وقد أكد لي بعد ذلك أن أمي أحبته عن « مذلة » حتى لقد أوشك

أن يقول انها أحبته عن « اطاعة كاطاعة العيد » ! ولقد كذب ! كذب من قبيل التأنيق ، كذب على ضميره ، كذب على الشرف وعلى كرم النفس وسماحة الخلق .

رب قائل يقول اننى أكتب هذا على سبيل ازجاء المديح لامي ، ولكننى سبق أن أعلنت اننى أجهل جهلا مطلقا كيف كانت أمى فى ذلك الوقت . وأكثر من ذلك أننى أعلم حق العلم ظلام البيئة وسخافة الافكار التى تعفت فيها منذ طفولتها وعاشت وسطها طوال حياتها . وقد وقع البلاء على كل حال . يجب أن أبادر ، فى هذه المناسبة ، الى بعض التصحيح : لقد تهت بين السحب ونسيت أمرا كان ينبغى فى الواقع أن أبرزه قبل أى شىء آخر : وهو أن الأمور بينهما قد بدأت بوقوع البلاء راسا (أرجو أن لا يتظاهر القارىء بأنه لا يفهم على الفور ما أريد أن أقوله) . أعنى أن البداية كانت بداية سيد من الأسياد ، ولو أن الأنسة سابويكوف قد تركت جانبا ولم تمس بسوء . ويجب أن أتدخل هنا فأعلن أن كلامى هذا لا يناقض ما سلف . فى أى شىء ، يارب ، كان يمكن أن يتحدث رجل مثل فرسيلوف الى امرأة كأمى حتى ولو كان الأمر أمر حب لا سبيل الى مقاومته ؟ لقد سمعت رجلا فاسقين يقولون انه ليتفق فى كثير من الأحيان لرجل يواجه امرأة أن يبدأ الفعل بدون أن يقول كلمة واحدة ، وواضح أن هذا منتهى الشذوذ ، وأنه يثير أقصى الاشمئزاز . وعندى مع ذلك أن فرسيلوف ما كان له أن يبدأ غير هذه البداية مع أمى ولو أراد . أكان يستطيع أن يبدأ بأن يشرح لها « بولين ساكس » ؟ ولقد كان الأدب الروسى أيسر الأمور شأنا عندهما ، على حد تعبيره هو (حين كشف عن نفسه أمامى ذات يوم) . لقد كانا يختبئان فى الزوايا والأركان ، ويتربص أحدهما بالآخر على السلم ، حتى اذا مر بهما أحد وثبا بعيدا كوثوب كرتين ، وقد احمر خجلا ؛ وكان « الطاغى » يرتجف ويرتعش أمام أية كناسة تكس الأرض ، رغم ما له من حقوق

الاقطاعى . واذا كانت الأمور قد بدأت على نحو ما يبدوها الأسياد ، فقد استمرت على هذا النحو ، ولكنها لم تبق كذلك تماما ؛ والحق أنه ليس لهذا تفسيرات يجب البحث عنها ، فأمثال هذه التفسيرات لا يمكن إلا أن تزيد الظلمات كثافة . ان الأبعاد التي بلغها جبهما هي في حد ذاتها لغز ، لأن الشرط الأول لدى أناس مثل فرسيلوف هو أن يدعوا كل شيء حيث هو ، متى حققوا هدفهم وقضوا وطهرهم . لكن الأمور تمت على غير هذا النحو . فلأن يزنى امرؤ بامرأة جميلة ناقصة العقل من الاقنان (ولم تكن أمى ناقصة العقل على كل حال) فذلك أمر هو في نظر « كلب صغير ، فاسق (ولقد كانوا جميعا فاسقين ، من أولهم الى آخرهم ، تقدميين ورجعيين على السواء) فذلك أمر ليس ممكنا فحسب ، بل هو لا مناص منه أيضا ؛ لاسيما اذا تذكرتم وضع أبى من حيث أنه ترمل شابا ومن حيث أنه عاطل لا يعمل شيئا . أما استمرار الحب مدى الحياة فأمر خارق . ولست أضمن أنه أحبها على كل حال ، ولكننى أعلم واقعة ثابتة هي أنه جرها وراه طوال حياته .

لقد أقيت أسئلة كثيرة ، الا أن بين هذه الأسئلة سؤالا هو أهمها جميعا ، لم أجرؤ أن أطرحه على أمى طرحا قاطعا ، رغم أنني تقربت إليها كثيرا فى السنة الماضية ، ورغم أنني بفظاظتى وعقوفى وشعورى بأننى مجنى علىّ لم أخرج معها قط . ذلكم السؤال هو كيف أمكنها ، هى المتزوجة منذ ستة أشهر ، هى التى تسحقها معانى قداسة الزواج سحق ذبابة ، كيف أمكنها ، بعد مالا يزيد على خمسة عشر يوما ، أن تسقط فى خطيئة كهذه الخطيئة ؟ ثم انها لم تكن امرأة منحرفة عن الصراط ، بالعكس ، حتى ليمكننى ان أقول ، مستبقا الأمور ، ان من الصعب على المرء أن يتصور نفسا ظلت طاهرة مدى الحياة كنفسها . فليس هناك من تفسير اذن الا أن نقول انها فعلت ما فعلته على غير وعى منها ولا شعور ، لا بالمعنى الذى يستعمله الحمامون فى هذه الأيام حين يصفون بذلك

موكلهم من القتل والصوص ، بل بالمعنى الذى يصدق على انفصال من تلك الانفعالات العارمة التى تعصف بضحية ساذجة فندنيها من الفاجعة .
ومن يدري مع ذلك : لعلها أحبت حبا شديدا تفصيله ملايسه وفرقة شعره على طريقة أهل باريس ، أو نطقه الفرنسى (نعم ، الفرنسى) الذى لم تكن تفهم منه شيئا ، أو العاطفى الذى عزفه على البيانو ! لقد أحبته فيه شيئا لم تر مثله فى حياتها (وكان رجلا بارع الجمال) ، ثم أحبته كله الى حد التهالك والسقوط ! .. لقد سمعت من يقول ان هذا كان يقع أحيانا للفتيات من الاقنان فى عهد القنائة ، بل كان يقع مثله لأكثرهن تمسكا بأهداب الشرف . وانى لأفهم ذلك . وعندى ان من الخطأ أن نرده الى العبودية و « المذلة » و«أغلب الظن اذن أن هذا الرجل كان يملك من القوة ومن الاغراء ما يكفى لاجتذاب مخلوقة كانت حتى ذلك الحين بريئة تلك البرائة كلها ، وكانت على وجه الخصوص غريبة تلك الغرابة كلها عن طبيعته ، آتية من عالم يختلف عن عالمه كل الاختلاف ، ومن أرض تختلف عن أرضه كل الاختلاف ، فسارت الى هوة واضحة لا ريب فيها . أما أن السير كان الى هوة فأحسب أن أمى قد فهمت ذلك ، لكنها كانت وهى تمضى نحو الهوة لا تفكر .

ان هذه المخلوقات التى لا تملك قوة الدفاع عن نفسها متسابقة متماثلة : تعرف أن الهوة تنتظرها هناك ، ثم هى تجرى اليها لا تلوى على شىء .

وما ان ارتكبا الخطيئة حتى استبدت بهما الندامة . وقد روى لى أبى متندرا كيف أنه أجهش يبكى على كنف ماكار ايفانوفتش حين دعاه الى غرفته خصيصا لهذا الأمر ، بينما كانت هى فى ذلك الوقت ... راقدة فى مكان ما ، مفشيا عليها فى حجرتها الصغيرة ، حجرة الخادم القرن .

ولكن حسبى كلاما على هذه المسائل وعلى هذه التفاصيل الفاضحة •
لقد اشترى فرسيلوف أمى من ماكار ايفانوف ، وأسرع ماضيا بها ،
مصطحبا اياها منذ ذلك الحين ، كما قلت من قبل ، الى كل مكان تقريبا ،
الا اذا غاب غيبة طويلة ؛ فكان عندئذ يعهد بها فى أكثر الأحيان الى
عمته ، أى الى تاتيانا بافلوفنا بروتكوفنا التى لا تُفتقد قط فى مناسبات
كهذه المناسبات • لقد أقاما مددا فى موسكو ، وأقاما مددا فى مقاطعات
أخرى أو فى مدن أخرى ، بل أقاما مددا فى خارج روسيا أيضا ، ثم
أقاما أخيرا فى بطرسبرج • وسأتحدث عن هذا فيما بعد ، أو قد لا أتحدث
عنه البتة ، ولكننى أقول اننى ولدت بعد زواج ماكار ايفانوفتش بسنة ؛
وبعد سنة أخرى ولدت أختى ؛ وبعد عشر سنين أو احدى عشرة سنة ولد
أخى الأصغر وهو صبى ممرض مات بعد بضعة أشهر • وكان من شأن
هذه الولادات الأليمة أن فقدت أمى جمالها ، أو هذا ما قيل لى على
الأقل : لقد بدأ الهرم والضعف يدبان اليها سريعين •

ولكن العلاقات بماكار ايفانوفتش لم تنقطع يوما • فحيثما يحل
فرسيلوف ، سواء أقام عدة سنين متتالية فى مكان واحد أم سافر متنقلا
من مكان الى مكان ، فان ماكار ايفانوفتش كان لا يقوته أن يكتب الى
« الأسرة » يبلغها أنباءه • وهكذا نشأت علاقات غريبة يختلط فيها شىء من
التكلف بشىء من الجذ • وانى لأعلم أنه لو كان الامر بين أسبياد
لمازج ذلك حتما عنصر كوميدى • ولكن لم يحدث شىء من ذلك فى
الحالة التى نحن بصدد الكلام عليها • كانت الرسائل تصل مرتين فى
العام ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ؛ ومن الغريب أنها كانت متشابهة تشابها

عجيباً . لقد أتبع لى أن أرى هذه الرسائل ، فوجدت أنها لا تكاد
تتضمن على شىء شخصى ، ولا تكاد تضم الا أخبارا عن أحداث عامة جدا
وعواطف عامة جدا ، ان صح أن توصف العواطف بمثل هذا : كانت
تلك الرسائل تتضمن أنباء عن صحة مرسلها وأسئلة عن صحة الأشخاص
المرسلة اليهم ، وتحتوى على تمنيات وتحيات وتبريكات مهذبة ، ثم
لا شىء عدا ذلك البتة . . . وأعقد هذا الاقتصار على الأمور العامة ، وهذا
الابتعاد عن الشؤون الشخصية هى فى تلك البيئة لهجتها اللبقة وآدابها
الاجتماعية : « الى زوجتنا العزيزة المحترمة صوفيا أندريفنا ، نبعث بأخلص
تحياتنا المتواضعة » . . . « الى أولادنا الأعززة أعبراً عن رضاي ومباركتي
التي لن يفسدها الدهر . » + ثم يعقب ذلك ذكر أسماء الأولاد على ترتيب
أعمارهم وأنا منهم . ويجب أن أشير هنا الى أن ماكار ايفانوفتش كان
يملك من حصافة الرأى ما يكفى لأن لا ينبعث « صاحب النبالة السيد
المحترم آندره بتروفتش » بصفة « المحسن اليه » ، ولكنه كان لا يغل
فى أية رسالة من رسائله أن يبعث اليه بخالص تحياته المتواضعة وأن
يسأله الرضى عنه ، وأن يطلب له من الله دوام نعمته عليه . وكانت أمى
تسارع الى الرد على رسائله ، وتكتبها دائما بأسلوب واحد لا يتغير ،
وكان فرسيلوف لا يشارك فى هذه المراسلة + وكان ماكار ايفانوفتش
يبعث برسائله من جميع أركان روسيا ، من المدن التي يكون فيها ، ومن
الأديرة التي يقيم بها زمنا طويلا فى بعض الأحيان . لقد أصبح ماكار
ايفانوفتش جواً يضر في الأرض ولا يستقر في مكان . وكان لا يطلب
فى يوم من الأيام شيئاً البتة . لكنه كان يجيء الى البيت ثلاث مرات فى
السنة بلا تخلف ، فيتلبث قليلا عند أمى التي كان لها منزل خاص بها
دائماً ، مستقل عن منزل فرسيلوف . سوف أعود الى الكلام على هذا
الأمر فيما بعد . وحسبى أن أذكر الآن أن ماكار ايفانوفتش لم يكن
يسترخى على مقاعد الصالون الوثيرة ، بل كان يجلس فى مكان ما وراء

حاجز من الحواجز متواضعا • وكان لا يمكث مدة طويلة : فما هي
الا خمسة أيام أو أسبوع حتى يرحل •

نسيت أن أقول انه كان يحب كثيرا ويحترم كثيرا اسمه ،
دولجوروكى • ومن الواضح أن هذا منه سخف مضحك • وأسخف
ما فى الأمر أن هذا الاسم انما يعجبه ويرضيه لأن هناك أمراء يسمون
دولجوروكى • ألا ما أعجبه من تصور هو نقيض ما يوحى به الحسن
السليم !

قلت ان الأسرة كانت مجتمعة الشمل دائما ، ولكن بدونى طبعاً •
كنت كمن رمى خارج السفينة ، فما كدت أولد حتى عهد بى الى غرباء •
ولم يكن ذلك مقصودا متعمدا ، فحين ولدتنى أمى كانت لا تزال شابة
جميلة ، وكانت اذن تنفع فرسيلوف نفعا ما ، ولا بد أن يزعجه أن
يصحبها طفل صغير كثير الصراخ ، وخاصة أثناء الأسفار • فذلكم هو
السبب فى أننى بلغت من عمرى العام العشرين دون أن أرى أمى تقريبا ،
فيما عدا مناسبتين أو ثلاث مناسبات عارضة • ولم تكن عواطف أمى هى
السبب فى ذلك ، وانما كان السبب فى ذلك تكبر أبى على الناس •

والآن هنالك شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف •

منذ شهر ، أى قبل اليوم التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) ، قررت وأنا فى موسكو أن أعدل عنهم جميعا وأن أنطوى على « فكرتى » انطواء نهائيا • واذا كنت أكتب هذه العبارة « أن أنطوى على فكرتى انطواء نهائيا » فلأن هذا التعبير يمكن أن يصور كامل رأى الأساسى تقريبا • أما ما هى هذه الفكرة فسوف أتحدث عنها فيما يلى من صفحات هذا الكتاب ، بل سوف أسهب فى الحديث عنها • لقد تكونت فكرتى هذه أثناء وحدتى الحاملة سنين طويلة من حياتى بموسكو منذ أيام الدراسة ، ثم لم تتركنى بعد ذلك لحظة واحدة ، بل ابتلعت وجودى كله ابتلاعا • ولقد كنت أعيش فى الأحلام أيضا قبل أن تنبت هذه الفكرة فى نفسى ، فانتى قد عشت فى عالم مسحور آخر ، منذ طفولتى الفضة ، غير أن أحلامي ، حين بزغت فى نفسى هذه الفكرة الأساسية التى التهمتني التهاما ، قد اشتدت وترسخت واكنست على الفور صورة محددة ، فإذا هى أحلام عاقلة بعد أن كانت أحلاما سخيفة • ان المدرسة الثانوية التى تابعت فيها دراستى لم تكن تمنع أحلامي ، ولا هى منعت بعد ذلك فكرتى • ولكننى أحب أن أضيف الى ذلك أن السنة الأخيرة التى قضيتها فى المدرسة كانت سنة سيئة ، على أننى كنت خلال سائر السنين الأولى متفوقا أحتل بين رفاقى أولى الصفوف ؛ وذلك يرجع الى فكرتى تلك نفسها ، والى النتيجة التى استخرجتها منها والتى لعلها كانت خطأ • وهكذا فان المدرسة لم تعرقل الفكرة ، غير أن الفكرة عرقلت المدرسة • وقد عرقلت الجامعة أيضا • ذلك أننى منذ أنهيت دراستى الثانوية عزمت

أمرى لا على هجر أهلى هجرا حاسما فحسب ، بل كذلك على هجر العالم كله اذا اقتضى الأمر ، رغم أنى كنت ما أزال فى العشرين من عمرى • فكتبت الى من يجب على أن أكتب اليهم ، ومن يحق لى أن أكتب اليهم بطرسبرج ، طالبا أن يدعونى وشأنى نهائيا ، وأن لا يرسلوا الى بعد الآن مالا لمعيشتى ، وأن ينسونى نسيانا كاملا اذا أمكن الأمر (هذا اذا خطرت ببالهم طبعاً) ، وقائلا انى لن أدخل الجامعة قطعا بحال من الأحوال • ذلك أنى كتبت أمام أمرين لا ثالث لهما ، ولا بد أن أختار أحدهما : فاما أن أدخل الجامعة فأرجىء الشروع فى تنفيذ فكرتى أربع سنين واما أن لا أدخل الجامعة • وقد اخترت الثانية بغير تردد ، لأنى كنت مقتنعا بذلك اقتناعا رياضيا • وجاءنى رد فرسيلوف ، أبى الذى رأيت طوال حياتى مرة واحدة خلال لحظة قصيرة (والذى اتسع وقته فى تلك اللحظة لأن يذهلى) أقول جاءنى رد فرسيلوف على رسالتى التى لم أوجهها اليه على كل حال ، يدعونى ، ببطاقة كتبها بخط يده ، أن أجيء الى بطرسبرج ؛ ويعدنى بوظيفة لدى « شخص » • ان هذه الدعوة التى تصلنى من رجل جاق المزاج متكبر الطبع صلف الخلق ، من رجل أهملنى هذا الاهمال كله ، ولم يكتف ، بعد أن جاء بى الى هذه الحياة وغهد بى الى غرباء ، بأن لا يعرفنى بعد ذلك ؟ بل لم يشعر أيضا بشيء من ندامة على ما جنت يده (ومن يدرى فلعله كان خالى البال الا من فكرة غامضة عن وجودى ، لأنه ، وقد ثبت هذا بعدئذ ، لم يكن هو الذى ينفق على معيشتى بموسكو ، بل كان يتولى ذلك آخرون) ؛ أقول ان هذه الدعوة التى تصلنى من هذا الرجل الذى تذكّرنى على حين فجأة وشرفنى بتوجيه رسالة الى كتبها بط يده ، قد دغدغت غرورى فحددت مصيرى • هناك شيء غريب : ان ما أعجبنى فى هذه البطاقة ، بين ما أعجبنى فيها (وكانت صفحة قصيرة على ورقة صغيرة) هو أنه لم يذكر الجامعة بكلمة واحدة ، ولم يسألنى أن أعير رأبى ، ولا أخذ على أنى

لا أريد أن أتابع دراستي ، أي أنه لم يعمد الى شيء من ذلك الكلام الكثير الذي ألف الآباء أن يزجوه لأبنائهم معاداً مكروراً في مثل هذه الحالات . ومع ذلك فإن هذا بعينه هو ما كان سيئاً منه ، لأنه شاهد جديد على أنه لا يحفل بي ولا يكثرث بأمرى . وقررت أن أسافر لسبب آخر أيضاً ، هو أن هذا السفر لن يعوق حلمي الأساسي . قلت لنفسي : «سرى ما يحدث . ولن أرتبط بهم الا زمناً على كل حال ، زمناً قد يكون قصيراً جداً . فمتى لاحظت أن هذه الخطوة ، على تفاهتها ، ستصرفني عن الأمر الأساسي ، قطعت صلتي بهم فوراً ، وتركت كل شيء عائداً الى قوقتي ، نعم الى قوقتي ، ولطوت هنالك كسلحفاة . . . » ووقع هذا التشبيه في نفسي موقع الاعجاب الشديد . « ولن أكون وحيداً » ، كذلك استمرت أجرى حساباتي راکضاً من أقصى موسكو الى أقصىها في تلك الأيام الأخيرة . « لا لن أكون وحيداً ، كما كنت كذلك حتى الآن خلال هذه الأعوام الرهية كلها : بل ستصحبني فكرتي التي لن أخونها يوماً ، ولو أعجبوني جميعاً هنالك ، ولو وهبوا لي السعادة ، ولو عشت معهم عشر سنين ! » وأستبق الأمور فأقول : هذا هو الشعور الذي خالط نفسي وهذا هو ازدواج الخطط الذي نشأ في ذهني وأنا بموسكو ثم لم يبارحاني لحظة واحدة ببطرسبرج (لا أدري هل مرّ بي ، وأنا في بطرسبرج ، يوم واحد لم أحدد لنفسي فيه أجل قطيعتي معهم ومفادرتي ببطرسبرج) . وأعتقد أن هذا الازدواج كان هو السبب فيما اندفعت اليه من تهور أثناء تلك السنة ، وفيما قارفت من أمور بشعة ، بل فيما انحدرت اليه من صفار ، ناهيك طبعاً عما ارتكبت من حماقات .

لقد ظهر في حياتي على حين غرة أبٌ لم يكن يوجد قبل ذلك . وأسكرتني هذه الفكرة أثناء استعدادي للسفر بموسكو ، وأثناء ركوب القطار الى بطرسبرج . أن يكون لي أب فذلك لم يكن الى ذلك الحين شيئاً ، وما أنا ممن يحبون الحنان والدلال : ولكن هذا الرجل لم يشأ أن

يعرفنى ، حتى لقد أذلتنى ؛ على حين أتى كنت طوال تلك الأعوام كلها لا تصرف أحلامي الا اليه ، حتى لأبلغ من ذلك حد الشبع (اذا صح ان توصف الأحلام بمثل هذا) . كان كل حلم من أحلامي منذ طفولتى ينتجه اليه ويحوم حوله ويرتد آخر الأمر نحوه . لا أدري أكنت أكرهه أم كنت أحبه ، ولكنه كان يملأ مستقبلى كله ، وكان يملأ جميع تنبؤاتى عن الحياة ، وقد جاءنى هذا الشيء من تلقاء نفسه ، وكان يقوى مع تقدمى فى السن يوماً بعد يوم .

وهناك ظرف قوى كان له أيضاً أثر كبير فى سفرى من موسكو . ان ثمة اغراء كان قد قام فى نفسى قبل سفرى بثلاثة أشهر (ومعنى هذا قبل أن ترد مسألة السفر الى بطرسبرج) ، فارتعش له قلبى وخفق ! ان ما كان يجذبنى الى ذلك الحضم المجهول هو أتى كنت أستطيع أن أدخل اليه سيداً ، وأن أحكم فيه مصير غيرى . وأى غير ! غير أن عواطف نبيلة لا مشاعر طاغية هى التى كانت تغلى فى نفسى . وأبادر فأقول سلفاً ، حتى لا يوقع كلامى القارىء فى الخطأ ، ان فرسيلوف كان يمكن أن يقدر (اذا هو رضى أن يفكر فى أمرى) أن يستقبلنى استقبال فتى صغير خرج أمس من المدرسة الثانوية ، استقبال مراهق غر تحملق عيناه حين يرى النور . ولكننى كنت أعلم كل ما فى جوفه ، وكنت أملك فى عيى وثيقة خطيرة كل الخطورة ، وثيقة لا يتردد أن يهب عدة سنين من عمره (وأنا أعلم الآن ذلك علم اليقين) فى سبيل أن أطلعه على سرها . على أتى الأخطأتنى أتكلم فى أفاض وأحجيات . ان من المستحيل على المرء أن يصف عواطف دون أن يذكر وقائع . وسوف يجرى الحديث عن كل هذا تفصيلاً فى حينه ، ومن أجل ذلك انما أمسكت بالقلم . لأن يكتب المرء بهذه الطريقة ، فكأنه يهذى أو كأنه يسبح فى الغيوم .

من أجل أن أصل أخيراً الى اليوم التاسع عشر من شهر ايلول
 (سبتمبر) سأذكر ، موجزاً وعابراً ، أنني قد وجدتهم جميعاً ، أعني
 فرسيلوف ، وأمى ، وأختى (التى أراها أول مرة فى حياتى) على حالة
 أليمة من الفاقة والعوز ، فهم يعيشون فيما يشبه البؤس أو هم يوشكون
 أن يصبحوا على البؤس فى غد قريب . كنت قد عرفت ذلك بموسكو ،
 ولكننى لم افترض أن يكونوا قد بلغوا من الفقر هذا المبلغ . لقد تعودت
 منذ طفولتى أن أتصور هذا الرجل (أعني أبى فى المستقبل) عظيم
 المهابة كأنه هالة للألاءة ؛ ولم أكن أستطيع أن أتخيله الا محتلاً أولى
 المراكز بين الناس . ان فرسيلوف لم يسكن يوماً مع أمى ، فكان يستأجر
 لها منزلاً خاصاً : ولا ريب فى أنه كان يفعل هذا ترفهاً واحتشاماً . أما
 الآن فهم يقيمون جميعاً فى منزل واحد هو جناح خشبى فى شارع صغير
 من حى سيمينوفسكى . وكان أثاث المنزل كله قد رُهن ، حتى لقد
 اضطرت أن أعطى أمى على غير علم فرسيلوف ، الروبلات الستين
 العجيبة التى كانت معى : أقول عجيبة لأنها حصيلة ما كترته من مصروفى
 الذى كنت أعطاه خمس روبلات فى الشهر على مدى سنتين : ولقد بدأت
 أكنز هذا الكنز منذ بزغت « فكرتى » فى رأسى . لذلك كان فرسيلوف
 لا يعرف شيئاً عن هذا المبلغ .

ولم تكن هذه المساعدة التى قدمتها لأمى الا قطرة فى خضم .
 لقد كانت أمى وأختى تقومان بأعمال خياطة . أما فرسيلوف فكان يعيش
 عاطلاً ، كثير النزوات ، ولا يزال يحتفظ بطائفة كبيرة من عادات تقضى
 نقفات باهظة . كان صعب المراس كثير المطالب ، ولاسيما على المائدة ،

وكانت جميع حركاته وسكناته تدل على أنه امرؤ طاغية . ولكن أمي وأختي وتاتيانا بافلوفنا وجميع أفراد أسرة المرحوم أندرونيكوف (وهو مدير مكتب في إحدى الدوائر توفي منذ ثلاثة أشهر وكان يعالج أمور فرسيلوف) وهم عدد لا نهاية له من النساء ، كان هؤلاء جميعاً يركعون أمامه ركوعهم أمام تمثال معبود . كنت لا أستطيع أن أتصور منظراً كهذا المنظر . يجب أن أقول أنه كان منذ تسع سنين أرق حاشية وأشد فتنة . لقد سبق أن قلت أنه كان يبدو لي في أحلامي حالة للألاء ، لذلك صعب عليّ أن أعتقد أن يكون الهرم والبلى قد دبا إليه في مدى سنين تسع لا أكثر ، فسرعان ما شعرت من ذلك بحزن وشفقة وخجل . حتى أن رؤيتي إياه أول وصولي قد احدثت في نفسي شعوراً كان من أقسى ما أحسست به من عواطف في ذلك اليوم . انه لم يكن شيخاً ، فهو لا يزال في الخامسة والأربعين لم يتجاوزها . وحين أنعمت النظر فيه اكتشفت في جماله شيئاً يخطف البصر أكثر من كل ما احتفظت به ذاكرتي من ملامح جماله . صحيح أنه أصبح أقل تألقاً ، وأبسط مظهراً ، وأدنى أناقة ، ولكن الحياة قد نقشت على وجهه ما فيها من تعقد ، فأضفت عليه معاني جديدة .

ومع ذلك كان الفقر أيسر هموم فرسيلوف قاطبة . لقد عرفت هذا حق المعرفة . كان هنالك ، عدا الفقر ، أشياء أعظم شأنًا وأكثر جدًّا ، ناهيك عن الأمل الذي لا يزال يحتفظ به ، وهو أن يكسب الدعوى التي أقيمت منذ عام ، والتي سيفصل فيها القضاء بينه وبين الأمراء سوكولسكي بشأن ميراثه ، والتي قد تهيئه بعد زمن قصير بأمالك يقدر ثمنها بسبعين ألف روبل ، وربما قدّر بأكثر من ذلك .

سبق أن قلت ان فرسيلوف هذا كان قد أتلّف في حياته ثلاثة مواريث : فلعله سيُنقذ مرة أخرى بميراث جديد ! والمفروض أن يتم الفصل في القضية وصدور الحكم قريباً جداً . وقد وصلت اليهم وهم

على هذا الأمل يحيون • غير أن أحداً لا يقرض مالاً بالاستناد الى أمل ، فلم يكن هنالك من يستطيعون الاقتراض منه ، فكانوا يعانون من العذاب ما يعانون بانتظار أن يأتي الفرج •

على أن فرسيلوف لم يكن يذهب الى أحد يلتمس منه العون والوساطة ، رغم أنه كان يقضى نهاره كله خارج المنزل في كثير من الأحيان • لقد طرد من المجتمع الراقى منذ ما يزيد على عام • وقد ظلمت عاجزاً عن تفسير هذا الأمر رغم جميع ما بذلت من جهود ، ورغم انقضاء شهر بكامله على اقامتي ببطرسبرج • أكان فرسيلوف مذنباً أم لا ؟ ذلك ما كان يهمني أن أعرفه • وذلك ما من أجله جئت • لقد أدار الناس كافةً ظهورهم له - ومنهم جميع الشخصيات التي تملك نفوذاً والتي استطاع أن يكون له بها صلوات سابقة - وذلك بسبب اشاعات ذاعت عن سلوك شائن سلكه في ألمانيا قبل ذلك بعام ، بل عن سلوك فاضح الى أقصى حد ، وذلك في نظر الناس أنكى وأدهى ؟ حتى لقد قيل انه تلقى يومئذ على مشهد من الناس صفة كالمها له أمير من الأمراء سوكولكسي ، ثم لم يرد هو عليها بأى تحد • فحتى ولداه (الشرعيان) ، ابنه وابنته ، أدارا له ظهريهما وأشاحا وجهيهما ، وعاشا منفصلين عنه • ولقد كان هذا الابن وهذه البنت يختلفان الى أرقى المجتمعات بواسطة أسرة فاناريوتوف وبواسطة الأمير العجوز سوكولسكى (صديق فرسيلوف سابقاً) • ولكنني حين أنعمت النظر في الرجل خلال هذا الشهر ، رأيته انساناً عزيز النفس متكبر الطبع لم يبعده المجتمع بل أبعد هو المجتمع - فالى هذا الحد كان يظهر بمظهر الاستقلال ! ولكن هل كان يحق له أن يظهر بهذا المظهر ؟ ذلك ما كان يشغل بالي ويقلق نفسي ! وكان على حتماً أن أعرف الحقيقة كاملة في أقصر مدة ، لأنني انما جئت لأقطع برأى في الرجل • كنت ما أزال أخفي عنه قواي ، ولكن كان على أن أتخذ أحد موقفين : فاما أن أرتضيه ، واما أن أرفضه وأنبذه نبذاً كاملاً • وكان الحل الثاني سيؤلنى

أشد الألم ، لذلك كنت فى عذاب وقلق • وسأعترف الآن بشئ • : لقد
هذا الرجل عزيزاً على نفسى •

أقمت معهم حتى الآن فى ذلك المنزل نفسه ، وكنت أعمل ،
يصعب على أن أمتنع نفسى عن بعض الفظاظات • كنت لا أمتنع عن
الفظاظات تماماً •

وبعد انقضاء شهر أصبحت ازداد اقتناعاً ، يوماً بعد يوم ، بأن الـ
النهائى يجب أن لا أشده لديه هو • لقد كان هذا الرجل الصلف يـ
أمام عينى لفرأ يحير عقلى ويجرح نفسى جرحاً عميقاً • كان هو
ملاطفاً مدارياً ، أما أنا فكنت معه أميل الى المشاجرات منى الى الملا
والأمازيح • كانت جميع أحاديثى معه تشتمل على شئ من الالتبا
أو تشتمل فى أقل تقدير على نوع من سخريه غريبه من جانبه • إذ
البدايه ، أى منذ وصولى من موسكو ، لم يأخذنى مأخذ الجد • ولم أـ
أن أفهم لماذا كان يعاملنى على هذا النحو • لعله كان قد اقتنع بأـ
الضرورى أن يظل مستغلقاً على فهمى • ولكننى ، من جهتى ، كنت أـ
أن أتازل فأسأله أن يعاملنى بمزيد من الجد • أضف الى ذلك أنه
له أساليب عجيبه صارمه لا أملك ازاءها أن أعرف ماذا يجب على
أعمل • وخلاصه القول انه كان يعاملنى كما يعامل فتى غر ، وذلك ما
يؤلمنى احتماله ، رغم علمى بأن الأمور لابد أن تجرى هذا المعجر
وكانت نتيجة ذلك كله أننى انقطعت عن الكلام انقطاعاً يشبه أن يـ
تاماً • كنت أنتظر شخصاً سيصل الى بطرسبرج فى وسعه أن يكشف
عن الحقيقه نهائياً : فعلى ذلك كنت أعقد آخر أمل لى • ومهما يكن
أمر فقد وطنت العزم على القطيعه النهائيه ، واتخذت جميع الاجر
اللازمه لذلك • كانت أمى تثير شفقتى • ولكن : « اما هو ، واما أنا
ذلك ما كنت أريد أن أقترحه عليهما ، أعنى أن أقترحه على أبى وأخ
حتى لقد حددت اليوم • وياتنظار ذلك ، كنت أذهب الى مكتبى •

الفصل الثاني

١



ذلك اليوم التاسع عشر من شهر أيلول
(سبتمبر) كان على أيضاً أن أقبض راتب شهري
الأول لدى « الشخص » المذكور . انهم لم
يسألوني رأيي في هذه الوظيفة ، بل اكتفوا
بأخذني اليه في اليوم الأول من وصولي فيما أظن . هو رجل على جانب
كبير من الفظاظة ، حتى لقد أوشكت أن أضطر الى الاحتجاج . ان
الوظيفة التي عينت لها هي في منزل الأمير العجوز سوكولسكي . ولكن
الاحتجاج سيكون معناه القطيعة معهم فوراً ، وذلك أمر لم يكن يخيفني
أبدآ ، غير أنه يخالف ما رسمته لنفسى من أهداف أساسية . لذلك قبلت
المنصب صابراً ، مكتفياً من الدفاع عن كرامتى بالصمت . ويجب أن
أبادر فأذكر أن هذا الأمير سوكولسكي ، وهو رجل غنى ومستشار
خاص ، لم يكن يمت بقربى الى الأمراء سوكولسكي بموسكو ، الذين
آلوا الى الفقر والبؤس منذ سنين ، والذين كان بينهم وبين فرسيلوف
دعوى ينظر فيها القضاء . لم يكن بينه وبينهم الا التشابه فى الاسم . ومع
ذلك كان الأمير العجوز يهتم بأمرهم كثيراً ، ويجب أكبرهم حباً خاصاً ،
وهو ضابط شباب 'بعد' رئيس الأسرة ان صح التعبير . ولقد كان

لفرسيلوف ، فى الماضى ، تأثير كبير على أمور هذا الشيخ ، وكان صديقه ، بل كان له ولياً حقيقياً ، لأن هذا الأمير المسكين (وقد أدركت ذلك فيما بعد) كان يخشاه خشية رهيبية ، لا حين دخلت فى خدمته فحسب ، بل فى جميع الأوقات فيما أظن ، ما ظلت صداقتهما قائمة . على أنهما كانا قد أصبحا منذ زمن لا يلقى أحدهما الآخر . فان الفعل الشائن الذى اتهم به فرسيلوف انما كان يتعلق بأسرة الأمير نفسه . ولكن الحظ شاء أن تكون تاتيانا بافلوفنا هنالك ، وبواسطتها انما تم توظيفى لدى المعجوز الذى أراد أن يكون معه شاب يقيم الى جانبه فى المكتب . وقد اتفق أيضاً أنه أراد أن يسرّ فرسيلوف ، وأن يخطو هو نحوه الخطوة الأولى ، اتفق أن أراد فرسيلوف ذلك أيضاً . هذا ما قرره الأمير المعجوز فى غيبة ابنته ، التى مات عنها زوجها الجنرال ، والتى كان لا يمكن حتماً أن ترضى عن خطوة كهذه . سوف أتحدث عن هذا الأمر فيما بعد ، ولكننى أريد أن أذكر فوراً ان غرابة هذه العلاقة بين المعجوز وبين فرسيلوف قد لفتت نظرى كثيراً ، وجعلتني أحسن الظن بفرسيلوف . قلت لنفسي : اذا استمر رئيس أسرة أهنت كرامتها هذا الاستمرار على احترام فرسيلوف ، فذلك دليل على أن الاشاعات التى ذاعت عن سقوط أخلاق فرسيلوف اشاعات كاذبة ، أو اشاعات تحتمل التأويل فى أقل تقدير . وهذا بعض ما منعى من الاحتجاج : فلقد كنت آمل أن يمكننى دخولى فى خدمة الأمير من التحقق من هذه الأمور كلها .

كانت تاتيانا بافلوفنا هذه تلمب دوراً خاصاً حين وجدتتها فى بطرسبرج . كنت قد نصيت وجودها أو كدت ، ولم أتوقع قط أن أرى لها من خطورة الشأن وعلو المنزلة ما رأيت . كنت قد قابلتها حتى ذلك الحين ثلاث مرات أو أربعاً بموسكو . كانت تتبجس لا أدرى من أين ولا بأمر من من الناس ، كلما كان يجب أن تسكننى منزلاً ، أو أن تدخلنى ذلك المعهد الداخلى الكالغ الحزين ، معهد توشار ، أو أن تنقلنى

بعد ذلك بستين ونصف سنة الى المدرسة الثانوية ، أو تنزلى عند يقولوا
سيمينيقتش الذى لا يمكن أن أنسى ذكره . وكانت ، كلما ظهرت ،
تبقى سحابة النهار ، تستعرض غسلى وملابسى وتمضى معى الى
كوزنتسكى أو الى السوق فتشترى لى الأمتعة اللازمة ، وتجهزنى بكل ما
أنا فى حاجة اليه ، من آخر علبه الى آخر موسى . وكانت وهى تفعل ذلك
لا تقطع عن تريمى وتويخى وانغرافى بأنواع اللوم ، ولا تكف عن
امتحانى ، وعن ضرب أمثلة لى بأولاد آخرين من أصحابها أو أقاربها
(هم من خلق خيالها) قائلةً انهم جميعاً خير منى فى رأيها ، حتى لقد
كانت لا تتورع ، والله ، عن قرصى وضربى ضرباً موجعاً مرات كثيرة .
حتى اذا فرغت من اسكانى وتأمين الاستقرار لى اختفت عدة سنين دون
أن تترك لى أثراً من آثارها . ان هذه المرأة هى التى تولت الاهتمام بأمرى
من جديد فور وصولى الى بطرسبرج ، فوظفتنى لدى الأمير العجوز .
هى امرأة قصيرة القامة جافة الطبع ، ذات أنف دقيق حاد كأنف غصفور ،
عينين صغيرتين ناقبتين تشبهان أعين العصافير أيضاً . ولقد كانت ازاء
فرسيلوف أشبه بعبد : تقف منه موقف العابد كأنها أمام البابا ، ولكنها
تفعل ذلك عن اقتناع وايمان . على أننى سرعان ما لاحظت ، على غير قليل
من الدهشة ، أن الناس جميعاً بغير استثناء ، وفى كل مكان ، يحضونها
احتراماً خالصاً ، ولاحظت خاصة أن الناس جميعاً بغير استثناء وفى كل
مكان يعرفونها . وكان الأمير العجوز سوكولسكى يقدسها تقديساً .
وكذلك كان شأنها بين أفراد أسرتها . وكذلك كان شأنها أيضاً مع ولدى
فرسيلوف المتعجرفين ، ومع أعضاء أسرة فاناريوتوف . ومع ذلك كانت
تجننى رزقها من الحياطة والغسيل والتطريز ، وتعمل لأحد المخازن فى
بطرسبرج . وقد تشاجرنا منذ أول كلمة تبادلناها ، لأنها طمعت أن
توبخنى كما كانت تفعل ذلك منذ ست سنين ؛ وظللنا تشاجر كل يوم .
ولكن ذلك لم يكن يمنعنا من التحدث أحياناً ، وانى لأعترف بأنها أخذت

تحظى باعجابى بعد شهر ؛ وانما يرجع ذلك فى رأى الى ما كانت
تصف به من استقلال الطبع ؛ على أنى حاذرت أن أعلن لها ذلك أو أن
أشير اليه .

وسرعان ما فهمت أنهم « وظفونى » لدى هذا العجوز المريض
لا شىء الا أن « أملأ فراغه » ، وأدركت أن مهمتى كلها هى القيام بهذا
العمل . وقد شعرت من ذلك بشىء من المذلة طبعاً ، وما لبثت أن اتخذت
اجراءاتى ، ولكن ما كاد ينقضى وقت قصير حتى أحدث هذا الشيخ الغريب
فى نفسى أثراً لم يكن فى الحسين ، أثراً هو نوع من الشفقة عليه ،
وأصبحت فى آخر الشهر أحس نحوه بارتباط عجيب : وأياً كان الأمر
فقد تركت ما كنت قد عقدت عليه العزم من القضاظه فى معاملته . ولم
تكن سنه تتجاوز الستين على كل حال . وكانت قد وقعت له حادثة تشبه
أن تكون قصة كاملة . لقد أصيب قبل ثمانية عشر شهراً بنوبة عقلية ،
فيما كان مسافراً لا أدري الى أين فقد صوابه أثناء الطريق ، فكان ذلك
فضيحة تحدث الناس عنها فى بطرسبرج . وكما يجدر فى مثل هذه
الأحوال ، أرسل الرجل الى الخارج ، فما هى الا خمسة أشهر حتى عاد
الى روسيا سليماً معافى ، ولكن متقاعدأ . وقد أكد فرسيلوف جداً
(بحماسة واضحة) أن ما حدث لصاحبه لم يكن جنوناً قط ، وانما
كان نوبة عصبية بسيطة . وانى للأكاد أشاركه هذا الرأى . ان كل ما
كان يبدو على العجوز هو شىء من خفة لا تليق بسنه كثيراً ، خفة يقال
انها لم تظهر فيه يوماً قبل ذلك . قالوا انه كان فى الماضى مستشارأ يبذل
النصح فى مكان ما ، وانه قد عهد اليه يوماً بالقيام بمهمة فأحسن القيام
بها على خير وجه . غير أنى ، وقد عرفته منذ شهر ، ما كان لى أن أقدر
أن له كفاءات خاصة تؤهله لأن يكون مستشارأ . وقد لاحظوا (رغم
أنى لم ألاحظ أنا شيئاً من ذلك) أنه أصبح بعد إصابته بتلك النوبة
مأخوذاً برغبة قوية فى أن يتزوج سريعاً ، وأنه خلال هذه الأشهر الثمانية

عشر قد فكر في تحقيق هذه الفكرة غير مرة . يظهر أن الناس كانوا يعرفون ذلك ، ويهتمون به . ولكن لما كان هذا الميل لا يتفق كثيراً ومصالح بعض الذين حولهم ، فقد كانوا يحيطون العجوز بسياج من كل جهة . لم تكن أسرته كبيرة العدد . لقد ترمل منذ عشرين عاماً ، وليس له الا ابنة وحيدة هي أرملة الجنرال التي يتوقعون وصولها من موسكو بين يوم ويوم ، وهي شابة كان واضحاً أن أباهم يخشى طبعها . غير أن للشيخ طائفة من الأفراد يمتنون اليه بقرابات بعيدة ، وخاصة من جهة زوجته المتوفاة ، وكان هؤلاء جميعاً يعيشون في فاقة وبؤس . يضاف الى هؤلاء ذلك الجمع من الأيتام الذكور والأناث الذين كان يحسن اليهم ويتصدق عليهم ، ويتوقعون أن يجعل لهم في وصيته نصيباً ، ويشتركون لذلك في احكام الرقابة عليه . يضاف الى هذا أيضاً أنه كان منذ شبابه يتصف بخصلة لا أدري أهى مضحكة أم لا : تلك هي رغبته في تزويج الفتيات الفقيرات . انه يزوج فتيات فقيرات منذ خمسة وعشرين عاماً : بعضهن تصله بهن قرابات بعيدة ، وبعضهن أخوات لزوجات أبناء أعمام زوجته ، وبعضهن يربطه بهن أنه كان لهن عراباً ، حتى ان منهن واحدة كانت بنت بواب منزله . كان يكفلهن صغاراً ، فيعهد بتثقيتهن الى مربيات وخدمات فرنسيات في أول الأمر ، ثم يرسلهن الى أحسن المؤسسات التعليمية ، حتى اذا بلغت مرحلة الزواج دفع لهن مهورهن . فكان هؤلاء الناس جميعاً يحومون حولهم بغير انقطاع . وطبعى اذا تزوجت هذه اليتيمات أن يلدن بنات ، فكانت هاته البنات جميعاً تطمع في رعايته ، وكان هو عرابهن جميعاً ، وكان هذا الجمع كله من الناس يتوافد عليه في أعياده مهتماً مباركاً ، وكان هو يجد في ذلك متعة لا تفوقها متعة .

وحين صرت في بيته ، سرعان ملاحظت - وكان يستحيل على المرء أن لا يلاحظ ذلك - أنه قد استقر في دماغ العجوز اقتناع أليم بأن الناس أصبحوا ينظرون اليه نظرة غريبة ، وأصبحوا لا يعاملونه كما

كانوا يعاملونه في الماضي أيامَ كان يملك صحته كاملةً ، كان هذا الشعور لا يبارحه أبداً ، حتى أثناء اجتماعات بالناس يسودها أكثر الأجواء مرحاً وفرحاً . لقد أصبح الشيخ مفرد الحساسية سريع التأذي . كان يلاحظ شيئاً في جميع الأعين . وكان يعذبه تعذيباً واضحاً أن يتصور أن الناس لا يزالون يتخلون فيه جنونا . حتى لقد كان يتفرد في وجهي أنا مشتبهاً مرتاباً . وأحسب أنه لو علم يوماً أن أحد الناس أذاع أو أكد هذه الاشاعة لأضمر له عداوة قاتلة رغم أنه انسان لا يعرف قلبه الحقد أبداً . ذلك ما أريد أن يبقى ماثلاً في ذهن القارئ . وأضيف إليه أن هذا أيضاً هو ما جعلني أعزم أمري منذ أول يوم على أن لا أغلظ له القول . حتى لقد كنت أشعر بالسعادة يوم تتيح لي المصادفات أن أفرحه أو أن أسأله : وما أعتقد أن هذا الاعتراف يمكن أن يلقى على كرامتي ظلاً .

ولقد وضع جزءاً كبيراً من ثروته في مشروعات . وساهم بعد مرضه في شركة كبيرة قوية جداً . ورغم أن هذا المشروع كان يديره آخرون فقد كان يهتم به اهتماماً شديداً ، فهو يحضر اجتماعات المساهمين ، ويتنخب عضواً مؤسساً ، ويترأس بعض المجالس ، ويلقى خطاباً مسهباً ، ويناقش ويعترض ، يفعل ذلك كله مقتبلاً به راضياً عنه . وكان يعشق لقاء الخطب : فان ذلك يتيح للناس أن يلاحظوا قوة فكره على الأقل . ويمكن أن أقول على وجه العموم انه كان حتى في حياته الخاصة الصميمية يحب كثيراً أن يدخل في الحديث بعض الأقوال العميقة أو بعض الكلمات الجميلة . ولست استغرب منه هذا . ولقد كان في الطابق الأدنى من الدار نوع من مكتب منزلي ، يعمل فيه مستخدم يسير الأعمال ويجري الحسابات ، ويمسك الدفاتر ، عدا قيامه بإدارة شؤون المنزل . ولقد كان هذا المستخدم ، الذي يشغل عدا ذلك وظيفة رسمية ، ينهض بالعمل نهوضاً كافياً ، ولكنهم أضافوني اليه تنفيذاً لرغبة الأمير ، بحجة أنني سأساعده في عمله . ولكنني ما لبثت أن نقلت الى حجرة الأمير ، فلم يكن أمامي

هنالك ، ولو من قبيل مراعاة الشكل ، لا عمل ولا أوراق ولا كتب •
اننى أكتب الآن كما يكتب انسان فقد نشوة الحماسة منذ زمن
طويل ، وعدل عن كثير من الأمور • فكيف أستطيع أن أصور ذلك
الحزن (الذى مازلت أذكره جيداً قوياً) الذى ملأ يومئذ قلبى ، وكيف
أصور خاصة ذلك الاضطراب الذى استبد يومئذ بى حتى قادنى الى حالة
من القلق والهياج بلغت من القوة اننى أصبحت مسهداً لا أعرف الى النوم
سيلاً من نفاذ صبرى على الألفاظ التى كنت أطرحها على نفسى بنفسى •

أن يطلب المرء مالاً فذلك طلب حفيّر جداً ، ولو كان طلباً لأجر ، اذا كان المرء يحس في ركن من أركان ضميره أنه لم يستحق هذا الأجر . وبالأمس همست أمي في أذن أختي ، على غير علم من فرسيلوف (حتى لا تسبب ألماً لأندره بتروفنش) تقول لها ان في نيتها أن ترهن لدى « بنك التسليف » « أيقونة » كانت تحرص عليها حرصاً شديداً . وكان لي أجر هو خمسون روبلاً في الشهر ، ولكنني كنت أجهل كل الجهل كيف أقبض هذا الأجر . فانهم لم يذكروا شيئاً واضحاً عن هذا الأمر حين أسندوا اليّ هذه الوظيفة . وكنت قبل ذلك بثلاثة أيام قد سألت المستخدم الذي يعمل في الطابق الأدنى : أين أقبض أجرى ؟ فنظر ليّ بابتسامة انسان دهش (وكان لا يحبني) ، ثم قال :

– هل لك راتب تقبضه ؟

وتوقعت أن يضيف الي سؤاله بعد جوابي على الفور :

– وعلام يكون لك راتب ؟

ولكنه اقتصر على الإجابة في جفاف قائلاً : « لا أدري » ، ثم أكبر على دفتره المخطط الذي كان ينقل اليه حسابات سجلت على وريقات . وكان مع ذلك لا يجهل أنني أقوم بعمل . حتى أنني قبل ذلك بخمسة عشر يوماً قد أنفقت أربعة أيام كاملة في عمل عهد به اليّ هو نفسه : وهو نسخ مسودة . وقد اضطرت في الواقع الي صياغة النص كله صياغة جديدة . وكان الأمر أمر مجموعة من « أفكار » للأمير كان يتهاى لتقديمها الي لجنة المساهمين . فكان عليّ أن أنشيء من شتماتها كلا منسجماً ، وأن أصلح الأسلوب . وقد قضينا بعد ذلك مع الأمير ، أنا وهو ، يوماً

بكامله نظري في هذه الورقة ، فناقشني الأمير مناقشة حارة جداً ، ولكنه رضى عنها آخر الأمر . على أنني لا أدري أقدّمت الورقة الى لجنة المساهمين أم لا . هنا عدا رسالتين أو ثلاثاً من رسائل الأعمال توليت أنا كتابتها بطلب منه .

وإذا أزعجني أن أطلب أجرى ، فذلك لأنني كنت قد قررت أن أترك العمل ، لشعوري بأنني سأكون مضطراً الى المغادرة أيضاً بسبب ظروف لا سبيل الى تحاشيها . حين استيقظت من نومي في ذلك الصباح وأخذت أرتدى ملابسى في غرفتي الصغيرة فوق ، شعرت بقلبي يخفق خفقاناً قوياً ، ثم حاولت أن أصطنع الهدوء وعدم الاكتراث ، غير أنني حين دخلت على الأمير عاودني ذلك الاضطراب نفسه : ففى ذلك الصباح كان سيصل ذلك الشخص ، كانت ستصل تلك المرأة التي أنتظر منها تفسير كل ما كان يقلق خاطري ويعذب نفسى ! انها آخماكوكفا ، بنت الأمير ، أرملة الجنرال الشابة التي سبق أن تحدثت عنها ، والتي كانت في حرب صريحة مع فرسيلوف . أخيراً كتبت هذا الاسم ! ولم أكن رايتها قبل ذلك فى يوم من الأيام طبعاً ، ولم أكن أستطيع أن أتصور كيف ترانى أكلّمها اذا أنا كلّمتها . ولكن كان يبدو لى (ربما لأسباب كافية) أن مجيئها سيبدد ظلمات تلف فرسيلوف فى رأبى . لم أستطع أن أظل رابط الجأش : انها لحسرة رهيبه أن يجد المرء نفسه منذ اليوم الأول جباناً كل هذا الجبن ، أخرق كل هذه الحراقة . كان ذلك أمراً عجيّباً الى أقصى حد ، وكان كريهاً على وجه الخصوص : ثلاثة مشاعر فى آن واحد . اننى أذكر ذلك اليوم وأحفظه على ظهر القلب .

لم يكن الأمير يعرف ، بعد ، شيئاً عن احتمال وصول ابنته . وكان لا ينتظر وصولها قبل أسبوع . أما أنا فقد عرفت هذا قبل ذلك بيوم ، وعرفته بمحض مصادفة . ان تاتيانا بافلوفنا التي تلقت رسالة من أرملة الجنرال قد أقلت لسانها أمامى ففشت السر وهى تتحدث الى أمى . كاتنا

تكلمان همساً ، وتحدثان بالفاظ معماة غامضة ، فحزرت كل شيء .
لم أكن أصنى اليهما . ولكننى لم أملك الا أن أصرخ بسمى حين رأيت
على حين فجأة أن أمى اضطربت اضطراباً شديداً لدى سماعها
نبأ وصول هذه المرأة . ولم يكن فرسيلوف وقتئذ فى البيت .

لم أشأ أن أنبئ الأمير الشيخ ، لأننى كنت قد لاحظت طوال هذه
المدة مدى اشفاقه من وصول ابنته . حتى أنه ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، مضى
الى حد القول ، على شيء من الاستحياء وفى شيء من الغموض ، انه
يخشى من وصولها على ، أو قل انه يتوقع قيام شجار بينه وبينها بسببى .
يجب مع ذلك أن أضيف أنه كان يحتفظ ازاء أسرته باستقلاله وسلطته
وتفوقه ، وخاصة فى شئون المال . ولقد كان شعورى الأول تجاهه أنه
لم يكن الا امرأة . ولكننى اضطرت بعد ذلك الى تصحيح هذا الشعور
قائلاً لنفسى : اذا كان امرأة فانه يحتفظ بشيء من عناد بديلاً عن
الرجولة . لقد مرت لحظات كان فيها ، رغم ما يبدو فى طبعه من رخاوة
ظاهرة ، رجلا صعب المراس عسير القيادة . وقد شرح لى فرسيلوف هذا
الأمر بمزيد من التفصيل فيما بعد . وانى لألاحظ الآن ، على دهشة منى ،
أنا لم نكد نتحدث يوماً عن أرملة الجنرال ، بل كنا نتحاشى أن نتحدث
عنها ان صح التعبير : كنت أنا الذى أتحاشى الخوض فى هذا الحديث
خاصة ، وكان الأمير يتحاشى من جهته أن يتكلم على فرسيلوف ، حتى
لقد أدركت أنه لن يجيبنى اذا أنا ألقى عليه سؤالاً من تلك الأسئلة
التي كانت تقلقنى ذلك الاقلاق كله وتحيرنى تلك الحيرة كلها .

واذا أردتم أن تعرفوا فىم تحدثنا طوال ذلك الشهر قلت : لقد
تحدثنا فى كل شيء اجمالاً ، ولكننا تحدثنا دائماً فى أمور غريبة . وكان
ما يعجبنى فى الرجل كثيراً هو تلك اللطافة الطيبة العظيمة التي كان
يعاملنى بها . حتى لقد كنت فى بعض الأحيان أتأمل هذا الرجل مندهشاً
أشد الاندهاش ، قائلاً لنفسى : لو قد عاصرت فى المدرسة لكان خير رفيق

لى • وكان وجهه يخطف بصرى فى بعض الأحيان أيضاً : انه جاد أقصى الجد (ويكاد يكون جميلاً) ، جاف أشد الجفاف ، ذو شعر مجعد أبيض كئيف ، واسع العينين ؛ وكان يشع الجفاف من شخصه كله ، وكان حسن القامة ، غير أن وجهه يمتاز بصفة أقرب الى أن تكون مزعجة ، حتى لتوشك أن تكون غير لبقه ، فهو ينتقل فجأة من أقصى درجات الجد الى أقصى درجات المرح انتقالا لا يمكن لامرىء أن يتنبأ به اذا كان يرى هذا الرجل أول مرة • ولقد قلت ذلك لفرسيلوف ، فأصغى فرسيلوف الى قولى متعجبا ، فانه ما كان يظن أن فى وسعى أن ألاحظ ملاحظات كهذه • ولكنه قال لى ، كمن يقول عابراً ، ان هذه الحالة قد ظهرت فى الأمير بعد مرضه ، لاسيما فى الآونة الأخيرة •

هناك موضوعان مجردان كان يدور عليهما حديثنا خاصة ، أولهما هو الله ووجوده (الله موجود أم لا ؟) ، وثانيهما هو النساء • لقد كان الأمير متديناً جداً ، حساساً جداً • وكانت حجرتة تضم خزانة كبيرة ذات مصباح ، زاخرة بالأيقونات • غير أنه كانت تستبد به فى بعض الأحيان نزوة ، فاذا هو يأخذ يشك فجأة فى وجود الله ، ويقول أشياء عجيبة من أجل أن يحرضنى على الاجابة • وكنت من جهتى قليل الاكترات بهذه الفكرة على وجه العموم ، ولكن هذا لا ينفى أننا كنا كلانا نتحمس تحمساً صادقاً فى جميع الأحوال • والحق أن هذه الأحاديث التى كانت تدور بيننا قد خلفت فى نفسى ذكرى ممتعة الى هذا اليوم • على أن الحديث عن النساء كان أمتع ما يجب أن يلغو فيه ؛ واذا كنت لا أعشق الحديث فى هذا الموضوع كثيراً ، فانتى لم أكن له فى هذا المجال نعم الجليس ، وكان ذلك يسوؤه فى بعض الأحيان •

وقد أثار هذا الموضوع عينه منذ وصلت اليه فى ذلك الصباح • وجدته يومئذ مرح المزاج مبتهج النفس ، وكنت قد تركته بالأمس مفعماً بالحزن والأسى • وكان على أن أحل مسألة راتبى فى ذلك اليوم

نفسه قطعاً قبل وصول بعض الأشخاص . كنت أقدر أن خلوتنا ستقطع
حتماً (لم يخفق قلبي في ذلك اليوم خفقاناً شديداً لغير سبب) ، وقد
لا أجرؤ عندئذ أن أتكلم في مسألة الأجر . ولكن الحديث لم يقع
يومئذ على شؤون المال ، فأحقتني حماقتي طبعاً ، فاذا أنا (وما زلت أذكر
ذلك جيداً) أتزعج من سؤال طرحه عليّ ، وكان سؤالاً مرحاً كل المرح ،
وإذا أنا أنطلق أبسط له آرائي في النساء دفعة واحدة بعنف شديد وحمياً
قوية ، فما كان منه الا أن ازداد اندفاعاً وحماسة .

— ••• لست أحب النساء لأنهن فظات ، لأنهن خرقاوات ، لأنهن لا يملكن روح المبادرة والمبادرة ، ولأنهن يرتدين ملابس غير لائقة !

• بهذه الخاتمة المضطربة المشوشة أنهيت كلامي الطويل •

— رفقاً بهن يا عزيزي !

كذلك صاح الأمير فرحاً فرحاً الى أقصى حدود الفرح والمرح ،
فما زادني ذلك الا غيظاً وحنقاً •

انى امرؤ لىن العريكة سهل المصالحة فى الأمور الصغيرة فحسب ،
أما فى الأمور الكبيرة فلا أخضع ولا أرضخ قط • انك فى الشئون
اليسيرة وفى المناقشات النافعة التى تدور بين الناس ، تستطيع أن تجعلنى
ما تشاء ؛ وأنا ألعن هذه الصفة من صفات طبعى دائماً • لقد اتفق لى فى
بعض الأحيان ، بسبب هذه الطيبة الكريهة فى طبعى ، أن كنت مستعداً
لتأييد دعى سخيف من أبناء المجتمع « الرافى » لا لشيء الا لأنى فنتت
برقة حاشيته وحسن تهذيبه ، أو أن أدخل فى مناقشة مع رجل غيبى
أحمق ، وهو أمر لا يمكن أن يشتفر بحال من الأحوال • كل ذلك لأنى
لم أتعلم الصمود ، ولأنى عشيت وترعرعت فى ركنى المعزول • وطالما
خرجت من ذلك حائقاً غاضباً ، حالفاً أن لا أعود الى مثله ، فاذا جاء الغد
تكرر الأمر نفسه • من أجل هذا كنت أعد فى بعض الأحيان صيياً فى
السادسة عشرة • ولكننى بدلا من أن اكسب السيطرة على نفسى مازلت
حتى اليوم أوثر أن ازداد انحساراً فى ركنى ، ولو فى أقوى صورة من
صور كره الناس والبعد عن البشر : « أما اذا شئت أحرق ، ولكن

وداعاً ! • • أقول ذلك جاداً والى الأبد • على أننى لا أكتب هذا بصدد
الأمير ، ولا بصدد الحديث الذى جرى بيننا •

صحت أقول فيما يشبه المعادة :

- لست أتكلم لأسرك ، وإنما أنا أعبر عن رأى •
- ولكن كيف تكون النساء فظات ، وكيف تعد ملايسهن غير
لائقة ؟ ألا ان هذا الأمر جديد !

- هن فظات • اذهب الى المسرح ، اذهب الى نزهة • ان كل رجل
من الرجال يعرف يمينه ، فاذا تقابل رجلان أفسح كلا منهما الطريق
لصاحبه ، هذا يتجه الى يمينه وذاك يتجه الى يمينه • أما المرأة ، أقصد
السيدة ، لأننى عن السيدات انما أتكلم ، فانها تقتحمك حتى دون ان
تلاحظك ، كأنك مضطر أن تخلى لها مكانك • اننى مستعد أن أتنازل عن
موضعى لمخلوق ضعيف ، ولكن المسألة هنا ليست مسألة حق مفروض •
لماذا هى وائقة بأننى مضطر الى اخلاء مكانى لها اضطراراً ؟ ذلك ما يفيظ !
اننى لا أملك الا أن أبصق اشمنزازا فى مثل هذه الالتقاءات • ورغم هذا
كله يملأن الدنيا صراخاً بأنهن مضطهدات ، ويطالبن بالمساواة • كيف
يتحدثن عن المساواة وهنَّ يدسننى ويملأن فمى غباراً ؟

- غباراً ؟

- نعم • لأنهن يرتدين ملابس غير لائقة • لا بد أن يكون المرء
فاسقاً حتى لا يلاحظ ذلك • ان المحاكم نفسها تعقد جلسات سرية حين
تشتمل القضية على أمور غير لائقة : فلماذا يسمح بمثل هذه الأمور فى
الشارع ، حيث الجمهور أكبر عدداً ؟ انهن يملقن على أردافهن ذبولا ذات
حفيف ، ليبرهنوا على أنهن نساء جميلات : يفلن ذلك صريحاً ظاهراً بغير
استخفاء ولا استحياء • وليس يمكن أن لا ألاحظ ذلك ، والشبان
يلاحظونه أيضاً ، والطفل والصبى الصغير يلاحظانه كذلك • ألا ان هذا

لعب وعار ! ولأن يمجّب بهن رجال مسنون فاسقون ماجنون يجرون
وراءهن ويخرجون ألسنتهم متلمظين ، فلا ضير ! الا أن هنالك نسبة
طاهرة يجب أن نحميها • لم يبق الا أن يبصق المرء تقزراً واشمئزازاً •
ان السيدة من هؤلاء تذرع الشارع جيئة وذهاباً ، ووراءها ذيل طوله
متر يكس الأرض ويثير الغبار • وعليك أنت الذي يتفق أن تكون
سائراً خلفها أن تغذ الخطي راکضاً حتى تتجاوزها ، أو أن تب إلى
الطرف الآخر ، والا حشت أنفك وفمك برطلين من الغبار • ثم انها تجر
هذا الحرير ووراءها على الحصى ثلاثة كيلو مترات ، لا لشيء سوف أن تتبع
• الموضة ، ومرتب زوجها من مجلس الشيوخ خمسمائة روبل في
العام • ألا ان هذا هو مصدر جميع الرشاوى • انى لأبصق عندئذ بصوت
صاحب مسموع •

لقد سجلت للقارىء هذا الحديث على نحو فيه شيء من روح
السخرية ، وفيه ما كان فيه من حرارة وعنف حين جرى بينى وبين
الأمير • ولكن الأفكار التى وردت فى ذلك الحديث لا تزال أفكارى
الى الآن •

قال الأمير مهتماً :

— ولم يقع لك شيء ؟

— أبصق وأمضى • وطبعاً أن السيدة تفهم ما أعنى ، ولكنها لا
تظهر شيئاً ، بل تظل مقتحمة طريقها على فضامة وأبهة وجلال لا تلتفت
الى ولا تلموى على شيء • مرة واحدة قام شجار بينى وبين امرأتين تجران
كلتاهما ذيلين فى الشارع • لم أنطق بألفاظ نابية طبعاً ، ولكننى قلت
بصوت عال ان هذين الذيلين يؤذيان بصرى •

— قلت ذلك هكذا ؟

— طبعاً • ان هذه المرأة تدوس أولاً قواعد المجتمع ثم هى عدا ذلك

تثير عجاجاً فى شارع حافل بالناس : فأنا أتزره ، وشخص آخر يتزره ،
وشخص ثالث يتزره أياً كان هذا الشخص سواء أكان اسمه
فيدور أم كان اسمه ايفان . ذلك ما قلته بصوت عال . ثم اتنى على وجه
العموم لا أحب مشية النساء حين ترمى من خلف . قلت ذلك أيضاً ولكننى
قلته تلميحاً لا تصريحاً .

— ولكن كيف تفعل ذلك يا صديقى ؟ قد تسبب لنفسك أذى .
ان فى امكانهن أن يشكينك الى القضاء .

— مستحيل . ما عسى أن تكون شكواهن ؟ رجل مر بجانبهن ،
وكلم نفسه . ان من حق كل انسان أن يفصح عن رأيه فى الهواء . لقد
قلت كلاماً مجرداً لم أتجه به اليهن . هن اللواتى هاجمنى . أخذن يقلن
كلمات نابية ، أسوأ كثيراً من كلماتى . قلن اتنى ولد قليل الأدب ، واتنى
يجب أن أحرم من الحلوى ، واتنى من أتباع المذهب العدمى ، وان عليهن
أن يأخذننى الى الشرطة ، واتنى انما تشبثت بهن لأنهن وحدهن ولأنهن
ضعيفات ، واتنى كنت سألوذ بالفرار لو كان معهن رجل . فما زدت على أن
طلبت منهن ببرود أن يدعنى وشائى ، فانى منتقل الى الجهة الأخرى . غير
أتنى أضفت الى ذلك : « ولكن من أجل أن أبرهن لكننى على أتنى لا أخشى
رجالكن واتنى مستعد لأن استجيب للتحدى ، فهأنذا أتبعكن لأقف على
مسافة عشرين متراً من منازلكن أنتظرن أن يخرج الى رجالكن . . . »

— أهذا ممكن ؟

— طبعاً . كان ذلك حماقة منى ، ولكن دمنى كان فائراً فوراً
شديداً . هكذا جررتنى وراءهن مسافة تزيد على ثلاث كيلو مترات ، فى
جو خانق من الحر الشديد ، حتى « معهد الأوانس » . ثم دخلن داراً
من خشب بلا طوابق ، داراً لائقة والحق يقال ، ترمى من خلال نوافذها
أزهار كثيرة ، وطائران من طيور الكنارى ، وثلاثة كلاب جميلة ، وطائفة .

من لوحات ذات أطر • لبثت أمام البيت في وسط الشارع نصف ساعة •
فرأيتهن يطللن ثلاث مرات خفية؟ ثم أسدلن جميع الستائر • وأخيراً
خرج من باب صغير موظف طاعن في السن ، اذا صدق ما تدل عليه سحنته ،
يرتدى ثوباً مما يلبس في المنزل ، أو رداء بسيطاً على كل حال ، فوقف
أمام الباب ، ينظر الى واضعاً يديه وراء ظهره ؟ ونظرت اليه ، فحول بصره
عني ، ثم نظر مرة أخرى وابتم لي • فأدزت ظهري ، وانصرفت •

– ولكن هذا من شأن شيلر يا صديقي • هناك أمر أثار دهشتي
دائماً : ان خديك لحمراوان ، وان وجهك ليفيضان عافية • فهل يشمئز
من النساء من كان كذلك ؟ أيعقل أن لا تثير فيك المرأة شيئاً وأنت في هذه
السن من ريعان الصبا ؟ يا عزيزي (١) ، كنت أنا في الحادية عشرة من
عمرى حين نبهني الربى الذي كان يتولى تنشيتي أتى أسرف في الاقتراب
من تماثيل « حديقة الصيف » للنظر اليها •

– أتريد منى يا أمير أن أذهب الى « امرأة » ما من تلك الأماكن ،
الى « جوزيفين » ما ، ثم أعود أنقل اليك أخباراً عنها ؟ ! أنا أيضاً رأيت
عري المرأة كاملاً ولما أتجاوز الثالثة عشرة •• ومنذ ذلك الحين انما
شعرت منه بالاشمزاز •

– أتقول هذا جاداً أم هازلاً ؟ يا بنى (٢) ، ان امرأة نصره لهنى
تفاحة عبة ؟ أين فى هذا ما يثير هذا الاشمزاز كله ؟ •

– حين كنت فى مدرستى الداخلية القديمة ، عند توشار ، أى
قبل دخولى المدرسة الثانوية ، كان لى رفيق اسمه لامير • كان لامير هذا
يضربنى دائماً ، لأنه كان أكبر منى بثلاث سنين ، وكنت أنا أخدمه

(١) بالفرنسية فى الاصل •

(٢) بالفرنسية فى الاصل •

وأخلع له حذاهيه • ففى يوم تقديسه الذى يعقب التعميد جاء القس ريجو يزوره بمناسبة تناوله الأول ، فرأيت الاثنين يرتدى كل منهما على عنق صاحبه والدموع تهطل من عينيه ، ورأيت القس يضمه الى صدره ويربت على ظهره • فبكيت أنا أيضاً ، وحسدته حسداً كبيراً • فلما توفى ابوه خرج من المدرسة الداخلية ، ثم لم أره بعد ذلك سنتين بل أكثر ، الى أن لقيته فى الشارع مصادفةً فى ذات يوم • فقال لى انه قد يجىء الى زائراً بعد حين • وكنت قد دخلت المدرسة الثانوية ، وكنت أقيم لدى نيقولا سيمينوفتش • فاذا هو يجيئنى فى ذات صباح ، ويرينى خمسمائة روبل ، ويسألنى أن أتبعه • لقد ظل يضربنى فى الماضى عامين كاملين ، ومع ذلك ما يزال فى حاجة الىّ ، لا لأخلع له حذاهيه فحسب • وقص عليه أموره كلها • فقال انه قد سرق هذا المال من أمه فى ذلك اليوم نفسه ، بعد أن صنع مفتاحاً مماثلاً لمفتاح صندوقها ، لأن هذا المال حق له من ارث أبيه شرعاً ، ولا يجوز لأمه أن تمنعه عنه بعد الآن • وقال ان القس ريجو قد جاءه امس مساءً يريد أن يلقي عليه درساً فى الأخلاق : دخل الى البيت ، ووقف أمامه ، وأخذ يشن ويتذمر ، مظهرأ أشد الاستياء ، رافعاً ذراعيه نحو السماء • « فما كان منى الا أن استللت سكينى وقلت انى سأذبحه (قال سأذبحه) » • ومضينا معا الى كوزفتسكى • فأسرف الى أثناء الطريق أن أمه قد كانت لها علاقة بالقس ريجو ، وأنه قد لاحظ هو ذلك ، وأنه أصبح لا يعبأ بشيء ، ويرى أن كل ما يقال عن التناول سخافات • وتكلم كثيراً أيضاً • وكنت أشعر أنا بخوف • واشترى فى كوزفتسكى بندقية ذات طلقتين ، وخرجت مما يحمله الصيادون ، وخراطيش وسوطاً مجدولاً ، ورطلاً من حلوى ، ومضينا نصطاد فى الضواحي • ف فيما نحن فى الطريق صادفنا رجلاً من باعة الطيور يحمل أفاصاً ، فاشترى منه لامير عصفوراً من عصفير الكنارى • فلما وصلنا الى غابة صغيرة أطلق لامير العصفور الذى كان لا يستطيع أن يطير بعيداً

عقب خروجه من القفص ، فأطلق لأمير عليه من بندقيته ولكنه أخطأه .
كانت تلك أول مرة يطلق فيها ، ولكنه كان يود أن يشتري بندقية منذ
زمن طويل ، منذ كنا معاً لدى توشار : كان ذلك حلماً لنا كلياً من ذلك
الزمن . كان كالمختق من فرط الانفعال . ان شعره أسود سواداً مخيفاً ،
ووجهه أبيض على احمرار بلون الأرجوان فكأنه قناع ، وأنفه طويل أفتى
كأنوف الفرنسيين ، وأسنانه بيضاء وعينه سوداوان . شد العصفور
يخيط الى غصن من الأغصان ، وسدد اليه من مسافة أربع سنتيمترات ،
تم أطلق عليه من مدفيه كليهما ، فبعثره ألف ريشة صغيرة . . . وقفلنا
راجعين ، فدخلنا أحد الفنادق ، واستأجرنا غرفة وأكلنا وشربنا شمبانيا .
ووصلت سيدة . . . أذكر أن بذخ ملابسها قد لفت انتباهي وأن ثوبها
الحريرى الأخضر قد خطف بصرى . وهناك رأيت كل شيء . . . رأيت
ماحدثت عنك . . . ثم عدنا نشرب . . . وعاد هو يقيظها ويشتمها . كانت
خالعة ملابسها . وأخفى هو ثوبها ، فلما نار غضبها وطالبت بثوبها
لترتديه ، جلدها بسسوطه جلدة قوية على كتفيها العاريتين . فتهضت
وأمسكت به من شعره امساکاً قوياً بلغ من الاحكام أنه سقط على الأرض
فوراً . فتناول شوكة وأخذ يفرزها فى فخذي . فلما أخذت أصح هرع
الى الناس ، واستطعت أن أهرب . ومنذ ذلك الحين أصبح العرى يثير فى
نفسى التقزز . وصدقنى اذا قلت لك انها كانت آية من آيات الجمال .

كنت وأنا أقص على الأمير هذه الحكاية أرى وجهه يتقلب بين
الانشراح والحزن .

— مسكين أنت يا بنى (١) . لقد كنت دائماً على اقتناع بأن طفولتك
عرفت أياماً شقية كثيرة .

— لا يقلقنك شأنى ، أرجوك .

(١) بالفرنسية لى الاصل .

- ولكنك كنت وحدك • أنت نفسك قلت لي ذلك • أما ذلك
الفتى لامير (١) فقد رسمت لي صورته •• طير الكنارى ، ذلك التقديس
الذى رافقته دموع على الصدر ، ثم قصة أمه مع القس بعد عام •• آه
يا عزيزى (٢) • مشكلة الطفولة هذه أمر رهيب فى عصرنا هذا :
فما ظلت هذه الرموس الذهبية ذات الضفائر والبراءة تتطور فى طفولتها
الأولى أمامنا وتنظر إلينا بضحكاتها الصافية ونظرانها المشرقة ، فاننا
نحسبها ملائكة سماء أو عصافير صغيرة رائعة •• حتى اذا انقضى ذلك
كله •• فقد يحدث أن يكون من المفضل أن لا يكونوا قد شبوا عن
الطوق !

- هأت ذا متشائم يائس أيها الأمير • حتى لكأن لك أولاداً
بالفعل • ومع ذلك ليس لك أولاد ولن يكون لك أولاد فى يوم
من الأيام •

- عجب ! (٣) •

هتف بذلك وقد تغير وجهه فجأة وأضاف :

- أول أمس ، هه هه ! أول أمس تماماً ، حين قلت لألكسندرا
بتروفنا سينسكالا - لاشك أنك صادفتها هنا منذ ثلاثة أسابيع - حين قلت
لها على سبيل المزاح انى اذا تزوجت الآن فاننى أكون على الأقل مطمئناً
الى أنتى لن أنجب •• أجابتنى فجأة ، بل أجابتنى بشىء من حنق قائلة :
بالعكس ، ستعجب ؟ ان رجالاً مثلك هم الذين لابد أن ينجبوا حتماً ،
وستعجب منذ السنة الأولى ، سترى • هه هه ! ان جميع الناس يتصورون
أننى سأزوج • لا أدرى لماذا يتصورون ذلك ! يجب أن تعترف على كل
حال أن كلامها فكه مضحك ، رغم انه قيل فى خبث •

- فكه مضحك ؟ بل انه لمثير مزعج !

(٣،٢،١) بالفرنسية فى الأصل •

- أوه يا بنى (١) ! هناك أناس لا يمكن أن يزعل المرء من كلامهم . وان روح المزاح التي توشك أن تزول هي ما أقدره في الناس أكثر من أى شيء آخر ؛ ثم هل يمكن أن يقيم المرء وزناً للكلام تقوله الكسندرا بتروفتا ؟ .

- كيف ؟ ماذا قلت ؟ هل قلت أن هناك أناساً لا يجب أن .. أهذا ما قلته ؟ صدقت .. ما من انسان يستحق أن يلتفت اليه . تلك قاعدة رائئة ! هذه القاعدة هي بعينها ما أنا في حاجة اليه . لسوف أسجلها .
إنك لتتلق أحياناً بحكم رائئة أيها الأمير !

وأشرق وجهه كله !

- أأست ترى يا بنى العزيز أن روح الفكاهة الحقيقية هي الآن بسبيل الاختفاء ، وأنها تزول يوماً بعد يوم ؟ ولكن .. ولكنني أعرف أنا النساء ! (١) صدقتي اذا قلت لك ان حياة كل امرأة ، مهما يكن كلامها ، ليست الا بحثاً أبدياً عن سيد .. ان فيها ظمناً الى الطاعة ان صح التعبير احفظ هذا الكلام .. ولا تستن منهن واحدة .

- صحيح اطلاقاً ! رائع !

كذلك هفت متحمساً . وكان يمكن أن تندفع فوراً في تأملات فلسفية حول هذا الموضوع ، مدة ساعة على الأقل ، لولا أن شعرت فجأة بأنني كمن ° لسع ، واحمر وجهي احمراراً شديداً . لقد خيل اليّ أنني كنت بامتداح كلامه أتملقه من أجل ماله ، وأنه سيظن ذلك على كل حال حين سأطلب اليه أجرى . ومن أنجل هذا انما أذكر هذه الواقعة هنا .

- أيها الأمير ، سأكون شاكرًا لك أجزل الشكر اذا أمرت بأن يدفع

(٢٠١) بالفرنسية في الاصل .

لى فى هذا اليوم نفسه مبلغ الخمسين روبلاً ، وهو راتبى عن هذا الشهر .
كذلك سقت الكلام سريعاً بجملة واحدة ، مع شىء من الاحتياج
يوشك أن يكون فظاظاً .

وانى لأذكر (لأننى أتذكر ذلك الصباح كله بأدق تفاصيله) أنه
وقع عندئذ بيننا مشهد كريمة دميم . انه لم يفهم كلامى فى أول الأمر ،
بل نظر الى طرفيلاً لا يدرك أى مال أعنى . كان واضحاً أنه لم يكن
يتصور أننى أتقاضى أجراً . وفيه عساي أستحق أجراً ؟ صحيح أنه أكد
لى بعد ذلك أنه كان قد نسى الأمر ، ثم لم يلبث بعد أن فهم ، أن تناول
خمسين روبلاً مرة واحدة ، بسرعة شديدة ، واحمرار واضح . فلما رأيت
ذلك كله ، نهضت من مكاني وأعلنت له جازماً أننى أصبحت لا أستطيع
أن أقبل مالا وأن ما ذكر لى من أننى سأتقاضى أجراً كان من قبيل الخطأ
أو الخداع . من غير شك ، وذلك حتى لا أرفض الوظيفة ، واننى أفهم الآن
أنه لم يكن من المفروض أن أتقاضى شيئاً ، إذ لم يكن لى عمل أقوم به .
فارتاع الأمير وحاول أن يقنعى بأننى قدمت له خدمات كبيرة ، وبأننى
سأقدم له مزيداً من الخدمات ، وأن خمسين روبلاً مبلغ زهيد جداً ،
وأنه سيزيد لى هذا المبلغ ، فذلك واجبه ، وأنه كان قد اتفق على هذا
مع تاتيانا بافلوفنا ، لكنه ارتكب « نسياناً لا يفتقر » . فانفجرت وأعلنت
جازماً أننى ألطخ شرفى اذا أنا تقاضيت أجراً على قصص فاضحة رويتها
له عن ملاحقتى امرأتين حتى « معهد الأوانس » ، وقلت اننى لم أدخل
فى خدمته من أجل أن « أسليه » بل من أجل أن أقوم بعمل جاد مفيد ،
فاذا لم يكن هنالك عمل أقوم به ، فلا بد أن أمضى ، الخ الخ . . ما كنت
أتخيل أن امرأاً يمكن أن يصيبه من الارتياح ما أصاب الأمير بعد سماعه
هذه الكلمات القليلة . على أن الأمور انتهت كما يلي : كفتت عن
الاحتجاج ، ودس الأمير المبلغ فى يدي قسراً .

مايزال جينى يحمر حين أتذكر أننى قبلت هذا المال ! ان كل

شيء في هذه الحياة الدنيا ينتهي دائماً بصغار وحقارة • والأنكى من ذلك أنه كاد يبرهن لى على أنني كسبت هذا المال حقاً لا مراء فيه ؛ وكنت من الحماسة بحيث صدقته لقد • بدا لى أنه يستحيل على إطلاقاً أن لا آخذه •

- يابنى العزيز ، يابنى العزيز (١) (صاح كذلك وهو يعانقنى ويفرقنى بالقبل - ويجب أن أعترف أنني كنت أوشك أن أبكى لا أدرى لماذا، ولكننى ملكت زمام نفسى وحسبت دموعى ؛ وحتى الآن ، وأنا أكذب هذه الأسطر ، يصعد الدم الى رأسى ويحمر وجهى -) يا صديقى العزيز ، أنت لى بمنزلة ابن ، وقد أصبحت خلال هذا الشهر جزءاً من قلبى ! ليس فى « المجتمع » الا « ناس » ، ولا شيء غير ذلك • ان كاترين نيقولايقنا (ابنته) امرأة لامعة مرموقة ، وانى لفخور بهذا ، ولكنها كثيراً ما تجرح شعورى يا عزيزى •• أما أولئك البنات (وهن فى غابة الظرف واللفظ (١) وأمهاتهن اللواتى يأتين مباركات مهنتات بعيدى ، فهن يحملن الى الهدايا من جميل مطرزاتهن ، ولكنهن عاجزات عن قول كلمة واحدة • اننى أملك الآن من هذه المطرزات حوالى ستين مخدة كما أملك من هداياهن كلابا كثيرة ووعولاً جميلة • اننى أحبهن كثيراً ، أما أنت فتسأنى معك شأن آخر • اننى أكاد أشعر حين أجالسك بأننى مع ابنى ، أو قل مع أخى ، وما أكر ما أحب أن تجاوبنى وترد على •• انك على حظ من المعرفة بالآداب •• لقد قرأت •• وأنت قادر على الحماسة •

- أنا لم أقرأ شيئاً ، وليس لى من المعرفة بالآداب أى حظ • قرأت ما اتفق أن وقع فى يدى • وفى الستين الأخيرتين لم أقرأ شيئاً البتة ، ولن أقرأ بعد اليوم شيئاً البتة أيضاً •

- لماذا ؟

(١) بالفرنسية فى الاصل •

- لي أهداف أخرى

- يا عزيزي (١) ، لسوف يكون مؤسفاً أن تقول في أواخر حياتك ما أقوله أنا الآن : أعرف كل شيء ، ولكنني لا أعرف أي شيء .
تافع (١) . انني لا أدري حقاً لماذا عشت ا غير أنني مدين لك بأمور كثيرة . . بل لقد كنت أريد . . .

وقطع الأمير حديثة فجأة ، وأظلم وجهه ، وأصبح حالماً . انه بعد كل هزة (وكانت هذه الهزات يمكن أن توافيه في كل لحظة ، لا يعلم سبب ذلك الا الله) ، يفقد في العادة قدرته على التفكير والتصرف بعض الوقت ؛ الا أنه يبلغ من السرعة في العودة الى حاله الطبيعية أن ذلك كان لا يضيره كثيراً . وظللنا على هذه الحال مدة دقيقة . كانت شفته السفلى ، السميكة ، متدلية تدلياً تاماً . . والأمر الذي أثار دهشتي أكثر من أي شيء آخر هو أنه ذكر اسم ابنته ، وخاصةً بهذه الصراحة كلها . وقد عزوت ذلك الى ما اتقاه من اضطراب الفكر .

قال فجأة :

- بنى العزيز (٣) . أنت لا تؤاخذني ، أليس كذلك ؟ أنت لا تؤاخذني اذا خاطبتك بصيغة المفرد ؟

- أبدأ . على أنني أعترف لك أن ذلك قد ساءني في المرات الأولى قليلاً ، حتى لقد أردت أن أبادلك ذلك فأخاطبك بصيغة المفرد . ولكنني أدركت أن ذلك يكون حماقةً مني ، لأنك لا تخاطبني بصيغة المفرد على سبيل الإهانة والاذلال .

ولاحظت أنه كان قد كف عن الاصغاء اليّ ونسى السؤال أسماً ،
بينما كنت أتكلم .

(٣٠٢٠١) بالفرنسية في الاصل .

ورفع الى نظرتة الشاردة فجأةً وسألنى :

- وأبوك ؟

انتفضت • أولاً لأنه سمى فرسيلوف أبى ، وذلك ما لم يبحه
لنفسه يوماً قط • وثانياً لأنه تكلم عن فرسيلوف بادئاً ، وذلك ما لم يحدث
من قبل •

قلت فى جفاف ، وأنا احترق رغبةً فى الاطلاع :

- انه بلا مال ، يجتر أفكاراً سوداء مظلمة •

- نعم ، انه بلا مال • وفى هذا اليوم نفسه انما تنتظر قضيتهم فى
محكمة النقض والابرام ، وأنا أنتظر الأمير سرجى لأسمع ما سيقوله •
لقد وعدنى أن يجىء من المحكمة الى هنا رأساً • ان مصيرهم كله يتقرر
اليوم : والأمر أمر ستين ألفاً أو ثمانين • طبعاً أنا أحب الخير لأندره
بتروفتشى (أى فرسيلوف) ، وأظن أنه هو الذى سيكسب القضية • ولن
ينال الأمراء شيئاً • ذلك هو القانون !

صحت مبهوراً :

- اليوم 'يفصل فى القضية ؟

لقد امتلأت انبهاتا حين تصورت أن فرسيلوف لم يتنازل فينبئنى بهذا
الخير • وسرعان ما قلت لنفسي « لاشك اذن أنه لم 'يطلع أمى ولعله لم
يطلع أحداً قط • • • »

وفجأةً وافتنى فكرة أخرى فسألت :

- وهل الأمير سوكولسكى هو الآن بيطرسبرج ؟

- منذ أمس • جاء رأساً من برلين ، لهذا اليوم •

وهذا نبأ آخر بالغ الخطورة عندى • « سيحىء اليوم الى هنا ،
الرجل الذى قام هو بالصفحة • • • »

- أى نعم ! (أردف الأمير يقول وقد تغير وجهه فجأة) انه لا يزال يعظ ! .. ولاشك .. أنه لا يزال يجرى وراء الفتيات ، الفتيات الصغيرات اللواتى ليس لهن فى الحياة تجارب ! هه هه ! بالنسبة ، عندى نادرة من النوادر المضحكة جداً !

- من الذى يعظ ؟ من الذى يجرى وراء الفتيات ؟

- آندره بترفتش ! هل تصدق أنه كان لا ينفك يضايقنا جميعاً : ماذا نأكل ؟ فى أى شىء نفكر ؟ وأسئلة أخرى من هذا القبيل . كان يخيفنا . كان يقول لنا مثلاً : « اذا كنتم متدينين ، فلماذا لا تدخلون الدير ؟ » . هكذا ، لا أكثر ولا أقل . يا لها من فكرة ! (١) لعله كان على صواب . ولكن أليس هذا قاسياً ؟ وكان يجب أن يخيفنى أنا خاصة ، كان يجب أن يخيفنى بالحديث عن قيام الساعة ويوم الحساب . أنا خاصة .

- لم ألاحظ شيئاً من هذا وقد انقضى شهر على وجودنا معاً .

قلت ذلك نافد الصبر ، وقد ساءنى أنه لم يعد الى رشده وأنه لا يزال يتعثر فى كلامه ويسوقه فوضى بغير ترتيب ..

- ذلك أنه أصبح لا يقول لى هذا الكلام . ولكن صدقنى . هذا حق . انه رجل ذكى لا يُجحد ذكاؤه ، وانه عميق العلم ، ما فى ذلك شك . ولكن هل هو متزن ؟ لقد وقع له هذا كله بعد اقامته فى أوروبا ثلاث سنين . وانى لأعترف لك بأن ذلك هزنى هزاً قوياً .. كما هز سائر الناس على كل حال .. انتى أحب الله يا بنى (١) انتى مؤمن ، مؤمن بقدر ما أستطيع .. ولكنه قد أخرجنى عن طورى فى تلك اللحظة .. ولنسلم بأننى استعملت وسيلة كان فيها شىء من طيش .. لقد فعلت ذلك عامداً ، من قبيل النكايه . ثم ان اعتراضى كان فى حقيقة الأمر

(٢٠١) بالفرنسية لى الاصل .

لا يقل جديةً عنه منذ بدء العالم • قلت له : « اذا كان يوجد كائن أسمى ،
واذا كان يوجد وجوداً شخصياً ، لا على صورة روح مبنوثة في الخليقة ،
على صورة سائل مثلاً (لأن هذا أعسر على الفهم أيضاً) ، فأين هو هذا
الكائن الأسمى ، أين مكانه ؟ ، يا صديقي ، لقد كن هذا الكلام هراءً
سخيفاً من غير شك • ولكن ألا ترتد جميع الاعتراضات اليه ؟ وقد غضب
غضباً رهيباً • ذلك أنه كان قد اعتنق الكاثوليكية هنالك •

– سمعت من يقول هذا • ولا شك في أنه كذب واختلاق •

– أوكد لك أن هذا هو الواقع ، وأحلف عليه بأقدس ما أقدمس •
أنظر اليه وأنهم النظر ! ثم انك أنت نفسك تقول انه تبدل • فهل تصدقه
يوم كان يرهقنا ذلك الارهاق كله ؟ كان يصطنع أوضاع قديس ، فلا
يكاد ينقصه الا أن يقوم بمعجزات • كان يحاسبنا على سلوكنا حساباً
عسيراً ، أقسم لك • معجزات •• واليك شيئاً آخر (١) • انه سواء أكان
راهباً أم زاهداً ، فانه يتجول هنا بمسوح على كل حال •• أما الباقي ••
وبعد هذا يتكلم على المعجزات ! ألا انها لرغبة غريبة لدى انسان من
المجتمع الراقى ! لست أدعى طبعاً أن •• فتلك أشياء مقدسة ، وكل شيء
يمكن أن يقع •• أضف الى ذلك أن هذا كله من باب المجهول (١) •
لكن الأمر لا يليق بانسان من المجتمع الراقى • وانى لأقسم لك صادقاً
غير حاث أن هذا الشيء لو وقع لي أو غرض عليّ لرفضته • هبني أتناول
اليوم طعام الغداء في النادي ، ثم اذا بي أصنع معجزات (١) على حين
غرة • لسوف يضحك عليّ الناس عندئذ •• وهل تعلم أنه كان يحمل
سلاسل ؟

احمر وجهي غضباً فسألته :

– هل رأيت أنت هذه السلاسل ؟

(١) بالفرنسية في الاصل •

– لم أرها ، ولكن ...

– اذن فذلك أكاذيب ، تلك أراجيف باطلة ، تلك نيمية أعداء
بل قل انها نيمية عدو واحد ، لأنه ليس له الا عدو واحد ، هو ابتك •
وانفجر الأمير هو أيضاً قائلاً :

– يا عزيزى (١) ، أرجوك وألح فى الرجاء أن لا يُذكر اسم
ابنتى بعد اليوم بصدد هذه الحكاية البشعة !
وهمت أن أنهض • لقد خرج الأمير عن طوره ، وكانت ذقنه
ترتجف ارتجافاً •

– هذه القصة البشعة ! (١) أنا لا أصدقها •• ولم أشأ يوماً أن
أصدقها •• ولكن قيل لى •• صدق أنتى •• صدق أنتى ••
ودخل علينا خادم فى تلك اللحظة يبلغ عن قدوم زائرين • ففعدت •

(١) بالفرنسية فى الاصل •

دخلت سيدتان ، بل قل فئتان •• احدهما هي زوجة ابن أحد أبناء عمومة المرحومة زوجة الأمير ، أو هي شيء من هذا القيل • انها واحدة ممن يرعاهن الأمير ، وكان قد ذهب لها مهرأ ، وهي تملك تروة ضخمة (أذكر هنا الآن للمستقبل) • أما الثانية فهي آنا آندريفنا فرسيلوفا ، بنت فرسيلوف ، التي تكبرني بثلاث سنين وكانت تعيش مع أخيها لدى فاناريوتوفا ، والتي لم أكن قد رأيتها قبل ذلك الا مرة واحدة ، مصادفةً في الشارع ، رغم أنني كنت قد تشاجرت مع أخيها ، مصادفةً كذلك ، في موسكو (قد أجيء على ذكر هذه المشاجرة التافهة فيما بعد ، اذا وجدت متسعاً لذلك ، لأنها لا تستحق في الواقع عناء الحديث عنها) • ان آنا آندريفنا هذه كانت منذ طفولتها أثيرة الأمير الكبرى (كانت علاقات الأمير بفرسيلوف قد بدأت منذ زمن بعيد جداً) • كنت قد بلغت من الاضطراب بسبب ما حدث قبيل دخولهما أنني لم انهض ، رغم أن الأمير هبّ واقفاً لاستقبالهما • ثم قدرت بعد ذلك أنه سيكون أمراً مخجلاً أن انهض بعد فوات الأوان ، فلبثت جالساً في مكاني • وكنت على وجه الخصوص متحيراً لا أدري ماذا أفعل ، بعد أن صرخ الأمير في وجهي ثلاث مرات قبل دقائق ثلاث ؛ ولبثت لا أدري أيجب أن أنصرف أم يحسن أن أبقى • ولكن العجوز الطيب كان قد نسي كل شيء على عادته ، وارتدت اليه حرارته كاملةً جميلةً حين رأى الفئتين • حتى لقد استطاع أن يسارع فيغير سحنته ، ويغمزني غمزةً عجيبة ، ليهمس في أذني على عجل قبيل دخولهن قائلاً :

– أنظر الى أولب جيداً ، أنعم النظر فيها .. وسأروى لك فيما

•• بعد

وقد أنعمت النظر اليها فعلاً ، فلم أجد فيها شيئاً خاصاً يلفت
البصر : هي فتاة متوسطة القامة ، بدينة الجسم ، حمراء الخدين احمراراً
شديداً . وجهه متمتع على كل حال ، من تلك الوجوه التي ترضى
الشهوانيين . ولقد يعبرٌ عن طيبة ، لكنه يعبر أيضاً عن خفايا . ليس
الذكاء هو الذى يمكن أن يجعل هذه الفتاة لامعة ، وأعنى بالذكاء معناه
العالى فى أقل تقدير ، لأن المكر واضح فى عينيها . انها تتجاوز التاسعة
عشرة من عمرها . لا شئ فيها يخطف البصر اذن . فلو كنا فى المدرسة
الثانوية لوصفناها قائلين : مخددة طرية . (اذا كت أصفها هذا الوصف
المفصّل كله فما ذلك الا لأنه سيفيدنى فيما بعد)

هذا الى أن كل ما وصفته حتى الآن مفصلاً هذا التفصيل الذى قد
يبدو نافلاً لا غناء فيه ولا حاجة اليه ، انما هو توطئة لازمة لما سيلي من
حديث : انى لم أستطع أن أتحدثي ذكر هذه التفاصيل . فان وجدتكم
كلامى مملاً باعثاً على السأم فلا تقرأوا .

أما بنت فرسيلوف فهى شخص آخر مختلف كل اختلاف : هي
فتاة فارعة القوام ، أميل الى النحافة ، ذات وجه يضاوى واضح الشحوب ،
ولكن شعرها فاحم غزير ؟ عيناها قاتماتان واسعتان . نظرتها عميقة .
شفتاها رقيقتان بلون الارجوان . فمها غضض نصير . انها أول امرأة لم
توقظ مشيتها فى نفسى شيئاً من اشمزاز . ثم انها رقيقة الخاتمية على
شئ من جفاف . وجهها لا يعبر عن طيبة القلب بقدر ما يعبر عن الجذ
والانزان . وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ولا يكاد مظهرها
يشبه مظهر أيها فى شئ . ومع ذلك يشمر المرء ، لا أدرى كيف ، بأن
بينها وبينه شبهاً عجيباً خارقاً فى تعبير الوجه والسحنة . لا أدرى أهى

تعد جميلة أم لا ، فالأمر هنا أمر ذوق • وكانت الفتان كلتاهما ترتديان ملابس بسيطة متواضعة ، ليس فيها ما يستحق أن يوصف • وكنت أتوقع أنني لن ألبث أن تجرح شعوري نظرة من فرسيلوفا أو حركة • وتهأت للأمر • لشد ما أهانني أخوها في موسكو منذ أول لقاء بيني وبينه في هذه الحياة ! وما كان يمكن أن تعرفني اذا رأيتني ، ولكن لا شك أنها كانت قد سمعت عن وجودي لدى الأمير • فقد كان كل ما ينتويه الأمير أو يشرع فيه أو يقوم به يثير اهتماماً سريعاً ويبدو حدثاً كبيراً لدى كل هذه العصابة من الأقرباء « والأدعياء » : فكان شغفه بي على حين فجأة أحق باهتمامهم • وكنت أعلم علم اليقين أن الأمير مهتم أشد الاهتمام بمصير أنا آندريشنا ، وأنه كان يبحث لها عن خطيب • ولكن العثور على خطيب لفرسيلوفا كان أعز منالاً من العثور على خطيب لواحدة من أولئك المواتي كن يطرزن له الطنافس •

وعلى خلاف كل ما كنت أتوقع رأيت فرسيلوفا ، بعد أن صافحت الأمير وبادلته بعض الملاحظات الاجتماعية ، تلقي على نظرة استطلاع قوية ، حتى اذا لاحظت أنني أرنو إليها بصرى أيضاً ، انحنت على حين فجأة متبسمة • صحيح أنها كانت قد دخلت منذ هنيهة قصيرة ، وأنها انحنت كما انحنت في المرة السابقة ، ولكن ابتسامتها قد بلغت من اللطف مبلغاً يدل دلالة واضحة على أنها كانت مقصودة • وما زلت أذكر أنني شعرت من ذلك عندئذ بمتعة رائعة تبعث على الدهشة •

تتم الأمير متلعثماً وقد لاحظ أنها حيتني وأنتى لبثت قاعداً :

— وهنا ••• هنا ••• صديقي العزيز الشاب أركاد آندريشش

••• دول

وانقطع فجأة عن اتمام جملته • لعله خجل أن يقدمني إليها (أى أن يقدم أخاً لأخته) • وحيتني المخدة الطرية أيضاً • ولكنني ما لبثت

أن غلى الدم فى عروقى فجأة ، بحماسة شديدة ، فوثبت عن مقعدى : هى
اندفاعه زهو مصطنع لا معنى لها البتة • هى أنانيتى نفسها لم تتغير !

قلت أقاطع الأمير مقاطعة عنيفة ، ناسياً أنه كان على أن أرد تحية
السيداتين ، كما توجب ذلك آداب اللباقة :

- عذراً أيها الأمير ، أنا لست آرКАД آندريفتش ، بل آرКАД
ماركوفتش •

- ها ... نعم ! (١) •

كذلك هتف الأمير وهو يلطم جبينه بأصبعه •

ودوى فوق رأسى سؤال غبى بعض الغباوة بطيء بعض البطء ،
ألقته على « المخذة الطرية » وهى تقترب منى اقتراباً شديداً :

- أين تعلمت ؟

- بموسكو طبعاً ، فى الليسيه •

- ها ... نعم • قيل لى ذلك • هل التعليم فيها جيد ؟

- جداً •

كنت لا أزال واقفاً أجب كما يجيب جندى رئيسه •

لا تدل أسئلة هذه الفتاة على كثير من الخيال طبعاً • لكن هذا
لا ينفى أنها وجدت ما ينسى الآخرين اندفاعتى الحمقاء السخيفة ، وما
يهدى اضطراب الأمير ، الذى أخذ يصفى ، بابتسامة فرحة ، الى الأشياء
المرحة التى كانت تهمس له بها فرسيلوفا (كان واضحاً أن الحديث بينهما
لم يكن عنى) • ولكن لماذا قدرت هذه الفتاة التى لا أعرفها البتة أن من

(١) بالفرنسية لى الاصل •

المفيد أن تقول ما يُنسى حماقتي الهوجاء وغير ذلك ؟ ان من المستحيل على المرء أن يصدق أنها فعلت معي ذلك لغير سبب : لا شك أن لها نية • وكانت تنظر الىّ نظرة استطلاع شديد • لكنّها كانت تريد ، هي أيضا ، أن أكثر من النظر اليها ما أمكن • قلت هذا كله لنفسى • • • • ولم يخطئ ظنى •

صاح الأمير يقول فجأة وهو ينهض عن مقعده :

- كيف ؟ اليوم ؟

فقالت فرسيلوفا مدهوشة :

- اذن أنت لا تعرف ذلك • يا آلهة الأولمب (بالفرنسية) •

كان الأمير لا يعلم أن كاترين نيقولايقنا قد وصلت اليوم •

وأضافت فرسيلوفا :

- لقد ذهبنا اليها وكنا نظن أنها ركبت قطار الصباح ، وأنها فى الدار منذ زمن طويل • ولكننا التقينا بها أمام سلم الباب ، واصلةً من المحطة رأساً ، فطلبت منا أن ندخل اليها ، وستجئ الى هنا بعد قليل • • بل هاهى ذى قد وصلت !

انفتح الباب الجانبى وظهرت تلك المرأة !

كنت أتخيل وجهها من قبل ، وذلك من صورة لها رائعة كانت معلقة فى مكتب الأمير • كنت قد درست هذه الصورة طوال ذلك الشهر • وفى حضورها ، قضيت فى ذلك المكتب ثلاث دقائق ، لا أحول بصرى عن وجهها لحظة واحدة • فلو كنت لا أعرف الصورة ، ثم سألتنى بعد تلك الدقائق الثلاث : « كيف وجدتها ؟ » ، لما أجبتك ، لأننى كنت لا أرى رؤية واضحة •

لقد بقيت لى من تلك الدقائق الثلاث ذكرى امرأة جميلة حقاً ،
كان الأمير يعانقها ويباركها بيده ، ثم اذا هو ، على حين غرة ، بعد دخولها
فوراً على وجه التقريب ، يلقي نظرة سريعة على . ولاحظت بوضوح
كيف دمدم لها الأمير بضع كلمات ، وهو يومئ الى من غير شك ، وكيف
أطلق ضحكة صغيرة فى حق سكرتيره الجديد وهو يسمينى .

ورأيتها تبوّز وترمقنى بنظرة سيئة وتبتسم ابتسامة بلغت من الوقاحة
أننى تقدمت خطوة الى أمام ، فاقتربت من الأمير ، وتمتمت مرتعشاً
ارتعاشاً جنوبياً ، دون أن أستطيع انهاء كلمة واحدة ، مصطك الأسنان
فيما أظن :

– اذن . . أنا . . أنا الآن . . مشغول . . أنا ذاهب .

وأدرت ظهري وخرجت . لم يقل لى أحد شيئاً ، ولا الأمير .
اقتصروا جميعاً على ملاحظتى بأبصارهم . وقد أمر لى الأمير فيما بعد
أننى بلغت من اصفرار الوجه أنه « شعر بخوف » .

وما كان الى الخوف داع .

الفصل الثالث

١



يكن الى الخوف داع : كان هنالك اعتبار واحد
يستغرق جميع التفاصيل ، كانت هنالك عاطفة
قوية تعوض عندي كل ما عدا ذلك • خرجت
وأنا أشعر بنوع من الحماسة • وحين وضعت
قدمي في الشارع كنت على استعداد لأن أصدق مقيماً • وبصدفة كأنها
ميعاد ، كان ذلك الصباح رائماً : شمس ، ومارة ، وضوضاء ، وحركة ،
وفرح ، وازدحام - كيف لم أشعر بأن هذه المرأة أهانتني ؟ ومن كان
يمكنني أن احتفل نظرة كهذه النظرة وابتسامه ووجه كهذه الابتسامه ،
دون أن أردّ ردّاً مباشراً مهما يكن أحرق ؟ لاحظوا أنها انما جاءت
خصيصاً على نية اهانتني بأسرع ما يمكن ، من قبل أن تراني • كنت في
نظرها « سمسار » فرسيلوف ، وكانت مقتنعة منذ تلك اللحظة - وقد
ظلت على هذه القناعة زمناً طويلاً بعد ذلك - أن فرسيلوف كان يقبض
بيديه على مصيرها كله ، وأنه كان قادراً على تدميرها في أية ساعة ، اذا
هو أراد ذلك ، بواسطة وثيقة من الوثائق •• أو هذا ما كانت تشبهه فيه
على كل حال • كانت المبارزة مبارزة موت • ومع ذلك لم أشعر بانتي
أهنت • كان ثمة اهانة ، لكنني لم أحسها • بل لقد شعرت بفرح • لقد

جئت من أجل أن أكره ، فإذا أنا أحس اننى بدأت أحبها • « انى لأتساءل هل يستطيع العنكبوت أن يكره الذبابة التى يتربص بها ويقبض عليها • أيتها الذبابة المسكينه ! صخيل الى أن المرء يحب فرسته ، أو انه يستطيع أن يحبها على الأقل • هكذا أحببت أنا عدوى • انى لسعيد سعادة رهيبة بأنها جميلة • اننى يا سيدتى لسعيد سعادة هائلة بأن تكونى • تعجرفة هذه العجرفة كلها متكبرة هذا التكبر كله : لو كنت أكثر تواضعاً لكنت أنا أقل تلذذاً • لقد بصقت على ، وأنا المنتصر فى الواقع • لو أنك بصقت فى وجهى فعلاً ، لما زعلت ، لأنك ضحيتى ، ولأنك لى أنا ، لا له هو ! ما أشد فتنة هذه الفكرة ! لا ، لا ، لأن يشعر المرء شعوراً خفياً بقدرته فذلك أمتع كثيراً من أن يكون مسيطراً سيطرةً ظاهرة • لو كنت غنياً أملك الملايين ، لطاب لى ، فيما أظن ، أن ارتدى ثياباً مرقعة ، وأن أوهم غيرى بأننى أبأس الناس طراً ، وبأننى شبه متسول ، وأن أجعلهم يزدروننى ويحتقروننى : حسبى عند ذلك شعورى برائى • • •

بهذا كنت أستطيع أن أفسر أفكارى وفرحى وكثيراً مما شعرت به يومذاك • لكننى أضيف الآن أن ما كتبت فى هذه اللحظات أكثر سطحية فى واقع الأمر : فالحق أننى كنت أعمق احساساً وأشد حياءً • وما زلت الى الآن أشد حياءً حقيقتى مما أقول ومما أفعل ، والحمد لله !

ولعلنى أخطأت اذ أخذت أكتب : ان ما يبقى فى أعماق نفسى من أمور أكثر كثيراً مما يظهر فى كلماتى • ما ظل تفكيرك فى داخلك ، فانه مهما يكن ضعيفاً يظل أعمق منه حين تفصح عنه • ان تفكيرك ، متى عبرت عنه ، يصبح أقرب الى الاضحاك وأبعد عن الصدق • لقد قال لى فرسيلوف ان نقيض هذا لا يصدق الا على الأشرار من الناس • ان هؤلاء لا يزدون على أن يكذبوا ، فالكذب سهل عليهم • أما أنا فانتى أحاول أن أكتب الحقيقة كلها : وفى هذا صعوبة هائلة •

فى ذلك اليوم ١٩ ، قمت بعمل آخر أيضاً .

لأول مرة منذ وصولى ، كان فى جيبي مال ، لأن الستين روبلاً التى كترتها خلال سنتين ، كنت قد أعطيتها أمى ، كما سبق أن ذكرت ذلك . ولقد قررت منذ بضعة أيام أن أقوم ، متى قبضت راتبي ، بتجربة حلمت بها زمناً طويلاً . وكنت فى اليوم السابق قد قصصت من احدى الجرائد اعلاتناً صادراً عن « المأمور الوزارى لدى مجلس محاكم الصلح فى بطرسبرج ، الخ الخ » يقول انه فى ذلك اليوم ١٩ ، عند الظهر ، فى تازان ، مديرية رقم كذا ، الخ الخ ، فى العمارة رقم كذا ، ستباع بالمزاد العلنى اثانات السيدة لبرخت ، وأن « الجرد » وتقدير الأسعار والأشياء المعروضة للبيع ، يمكن الاطلاع عليها يوم البيع نفسه ، الخ الخ . . .

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية ، فمضيت الى المكان المعين سيراً على الأقدام . انى منذ ثلاث سنين لا أتقل بعربات (ولولا ذلك ما استطعت أن أدخر ستين روبلاً) . ولم أكن أذهب الى المزادات ، لم أكن قد أبحث لنفسى هذا بعد ؟ واذا كانت الخطوة التى أقوم بها الآن هى من قبيل التجريب ، فانى كنت قد قررت أن لا أقوم بها الا بعد التخرج من الليسيه ، وبعد أن أقطع صلتى بالعالم كله ، فأعود الى فوقعتى وأملك حريتى كاملة . غير أننى كنت قد قررت أن لا أقوم بمثل هذه الخطوة الا على سبيل التجربة ، من أجل أن أرى ، أو من أجل أن أحلم قليلاً ، ثم قد لا أعود الى مثل ذلك زمناً طويلاً بعدئذ ، الى أن يأتى اليوم الذى قد أعود فيه الى هذا العمل جاداً . كان ذلك المزاد ، عند غيرى ، مزاداً صغيراً لا قيمة له . أما عندى أنا فكان أول خشبة فى المركب الذى سافر

عليه كريستوف كولومب يستكشف أمريكا • تلکم هي العواطف التي كانت تملأ نفسي حينذاك •

فلما بلغت المكان نفذت في مدخل من فناء العمارة التي حددها الإعلان ، ودخلت شقة السيدة لبرخت • ان الشقة تتألف من فسحة وأربع غرف صغيرة واطئة السقف • فأما في الغرفة الأولى بعد الباب فكان يزدهم جمهور يبلغ نحواً من ثلاثين شخصاً ، نصفهم من الذين سيشترون في المزاد ، والآخرون لا يخفى على الناظر اليهم من أول وهلة أن بعضهم 'طلعة' أو هواة أو أناس يشاركون في المزاد لصلحة أسرة لبرخت ؛ وكان هنالك تجار ، وكان هناك يهود يترقبون أن يقموا على أشياء مذهبة ، وكان هنالك أشخاص « مهندمون » ، انطبعت وجوه بعضهم في ذاكرتي انطباعاً عميقاً • وعند الباب المفتوح من الغرفة الواقعة في الجهة اليمنى ، وضعت بين المصراعين منضدة تحول بين المرء وبين أن يستطيع الدخول الى تلك الغرفة : فهناك كانت توجد الأشياء التي تضمها القائمة والتي ستعرض للبيع • وعلى اليسار غرفة أخرى ، لكن بابها مغلق ينشق من حين الى حين فيرى وراءه شخص ينظر : لاشك أن هذا الشخص هو أحد أفراد أسرة لبرخت الكثيرين ، ولاشك أنه كان يشعر بغير قليل من الحجل طبعاً • ووراء المنضدة ، في مواجهة الجمهور تماماً ، كان يجلس « مأمور الوزارة » متزيناً بوسامه ، يتولى عمل البيع • وحين وصلت كان قد انتهى من المزاد نصفه تقريباً • فأسرعت أشق لنفسي طريقاً حتى بلغت المنضدة • كانت تعرض عندئذ شمعدانات من البرونز • ونظرت •

نظرت ثم ما لبثت أن قلت لنفسي : ما عساي اشترى هنا؟ وأين أؤس هذه الشمعدانات من البرونز؟ هل، يتحقق هدفي؟ أهكذا تتم الأمور؟ هل يصدق حسابي؟ ترى ألم يكن حساب صبية صغار؟ كنت أدير هذه المعاني في نفسي وأنتظر • وذلك هو على وجه التقريب الشعور الذي يحسه امرأة أمام مائدة مقامرة قبيل « الحط » حينما يقترب بورقته • انه يتساءل :

« ان فى وسعى أن « أخط » ، وفى وسعى أن أمضى ، وكل شىء رهن
بى . . . ان قلبه لا يكون قد أخذ يدق دقاً شديداً بعد ، ولكنه يكون قد
أخذ يتهالك ويخفق خفقاناً خفيفاً - وذلك احساس لا يخلو من لذة .
ولكن التردد ما يلبث أن يثقل عليك ، فأنت كالأعمى : تمد يدك ، تتاول
ورقة ، ولكن على غير ارادة منك ، وربما على رغم ارادتك ، كأن شخصاً
آخر هو الذى يحرك يدك . وها أنت ذا تقرر أخيراً ، « فتخط » ان
احساسك يختلف عندئذ اختلافاً كبيراً ، انه احساس آخر تماماً ، احساس
كبير واسع . لست أتكلم الآن على المزاد ، وانما اتكلم عن نفسى : من ذا
الذى لعله يشعر بخفقان القلب أثناء بيع بالمزاد ؟

كان هنالك من يتحمسون ، وكان هنالك من يصمتون ويترقبون .
وكان هنالك من يشتررون ثم يندمون . وما شعرت بشفقة قط على ذلك
الرجل الذى أخطأ السمع حين المناداة على ابريق من معدن المخور ،
فحسبه من فضة فاشتراه بخمسة روبلات بدلاً من روبلين اثنين ، حتى
لقد أفرحنى ذلك كثيراً . وكان المنادى ينوع الأشياء التى يعرضها للبيع .
فبعد الشمعدانات ، عرض قرطين مما تزين به النساء آذانهن ، ثم مخدة
من جلد مطرز ، ثم صندوقاً صغيراً . ولعله كان ينوع هذا التنوع اما
للتنوع ذاته ، واما استجابة لمطالب الجمهور . لم أستطع أن أنتظر أكثر
من دقيقتين ، فاقتربت من المخدة أولاً ، ثم من الصندوق الصغير ، لكننى
كنت فى كل مرة أتوقف فى اللحظة الحاسمة : مستجلب أن اشترى أشياء
كهذه . وأخيراً ظهر بين يدي المنادى « ألبوم » .

« ألبوم ، مجلد بجلد أحمر ، يستعمل ، عليه رسوم بالتلوين المائى
والحبر الصينى ، فى غمد من عاج محفور ، مع مغاليق من فضة :
روبلان » .

تقدمت : كان الألبوم يبدو رائعاً ، الا أن فى شغل علاجه عيباً .

كنت الشخص الوحيد الذى مضى ينظر فى « الألبوم » • صمت الجميع •
ما من منافس • كان فى امكانى أن أسأل الألبوم من غمده لأدقق النظر
فيه ، لكننى لم أستعمل هذا الحق ، وأشرت الى النادى بيد ترتعش :

– روبلان وخمسة كويكات •

كذلك قلت وأسنانى تصطك فيما أظن •

وقع المزاد علىّ • فسرعان ما سحبت الثمن من جيبي ، فدفعته ،
وأخذت الألبوم ، ومضيت الى ركن من الترفه ، فأخرجته من غمده ،
وأخذت أتأمله محمواً مسرعاً : اذا صرفنا النظر عن الغمد فان « الألبوم »
أبأس « ألبوم » فى الدنيا بأسرها • • هو ألبوم صغير ليس أكبر من ورقة
صغيرة من أوراق الرسائل ، نجيل شديد النحول ، قد حال تذهيب غلافه
أو كاد ، يشبه تماماً تلك « الألبومات » التى كنا نراها لدى الفتيات عند
انتهائهن من المدرسة الابتدائية • وقد رسمت عليه بالتلوين المائى والحبر
الصينى رسوم معابد فوق جبال ، ومشاهد غرام ، وغدير تسبح فى مائه
بجعات ؟ وكنت كذلك أبيات شعر :

انا ذاهب مسافر بعيدا

أنا تارك موسكو ولن أعودا .

تحية الوداع يا احيتى

ففى بلاد الكرم صارت مهنتى

لقد بقيت هذه الأبيات فى ذاكرتى) • وخلصت من ذلك الى أننى
أخفقت اخفاقاً ذريعاً • اذا كان هناك شىء لا حاجة بأحد اليه فى العالم كله ،
فهو هذا الشىء عينه • قلت لنفسى : « لا ضير • • ان أول رهان خاسر
دائماً • حتى لقد يكون خسرانى هذا بشير خير » • لقد كنت فرحاً حقاً •
وبينا كنت أقول هذا الكلام لنفسى اذ دوى صوت فى أذنى قائلاً :

– آ • • • وصلت متأخراً • هو معك ؟ هل اشتريته ؟

هو صوت سيد يرتدى معطفاً أزرق ، حسن القامة ، جميل الهندام •
لقد جاء متأخراً • وأضاف يقول :

- نعم ، وصلت متأخراً • يالها من مصيبة ! بكم اشتريته ؟

- بروبلين وخمسة كوبيكات •

- خسارة ! ألا تتنازل لى عنه ؟

فهمست فى أذنه قائلاً وقد أخذ قلبى يخفق :

- لنخرج !

• وخرجنا الى الفسحة أمام باب المنزل •

- اتنازل لك عنه بعشرة روبلات •

قلت له ذلك بينما كانت تسرى فى ظهري قشعريرة برد •

- عشرة روبلات • اسمح لى ! ما هذا الذى تقول ؟

- انت حر •

نظر الى الرجل ملياً • كنت حسن الملبس ، فما أشبه أن أكون

يهودياً أو متاجراً • قال :

- ولكن ، أرجوك ، هذا ألجوم عتيق لا قيمة له ! فيم عساه ينفك ؟

ان الغمد نفسه لا يساوى شيئاً • ولن تجد من يشتريه منك •

- ومع ذلك فأنت تريد أن تشتريه •

- لسبب خاص ، عرفته أمس فقط • أنا انسان فريد فى نوعه •

- كان يجب أن أطلب خمسة وعشرين روبلاً ، ولكن لما كان

يمكن أن تعدل عندئذ عن شرائه فقد اكتفيت بطلب عشرة روبلات ،

زيادة فى الضمان • ولن أخفض الثمن كوبيكاً واحداً •

قلت ذلك ثم أدت ظهري وانصرفت •

فأدركنى فى فناء الدار ، وقال :

- خذ أربعة روبلات ، بل اليك خمسة ! فطلت أسير دون أن

أجيب •

- طيب • خذ •

قال ذلك وهو يمدُّ الى عشرة روبلات ، فأعطته « الألبوم » •

قال :

- اعترف أن هذا ليس من الشرف فى شيء • شيء تشتريه بزوبلين

ثم تبعه بعشرة !

- ولماذا لا يكون من الشرف فى شيء ؟ هذا سوق •

- أى سوق ؟ (وأخذ يفضب) •

- حيث يكون طلب يكون سوق • لولا أنك طلبته لما قدر لى أن

أبيعه بأربعين كوبكاً •

جهدت أن لا أنفجر ضاحكاً ، وأن أحتفظ بمظهر الجذ ، فضحكت

فى داخل نفسى - ضحكت لا عن حماسة ، ولكن دون أن أعرف لماذا !

وكنت كمن تخشع أنفاسه قليلاً •

جمجمت أقول له ، رغم ارادتى تماماً ، ولكن بلهجة الصديق ،

وعلى شعور بالمودة له :

- اسمع ما سأقوله لك • ان المرحوم جيمس روتشيلد الباريسى ،

الذى خلف تركة تقدر بمليار وسبعمائة مليون فرنك (هز الرجل رأسه

موافقاً) ، حين علم ، فى شبابه ، مصادفةً ، قبل غيره ببضع ساعات ،

بمقتل دون بيرى ، أسرع يبلغ من يجب ابلاغه ، فكسب بذلك عدة ملايين

فى طرفة عين • هكذا يعمل !

- أنت اذن روتشيلد ؟

كذلك صاح مستاءً كأنه يوجه كلامه الى غبي أبله • خرجت من البيت نشطاً • مسعى واحد بربح سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبيكا ! لقد كانت مجازفتي حمقاء ، كانت لعبة طفل • اننى أسلم بذلك • ولكنها كانت تتفق مع فكرتى ولا يمكن الا أن تملأ نفسى انفعالاً عميقاً • • ولا داعى الى وصف عاطفتى • ان الورقة النقدية فى جيب صدرتى ، وأنا أدس اصبعى فى الجيب أتلمسها وأجسها ، وأسير هكذا لا أستل يدي من جيبي • حتى اذا صرت على مسافة مائة متر من الدار ، تناولت الورقة النقدية أنظر فيها ، وأنفحصها ، حتى لقد اشتبهت أن أقبلها • وفجأة توقف أمام أحد المنازل ركب • ففتح الجندى الباب ، وصعدت الى العربية سيدة باذخة المظهر ، فى ريعان الصبا ، بارعة الجمال ، واسعة الثراء ، ترفل فى حرير ومخمل ، ويبلغ ذيل ثوبها متراً ونصف متر • وفجأة افلتت من يديها محفظة جميلة صغيرة فسقطت على الأرض • واستقرت السيدة فى موضعها من العربية ، فمال الخادم على الأرض يريد أن يتناول المحفظة ، ولكننى أسرع فالتقطتها بوثبة سريعة ، ومددتها الى السيدة رافعاً قبعتى (وهى قبة عالية • لقد كنت ارتدى ملابس شباب يعنى بهندامه) • فقالت لى السيدة فى وقار وتحفظ ، مع ابتسامة لطيفة غاية اللطف : « شكراً يا سيدى » • ومضت العربية • وقبّلت ورقة العشرة روبلات •

فى ذلك اليوم نفسه كان على أن ألقى ايفيم زفيريف ، وهو واحد من رفاقى فى اللسيه تركها ليدخل مدرسة خاصةً ببطرسبرج . انه لا يستحق أن أصفه لك الآن ، ولم تكن لى به أية صداقة . ولكننى أخذت أبحث عنه . ان فى وسعه (وذلك بسبب ظروف لا تستحق أن تذكر أيضاً) أن يدلنى على عنوان رجل اسمه كرافت كنت فى حاجة ماسة اليه متى رجع من فلنو . وكان زفيريف ينتظر وصوله فى ذلك اليوم نفسه ، أو فى الغداة ، وأعلمنى بذلك أول أمس . كان يجب على أن أذهب الى بطرسبرجسكيا ستورونا ، لكننى لم أكن أشعر بتعب .

وجدت زفيريف (وهو فى التاسعة عشرة من عمره أيضاً) ، فى فناء منزل عمته التى كان يقيم عندها وقتاً . كان قد تناول غداه ، فهو يتنزه الآن فى الفناء فوق عكازين طويلين . فأسرع يبتئنى أن كرافت وصل أمس ، وأنه نزل شقته القديمة فى بطرسبرجسكيا ستورونا ، وانه يريد هو أيضاً أن يرانى فى أقرب وقت ممكن ، لأنه يحمل نبأً مستعجلاً يريد أن ينقله الى وختم ايفيم كلامه بقوله :

– وسيسافر غداً ، لا أدرى الى أين !

ولما كان لقائى كرافت على جانب عظيم من خطورة الشئان عندى ، فى الظروف الراهنة ، فقد رجوت ايفيم أن يقودنى اليه فوراً ، مادام يقيم فى شارع صغير مجاور ، على بعد خطوتين من هناك . ولكن زفيريف قال انه صادفه منذ ساعة ذاهباً عند درجاشيف . وأردف يقول :

– فلنذهب الى درجاشيف ! ما لك تتصل دائماً ؟ أنت خائف ؟

لقد يتأخر كرافت عند درجاشيف ، فأين عسى أجدّه بعدئذ؟ ولم أكن أخاف درجاشيف ، لكننى لا أحب أن أذهب اليه ، رغم أن ايفيم حاول أن يأخذنى اليه غير مرة . هذه هي المرة الثالثة على الأقل . وكان يطرح علىّ دائماً هذا السؤال : « أنت خائف ؟ » ، مبتسماً ابتسامة خبيثة . ولم يكن الأمر أمر خوف مع ذلك ، أقول هذا سلفاً ؛ وإذا كنت أشعر بشيء من خشية ، فذلك شأن آخر . وقررت هذه المرة أن أذهب الى درجاشيف وكان المكان على مسافة خطوتين أيضاً . سألت ايفيم أثناء الطريق أما يزال عازماً على الهروب الى أمريكا . فأجاب يقول ضاحكاً ضحكة يسيرة :

- قد أترّيث .

لم أكن أحبه كثيراً ، بل لم أكن أحبه البتة : ان شعره يشبه من شدة شقرته أن يكون أبيض وان وجهه مدور مسرف فى بياضه الى حد غير لائق يكاد يكون وجهه حبي صغير . ورغم أنه أطول منى ، فلقد كان من المستحيل أن يحسبه المرء فوق الساعة عشرة من العمر . أما أن يقوم بينك وبينه حديث فذلك مستحيل .

سألته لأقول شيئاً ما :

- وماذا يجرى هنالك ؟ أما تزال تجتمع عنده جمهرة غفيرة ؟

فقال مرة أخرى ضاحكاً :

- ولكن لماذا لا تزال خائفاً ؟

أجبت غاضباً

- كفاك سخفاً !

- لا جمهرة ولا شيء من ذلك . ليس يجيء الا أصحاب . ما من

غريب واحد . اطمئن بالاً !

- وفيه يعينى أن يكونوا غرباء أو أن لا يكونوا غرباء؟ ثم ، ألسنت
أنا غربياً هناك؟ كيف تريد أن يتقوا بى؟

- يكفى أنتى أقودك أنا اليهم . لقد سمعوا عنك . ومن الجائز
أيضاً أن يقول كرافت رأيه فيك .

- اسمع ، هل سيكون فاسين هناك؟

- لا أدرى .

- اذا كان هناك فالكزنى بكوعك متى دخلنا ودلتى عليه . متى
دخلنا . سمعت؟

كنت قد سمعت كثيراً عن فاسين ، وكنت أهتم به منذ زمن طويل .

كان درجاتشيف يسكن مع زوجته وأختها واحدى قريباتهما فى
جناح صغير ببناء المنزل الخشبى الذى تملكه امرأة أحد التجار . ولكنه
كان يحتل الجناح كله . وكان الجناح يضم ثلاث غرف جميلة . ان ستائر
النوافذ الأربعة مسدلة . والرجل شبه مهندس ، له وظيفة فى بطرسبرج .
وقد علمت مصادفةً أنهم يعرضون عليه منصباً هاماً فى الريف ، وأنه كان
يستعد للانتقال بمنصبه هناك .

فما كدنا ندخل حجرة المدخل حتى سمعت أصواتاً تلملع . لكنهم
فى مناقشة حادة . وكان يصيح قائلاً باللاتينية : « ما لا تشفيه الأدوية
يشفيه الحديد ، وما لا يشفيه الحديد تشفيه النار ، »

شعرت بقلق حقاً . لم أكن قد تعودت صحبة المجتمع ، أياً كان
هذا المجتمع . صحيح أننا كنا فى اللبسه تتخاطب جميعاً بصيغة المفرد ،
ولكن يمكننى أن أقول انه لم يكن لى أى رفيق ، فلقد جعلت لى نفسى ركناً
أنزوى فيه . على أن هذا ليس هو ما أفلقنى يومئذ . وكنت قد وعدت

نفسى ، على كل حال ، بأن لا أشارك فى أية مناقشة ، وأن لا أقول من الكلام الا ما لا بد من قوله ، حتى لا يستطيع أحد أن يخرج برأى عنى •
كنت قد قررت خاصة أن لا أناقش ... خاصة أن لا أناقش •

كان فى الفرقة سبعة أشخاص ، فاذا عدت النساء صاروا عشرا •
ان درجاشيف فى الخامسة والعشرين من عمره ، وهو متزوج ، ولزوجته أخت وقريبة أخرى كانتا تقيمان عنده كما قلت • أثارت الفرقة بسيط ، كافى ، بل ونظيف • وعلى الجدران ترى صورة مطبوعة بطريقة الليتوغرافيا ، ولكنها لا قيمة لها ؛ وفى الزاوية أيقونة لا يزينها معدن ، لكن عليها قديلاً مشتعلاً • تقدم درجاشيف يستقبلنى ، فصافحنى ، وقدم الى مقعداً •

– اجلس • أنت هنا فى بيتك !

وسرعان ما أضافت سيدة شابة ، لطيفة الوجه متواضعة اللبس ،

تقول :

– تفضل !

ثم خرجت فوراً بعد أن جيتنى تحية خفيفة • انها امرأته • ويظهر أنها كانت تشارك فى المناقشة • وقد مضت الآن تطعم ابنها • ولكن بقيت سيدتان ، احدهما قصيرة القامة جداً ، فى نحو العشرين من عمرها ، ترتدى ثوباً أسود ، لا بأس به ؛ والثانية فى نحو الثلاثين ، جافة المظهر ناقبة العينين • وكانت السيدتان جالستين ، تصغيان اصغاء شديداً ، لكنهما لا تشاركان فى الحديث •

أما الرجال فقد كانوا جميعاً واقفين ، الا كرافت وفاسين وأنا • وسرعان ما سّماهم لى ايفيسم ، لأننى أرى كرافت أول مرة أيضاً ، فنهضت مقرباً منهم للتعارف • لن أنسى أبداً وجه كرافت : ما من جمال خاص يلفت النظر ، غير أن فى وجهه رهافة خالية من أى خبث أو مكر ،

الى وقار شخص يتجلى واضحاً في كل شيء . هو في السادسة والعشرين من العمر ، نحيل بعض التحول ، أطول من متوسط طول الرجال ، أشقر ، توحى اليك مسخنته بالجد على رقة وعذوبة . ان نوعاً من هدوء يشع في شخصه كله . ومع ذلك أقول لك ، اذا شئت أن تعرف هذا ، اننى لا أَرْضِي أبداً أن استبدل بوجهي الكابى وجهه ذلك الذى بدا لى على هذا الجانب العظيم من الفتنة والاعراء . لقد كان فى هيئته شيء لا أتمنى أن يكون فى هيئتي ، شيء لا أدري ما هو ؛ شيء من هدوء مفرط ، بالمعنى الأخلاقى لهذه الكلمة ، شيء من كبر خفى مستر يجهل نفسه . وعلى كل حال فاننى لم أكن قادراً على أن أحكم فى الأمر على هذا النحو تماماً حينذاك . والآن انما يبدو لى أن حكمى قد قام على هذا الأساس حين حكمت ذلك الحكم .

قال كزافت :

— أنا سعيد بمعرفتك . وان معى رسالة تهتمك . سنلبث هنا لحظة ، ثم نمضى الى بيتى .

كان درجاشيف متوسط القامة ، قوى الجسم ، أسمر اللون ، عريض المنكبين ، ذا لحية كبيرة . انك ترى فى نظراته الذكاء العملى ، والرزانة فى كل شيء ، وشيئاً من تروى لا يخطئه قط . ومع أنه صامت أكثر الوقت ، فقد كان واضحاً أنه هو الذى يدير دفة الحديث . أما فاسين فلم يلفت وجهه نظرى كثيراً ، رغم كل ما كنت قد سمعته عن ذكائه النادر : شاب أشقر اللون ، واسع العينين ، لونهما أشهب ، شديد انبساط الوجه ، ولكن على شيء من صلابة مفرطة . يشعر المرء أنه ليس بالرجل الاجتماعى كثيراً ، لكن نظراته ذكية حقاً ، أذكى من نظرة درجاشيف ، وأعمق وأنفذ من نظرات سائر الحضور . وأما الآخرون جميعاً من هؤلاء الشباب فاننى لا أتذكر من بينهم الا اثنين : واحداً طويل

القامة ، برونزى اللون ، له « شامات » سود ، كثير الكلام ، فى نحو السابعة والعشرين من العمر ، هو أستاذ أو ما يشبه ذلك ؛ وفتى فى مثل سنى ، يرتدى عباءة قصيرة واسعة مما يلبسه الفلاحون ، مخدد الوجه ، شديد الصمت لا يتكلم ، ولكنه يصغى اصغافاً قوياً . وقد اتضح فعلاً أن أصله من الفلاحين .

– لا . . ما هكذا يجب أن تطرح المسألة ! فيما يتعلق بالبراهين الرياضية ، ليس لى ما اعترض عليه . ولكننى ، فيما يتصل بهذه الفكرة ، مستعد لقبولها بغير براهين رياضية .

كذلك بدأ يتكلم الأستاذ ذو « الشامات » السود ، يستأنف الحديث الذى كانوا آخذين فيه منذ قليل متحمساً أكثر من سائر الحضور .
فقاطعه درجاشيف صاحباً يقول :

– اسمع يا تيخومиров ، ان الحضور الجدد لا يعرفون الموضوع (وهنا التفت فجأة نحوى وحدى – وانى لأعترف أنه اذا كان ينوى أن يمتحن الشخص « الجديد » ، أو كان يريد أن يجبرنى على الكلام ، فقد أحسن اختيار الوسيلة البارة ؛ لقد شعرت بذلك رأساً وتأهبت) .
الموضوع هو أن السيد كرافت – السيد كرافت مثلاً – وهو معروف لدينا جميعاً بصلابة طبعه وقوة اقتناعاته – قد انتهى من النظر فى أمر عادى جداً الى استخلاص نتيجة خارقة أذهلتنا جميعاً . لقد انتهى الى أن الشعب الروسى شعب من الدرجة الثانية .

صاح أحدهم :

– بل من الدرجة الثالثة !

– . . من الدرجة الثانية ، شعب خلق أداة لعرق أسمى وأبل ، فليس له أى دور مستقل فى مصائر الانسانية . وعلى أساس هذه

النتيجة - التي ربما كانت صادقة - وصل السيد كرافت الى أن نشاط
أى روسى ، أياً كان ، لابد أن يعطّله الشعور بهذا التقصير عن غيره ،
فما علينا جميعاً الا أن نسبل أذرعنا ان صح التعبير .

قال تيخوميروف نافد الصبر :

- اسمح لى يا درجاشيف . ما هكذا يجب أن تطرح المسألة .

فأذعن درجاشيف وترك له أن يتم كلامه . قال تيخوميروف :

- لما كان كرافت قد قام بدراسات جدية ، واستخرج من علم
الفيزيولوجيا استنتاجات يعدها رياضية ، ولعله وقف سنتين من وقته على
فكرته (التي لا أرفض أن أقبلها هادئاً كل الهدوء) أى لما كان كرافت
يعانى مخاوف كبيرة وكان كلامه يشتمل على جدٍ خطير ، فان الأمر
يبدو لى ظاهرة غريبة . ان كل شيء يدعونا الى التساؤل عما عجز كرافت
عن فهمه ، وبهذا انما يجب أن نعنى الآن ، أقصد ان علينا ان نعرف
السبب الذى يجعل كرافت عاجزاً عن فهم المسألة . هذه ظاهرة يجب ان
ننظر فيها ، فزى أهى حالة مفردة من اختصاص الطب ، أم هى خاصة
يمكن أن تتكرر تكررأ طبيعياً فى حالات أخرى . تلكم مسألة تهم القضية
المشتركة . أما فيما يتعلق بروسيا فأنا أصدق كرافت ، بل أقول ان ذلك
يسرنى ؟ فاذا سلّم جميع الناس بهذه الفكرة فكّت هذه الفكرة الوثاق
الذى يقيد أيدينا ، وحررت كثيراً من الناس من وهم الوطنية .

قال كرافت بشيء من جهد :

- لا شأن لهذا بالوطنية !

وكان يبدو عليه أن هذه المناقشات كلها تضايقه وتزعجه .

قال فاسين الذى ظل صامتاً مدة طويلة :

- وطنية ، لا وطنية ، دعوا هذا جانباً !

صاح الأستاذ (كان وحده يصيح ، أما الآخرون فكانوا يتكلمون بصوت خافت) :

- ولكن قولوا لى .: هل يمكن للنتيجة التي وصل اليها كرافت أن تضعف التطلع الى العمل المشترك الذي يجب أن تحققه الانسانية ؟
نسلم جدلاً بأن روسيا تأتي في المرتبة الثانية ، أفلا يمكن العمل من أجل غيرها . ثم كيف يمكن أن يظل كرافت وطنياً اذا فقد الايمان بروسيا ؟

قال صوت من الأصوات :

- ان كرافت ليس روسياً !

- أنا روسى !

- تلك مسألة لا تتعلق بصميم المسألة .

كذلك قال درجاشيف للذى قاطع الأستاذ .

قال تيخوميروف متابعاً كلامه كأنه لا يريد أن يسمع شيئاً :

- اخرجوا اخرجوا من فكرتكم الضيقة . اذا لم تكن روسيا الا أداة لعروق أسمى وأنبى ، فلماذا لا تقبل روسيا هذا الدور ! انه دور لامع على كل حال . لماذا لا نعتمد على هذه الفكرة من أجل أن نوسّع نظراتنا بعد ذلك . ان الانسانية على أبواب انبعاثها ، وقد بدأ هذا الانبعاث فعلاً . لابد أن يكون المرء أعمى حتى لا يرى المهمات التي سيكون علينا أن نهض بها . دعوا روسيا وشأنها اذا كنتم قد أصبحتم لا تؤمنون بها ، واعملوا من أجل المستقبل ، مستقبل شعب لماً يزل مجهولاً ، ولكنه سيتألف من الانسانية كلها ، دون تفريق بين عروق . ستموت روسيا في يوم من الأيام على كل حال . ان الشعوب ، مهما تكن موهوبة ، تعيش ألفاً وخمسمائة سنة ، تعيش ألفى سنة في أقصى تقدير . وما من فرق تقريباً بين ألفى سنة ومائتى سنة ؟ ان الرومانيين لم يبقوا

ألفاً وخمسمائة سنة على حالة الحياة ، وانما تحولوا هم أيضاً الى أداة •
انقضى زمان طويل لم يعودوا فيه شيئاً مذكوراً • لكنهم أورتوا الانسانية
فكرة ، وكانت هذه الفكرة عنصر تقدم للانسانية • كيف يمكن أن نقول
لانسان انه لم يبق هنالك شيء يعمل ؟ اعملوا من أجل الانسانية ، وانسوا
كل ما عدا ذلك ! ثمة أعمال لا يكفيها العمر اذا أتمتم النظر !

– يجب على المرء أن يعيش على ما يريد قانون الطبيعة والحقيقة •

كذلك قالت السيدة درجانشيف من وراء الباب • كان الباب
مشقوقاً ، فهي ترى واقفةً أمام شق الباب ، حاضنةً طفلها ، منظاة الصدر
نصف تغطية ، مصيخةً بسمها في حماسة •

أضفى اليها كرافت وهو يتسم ابتسامة خفيفة • وأخيراً ، قال وقد
بدا في وجهه الاعياء ، ولكن في صدق قوى :

– أنا لا أفهم كيف يستطيع المرء ، اذا هو كان خاضعاً لتأثير فكرة
مسيطرة يرتبط بها عقله وقلبه ارتباطاً تاماً ، أن يعيش أية حياة خارج
هذه الفكرة •

– ولكن اذا قيل لك بالحجج المنطقية والرياضية ان النتيجة التي
اتميت اليها خطأ ، وان فكرتك ضلال ، وانه لا يحق لك البتة أن
تبعد نفسك عن العمل المشترك المفيد لمجرد أن روسيا محكومة في رأيك
حكماً لا راد له على أن تأتي قيمتها في المرتبة الثانية ، واذا أمكن أن نريك
أفقاً لا نهاية له ولا حدود ، بدلا من الأفق الضيق الذي يحجب نظرك ،
واذا أمكن بدلا من فكرتك الضيقة هذه عن الوطنية •••

قال كرافت وهو يحرك يده متمللاً :

– سبق أن قلت لكم ان الأمر ليس أمر وطنية •

فتدخل فاسين فجأة يقول :

ـ هاهنا سوء تفاهم • الخطأ هو أننا لا نجد لدى كرافت مجرد استنتاج منطقي ، وانما نجد لديه استنتاجاً انحدر فصار الى عاطفة ان صح التعبير • طبائع البشر ليست واحدة : كثير من البشر يتحول الاستدلال المنطقي عندهم أحياناً الى عاطفة قوية تستولى على وجودهم كله ، فيصعب جداً طردها أو تعديلها • فلكى نشفى انساناً أصيب بهذا الداء يجب علينا أن نغير هذه العاطفة ، وهذا لا يكون ممكناً الا بأن نحل محل هذه العاطفة قوة أخرى تساويها • وذلك صعب دائماً ، حتى لقد يكون فئ بعض الأحيان مستحيلًا •

صاح المشاجر :

ـ خطأ • ان النتيجة المنطقية تبدا بذاتها الأحكام السابقة والأوامر المستقرة • والإقتناع العقلي يولد عاطفة تناسبه • ان الفكر ينبع من العاطفة، حتى اذا استقر فينا قام يوآلد بدوره عاطفة جديدة !

ـ الناس متفاوتون ، فبعضهم يسهل أن تتغير عاطفته ، وبعضهم يصعب أن تتغير عاطفته •

كذلك قال فاسين وقد بدا عليه أنه لا يريد أن يطيل المناقشة • أما أنا فقد راقنتى فكرته وأعجبتنى أيما اعجاب •

فقلت على حين بفتة أحطم الجليد وأبدأ الكلام :

ـ صحيح تماماً ما قلت • فالحق أنك لا تستطيع أن تزيل عاطفة الا باحلال عاطفة أخرى يمكن أن تقوم مقامها • أذكر أنه منذ أربع سنوات •• وكان ذلك فى موسكو •• وقع لجنرال من الجنرالات •• أنا لم أكن أعرفه •• ولكن يمكن أن لا يكون ممن يوحون بالاحترام •• أضيفوا الى ذلك أن الواقعة نفسها يمكن أن تبدو غير معقولة •• المهم أن هذا الجنرال قد فقد ابنة له •• بل فقد ابنتين ، واحدة بعد أخرى •• بمرض واحد ••

ان هذا الرجل قد بلغ فيجأة من الارهاق ما جعله لا ينسى مصيبيته لحظة واحدة •• كان في حداد دائم لا يملك المرء حين يراه الا أن يتألم ••• تم لم تمض ستة أشهر حتى مات • أما أنه مات حزناً وألماً فتلك واقعة لا ريب فيها • فكيف كان يمكن أن تشفيه قبل أن يموت ؟ بعاطفة تساوى قوة عاطفته؟ كيف ؟ ينبغي عندئذ اخراج ابنته من القبر وردهما اليه ! أقصد •• شيئاً من هذا القبيل ! لقد مات الرجل ! ولكن كان يمكن أن تقدم له براهين رائعة : أن يقال له ان الحياة قصيرة ، وان كل انسان الى فناء ؟ كان يمكن أن تؤخذ له أرقام من سجلات الوفيات عن عدد الأطفال الذين ماتوا بهذا المرض •• لقد كان الجنرال محالاً على التقاعد •••

• هنا توقفت عن الكلام مختقاً ، ونظرت حولى •

قال أحدهم :

– الأمر مختلف !

قال فاسين ملتفتاً نحوى :

– ان الواقعة التى ذكرتها ، على كونها من طبيعة أخرى غير ما نحن

بصدده ، تشبهه بعض الشبه وتلقى عليه ضوءاً •

يجب أن اعترف هنا لماذا افتتت بالحجة التي أدلى بها فاسين عن « الفكرة العاطفة » ؛ ويجب على أن أعترف في الوقت نفسه أنني شعرت بعارجهنى . نعم لقد كنت أخاف أن أذهب الى منزل درجاشيف ، ولكن لسبب آخر غير السبب الذي كان يظنه ايفيم . كنت أخاف ، لأننى كنت أخشى هؤلاء الناس منذ كنت بموسكو . كنت أعرف أنهم (هم أو أضرابهم) أناس مجادلون ، وأن من الجائز جداً أن يمزقوا « فكرتى » ارباً ارباً . كنت على ثقة تامة بأننى لن أبوح لهم بها . ولكن كان يمكن (هم أو أضرابهم ، أقولها مرة أخرى) أن يقولوا أشياء قد تفقدنى ثقتى بفكرتى حتى دون أن يشيروا إليها . لقد كان فى « فكرتى » مشكلات لم تحل ، ولكننى لا أريد لهذه المشكلات أن يجعلها أحد عنى . حتى لقد انقطعت فى هاتين السنتين الأخيرتين عن القراءة ، مخافة أن أقع على فقرة من الفقرات لا تؤيد « فكرتى » حتى لقد تزغزغنى . وهذا فاسين يحل المسألة من أول وهلة ، ويهدى روعى الى أقصى حد . ما الذى كان يخيفنى فعلاً ، وماذا كان فى وسعهم أن يفعلوه لى بكل ما يملكون من جدل ؟ لعلنى الشخص الوحيد الذى فهم ما أراد أن يقوله فاسين حين تحدث عن « الفكرة - العاطفة » . ليس يكفى أن تدحض فكرةً جميلة ، وانما ينبغى لك أن تحل محلها فكرة تضارعها جمالاً . وبدون ذلك فاننى اذ أرفض التخلى عن عاطفتى بحال من الأحوال ، أستطيع أن أدحض دحضك فى قرارة قلبى ، ولو اكراهاً واجباراً مهما يكن رأيك أنت . وما الذى كان فى وسعهم ، أن يعطونى بدلاً عن فكرتى ؟ أما كان ينبغى اذن أن أكون أكثر شجاعة . كان على أن أملك مزيداً من البسالة . ولذا فاننى حين

تحمست لرأى فاسين شعرت بعار ، وأحسست أنني طفل لا يستحق
الاحترام •

وثمة أمر آخر أشعرني بالعار • ان تلك العاطفة المحترقة التي
تدفع المرء الى تغليب رأيه ليست هي التي حملتني على تحطيم الجليد
والأخذ بالكلام ؟ وانما حملتني على ذلك رغبة في الوثوب الى « معانقة »
الناس ، من أجل أن يجدوا أنني رجل طيب ، من أجل أن يأخذوا
بتقبيلي ، أو شيء من هذا القبيل (شيء دميم قبيح على كل حال) • وأعتقد
أن هذه الرغبة هي أشجع الرغبات التي تثير الشعور بالعار في نفسي • لقد
لاحظت وجود هذه الرغبة في نفسي منذ زمن طويل ؟ لاحظتها وأنا قابع
في ذلك الركن الذي قبعت فيه ذلك العدد كله من السنين ، دون أن أشعر
بندامة على ذلك • كنت أعرف أن عليّ أن أكون بين الناس أشد جهامة •
على أن الشيء الوحيد الذي كان يعزيني ، بعد كل مرة من مرات شعوري
بالعار هذا ، هو أن « فكرتي » لا تزال رغم كل شيء ملكي ، لا تزال رغم
كل شيء كامنة في مخبئها ، وأنتى ما أفضيت بها الى أحد • كان يتقبض
صدرى حين أتصور أحيانا أنني في اليوم الذي سأبوح بفكرتى لأحد فلن
يبقى لي بعدئذ شيء ، وسأكون بعدئذ شبيهاً بسائر الناس ، وأنتى قد أترك
فكرتى نفسها حينذاك • لذلك كنت أحافظ عليها ، وأصونها ، وأخشى
الثروات • وهأنذا فقدت تحفظى عند درجاتشيف منذ أول لقاء تقريباً :
صحيح أنني لم أبح بشيء ، لكننى لغوت لغواً كثيراً لا يعتقر • شعرت
بالعار • ذكرى أليمة ! لا ، لن أستطيع أن أعيش مع البشر • مازلت
مقتناً بهذا الى اليوم • انى لأحدث عن أربعين سنة سلفاً • ان فكرتى هي
ملاذى وماواى •

ما ان أيد فاسين كلامى حتى تملكنتى رغبة فى الكلام لا سبيل الى
مقاومتها •

- فى رأى أن من حق كل انسان أن يكون له مشاعر وعواطف •
شريطة أن يكون ذلك عن اقتناع • وليس لأحد أن يأخذ عليه ذلك •
قلت هذا متعجها بالكلام الى فاسين • وقد نطقت بالعبارة حارة سريعة ،
ولكن خيّل الى أنني لم أفعل ذلك من تلقاء نفسى ، حتى لكأن انساناً آخر
كان يحرك لساني فى فمى •

- يا ... سلا ... م ••

بذلك نطق الصوت نفسه الذى قاطع درجاتشيف منذ هنيهة ، والذى
صاح يصف كرافت بأنه ألماني • نطق بذلك هازئاً ساخراً • واذ عدته
انساناً تافها لا قيمة له البتة ، التفت نحو الأستاذ ، كأنه هو الذى صاح •
وقلت :

- يقينى أنه ليس لى حق فى أن أحكم على أحد •

وكنت قد أخذت أرتجف لعلمى سلفاً بأننى لن أتوقف عن الكلام •
وقلت وأنا أهدق فى الأستاذ الذى لزم الصمت وراح ينظر الى • بتسماً :

- لكل انسان فكرته !

صاح التافه يسال :

- وأنت ما فكرتك ؟

- يطول شرحها كثيراً • فاذا أردت أن أذكر لك جزءاً منها ، فإليك

هو : ليدعنى الناس وشأنى ! ما بقى معى روبلان ، فانتى أريد أن أعيش وحيداً ، أن لا أكون رهنأ بأحد (هدىء روعك ، انتى أعرف الاعتراضات) ، وأن لا أعمل حتى ولا من أجل الانسانية الكبيرة المقبلة التى تريدون أن تقحموا كرافت فى خدمتها . ان الحرية الفردية ، أعنى حرىتى أنا ، هى قبل كل شىء . ولا أريد أن أعرف شيئاً عداها .

• وكان خطئى أننى غضبت •

– معنى ذلك أنك تدعو الى هدوء البقرة الشبعانة !

– أسلم بذلك • ليس فى البقرة ما يؤذى • لست مدينأ لأحد بشىء : انتى أذفع للمجتمع ما علىّ فى صورة ضرائب ، حتى لا أسرق ، حتى لا أضايق ، حتى لا أقتل ، وليس لأحد أن يطالبنى بأكثر من ذلك • قد تكون لى ، شخصياً ، أفكار أخرى ، وربما كنت أريد أن أخدم الانسانية ، ولسوف أخدمها ، ولعلنى سأخدمها أكثر من جميع الواعظين عشر مرات • ولكننى لا أريد أن يفرض علىّ هذه الخدمة أحد ، لا أريد أن يكرهنى عليها أحد اكراهاً ، كما تريدون اكراه كرافت • أريد لحرىتى أن تبقى كاملة ، حتى ولو لم أحرك اصبعى • أما أن أركض وأمضى أتشبث بأعناق الناس حباً بالانسانية ، وأن أذرف الدموع رقة وحناناً ، فما ذلك الا « موضة » ! ثم لماذا يجب علىّ أن أحب جارى ، أو أن أحب الانسانية المقبلة التى تتحدثون عنها ، الانسانية التى لن أراها يوماً ، والتى لن تعرفنى يوماً ، والتى ستزول هى أيضاً من غير أن تخلف لا أثراً ولا ذكرى حين تستحيل الأرض بدورها الى كتلة من نلج وتطير فى الفضاء بلا هواء مع طائفة لا حصر لها من كتل أخرى مثلها • ألا ان هذا أسخف ما يمكن أن يتخيله خيال ! هذه عقيدتكم ، فانظروا ما هى اقل لى : لماذا يجب علىّ حتماً أن أكون كريماً ، خاصة اذا كان كل شىء لا يدوم الا للحظة !

صاح صوت :

كنت قد أطلقت هذه العبارات القليلة في غضب وخبث ، محرراً
جميع سفني • كنت أعلم أنني أطير الى الهاوية ، ولكنني كنت أسرع خشية
الاعتراض • كنت أحس أنني أسوق كلامي فوضى على غير هدى ، بلا
تسلسل ولا نظام ، ولكنني كنت أتعجل افئاعهم وسحقهم ! كان هذا على
جانب عظيم من خطورة الشأن في نظري ! لقد تأهبت ثلاث سنين • والأمر
العجيب الذي يلفت النظر أنهم صمتوا دفعة واحدة ، كأنهم لم يقولوا
شيئاً ، واكتفوا بالاصفاء • وأردفت أقول موجهاً كلامي الى الأستاذ :

- تماماً • ان هناك رجلاً عظيماً الذكاء قال يوماً فيما قال انه لا شيء
أصعب من الاجابة عن هذا السؤال : « لماذا يجب على المرء أن يتمسك
بالفضيلة ؟ » • ان في هذه الحياة الدنيا ثلاثة أنواع من الأرزال : أرذال
سذج مقتنعين بأن رذالتهم هي الفضيلة المثلى ، وأرذال خجلين هم أولئك
الذين يحمرّون حياءً من رذالتهم مع اصرارهم على أن يمضوا فيها الى
النهاية ، وأرذال أرذال ، أرذال محض • واسمحوا لي أن أضرب لكم
هذا المثال : لي رفيق اسمه لامير ، كان يقول لي ، ولماً تتجاوز السادسة
عشرة من العمر ، انه حين سيصير غنياً ستكون أعظم لذة يتمتع بها هي أن
يغذى كلاباً بخبز ولحم بينما يموت أولاد الفقراء جوعاً ، وانه اذا رأى
هؤلاء الأطفال يرتعدون من شدة البرد ولا يملكون ما يستدفئون به ،
فسيشتري أكواماً كبيرة من الحطب فيمضي بها الى العراء يحرقها هنالك
ليدفئ بها الهواء دون أن يعطيهم منها عوداً واحداً • انظروا الى عواطف
هذا الفتى ثم قولوا بماذا عساي أجيب هذا الوبش المحض اذا هو سألتني :
« لماذا يجب على قطعاً أن أتمسك بالفضيلة ، ، ولا سيما في هذا العصر
الذي جعلتموه على هذه الصورة ! ان الأمور لم تكن في يوم من الأيام
أسوأ منها الآن أيها السادة ! ان الوضع في مجتمعنا خال من أي وضوح •
انكم تتجددون وجود الله ، وتجددون القداسة ، فما عسى أن تكون

القاعدة الصماء العمياء البهيمة التي يمكن أن تجبرني على أن أسلك سلوكاً ما اذا كان من الأنفع لي أن أسلك سلوكاً آخر؟ تقولون: « ان تصرفي الحكيم تجاه الانسانية هو من مصلحتي أنا أيضاً » . ولكن اذا كنت أرى كل هذه الأشياء المجنونة ، كل هذه الثكنات ، كل هذه الكتابات ، فماذا أصنع بهذا كله ، وماذا أصنع بمستقبلكم وليس لي الا حياة واحدة أعيشها ! دعوني أعرف مصلحتي بنفسى : فسأستخرج من ذلك لذة أكبر . كيف يمكن أن أهتم بما سيجرى في انسايتكم بعد ألف عام ، اذا كان قانونكم لا يهب لي جزاء ذلك لا حياً ولا حياة آخرة ولا شهادة بأني امرؤ فاضل ؟ لا يا سادتي ، اذا كان الأمر كذلك ، فسأحيا لنفسي كأوضح ما تكون حياة امرئ لنفسه . والى الجحيم فليذهب الآخرون .

- ألا انك لتتمنى للناس تمنيات لطيفة كريمة !

- وأنا مستعد مع ذلك لأن أتبعهم .

- أحسن (ذلك الصوت نفسه قال هذا) .

وظل الآخرون صامتين جميعاً ، ينظرون الىّ ويلاحظونني . ولكن سرعان ما أخذت تظهر شيئاً فشيئاً في أركان شتى من الغرفة ، ضحكات بدأت متخفية ثم سفرت فراحوا يهزأون مني جميعاً وجهاً لوجه ، الا فاسين وكرافت . وكان ذو « الشمامات » السود يتسم أيضاً : يحدق الىّ ويصفي .

قلت وأنا أرتعش من قمة رأسي الى أخمص قدمي :

- أيها السادة ، لن أقول لكم فكرتي مهما كلف الأمر . ولكنني ، بالعكس ، أسألكم ، من وجهة نظركم أنتم ، لا من وجهة نظري أنا ، لأنني ربما كنت أحب الانسانية ألف مرة أكثر منكم مجتمعين ، أسألكم أن تقولوا لي ، وأنتم مضطرون أن تيجيوني فوراً ، مضطرون أن تيجيوني لأنكم تضحكون : ماذا تملكون أن تقدموا لي اذا أنا اتبعتمكم ؟ كيف

تبرهنون لى على أن الأمور ستكون أفضل فى ظل نظامكم ؟ ماذا أتم
فاعلون باحتجاجى فى نكتكم على المساكن المشتركة ، وعلى الاكتفاء
بالضروى الذى لا يد منه (١) ، والاحلاد ، والنساء المشاع بغير أولاد . -
ذلك هو اتفاقكم النهائى ، أنا أعرفه . وفى وسيل هذا الجزء اليسير
الزهد من المصلحة المتوسطة التى سيكفلها تنظيمكم العقلى ، فى
سبيل قطعة خبز وقليل من دفة ، وشيء من ملابس تريدون أن تأخذوا
كل شخصى فى مقابل ذلك . انتظروا قليلاً ! لنفرض أن أحداً اتزع
منى امرأتى . فهل تقيدوننى تقيداً كافياً يمنعنى من قتل غريمى ؟ رب
قائل منكم يقول لى : ولكنك ستصبح أنت نفسك أعقل من ذلك يومئذ .
ولكن امرأتى ، ما عساها تقول عن بعل متعقل كل هذا التعقل ، اذا كانت
تحترم نفسها أقل احترام ؟ اعترفوا أن هذا مخالف للطبيعة . ألا تشعرون
بحياء ؟

هتف صوت الرجل التافه قائلاً فى سخرية :

- أنت اختصاصى .. فى شئون المرأة ؟

فمرت بى لحظة تمنيت فيها أن أنهض له مسرعاً فإوسمه ضرباً
مبرحاً . انه رجل قصير أحمر مغطى الوجه ببقع حمرة .. على كل
حال ، ليس مظهره بالأمر الذى يهمنى .

- طمئن بالك . اننى ما عرفت النساء بعد .

أطلقت هذه الجملة ملتفتاً اليه أول مرة .

- اعتراف غريب كان يمكن أن يقال بلغة أقرب الى التهذيب

والأدب فى حضور سيدات .

ولكن جميع المجتمعين أخذوا يتحركون ؛ فهم يتناولون قبعاتهم

(١) بالفرنسية لى الأصل .

ويلوح عليهم أنهم منصرفون - لا بسببي ، بل لأنه آن الأوان • غير
أن هذه الطريقة في معاملتي بالصمت ملأتني شعوراً بالعار • ونهضت
أنا أيضاً •

- هل تريد أن تذكر لي اسمك رغم كل شيء ؟ إنك لم تكف
عن النظر اليّ •

كذلك سألتني الأستاذ وهو يتقدم نحوي خطوة ، مبتسماً ابتساماً
غير لائقة •

- دولجوروكي

- الأمير دولجوروكي

- بل دولجوروكي فحسب ، ابن قنٍ قديم اسمه ماكار دولجوروكي ،
وابن زنا لمولاي السابق السيد فرسيلوف • طمن بالك يا سيدي ، فلست
أقول هذا من أجل أن ترتمي على عنقي وأن تذرف الدمع كالعجول •
فانفجرت عاصفة من الضحك تدوي بلا تخرج حتى اسيقظ من
شدة أصواتها الطفل الذي كان نائماً في الجهة الأخرى وأخذ يبكي •
كنت أرتعش غيظاً • وصافح الجميع درجاتشيف وانصرفوا دون أن
يولوني أي التفات •

قال كرافت وهو يلكنزني بكوعه :

- هيا بنا !

فتقدمت نحو درجاتشيف فصافحته بكل قواي وهزرت يده مرات ،
بكل قواي أيضاً •

قال لي كرافت :

- معذرة اذا كان كودريوموف قد آذاك • (ان كودريوموف هو
الرجل القصير الأحمر) •

وتبت كرافت ، لا أشعر بخجل من شيء •

بديهي أن بينى اليوم وبينى يومئذ مسافةً لا نهاية لها .

ظلمت أمضى « غيرَ خجل من شيء » حتى أدركت فاسين على السلم ، تاركاً كرافت ، وهو شخص من الدرجة الثانية ، فسألته بلهجة طبيعية وهيئة عادية كأن شيئاً لم يحدث :

- أعتقد أنك تعرف أبى ، أقصد فرسيلوف ؟

فأجاب على الفور (دون اصطناع ذرة من تلك اللباقة الرقيقة ، ولكن الجارحة ، التى يعمد اليها أولئك الأشخاص اللطاف مع أناس كانوا منذ لحظة يشعرون بعار) ، أجب قائلاً :

- لا أعرفه معرفة خاصة .

قلت :

- إذا كنت قد سمعته فقد عرفته ، لأنك أنت ما أنت ! فما رأيك إذن فيه ؟ اغفر لى هذا السؤال المبالغ ، ولكننى فى حاجة الى جوابك ؟ فى حاجة الى أن أعرف رأيك أنت فيه . فما هو رأيك أنت ؟

- سؤال صعب . يخيل الىّ أن هذا الانسان قادر على أن يطالب لنفسه بأشياء كثيرة ، وربما كان قادراً على أن ينفذها ، ولكنه يأبى أن يحاسبه أحد .

- هذا صحيح . هذا صحيح كل الصحة . انه شديد الكبرياء ؟ ولكن أهو واضح تماماً ؟ اسمع . ما رأيك فى كاثوايكته ؟ ولكننى نسيت أنك ربما كنت لا تعلم أنه ...

لولا أنتى كنت مضطرباً هذا الاضطراب كله فلا شك أنتى ما كنت لألقى مثل هذه الأسئلة مباغته على انسان لم أكلمه قبل ذلك فى حياتى قط ، ولا كنت أعرفه الا من السمعة • وأدهشنى أن فاسين لم يد عليه أنه يلاحظ جنونى هذا •

– لقد سمعت كلاماً من هذا القبيل ، ولكننى لا أدرى الى أى حد يمكن أن يكون ذلك صدقاً •

كذلك أجب بلهجة لا تزال متساوية هادئة • قلت :

– ليس فى ذلك أى صدق • ليس ذلك الا كذباً • هل تتصور أن من الممكن أن يؤمن بالله ؟

– انه انسان شديد الكبرياء والعجب بنفسه ، كما قلت أنت ذلك منذ هنيهة ، وكثير من المتكبرين جداً يحبون أن يؤمنوا بالله ، وخاصة أولئك الذين يحتقرون الناس بعض الاحتقار • كثير من الناس الأقوياء يشعرون بنوع من حاجة طبيعية الى أحد أو الى شىء يعبدونه • ان الانسان القوى يشق عليه كثيراً فى بعض الأحيان أن يحتمل قوته •
صحت أقول :

– اسمع اذن ! ذلك ما لا بد أنه الحقيقة الصادقة صدقاً رهيباً •
ولكننى أريد أن أفهم ••

– السبب فى هذا واضح : انهم يخضرون الله ، حتى لا يعبدوا البشر ، طبعاً دون أن يدركوا هم أنفسهم ما يجرى فى قرارة أنفسهم • أولئك هم أشد المؤمنين حماسة للايمان ، أو قل أولئك هم أشد المؤمنين رغبة فى الايمان ، غير أنهم يحسبون رغبتهم هذه ايماناً • وهؤلاء أنفسهم هم أيضاً أولئك الذين يفقدون آخر الأمر أو هامهم فى أكثر الأحيان • أما السيد فرسيلوف ، فأحسب أن فى طبعه صفات صادقة كل الصدق • وهو على كل حال انسان يلفت نظرى •

هتفت أقول :

- فاسين ، ان كلامك يسرنى • ليس ذكاؤك هو ما يدهشنى ، وانما يدهشنى أن انساناً له هذا الصفاء كله ، ويتفوق على هذا التفوق الذى لا حدود له ، يرضى أن يسير الى جانبى وأن يكلمنى بمثل هذه الساطة وبمثل هذا اللطف حتى لكأن شيئاً لم يحدث •

ابسم فاسين :

- أنت تمتدحنى فوق ما استحق • ان ما حدث هنالك لا يدل الا على أنك مسرف فى حب المناقشات المجردة • صحيح أنك كنت قد صمتت حتى ذلك الحين زمناً طويلاً •

- صمتت ثلاث سنين ؛ ثلاث سنين تأهب للكلام •• هذا واضح • ولئن لم أظهر لك غيباً فلائك أنت ذكى الى أقصى حدود الذكاء ، أما سلوكى أنا فكان يستحيل أن يكون أشد حماقة وأكثر غباءً مما كان • ولكننى بدوت لك امرأ ردىء الطبع •

- ردىء الطبع ؟

- نعم ، بدون شك • قل لى بصراحة : ألا تحقرنى فى داخل نفسك لأننى ذكرت أنتى ابن زنا لفرسيلوف •• ولأنتى تفاخرت بأنتى ابن قن ؟

- أنت تصرف فى تعذيب نفسك وارهاقها • اذا كنت ترى أنه ما كان لك أن تقول ذلك ، فليس عليك الا أن تمتنع عن قوله مرة أخرى • ان أمامك خمسين سنة •

- أنا أعلم أن على أن أكون صامتا مع الناس • أسوأ مساوىء المرء أن يرتضى على أعناق الآخرين • لقد قلت لهم ذلك منذ قليل • وهأنذا مع ذلك أرتضى على عنقك ! الا أن هناك فرقا بين الأمرين ، أليس هذا

صحيحاً؟ فإذا كنت قد أدركت هذا الفرق ، إذا كنت قد استطعت أن تدركه،
فأنتى أبارك هذه الدقيقة ***

ابسم فاسين مرة أخرى :

- زرنى ان شئت • أما الآن فأنا مشغول ينتظرنى عمل من الأعمال •
لكنك ستسرنى اذا زرتنى •

- أستنتج من النظر فى وجهك أنك امرؤ مغلوق جداً ، وأنتك قليل
الرغبة فى الافصاح عن ذات نفسك •

- ربما كان هذا صحيحاً • لقد عرفت أختك اليزابيث ماكاروفنا ،
العام الماضى ، فى لونها •• هاقد وقف كرافت ، وهو ينتظرك فيما أظن •
سيكون عليه أن يرجع القهقرى •

صافحت يد فاسين مصافحة قوية ، ولحقت بكرافت الذى كان قد
تقدم فى الطريق أثناء حديثى مع فاسين • ومضينا صامتين الى أن بلغنا
منزله • كنت لا أريد ولا أستطيع ، بعد ، أن أكلمه • ان من أبرز صفات
طبع كرافت أنه رقيق الحاشية •

الفصل الرابع

١



لكرافت في الماضي وظيفة رسمية ، وكان عدا ذلك يساعد المرحوم أندرونيكوف (بأجر يتقاضاه منه) في معالجة بعض الشئون الخاصة التي كان كرافت يقوم بها اضافة الى أعمال وظيفته . والأمر الذي كان يهمني أنا أنه لما كان بينه وبين أندرونيكوف من صلة صميمية ، كان يمكن أن يعرف بعض الأمور التي تعينني . لكنني كنت أعلم من ماريا ايفانوفنا ، زوجة نيقولا سيمينوفتش ، التي عشت لديها سنين طويلة أيام كنت في اللسيه - والتي كانت بنت أخت أندرونيكوف وكانت أثيرة قلبه وبؤبؤ عينه - ان كرافت كان قد « كلف تكليفا » بأن يسلمني شيئاً ما . فكنت انتظره منذ شهر كامل .

كان كرافت يسكن شقة صغيرة من غرفتين ، منزلة كل الانزال ؛ واذ كان عائدا منذ برهة وجيزة ، فإنه لم يكن لديه خادم . كانت حقيته مفتوحة ، غير أن أشياءه التي لم يرتبها بعد لا تزال مبعثرة على الكراسي . وعلى منضدة أمام الكنبه كان كيس سفر ، وصندوق صغير ، ومسدس ، الخ . كان كرافت غارقاً في أفكاره حين دخلنا ، كأنه نسي تماماً

يل لعله لم يلاحظ أنني لم أخاطبه بكلمة واحدة اثناء الطريق • ولم يلبث أن أخذ يبحث عن شيء ما ، ولكنه لمع مرآة على حين فجأة فتوقف وراح ينظر الى وجهه فيها محدقاً خلال دقيقة بكاملها • لاحظت هذا (وما أكثر ما تذكرته بعد ذلك !) ولكنني كنت حزينا مضطرباً • لم أكن أملك قدرة على تركيز فكري • حتى لقد راودتني ، في لحظة من اللحظات ، رغبة مفاجئة في الانصراف ، في أن أدع كل شيء حيث هو ، الى الأبد • ما الذي كان يعينني في حقيقة الأمر ؟ ألسنت أصدع رأسي بهموم مصطنعة ؟ ألم أكن ابدد ، في ترهات سخيفة حقيرة ، بداعي الحساسية وحدها ، طاقة كنت محتاجاً إليها لتحقيق هدف معين رسمته لنفسي • ولكن أنني لي من جهة أخرى أن أصل الى تحقيق هذا الهدف أنا الذي أصبح عجزى عن القيام بأى عمل جدى واضح البدهة بعد الذي حدث عند درجاتشف !

سألت كرافت فجأة :

- كرافت ، هل ستذهب اليهم بعد الآن ؟

فالتفت نحوى ببطء ، كأنه لم يفهم نسؤالى • وجلست •

قال كرافت فجأة :

- سامحهم !

خيّل الى بطبيعة الحال أنه يسخر مني • ولكنني حدثت اليه فرأيت في وجهه طيبة تبلغ من الغرابة بل تبلغ من الادهاش أنني ذهلت أنا نفسي من الجدل الظاهر في رجائه أن « سامحهم » • وتناول كرسيًا وجلس قربي •
- أعرف أنني قد لا أكون الا خليطاً من جميع أنواع حب الذات ، ولكنني لا أسأل أحدا أن يسامحني •

- وممن عساك تطلب أن يسامحك !

قال ذلك هادئاً جادا • وكان يتكلم في رفق لطيف وبطء شديد •

قلت :

- هبنى مذنباً في حق نفسي •• اننى أحب أن أكون مذنباً في حق نفسي ••• سامحنى ، يا كرافت ، اذا أنت سمعتنى أقول هراءً سخيفاً في هذه اللحظة • قل لى : أنت عضو فى هذه الحلقة ، أنت أيضاً ؟ ذلك ما أردت أن أسألك عنه •

- ليسوا أشد حماقة ولا أرجح عقلا من الآخرين • انهم مجانيين .
كسائر الناس •

- هل سائر الناس مجانيين ؟

سألته هذا السؤال وأنا التفت اليه مستظلاً على غير ارادة منى •

- جميع الطيبين فى هذه الأيام مجانيين • الأغنياء والعجزة وحدهم مستخفون ••• ولكن فيم هذا كله؟

كان وهو يقول هذا الكلام ينظر فى الهواء ، يبدأ جملة ثم يقطعها •
وقد لفت نظرى شىء من ضجر فى صوته بوجه خاص •

صحت أقول :

- وفاسين ، أهو منهم أيضاً ؟ ان فاسين يملك الذكاء ويملك فكرة أخلاقية •

- ليس هناك أفكار أخلاقية فى هذه الأيام • لقد اختفت الأفكار الأخلاقية بقتة ، اختفت جميعها بغير استثناء • حتى كأنه لم يكن ثمة أفكار أخلاقية فى يوم من الأيام •

- لم يكن هناك أفكار أخلاقية فى الماضى ؟

قال بملل واضح وسأم ظاهر :

- دعنا من هذا الموضوع !

تأثرت من هذا الجلد المر الأليم • وخجلت من نفسى فجاريته •

استأنف يقول من تلقاء نفسه بعد دقيقتين من صمت وهو لا يزال
ينظر فى الهواء :

- ان العصر الراهن هو عصر فقدان التسامى وفقدان الحساسية : هو
عصر الجهل ، والكسل ، والعجز عن العمل ، والحاجة الى كل ما هو جاهز
مهما • ما من أحد يفكر اليوم قط • قليلون أولئك الذين يقدرّون أن يصنعوا
لأنفسهم فكرة •

وانقطع عن الكلام مرةً أخرى وصمت لحظة • ولبتت أصغى •

- انهم الآن يقطعون أشجار الغابات فى روسيا ، ويستنفدون أرضها ،
ويحيلونها مراعى وسهوباً • اذا قام رجل يملأ نفسه الأمل ويعمرها
الرجاء فخرس شجرة ، انفجر الناس من حوله ضاحكين : « أنت واثق
أنك ستراها تكبر وتثمر ؟ » • ومن جهة أخرى فإن الذين يريدون الخير
يتناقشون فيما سيحدث بعد ألف سنة • ان الفكرة التى تولد الثبات
والاستقرار قد زالت • نحن جميعا كمن يقيم فى فندق ، متهيئاً للرحيل
عن روسيا فى الغد • كل فرد يعيش كمن يريد أن يتخلص ••

- عفوك يا كرافت ! لقد قلت ان الناس يهتمون الآن بما سيحدث
بعد ألف سنة •• ولكن أليس بأسك •• من مستقبل روسيا •• همأ من
هذا النوع نفسه ؟

قال حانقاً وهو ينهض بسرعة :

- ذلك ••• ذلك أهم سؤال يمكن أن يخطر بالبال !

ثم قال فجأة بصوت آخر وهو ينظر الى مرتبكا :

- ها ... كدت أسي • لقد جئت بك لأمر من الأمور ... فلا
تؤاخذني ، أرجوك ...

لكأنه يخرج من حلم • لقد كان كالحجلان • قال ذلك ثم تناول
رسالة من حقيبة موضوعة على المنضدة ومدّها الى •

- اليك ما كنت أريد أن أسلمك اياه • هي وثيقة على جانب من
خطورة الشأن •

قال ذلك مهتماً وقد بدا في وجهه الاحتفال بالأمر • لشد ما تعجبت ،
بعد ذلك بزمان طويل ، حين فكرت في الموضوع ، من هذه القدرة التي
كان يملكها (في ساعات كهذه الساعات الخطيرة عنده) على معالجة أمور
الآخرين بمثل هذا القدر من روح المودة ، وعلى الكلام فيها بمثل هذا
القدر من الهدوء والحزم •

- هي رسالة من ذلك الرجل ستوليف نفسه الذي أثارته وصيته ،
بعد موته ، الدعوى بين فرسيلوف والأمراء سوكولسكى • ان هذه الدعوى
ينظر فيها الآن ، وأغلب الظن أن الغلبة فيها ستكون لفرسيلوف : فالقانون
يؤيده • ولكن في هذه الرسالة الخاصة ، التي كتبت منذ سنتين ، يعلن
الموصى نفسه ارادته الصادقة أو قل رغبته ، وهي تدعم الأمراء سوكولسكى
أكثر مما تدعم فرسيلوف • ويمكن القول في أقل تقدير ان النقاط التي
يستند اليها الأمراء سوكولسكى لانكار الوصية تجد في هذه الرسالة
ما يأتي مصدقاً لها ومؤيداً • لاشك في أن خصوم فرسيلوف مستعدون لأن
يعطوا كل شيء في سبيل الحصول على هذه الوثيقة ، رغم أن قيمتها القانونية
ليست قيمة مطلقة • ان الكسى فيكانوروفتش (أندرونيكوف) الذي اهتم
بقضية فرسيلوف كان يحتفظ بهذه الرسالة لديه ؛ ثم أعطاها قبل موته
وأوصاني أن « أحافظ عليها أشد المحافظة » • لعله كان يخشى على أوراقه
وهو يرى دنو أجله • لا أريد أن أقطع برأى في نيات الكسى فيكانوروفتش

بصدد هذا الأمر • وأنا أعترف أنني أصبحت بعد وفاته متردداً تردداً شاقاً
أليماً : ماذا أصنع بهذه الوثيقة ؟ خاصةً والحكم فى القضية يوشك أن
يصدر ؟ غير أن ماريا ايفانوفنا التى يظهر أن الكسى فيكانوروفتش كان
يوليها فى حياته ثقة كبرى قد أخرجتني من الارتباك : فكنت الى منذ
ثلاثة أسابيع تطلب منى جازمةً قاطعة أن أسلمك هذه الرسالة ، لأنها
تعتقد (ذلك هو تعبيرها) أن ذلك يتفق ونية أندرونيكوف • فاليك الرسالة
اذن ، وانه ليسعدنى أن أستطيع أخيراً أن أنقلها اليك •

قلت وقد أربكنى هذا النبأ الذى لم يكن فى الحسبان قط :

– وما عساي اصنع بهذه الرسالة ؟ ما هو السلوك الذى يجب أن
أسلكه ؟

– هذا متوقف عليك وحدك •

– مستحيل • لست حراً قط • • لا بد أنك تقرنى على ذلك • ان
فرسيلوف ينتظر هذا الميراث على أحر من الجمر • وانك لتعلم أنه بدونه
ضائع لا محالة • • • ثم اذا بوثيقة كهذه الوثيقة توجد على حين فجأة فتغير
الموقف !

– انها لا توجد الا هنا ، فى هذه الغرفة •

– فهل • • • ؟

ألقيت عليه هذا السؤال وأنا أنظر اليه بانتباه شديد •

– اذا لم تهتد بنفسك الى السلوك الذى ينبغى لك أن تسلكه ، فيماذا
عساي أنصحك ؟

– اننى لا أستطيع أن أسلم الوثيقة الى الأمير سوكولسكى : والا
فضيت على جميع آمال فرسيلوف ؟ ثم ما عسى أن يكون موقفى منه عندئذ ؟
سيكون موقف الحائن • • • ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى فأننى اذا

سلمت الوثيقة الى فرسيلوف كنت أغرق في البؤس والشقاء أناماً أ برياء ؟
كما أن فرسيلوف سيجد نفسه عندئذ في مأزق لا مخرج منه : فاما أن
يتنازل عن الميراث ، واما أن يصبح لصاً •

- انك تضخم خطورة الأمر •

- قل لى أيضا : هل هذه الوثيقة حاسمة قاطعة ؟

- لا • لست من رجال القانون • ان محامى الخصم سيجد بطبيعة
الحال وسيلة لاستغلال الوثيقة وللإستفادة منها. ولكن الكسى نيكانوروفتش
يقدر حقا أن هذه الرسالة لن يكون لها قيمة قانونية كبيرة ، وأن فرسيلوف
يمكن أن يربح الدعوى رغم كل شىء • المسألة أقرب الى أن تكون مسألة
ضمير ان صح التعبير •

فقاطعه أقول :

- هذا هو الأمر الهام خاصة • لهذا قلت ان فرسيلوف سيجد نفسه
فى مأزق لا مخرج منه •

- قد يتلف فرسيلوف الوثيقة ، فيكون عندئذ فى منجى من أى
خطر •

- أتملك من الأدلة الخاصة ما يجعلك ترى فيه هذا الرأى ،
ياكرافت ؟ ذلك ما كنت أريد أن أعرفه ، ومن أجل هذا انما ترانى
عندك الآن •

- أعتقد أن كل انسان يفعل ذلك •

- وأنت أيضا يمكن أن تفعله •

- أنا لست انتظر ميراثاً أرثه ، لهذا لا أدرى ما الذى قد أفعله •

قلت وأنا أدس الرسالة فى جيبي :

- طيب • اتهمينا • اسمع ياكرافت ! ان ماريا ايقانوفنا التى أوكد لك

أنها كشفت لى عن أشياء كثيرة ، قالت لى انك تستطيع ، وحدك ، أن تبثنى بحقيقة ما حدث فى مدينة « امس » منذ ثمانية عشر شهراً بين فرسيلوف وأسرة آخماكوف . لقد كنت أنتظرك كمن ينتظر الشمس تضىء له ما حوله . انك لا تعرف وضعى يا كرافت . أتوسل اليك أن تذكر لى الحقيقة كاملة . أريد أن أعرف حقيقة هذا الانسان ؛ أريد أن أعرف ذلك الآن ؛ أنا الآن فى حاجة الى ذلك أكثر من أى وقت آخر .

- يدهشنى أن ماريا ايفانوفنا لم تقصص عليك كل شىء . فلا بد أن المرحوم آندرونيكوف قد أظهرها على الأمر كله ، ولا شك فى أنها قد سمعت منه ما لم أسمع ، وأنها تعرف مالا أعرف .

- ان آندرونيكوف نفسه قد اختلط عليه الأمر : ذلك ما تقوله ماريا ايفانوفيا . تلك قضية ما أظن أن أحدا قادر على أن يفهمها . الشيطان نفسه لن يستطيع ذلك . وأنا أعلم أنك كنت يومئذ فى « امس » .

- لم أشهد كل شىء ، وسأقص عليك ما أعرف . ولكن ترى هل يكفيك ذلك ويرضيك ؟

لن أعيد قصته نصاً ، بل سوف أوجز جوهرها .

منذ ثمانية عشر شهراً ، استطاع فرسيلوف ، الذى أصبح بواسطة الأمير العجوز سوكولسكى صديق أسرة أخماكوف (وكانوا أيامئذ جميعاً فى الخارج ، فى مدينة « امس ») أن يؤثر تأثيراً قوياً ، أول الأمر ، فى أخماكوف الجنرال ، الذى لم يكن قد طعن فى السن كثيراً بعد ، لكنه كان قد بدد فى القمار المهرَ الكبير الذى مهرته اياه زوجته ، كاترين نيقولايفنا . بدده خلال ثلاث سنين من الزواج ، أصيب بعدها بنوبة قلبية نتيجة لاسرافه وافراطه . وقد شفى من هذه النوبة القلبية فسافر الى الخارج يقيم فى مدينة « امس » من أجل ابنة له من زواج أول . كانت ابنته هذه فتاة ممراسماً فى نحو السابعة عشرة من عمرها ، مصابة بالسل ، فاتتة الجمال فيما يقال ، وكذلك جامحة الخيال . ولم تكن تملك مهراً . وكانوا يعوّلون فى هذا الأمر على الأمير العجوز ، كالعادة . ويقال ان كاترين نيقولايفنا كانت لابنة زوجها نعم الأم حناناً . ولكن الفتاة شغفت بفرسيلوف شغفاً خاصاً . وكان أيامئذ ينادى « بمالا أدرى من الحماسة » (على حد تعبير كرافت) ، ويدعو الى «مالا أدرى من حياة جديدة» ؛ وكان «مأخوذاً بحمية دينية قوية الى أبعد حدود القوة » ، على حد ذلك التعبير الغريب ، وربما الساخر ، الذى نقل الى أن آندرونيكوف وصفه به . ويجب أن نذكر أن فرسيلوف سرعان ما أصبح يكرهه جميع الناس . حتى ان الجنرال نفسه أخذ يحاذره ويخشاه . ولم يكذب كرافت الاشاعة التى راجت تقول ان فرسيلوف قد استطاع أن يدخل فى روع زوج كاترين نيقولايفنا المريض أنها لا تخلو من عاطفة نحو الأمير سوكولسكى (الذى

كان قد ترك مدينة « امس » الى باريس) . فعل ذلك لا بكلام مباشر بل بتلميحات وايحاءات وبأنواع من اللف والدوران (وهو فى هذه الأساليب أستاذ بارع ، كما قال كرافت) . يجب أن أقول ان كرافت لم يكن يعدّه ولا كان يريد أن يعدّه انساناً نصاباً أو مراوغاً مختالاً بفطرتّه ، بل رجلاً تملكته حقاً فكرة عليا أو استولت عليه فكرة شاذة لا أكثر . وكنت أعرف ، على كل حال ، من مصدر آخر غير كرافت ، أن فرسيلوف الذى أثر ، أو الأمر ، تأثيراً كبيراً فى كاترين نيقولايفنا ، انتهى شيئاً فشيئاً الى قطع صلته بها ، أما حقيقة هذه اللعبة كلها ، فذلك ما لم أستطع أبداً أن أحصل من كرافت على تفسير له ، غير أن جميع من كانوا على بعض العلم بالأمر أكدوا أن الكره وقع بينهما . وحدث بعد ذلك حادث غريب . ان الفتاة المراض ، ابنة زوج نيقولايفنا ، افتتت بفرسيلوف ، أو أعجبت بصفه من صفاته ، أو ألهمت حماسها أحاديثه ، لا أدري ولكن المعروف أن فرسيلوف أصبح ، خلال فترة من الزمن ، يقضى كل أيامه تقريباً حول هذه الفتاة . ثم اذا بالفتاة تصرح لأبيها ذات يوم على حين فجأة أنها تريد فرسيلوف زوجاً لها . وقع هذا فعلاً ، فقد أكده الجميع : أكده كرافت ، وأندرونيكوف ، وماريا ايفانوفنا ؛ حتى ان تاتيانا بافلوفا ألمحت اليه ذات يوم بحضورى . وقيل أيضاً ان فرسيلوف لم يتمنّ هذا الزواج فحسب ، بل أصرّ عليه أيضاً ، وان الاتفاق بين هذين الانسانين اللذين يختلف كل منهما الآخر ، فأحدهما كهل متقدم فى السن والآخر فتاة فى ريعان الصبا ، كان اتفاقاً متبادلاً . لكن هذه الفكرة قد دعر لها الأب ، فعلى قدر ما كان ينفر من كاترين نيقولايفنا يوماً بعد يوم (وكان يحبها قبل ذلك حباً كبيراً) أصبح يزداد ولهاً بابنته وعبادة لها ، وخاصة بعد التوبة التى أصيب بها . غير أن الحصم الأكبر الذى كان يعارض مثل هذا الزواج معارضةً عنيفةً انما هو كاترين نيقولايفنا . فقامت فى البيت صراعات

هائلة خفية لكنها مزعجة الى أبعد الحدود ، وتشتت فيه مشاجرات ومشاحنات وآلام وأحزان ، وشاعت فيه على وجه العموم أنواع لا نهاية لها من القذارات ... وأخذ الأب ينصاع آخر الأمر ، لما رأى من عنادٍ واصرار لدى ابنته المقتونة بفرسيلوف ، « المتحمسة » له على حد تعبير كرافت . ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت نائرة متمردة يملأ نفسها كره لا يوصف . وهنا انما بدأ ذلك الاشكال الذي لا يفهم منه أحد شيئاً . واليكم مع ذلك ، الافتراض الذي بناه كرافت على بعض الوقائع ، وما هو الا افتراض على كل حال :

الافتراض هو أن يكون فرسيلوف قد استطاع أن يدخل في روع الفتاة ، بأسلوبه الرقيق المرهف الذي لا سبيل الى مقاومته أن كاترين نيقولايفنا انما ترفض الموافقة على هذا الزواج ، لأنها تحبه هو ، فالغيرة تعذبها منذ زمن طويل : انها تلاحقه ، وتدبر له المكائد ، حتى لقد صرحت له بحبها ، وانها الآن مستعدة لأن تحرقه حياً لأنه يحب امرأة غيرها . الخلاصة : شيء من هذا القليل . والأنكى من ذلك أنه لعله قد « أسمع » الأب ، زوج المرأة « الحائنة » أن الأمير لم يكن أكثر من تسلية . وفي روايات أخرى أن كاترين نيقولايفنا كانت تحب ابنة زوجها حب العبادة ، وأنها أصبحت الآن ، بعد أن قيل لها عنها ما قيل ، في حالة يرثى لها من الألم والعذاب ، ناهيك عن علاقتها بزوجها المريض .

وهناك رواية أخرى أيضاً ألمني كثيراً أن كرافت كان يصدقها تصديقاً كاملاً ، وكنت أصدقها أنا نفسي أيضاً (لأنني سمعت بها أيضاً) وهي أن فرسيلوف (ويقال ان آندرونيكوف قد علم هذا من كاترين نيقولايفنا نفسها) كان ، على خلاف ما تقوله الروايات السابقة ، قد عرض حبه على كاترين نيقولايفنا قبل ذلك ، أي قيل أن تنشأ هذه العواطف في قلب الفتاة ؛ وأن كاترين نيقولايفنا التي كانت صديقه حتى لقد تحمست له زمناً ما ، ولكنها لم تكن تصدقه أبداً ، وكانت تعارضه دائماً ، قد

استقبلت منه هذا التصريح بغض شديد ، وأثقلته سـخريـة مـريـرة
وهزءاً لاذعاً ؛ ثم طردته من بيتها طرداً حاسماً ، لأنه أقترح عليها صراحة
أن يتزوجها متبناً بأن زوجها سيموت وشيكاً بنوبة جديدة . لذلك شعرت
كاترين نيقولايفنا فرسيلوف بكره خاص حين رأته بعد ذلك يسعى بمثل
هذا الوضوح الظاهر الى خطبة ابنة زوجها . حين قصت على ماريا
ايفانوفنا هذا كله فى موسكو ، كانت تصدق الروايتين كليهما اى كانت
تصدق كل شىء ، قائلة ان ذلك كله يمكن ألا يتعارض ، وأن الأمر
كان « حياً فى كره » ، كان نوعاً من كبرياء غرامية جريحة لدى الطرفين ،
النخ النخ ، أى كان ضرباً من اشكال عاطفى 'يحتقر صدوره عن رجل
جاد ، ولكن له تفسيره ، عدا أنه ممتزج بنميمة معيبة . ولكن ماريا
ايفانوفنا كانت ممثلة النفس بالروايات منذ طفولتها ، فهى تقرأ القصص
ليلاً ونهاراً ، رغم ما تملكه من قوة الطبع وروعة الخلق . ومهما يكن من
أمر فانه يخرج من هذا كله أن فرسيلوف رجل واضح الذكاء والكذب
والكيد ، أنه انسان أسود النفس يبعث على الاشمئزاز ، لاسيما وأن
الختامة كانت مأساة أليمة : فان الفتاة المسكينة التى ألهبها الحب قد سممت
نفسها ، فيما يقال ، بفوسفور أعواد ثقاب . على أتنى لا أدرى حتى الآن
أكانت هذه الاشاعة صادقة أم لا ، ولكن ما حدث على كل حال هو أن
جميع الوسائل التى استعملت فى انقاذ الفتاة لم تنفع ، فلم يدم مرضها
الا خمسة عشر يوماً ، ثم لفظت أنفاسها . هكذا ظلت قصة الثقاب أمراً
مشكوكاً فيه ، ولكن كرافت يعتقد بصحة الاشاعة لا يراوده فى صدقها
أى شك . وما لبث أن مات وألد الفتاة بعد ذلك ، من فرط حزنه عليها
فيما قيل ، اذ وافته نوبة قلبية جديدة ، بعد ثلاثة أشهر . غير أن
الأمير الفتى سوكولسكى الذى عاد من باريس الى امس بعد دفن الفتاة صفع
فرسيلوف على مرأى من الناس فى حديقة عامة ، فلم يرد فرسيلوف على
الصفعة بأى تحد ، كأن شيئاً لم يحدث . وعندئذ انما أدار جميع الناس

له ظهورهم وأشاحوا عنه أبصارهم ، حتى فى بطرسبرج • ولئن احتفظ فرسيلوف بعد ذلك ببعض المعارف ، فلقد كان معارفه هؤلاء ينتمون الى بيئة أخرى غير تلك البيئة • أما أصدقاؤه من أبناء المجتمع الراقى فقد أصبحوا جميعاً يتهمون به ، مع أن قلة قليلة منهم قد اطلعت على جميع التفاصيل ، فى حين أن الآخرين لا يعرفون الا قصة موت الفتاة وحكاية الصفة • شخصان أو ثلاثة أشخاص فقط كانوا يملكون معلومات وافية على قدر الامكان • وكان المرحوم آندرونيكوف أوسمهم علماً بالأمر ، اذ كان بينه وبين أخماكوف علاقات أعمال منذ زمن طويل ، ولأنه كان على صلة بكاترين نيقولايفنا خاصةً بسبب مناسبة من المناسبات • لكنه كتم السر حتى عن أسرته ، ولم يفتح نفسه قليلاً الا لكرافت وماريا ايفانوفنا ، وذلك لضرورة أيضاً •

قال كرافت يختم كلامه :

— المهم أن ههنا الآن وثيقة تخشاها السيدة أخماكوف خشيةً هائلة •
واليكم ما أبلغنيه فى هذا الصدد :

ان كاترين نيقولايفنا قد ارتكبت بعض الطيش ، حينما كان أبوها الأمير العجوز يستشفى من نوبته فى الخارج ، فكتبت الى آندرونيكوف ، سرّاً ، (وكانت تمحضه ثقةً كاملة) رسالةً تسمى اليها كثيراً • وكان الأمير الذى يقضى فترة النقاهة قد أظهر ، فيما قيل ، ميلاً الى تبديد ماله ، حتى لكأنه يرميه فى البحر رماً : لقد أخذ يشتري فى الخارج أشياء لا فائدة منها البتة ، ولكنها غالية الثمن ، من لوحات وآيات وما أشبه ذلك ؛ وأخذ يقدم الهدايا والهبات مبالغ طائلة حتى لمؤسسات شتى من تلك البلاد • وأوشك أن يشتري من نييل روسى ذهب ماله عقاراً مهجوراً تقوم حوله دعاوى كثيرة ، وذلك بضمن باهظ ، دون أن يرى المقار • وكان فوق هذا كله يفكر فى الزواج فعلاً •

فلهذه الأسباب كلها ، عمدت كاترين نيقولايفنا التي لم تترك أباهما خطوة واحدة أثناء مرضه ، الى كتابة رسالة الى أندرونيكوف ، من حيث هو رجل من رجال القانون ، ومن حيث هو صديق قديم ، تسأله هذا السؤال : « هل يجوز ، بحكم القانون ، أن يتم الحجر على أبيها ، أو أن يعطى نصحا قانونياً ؟ فإذا كان هذا في الامكان ، فما هي الوسيلة المثلى لتحقيقه دون فضيحة ، حتى لا يجد أحد مايقوله ، وحتى تراعى عواطف أبيها في الوقت نفسه ، النخ النخ ، ، ، يقال ان أندرونيكوف قد ردّها الى الصواب فنصحها بالعدول عن الشروع في مثل هذا الأمر . حتى اذا شفى الأمير شفاءً كاملاً ، لم يثر هذا الموضوع بعد ذلك قط ، ولكن الرسالة ظلت محفوظة لدى أندرونيكوف . وقد مات الآن أندرونيكوف . فما لبثت كاترين نيقولايفنا أن فكرت في الرسالة : فلو اتفق أن 'عثر على الرسالة بين أوراق المتوفى ، فوَقعت الرسالة بين يدي الأمير العجوز ، فلا شك في أنه سيطردها الى الأبد ، وسيحرمها من الميراث ، وأنه لن يعطيها قرشاً واحداً ما ظل حياً . انه اذا عرف أن ابنته كانت لا تثق بسلامة عقله ، حتى أنها أرادت في ذات يوم أن تعلن أنه مجنون ، فقد ينقلب هذا الحمل الوديع الى وحش كاسر . وهي بعد ترملها قد أصبحت بسبب زوجها المقامر لا تملك أية ثروة ، ولا تعوّل الا على أبيها ؛ وكان أملمها كبيراً في أن تحصل منه على مهر جديد لا يقل عن مهرها الأول .

كان كرافت لا يعرف عن مصير هذه الرسالة شيئاً كثيراً . لكنه كان قد لاحظ أن أندرونيكوف كان « لا يمزق أبداً الأوراق التي قد تكون ذات فائدة في يوم من الأيام ، وأنه كان بالاضافة الى ذلك واسع الفكر ، لكنه واسع « النعمة » أيضاً . (لقد استغربت عندئذ هذا الاستقلال الحارق لدى كرافت الذي كان يحب أندرونيكوف ويحترمه) . ولكن كرافت كان مقتنماً مع ذلك بأن الوثيقة التي قد تؤذي كاتبها لا بد أنها وقعت بين يدي فرسيلوف ، وذلك لما بينه وبين أرملة أندرونيكوف وبناته من صلة

حكيمة : حتى لقد عرف منذ ذلك الحين أنهم وضعن تحت تصرفه ، في كثير من المودة ، جميع أوراق المرحوم . وكان كرافت يعلم أيضاً أن كاترين يقولان لا تجهل أن الرسالة موجودة عند فرسيلوف ، وذلك ما كانت تخشاه ، لتقديرها أن فرسيلوف سيضئ فوراً إلى الأمير العجوز ليظهره على الرسالة ، وأنها حين عادت من الخارج قد بحثت عن الرسالة في بطرسبرج ، فذهبت إلى عائلة أندرونيكوف ، وأنها لا تزال تبحث عنها لأنها لا تزال تأمل رغم كل شيء ألا تكون الرسالة قد وصلت إلى فرسيلوف ؛ وأنها لم تسافر إلى موسكو إلا لهذا الغرض ، وأنها تضرعت هنالك إلى ماريا ايفانوفنا أن تبش الأوراق التي لا تزال عندها . أما وجود ماريا ايفانوفنا ، وما كان بينها وبين المرحوم أندرونيكوف من صلوات ، فقد علمته في الآونة الأخيرة حين عادت إلى بطرسبرج .

سألته وفي ذهني فكرتي :

- وهل تعتقد أنها لم تجد شيئاً عند ماريا ايفانوفنا ؟
- إذا كانت ماريا ايفانوفنا لم تكشف لك عن شيء ، فمعنى ذلك أنها لم تجد شيئاً .

- أنت تقدرّ اذن أن الرسالة عند فرسيلوف ؟

- هذا هو الأرجح . على كل حال ، لا أدري .

قال ذلك بضجر ظاهر .

فكففت عن سؤاله . وفيم السؤال ؟ ان الأمر الأساسي واضح ، رغم ذلك الاشكال الكريه . ان كل ما كنت أخشاه قد ثبت . قلت بحزن عميق وأنا أتناول قبعتي :

- لكأن ذلك كله حلم أو هذيان !

فسألني كرافت بعطف كبير واضح قرأته في وجهه :

- هل هذا الرجل عزيز جداً فى نفسك ؟

قلت :

- هذا ما كنت أوجسه : كنت أحس أننى لن أعرف لديك كل
شئ . • بقى أمل واحد هو أخماكوفا • لقد كنت أعول عليها كثيراً • قد
أذهب إليها • وقد لا أذهب •••

فنظر الى كرافت حائراً مضطرباً •

- وداعاً يا كرافت ! فيم يتعلق المرء بأناس لا يريدونه ؟ أليس
الأفضل أن يقطع بهم صلته ؟

فسألنى وقد أظلم وجهه وأطرق الى الأرض :
- وبعد ذلك ؟

- يعود المرء الى بيته ! يقطع كل صلة ، ويرجع الى بيته !
- الى أمريكا ؟

قلت مهتاجاً :

- الى أمريكا ؟ بل الى بيته ، الى بيته وحده • تلك هى « فكرتى »
• كلها •

فنظر الى كرافت نظرة استطلاع غريبة •

- وهل لك ملاذ كهذا الملاذ ، هل لك « هذا البيت » ؟

- نعم • الى اللقاء يا كرافت • أشكرك • ويؤسفنى أننى أزعجتك •
لو كنت أتصور روسيا على نحو ما تتصورها أنت ، لما حفلت بشئ ، ولما
همنى من الأمر شئ ، ولكن لسان حالى يقول : الى الشيطان فليذهب جميع
الناس : امضوا فى سبيلكم ، كيدوا بعضكم لبعض ، كلوا بعضكم بعضاً ،
فما عسى أن يعينى أنا هذا كله ؟

قال كرافت فجأة بعد أن شيعني حتى الباب :

- ابق قليلاً أيضاً !

فدهشت بعض الدهشة ، وعدت أدراجي فجلست وجلس كرافت أمامي • تبادلنا بضع نظرات : ما زلت أرى هذا كله كأنني ما زلت فيه • وأذكر أنني كنت على شيء من دهشة •

قلت فجأة :

- ما يعجبني فيك يا كرافت هو أنك انسان مهذب !

- غير معقول ! ...

- يندر أن أستطيع أن أكون مهذباً ، رغم ما أبذل في ذلك من جهد ... ولكن ربما كان من الأفضل للمرء أن يجرح شعور الآخرين ، فانه على الأقل يتخلص عندئذ من عذاب محبتهم •

- أية ساعة من ساعات اليوم تفضل ؟

واضح أنه سألني هذا السؤال وكان قد أصبح لا يصنى الى ما أقول

- أية ساعة من ساعات اليوم أفضل ؟ لا أدري ... ولكنني

لا أحب ساعة غروب الشمس •

- حقاً ؟

قال ذلك متعجباً تعجباً خاصاً • ثم ما لبث أن عاد الى شرود فكره •

- أنت مسافر الى مكان ما ؟

- نعم •

- قريباً ؟

- قريباً •

- هل لابد للمرء من مسدس ليذهب الى « فيلنا » ؟

سألته هذا السؤال دون أن يكون في ذهني أية فكرة مبيتة ، بل دون

أن يكون في ذهني أية فكرة البتة ؟ وانما راودني هذا السؤال لأنني لمحت
مسدساً ، وكنت لا أعرف ماذا أقول ! ... فالتفت يحدتي الى المسدس ،
وقال :

- لا .. الأمر .. هكذا .. عادة ..

- لو كان عندي مسدس لبيتته في مكان ما ، واقفلت عليه
بمفتاح . ان منظر المسدس يغري . أنا لا أؤمن بوباء الانتحارات ، ولكن
المرء قد يمر بلحظات يستبد به فيها الاغراء اذا هو رأى هذا الشيء أمام
عينيه دائماً .

- لا تقل هذا الكلام !

قال ذلك وهو ينهض فجأة .

أضفت أقول وأنا أنهض أيضاً :

- ما حديثي عن نفسي . فلو وهبت لي ثلاثة أعصار اذا شئت ،
ما اكتفيت بها .

- عيش طويلاً !

وكان هاتين الكلمتين قد افلتتا من لسانه افلاتاً .

وابتسم ابتسامة ذاهلة ، واتجه رأساً نحو مخرج الفرقة اتجهاً يدعو
الى الاستغراب كأنما هو يرغمني على الانصراف ، دون أن يلاحظ طبعاً
ماذا كان يفعل . قلت وانا أضع قدمي على الفسحة أمام الباب :

- أتمني لك كل أنواع السعادة يا كرافت .

فقال حازماً :

- هذا ما سوف نعرفه ..

- الى اللقاء .

- وهذا أيضاً ، سوف نعرفه .

انني أتذكر النظرة الأخيرة التي رمقني بها .

ذلكم هو اذن الرجل الذى خفق قلبى له ذلك العدد كله من
السنين ! وماذا كنت أنتظر من كرافت ؟ أية اكتشافات ؟

حين خرجت من منزل كرافت كان بى جوع رهيب • ان المساء
يهبط ، ولم أكن قد تناولت غذائى بعد •

وما هى الا لحظات حتى صرت فى « شارع بطرسبرجسكاييا » ،
فدخلت مطعماً صغيراً على نية انفاق عشرين كوبكا أو خمسة وعشرين
على أكثر تقدير ، فما كان لى أن أبيع لنفسى انفاق أكثر من ذلك المبلغ فى
تلك اللحظة • طلبت حساءً ، ومازلت أذكر أننى بعد أن احتسيت
الحساء نظرت من النافذة • كان المطعم فى الداخل حافلاً بجمهور من
الطاعمين • رائحة شحم يحترق ، ومنشفات وسخة ، ودخان تبغ • جو
فاسد • وفوق رأسى ، هزار لايفنى ، قائم واجسم ، يضرب بمنقاره
قاع قفصه • وفى صالة البلياردو ضجة وصخب • ولكننى بقيت جالساً
فى مكاني أفكر • ان غروب الشمس (لا أدرى لماذا أدهش كرافت أن
يعرف أننى لا أحب ساعات غروب الشمس) يولد فى نفسى احساسات
جديدة لا أتوقمها ولا أرى لها مسوغاً • لقد كنت دائماً أتمثل النظرة
الحنون التى تلقىها على أمى ، وأتمثل عينيها الجميلتين ، وأتمثل كيف
أصبحت منذ شهر كامل ترنو الى خجلى • لقد كنت شديد الفظاظلة فى
المنزل ، وخاصةً معها • كان حقدى منصباً على فرسيلوف ، ولكننى لجبئى
عن مخاطبته بفظاظلة ، على عادتى اللئيمة ، كنت أعذبتها هى • حتى لقد
كانت تخافنى : وما أكثر ما كانت ترنو الى بنظرة متوسلة ضارعة حين كان

يدخل آندره بتروفتش ، مخافة أن تصدر عنى حماقة ما ... شىء
اننى الآن ، فى هذا المطعم ، انما يخطر ببالى لأول مرة أن فرسيلو
يخطبني بصيفة المفرد ، وأنها كانت تخاطبني هى بصيفة الجمع
سبق أن أدهشنى هذا قليلاً من قبل ، دون أن تشتمل هذه الده
شئ من الاكبار لها ، ولكننى أتنبه هنا للأمر تنبهاً خاصاً ، وهى
خواطر غريبة تتلاحق فى ذهنى تلاحقاً سريعاً . لبثت ساكناً زمناً ط
الى أن انقضت فترة الفسق . وفكرت أيضاً فى أختى ...

لحظة حاسمة ! يجب على أن اتخذ قراراً مهما كلف الأمر
اذن عاجز عن اتخاذ قرار ؟ أية صعوبة فى القطيعة ، ولاسيما
الآخرون لا يريدوننى ؟ أمى وأختى ؟ ولكننى لن أتركهما بأى -
الأحوال مهما يحدث .

نعم ... ان ظهور هذا الرجل فى وجودى ومضة من ال
فى طفولتى الأولى ، قد كان صدمة حاسمة هزت ضميرى . فلو
القيت به عندئذ ، لكان عقلى غير ما هو الآن ، ولكانت طريقتى فى
غير ما هى الآن ، ولكان مصيرى غير ما هو الآن ، رغم طبعى الذى
القدر ولم يكن فى وسعى أن أتجنبه .

وهأنذا أدرك أن هذا الرجل لم يكن الا حلماً ، حلماً من
أولى سننى حياتى . أنا الذى تخيلته على هذه الصورة : ولكنه فى
مختلف عن هذه الصورة كل الاختلاف ، انه أخطأ كثيراً مما تص
خيالى . لقد جئت فى سبيل أن أجد انساناً شريفاً ، لا هذا الانس
ولكن لماذا فنتت به الى الأبد أثناء تلك اللحظة القصيرة التى رأيته
طفلاً ؟ يجب أن تزول كلمة « الى الأبد » هذه . فى يوم من الأيام
أتيت مناسبة ما ، سأفص عليك قصة ذلك اللقاء الأول : انه حكاية
لا استخرج منها أية نتيجة . ولكننى استخرجت منها يومئذ
ضعماً . بدأت بناء ذلك الأهرام تحت غطائى الذى كنت أتدثر به ط

لحظة كنت أستطيع ، قبل أن يغمض النوم عيني ، أن أبكي وأن أحلم .
بماذا كنت أحلم ؟ أنا نفسى أجهل ذلك . أكنت أفكر فى تركهم اياي ؟
أكنت أفكر فى ألوان العذاب التى كنت عرضة لها ؟ ولكننى لم أعذب كثيراً
خلال قرابة سنتين قضيتهما فى المدرسة الداخلية ، مدرسة توشار التى
حسرتنى فيها قبل أن يذهب الى غير رجعة . وبعد ذلك لم يعذبنى أحد
قط . بالعكس ، كنت أنا الذى أنظر الى رفاقى نظرة استعلاء ! ثم اتنى
لا أطيق أولئك اليتامى الذين يشكون حالهم ويصفون عذابهم . ليس فى
الدينا منظر أشجع من منظر هؤلاء اليتامى أو أبناء الزنا وسائر أولئك
الذين يذهبهم المجتمع ، وجميع أولئك الأوغاد الذين لا أشعر نحوهم بأية
شفقة حين يهبون فجأة أمام الناس ويأخذون يصبحون ملء أفواههم
استدرايراً للشفقة قائلين : « أنظروا كيف نعامل ! » . لو استطعت لجلدتهم
جلداً ، هؤلاء اليتامى ! * * ما من أحد من هذه الجمهرة المنحطة يدرك أن
الصمت أنبل عشر مرات من الشكوى والاستعطاف . اذا كنت تحترم
نفسك ، يا من جئت الى هذه الحياة ثمرة حب ، فقد نلت ما تستحق . ذلك
رأىي أنا .

غير أن الأمر المضحك ليس تلك الأحلام التى كنت استرسل فيها
أيام طفولتى « تحت غطائى » ، بل مجيئى الى هنا من أجله ، من أجل
ذلك الانسان الخيالى ، ناسياً جميع أهدافى الأساسية تقريباً . لقد جئت
أساعده فى التغلب على الأراجيف ، وأساعده فى سحق أعدائه . ان
الوثيقة التى كان يتكلم عنها كرافت ، أعنى الرسالة التى كتبتها تلك المرأة
الى آندرونيكوف ، وتحشها تلك الحشية كلها ، لأنها قد تحطم سعادتها
وتغرقها فى البؤس ، والتى تظن تلك المرأة أنها بين يدي فرسيلوف ، أقول
ان تلك الرسالة ليست لدى فرسيلوف ، بل هى معى أنا ، خطتها فى جيبى
بنفسى ، وليس فى الدينا أحد يعرف ذلك . ولئن رأيت ماريا ايقاتونفا
ذات الطبع الخيالى ، وهى التى كانت « تحفظ » الوثيقة ، أن تعهد بها

الىّ أنا ، لا الى أحد آخر ، فذلك ثمرة أفكارها وارادتها ، وليس علىّ أن أجد له تعليلاً . قد يتاح لى يوماً أن أقص عليك هذا الأمر . لكننى وقد تسلحت على هذا النحو ارتجالاً ، لم يكن فى وسعى الا أن أشعر بحاجة المحيىء الى بطرسبرج . وكنت أعول بطبيعة الحال أن أساعد هذا الرجل سرّاً ، دون أن أتفاخر ودون أن أتحمس ، ودون أن أنتظر منه لا أماديع ولا قبالات . وما كان ليخطر على بالى يوماً أن أوجّه اليه أى لوم ! أكلان هو المذنب حين افتنت به ، وحين صنع منه خيالى مثلاً أعلى ؟ ولعلنى لم أكن أحبه . ان فكره الشاذ ، وطبعه القريب ، ومكائده ومغامراته ، ووجود أمى بقربه ، كل ذلك أصبح فيما يبدو غير قادر على الوقوف فى طريقي . يكفى أن ديمتى الخيالية قد تحطمت ، ولعلنى أصبحت عاجزاً عن حبه بعد الآن . فما الذى لا يزال يوقنى ، ما الذى لا يزال يمسكنى ؟ ذلكم هو السؤال . ومهما يكن من أمر ، فالأحقق أنا ، ولا أحد غيرى .

ولكن لما كنت أحب فى غيرى الصراحة ، فسأكون صريحاً أنا أيضاً . يجب أن اعترف أن الوثيقة المخيطة فى جيبي لا توفى فى نفسى رغبةً جامحة فى أن أخفّ الى نجدته فحسب ؛ لقد أصبح هذا واضحاً أشدّ الوضوح فى ذهنى الآن ، رغم أننى أحمر خجلاً حين أتصوره . ان خيال امرأة يتخاطر الآن فى رأسى ، امرأة متكبرة من المجتمع الراقى ، سأقابلها وجهاً لوجه . ان هذه المرأة ستحتقرنى ، وستضحك منى ضحكها من فأر ، دون أن يدور فى خلدنا أننى سيد مصيرها . كانت هذه الفكرة تسكرنى حين كنت فى موسكو ، وكانت تسكرنى مزيداً من السكر حين كنت بالقطار فى طريقي الى هنا . لقد سبق أن اعترفت بهذا من قبل . نعم ، لقد كنت أكره هذه المرأة ، ولكننى أحبها منذ الآن كما يجب امرؤ ضحيته . هذا كله صحيح . هذا كله واقع . ولكن فيه صيبانية ما كنت لأتوقعها أبداً حتى من مخلوق مثلى . اننى أصف عواطفى فى ذلك

الوقت ، أغنى العواطف التي دارت في رأسي حين كنت جالساً في المطعم الصغير تحت الهزار ، فقررت أن أقطع صلتى بهم ، في ذلك المساء نفسه ، قراراً لا رجعة عنه . أن صورة لقائي الأخير بتلك المرأة قد جعل دم الشعور بالعار يصعد الى وجهي فجأة . ياله من لقاء مخجل ! يا له من شعور مخزٍ وغبي ، يبرهن خاصةً على انني امرؤ عاجز عن الفعل عجزاً ليس كمنه عجز ! قلت لنفسي ان هذا اللقاء يبرهن على انني عاجز عن الصمود حتى أمام أسخف المغريات ، مع أنني كنت قد صرحت لكرافت منذ قليل أن لي مكاناً في الشمس ، وأن لي مهمة خاصة بي ، وأنني لو وهبت ثلاثة أعمار لكانت قليلة عليّ . قلت ذلك باعتزاز وفخار . ولأن أكون قد هجرت فكرتي لأتدخل في شؤون فرسيلوف ، فذلك ما قد يتفرد . أما أن أقفز يميناً ويسرة كأرنب مبهور وأن أقحم نفسي في جميع أنواع الحماقات ، فذلك مني بلاهة محضه ما في ذلك شك . هل كانت بي حاجة الى النهاب الى درجاتشيف فأروح أطلب في الكلام وأطلب ، بينما كنت مقتنعاً منذ زمان طويل بأنني عاجز عن أن أتحدث في أي أمر من الأمور حديثاً متسقاً معقولاً ، وأن الخير كل الخير لي أن أصمت فما أقول شيئاً ؟ وهذا انسان مثل فاسين يلقتني درساً فيقول لي انه لا يزال أمامي « خمسون عاما من الحياة ، فما عليّ اذن أن أقلق ، « اعتراض راثع ، أقر بذلك ، اعتراض يشرف صاحبه هذا الذي يملك ذكاءً لا يمارى فيه راثع لأنه بين الاعتراضات أبسطها ، ولأن الأشياء البسيطة لانهم أبدأ الا في النهاية ، بعد أن يكون المرء قد جرب جميع التعقيدات وجميع الحماقات . ولكنني كنت أعرف هذا الاعتراض من قبل أن يقوله لي فاسين ؟ كنت قد عانيت هذه الفكرة منذ ما يزيد على ثلاث سنين . أكثر من ذلك أنها بعض « فكرتي ، أنا . ذلكم ما كنت أقوله . ذلكم ما كنت أقوله لنفسي وأنا في المطعم الصغير .

كنت أشعر باعياء شديد حين وصلت في المساء ، بعد الساعة السابعة،

الى سيمينوفسكى ، مكدوداً من السير والتفكير • كان الظلام كاملاً • ولقد
تغير الجو ، فهو الآن جاف ، غير أن ريحاً شديدة كانت قد هبت • هى ريح
بطرسبرج القاسية الثاقبة • كنت أشعر بهنا فى ظهري ، وكانت تثير من
حولى رملاً وغباراً • كم من وجوه متعبة بين وجوه هؤلاء الناس المساكين
الذين كانوا يسارعون عائدين الى بيوتهم من العمل أو من المكتب •••
كلٌ الى ركنه ! كان كل منهم يحمل همه القامى فى وجهه ••• وما من
فكرة مشتركة واحدة تجمع هذا الجمهور بمضه الى بعض • ان كرافت
على حق : كل انسان يسير فى جهة • والتقيت بصبي صغير ، هو من
الصغر بحيث يستغرب المرء أن يراه فى مثل هذه الساعة وحيداً فى
الشارع • لا بد أنه ضل طريقه • وهذه امرأة تقف لحظة لتسأله ، ولكنها
لم تفهم • فأومات بيدها بما يدل على أنها لا تستطيع له نفعاً ، ثم تابعت
طريقها تاركة اياه فى الظلام • واقتربت من الصبي ، ولكنه خاف منى ،
وهرب • حتى اذا وصلت الى الدار ، قررت ألا أذهب بعد اليوم الى
فاسين قط • وشعرت ، وأنا أصعد السلم ، برغبة محمومة فى أن أجد
أهلى وحدهم فى البيت ، من دون فرسيلوف ، حتى يكون لى من الوقت
ما يتسع لأن أقول لأمى قبل وصوله بضع كلمات طيبة ، أو أن أقول
بضع كلمات طيبة لأختى العزيزة التى أستطيع أن أزعم أنني لم أوجه إليها
كلمة واحدة طوال هذا الشهر • وذلك ما كان : لم يكن فرسيلوف فى
المنزل •

بالمنسبة : ان علىّ وأنا أدخل في « مذكراتي » هذه « الشخصية الجديدة » (أعني فرسيلوف) أن أتكلم موجزاً عن خدماته في الدولة ، وهي خدمات تافهة على كل حال . لكنني أتكلم عنها ليفهم عني القارىء . فهماً أكمل ، ولأنني أنا نفسي لا أعرف أين يمكنني أن أتحدث عنها في تمة هذه القصة .

لقد كان فرسيلوف في الجامعة ، لكنه دخل بعد ذلك سلاح «الحرس» في فرقة من فرق الفرسان . وتزوج امرأة اسمها فاناريوتوفا ، وأحيل على التقاعد . وقام بعدة أسفار الى الخارج . وكان في الفترات التي تتخلل هذه الأسفار يعيش بموسكو متمتعا بمباهج الحياة في المجتمع الراقى . حتى اذا ماتت زوجته مضى يعتزل في الريف . وهناك انما حدثت له قصته مع أمى . ثم أقام مدةً طويلةً في مكان ما بالجنوب . فلما نشبت الحرب مع أوروبا عاد الى الخدمة في الجيش ، ولكنه لم يرسل الى القرم ولم يشارك في أن عمل . فلما انتهت الحرب أُحيل على التقاعد ، وسافر الى الخارج ، حتى لقد سافر مصطحباً أمى ثم تركها في كونسبرج . وقد حكى لي المسكينة مراراً ، بنوع من الرعب ، وهي تهز رأسها ، كيف أنها مكنت وحيدة وحدهً تامةً مدة ستة أشهر ، مع ابنتها الصغيرة ، دون أن تعرف لغة البلاد ، حتى لكأنها تعيش في غابة ، عدا أنها كانت بغير مال . وقد جاءتها تايانا بافلوفنا عندئذ ، فأخذتها الى مكان في اقليم « ينجنى -

نوفجورود « • ثم كان فرسيلوف فى اعداد أول جماعة من «وسطاء الصلح»، فقام بالمهام الموكولة اليه خير قيام فيما قيل • ولكنه لم يلبث أن ترك هذه المهام ، وراح يتعاطى فى بطرسبرج أعمالاً مدنية شتى خاصة • وقد قدر أندرونيكوف كفاءاته قدراً عظيماً على الدوام • فكان يحترمه كثيراً، ولكنه كان يضيف الى ذلك قوله انه لا يفهم طبعه • ثم هجر فرسيلوف هذا النوع من الأعمال أيضاً ، ورجع الى الخارج ، فأقام هذه المرة مدةً طويلة استمرت عدة سنين • وبعد ذلك بدأت علاقته الوثيقة جداً بالأمر العجوز سوكولسكى • وقد تقلبت أحواله المالية فى أثناء ذلك الوقت مرتين أو ثلاثاً : فتارةً يهبط الى الدرك الأسفل من الفقر والبؤس ، وتارةً يصعد الى ذروة الغنى والثراء •

أن الأوان ، وقد وصلت الى هذا الموضع من مذكراتى ، أن أتكلم عن « فكرتى » لأول مرة منذ أن بنيت هذه الفكرة فى نفسى • هأنا ذا أقرر أن أكشف للقارىء عن فكرتى تلك التى ستضفى على قصتى مزيداً من الوضوح • ان القارىء والكاتب كليهما يكون عرضةً للارتباك والتشوش اذا أنا حاولت أن أشرح سلوكى دون أن أبدأ بتوضيح الأسباب التى قادتني اليه وحضنتني عليه • ولكننى بهذا « الأسلوب من الاغفال » أقع من خراقتي فى عيوب « الحيل » التى يعمد اليها الروائى ، والتى سخرت منها من قبل • اننى اذ بادرت الى سرد قصتى ببطرسبرج مع كل ما فيها من أحداث مخزية لى ، أجد أن هذه المقدمة كانت ضرورة لا غنى عنها • فليست « الحيل » هى التى جعلتنى ألتزم الصمت حتى الآن، وانما ألزمتنى به طبيعة الأشياء ، أى صعوبة القصة • اننى حتى فى هذا اليوم ، بعد كل ما جرى ، لا أزال أشعر بصعوبة لا سبيل الى تذليلها وأنا

أريد أن أحكى تلك « الفكرة » ، ثم ان علىّ طبعاً أن أعرضها فى صورتها
التي كانت عليها حينذاك ، أى كما نشأت فى نفسى وتصورها عقلى ، لا فى
الصورة التي آلت إليها الآن ، وهذه صعوبة جديدة . هناك أمور يكاد
يستحيل على المرء أن يرويها . وان أبسط الأفكار وأوضح الأفكار هي
بمينا أعسرها على الفهم . لو أن كريستوف كولومب أراد قبل اكتشاف
أمريكا أن يروي فكرته للآخرين لظلوا مدةً طويلة لا يفهمونه فيما
أعتقد . وهم لم يفهموه فعلاً . اتنى اذ أقول هذا الكلام لا أدعى
مقارنته نفسى بكريستوف كولومب . وما على الذى يستخلص هذه النتيجة
إلا أن يشعر بخزى وعار ، لا أكثر !

الفصل الخامس

١



فكرتى هي أن أكون مثل روتشيلد • واننى أدعو
القارىء الى الهدوء والجد •

أكرر : ان فكرتى هي أن أكون مثل روتشيلد ،
هي أن أكون فى مثل غنى روتشيلد • لا أن أكون
غنياً فحسب ؛ وانما أن أكون مثل روتشيلد • أما غرضى من ذلك ودافعى
اليه والأهداف التى أسمى اليها ، فذلك كله ما سأعالجه فيما بعد •
وحسبى أن أبرهن الآن على أن تحقيق هدفى هذا مضمون ضمانته
رياضية •

المسألة بسيطة غاية البساطة ، يكمن سرها كله فى كلمتين : «العناد»
و « المثابرة » •

قد يقال لى : « نحن نعرف هذا ، فما هو علينا بجديد • ففى ألمانيا
يردده كل « أب » على مسامع أبنائه • ومع ذلك بقى صاحبك روتشيلد
(المرحوم جيمس روتشيلد ، الباريسى ، الذى أتكلم عنه) فرداً واحداً ،
مع أن هناك ملايين من « الآباء » •

فاجيب :

- تزعمون أنكم تعرفون هذا • والحق أنكم لا تعرفون شيئاً البتة •
نمة نقطة أتم فيها على صواب مع ذلك : لئن قلت ان الأمر « بسيط غاية
البساطة » ، فقد نسيت أن أضيف الى ذلك أنه أيضاً أصعب أمر • ان
جميع الأديان وجميع المذاهب الاخلاقية في العالم ترتد الى ما يلي : « على
المرء أن يحب الفضيلة وأن يتجنب الرذيلة » • هل هناك ما هو أبسط
من هذا ؟ ألا فحاولوا اذن أن تحققوا فضيلة من الفضائل ، وأن تجنبوا
رذيلة واحدة من رذائلكم ! هيا حاولوا قليلاً ! ان الأمر كله يكمن هنا!
لذلك كان أولئك « الآباء » الذين لا حصر لهم ، والذين تعاقبوا
دهوراً لا نهاية لهما، يمكنهم أن يرددوا على مسامع أولادهم هاتين الكلمتين
اللتين يكمن فيهما السر كله ، ثم يبقى روتشيلد فرداً واحداً لا ثاني له •
اذن : ليس الأمر كذلك تماماً ، و « الآباء » لا يرددون الفكرة اللازمة
بعينها •

أما العناد والمثابرة فلا شك أبداً في أنهم سمعوا عنها أيضاً • ولكن
ما أنا في حاجة اليه ليس هو العناد الذي يتكلم عنه « الآباء » ولا هو المثابرة
التي يتكلم عنها « الآباء » •

ان كلمة « الأب » هذه وحدها - ولست أتكلم عن الألمان وحدهم -
أعني أن يكون للفرد أسرة ، وأن ينفق كما ينفق الآخرون ، وأن تكون
عليه التزامات كالتزاماتهم ، فذلك كله يحول بينك وبين أن تصبح روتشيلد،
ويضطرك أن تبقى انساناً معتدلاً • أما أنا فأفهم أنني متى أصبحت روتشيلد
أو متى رغبت في أن أصبح روتشيلد ، لا بطريقة « الآباء » الألمان ، بل
على نحو جاد ، فانتى بذلك أخرج من المجتمع فوراً •

منذ بضع سنين قرأت في الجرائد أنه مات على ظهر مركب بخارى
في نهر الفولجا شحاذ يرتدى أسملاً بالية وخرقاً ممزقة كان يطلب

الصدقات من الناس وكانت المنطقة كلها تعرفه . فبعد موته وجدت ثلاثة آلاف روبل مخيطة في أطماره القذرة . وفي هذه الأيام الأخيرة قرأت قصة جديدة عن شحاذ هو رجل من طبقة التبلد كان يمضي من نزل الى نزل يمد يده مستعظياً . وقد اعتقل الرجل فوجد حاملاً قرابة خمسة آلاف روبل . من هنا نخرج بنتيجتين : الأولى هي أن « العناد » في الكنز ، ولو كان كنز قروش ، يؤدي في النهاية الى ثمرات ضخمة (ولا شأن للزمن في هذا) . والثانية هي أن أبسط شكل من أشكال تحصيل الغنى مضمون النجاح بالبرهان الرياضي متى توفر شرط « المثابرة » .

ربما كان هناك رجال محترمون أذكيا متواضعون ثم هم لا يملكون ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف روبل (مهما يبذلوا من جهد ويتحملوا من عناء) ، رغم حرصهم الشديد على أن يملكو مبلغاً كهذا المبلغ . فلماذا ؟ الجواب واضح : هو أنه لا أحد من هؤلاء يقبل أن يصبح شحاذاً اذا كان ذلك هو السبيل الوحيد الى الاثراء ، مهما تكن رغبته في الاثراء قوية . ولا أحد منهم يبلغ من العناد أنه اذا أصبح شحاذاً لا ينفق القروش الأولى التي يستعطيها للحصول على لقمة زائدة له أو لأسرته . في حين أن على المرء اذا هو استعمل هذا الأسلوب في جمع المال ، أغنى الاستجداء ، أن يتغذى بخبز وملح لا أكثر . أو هذا ما أتصوره أنا على الأقل . ولا شك في أن هذا ما فعله ذاك الشحاذان اللذان ذكرتهما منذ قليل . فقد كانا يأكلان خبزاً يابساً وينامان في العراء ومن المؤكد جداً انهما كانا لا ينويان أن يصبحا مثل روتشيلد : فانهما لم يكونا الا بخيلين من نوع هرباجون أو بليوشكين لا أكثر . ولا كذلك الادخار الواعي أو الكنز المقصود الذي يتخذ صورة أخرى هي أن يصبح صاحبه مثل روتشيلد . ان هذا الادخار لا يقتضي رغبة أقل أو ارادة أضعف مما يملكه ذاك الشحاذان من رغبة عنيفة و ارادة قوية . بل ما من « أب » يملك مثل تلك القوة . ان القوى متنوعة تنوعاً كبيراً في هذا العالم ، ولاسيما قوى الارادة والرغبة .

شتان بين درجة الحرارة اللازمة لجليان الماء ، وبين درجة الحرارة اللازمة
لاحمرار الحديد •

هذا منسك حقاً • هذه مآثر قديسين فعلاً • هذه عاطفة لا فكرة •
لماذا؟ في سبيل ماذا؟ أهو عمل أخلاقي أم هو شذوذ عجيب أن يرتدى
المرء خرقاً ممزقة وأطماراً بالية ، وأن يظل حياته كلها يأكل خبزاً أسود ،
بينما هو يحمل ثروة طائلة؟ هذه مسائل سترد فيما بعد ، أما الآن فانما
المهم أنه يمكن الوصول الى الهدف •

حين تخيلت « فكرتى » (وقوامها حرارة احمرار الحديد) أردت
أن أمتحن نفسى : أأنا خلقت للدير وللقداسة؟ ومن أجل هذا الامتحان
لبثت شهراً بكامله لا أأطعم الا خبزاً مع ماء • كنت لا أحتاج الى أكثر
من رطلين ونصف رطل من الخبز الأسود كل يوم • ولكى أستطيع
تحقيق هذا التقشف اضطررت أن أخدع نيقولا سيميونوفتش الماكر
وماريا ايفانوفنا التى كانت تريد لى الخير • ما كان أبلغ حزن ماريا ايفانوفنا
وما كان أشد حيرة نيقولا سيميونوفتش المرهف حين أصرت على أن
يحمل طعامى الى غرفتى فأكل هناك ! لقد صعق نيقولا سيميونوفتش
حينذاك صعقا فكنت أصب الحساء من النافذة على نباتات القراص أو أرميها
فى المرحاض؟ وكنت أبعث اللحم الى الكلب من النافذة أو أصره بورقة
فأضعها فى جيبى وأمضى بها الى خارج المنزل وأتخلص منها فى الشارع •
واذ كانوا يعطوننى أقل من رطلين ونصف رطل من الخبز ، فقد كنت
أشتري خبزاً فى السر • وصعدت على ذلك الشهر كله ، وان أكن قد
أفسدت معدتى قليلاً فى أغلب الظن ، لكننى أخذت فى الشهر التالى أضيف
الى الخبز حساءً ، وأشرب فى الصباح والمساء كأساً من الشاي • وأؤكد
لكم أننى قضيت على هذا سنةً بأسرها فى صحة تامة واكتفاء كامل ، وكنت
من الناحية النفسية فى أثناء ذلك مفتتاً أشد الافتتان ، وكنت فى حماسة
مستمرة • فلما انقضت السنة وصرت على يقين من أننى أستطيع

احتمال أى صيام ، عدت آكل كما يأكل سائر الناس ، وأمضى أتعتبي معهم • ثم لم تكفى تلك التجربة فكررتها مرة أخرى : كان يحق لى أن أتقاضى مصروفاً قدره خمسة روبلات فى الشهر ، عدا نفقات الإقامة الداخلية فى المدرسة ، وهى النفقات التى كان يدفعها يقولوا سيميونوفتش • فقررت ألا أنفق من هذا المبلغ الا نصفه • ان هذا امتحان صعب جداً • ولكننى بعد سنتين أو أكثر قليلاً كان فى جيبى حين وصلت الى بطرسبرج سبعون روبلاً عدا غيرها من المال ، ادخرتها من تلك التقتيرات • ان النتيجة التى خرجت بها من هذين الامتحانين تجربة فخمة هائلة : لقد علمت علم اليقين أنتى أملك « الارادة » اللازمة للوصول الى هدفى • تلكم هى « فكرتى » كلها • أما كل ما عدا ذلك فأمر تافه •

مع ذلك فلننظر أيضاً فى هذه الأمور التافهة !

لقد وصفت التجربتين اللتين قمت بهما • وأنتم تعلمون أننى فى بطرسبرج قد قمت بتجربة ثالثة : مضيت الى بيع بالمزاد العلنى ، فريحت سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبكاً دفعة واحدة • ولم تكن هذه تجربة بمعنى التجربة طبعاً ، وانما كانت نوعاً من اللعب وضرباً من الرياضة والتسلية والراحة : لقد خطر ببالى أن أختلس من المستقبل دقيقة قصيرة لأرى كيف عسانى أتصرف • والحق أننى منذ البداية بموسكو ، كنت قد أرجأت الشروع الحق فى تنفيذ فكرتى الى اللحظة التى أصبح فيها حراً حرية تامة • كنت أدرك ادراكاً واضحاً أن علىّ قبل كل شىء ، مثلاً ، أن أفرغ من اللسيه (أما الجامعة فكنت قد ضحيت بها كما تعلمون) • ومما لا شك فيه أننى سافرت الى بطرسبرج شاعراً بغضب خفى شديد : فأننى ما ان خرجت من اللسيه وغدوت حراً أول مرة حتى رأيت فجأةً أن أمور فرسيلوف ستلهينى عن مشروعى الى أجل غير معلوم ! ولكننى رغم الغضب سافرت مطمئناً الى هدفى أكبر الاطمئنان •

ولا شك أننى كنت أجهل الحياة العملية ، لكننى كنت قد فكرت فى المسألة ثلاث سنين متتالية ، فلم يساورنى أى ريب • قلبت الأمور على ألف وجه وأنا أتصور كيف أتصرف • تصوراتى فى احدى عاصمتنا على حين غرة كأننى هابط من السحب (لقد اخترت العواصم بدايةً لمشروعى ، ولا سيما بطرسبرج التى آثرتها بعد حساب) ، ورأيتنى - رغم هبوطى من السحب - حراً حريةً كاملة ، فما أنا رهن بأحد ، ورأيتنى موفور الصحة ، مع مائة روبل دستتها فى جيبى زاداً

أول ، اذ يستحيل على المرء أن يبدأ بأقل من مائة روبل ، والا كان يرجى
مرحلة النجاح الاولى مدةً طويلة جداً . وأنا كما تعلمون أملك ، عدا
المائة روبل ، الشجاعة والعناد والمثابرة ، والعزلة التامة ، والسر المكتوم .
ولا سيما العزلة : لشد ما كرهت العلاقات بالناس والارتباط بهم والاشتراك
معهم كرهاً فظيماً الى آخر لحظة .

لقد عزمت أمرى على أن أنفذ فكرتى وحيداً ، والا فلا ! ان الناس
عبء ثقيل علىّ ، فلو أشركتهم فى فكرتى لاضطرب ذهنى ولأضر ذلك
بهدى . ثم اننى حتى هذا اليوم ، خلال حياتى كلها ، فى جميع أحلامى
عن علاقاتى بالناس كنت أدبر أمورى تديراً ذكياً . ولكننى لا أكاد أتترك
أفق الحلم وأشرع فى العمل حتى أتصرف تصرفاً أحقق . اننى أعترف
بهذا مستاءً صادقاً . لطالما فضحت نفسى بأقوالى ، ولطالما أسرفت فى
التسرع . ومن أجل ذلك قررت أن ألغى البشر من مشروعى . الفائدة
التي أجنيتها من ذلك : الاستقلال ، هدوء البال ، وضوح الهدف .

رغم أن الأسعار ببطرسبرج فاحشة فقد اتخذت قراراً حاسماً بألا
أنفق أكثر من خمسة عشر روبلاً لطعامى ، وكنت أعلم أننى سأنفق
قرارى لا أجد عنه . لقد درست مسألة الطعام هذه دراسة طويلة
مفصلة . قررت مثلاً أن آكل خبزاً وملحاً فى يومين متتاليين ثم أنفق
فى اليوم الثالث ما أكون قد حققت من وفر . كان يبدو لى أن هذا أنفع
لصحتى من صيام متساو متصل لا أنفق خلاله الا خمسة عشر كوبكاً فى
اليوم . أما عن المسكن فقد كنت فى حاجة الى ركن ، الى ركن لا أكثر ،
ركن أبيت فيه ليلاً ، أو أوى اليه أيام يكون الجو رديئاً . وقد قررت أن
أعيش فى الشارع ، وكنت مستعداً اذا اقتضى الأمر ذلك أن أبيت فى ملاجئ .
الليل التي يعطى النائم فيها ، عدا الغطاء ، قطعة خبز وكأس شاي . آ . . .
لسوف أعرف كيف أخبئ مالى فى ركنى أو فى الملاجئ فلا يسرقه أحد .
حتى انهم لن يحزروا شيئاً ، أنا أضمن لكم ذلك ! « أُسرق أنا ، أنا الذى

أمسك عن سرقة الآخرين ؟ » : لقد سمعت هذه الكلمة الظريفة مرة في الشارع من فم مكارٍ مرح . وأنا لا أحتفظ منها طبعاً الا بروح الحذر والمكر ، فليس في نيتي أن أسرق أبداً . بل أكثر من ذلك أنني منذ كنت بموسكو ، وربما منذ اليوم الذي شهد ولادة « فكريتي » قد قررت أنني لن أكون دائماً برهون ، ولا مرابياً : فذلك له اليهود وله الروس الذين لا يملكون ذكاء ولا أوتوا خلقاً . ان الاقراض والربا حطة .

وأما الملابس فقد قررت أن يكون لي رداءان ، واحد لكل الأوقات ، وواحد لائق . وكنت واثقا أنني متى ملكت هذا الرداء فسيدوم زمناً طويلاً . لقد قضيت سنتين ونصف سنة أتعلم كيف ألبس ثيابي ، حتى لقد كشفت عن هذا السر : من أجل أن يبقى رداؤك جديداً على الدوام ، وألا يبلى ، فعليك أن تنظفه بالفرشاة كلما استطعت الى ذلك سبيلاً ، خمس مرات أو ستاً في اليوم . فلا خوف على الصوف من الفرشاة ، أقول لك هذا عن علم مؤكد محقق . اذا نظرت الى ذرات الغبار بالمجهر وجدتھا حصى صغيرة ، أما الفرشاة فمهما تكن قاسية ليست تختلف كثيراً عن الصوف . وقد تعلمت كذلك اتعال الحذاءين . اليك السر : يجب عليك أن تضع قدمك في حذر ، وأن تضع النعل كله دفعة واحدة ، وألا تضغط على احدى الجهتين الا أقل ضغط ممكن . ذلك علم يمكن تحصيله في خمسة عشر يوماً ، ثم يجرى كل شيء من تلقاء نفسه . بهذه الوسيلة تستطيع أن تطيل عمر الحذاءين ما يساوي ثلثه في الوسط . تلك تجربتي خلال سنتين .

بعد ذلك يأتي العمل نفسه .

اليك وسيلتي : انني أملك مائة روبل . وفي بطرسبرج مزادات كثيرة ، وتصفيات ، وحوانيت ، ومعوزون ، فيستحيل ألا يقع المرء على شيء من الأشياء يشتريه بثمان بخس ثم يستطيع أن يبيعه بسعر أعلى . لقد ربحت من بيع « ألبوم » سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبكاً ، وكان

رأس المال الذي دفعته روبلين وخمسة كوبيكات . وقد حققت هذا الربح
الضخم بدون مجازفة : قرأت في عيني المشتري أنه لن يتراجع . صحيح
أن هذه كانت مصادفة . لكنني انما أبحث عن مصادفات ، ومن أجل ذلك
انما قررت أن أعيش في الشارع . قد تكون هذه المصادفات نادرة جداً ،
انني أسلم بذلك . لكن هذا لا يغير قاعدتي الأساسية وهي ألا أجازف .
وأما قاعدتي الثانية فهي أن أربح كل يوم أكثر من الحد الأدنى الذي
أنفقه على تأمين معيشتي ، حتى لا ينقطع الادخار يوماً واحداً .

رب قائل يقول : لكن هذه أحلام . فأنت لا تعرف الشارع ، وقد
تسرق منذ اليوم الأول . لقد فات القائل أنني أملك الإرادة وقوة العزيمة ،
وأن علم الشارع علم كسائر العلوم ، وأن تحصيل هذا العلم يكون
بالإصرار والعناد ، والانتباه واليقظة ، والمقدرة والكفاة . لقد كنت في
الليسه بين الأوائل دائماً حتى في الفلسفة ، وكتت قديراً في
الرياضيات . هل يجوز أن تظنوا علم الشارع تيممة من التائم ، فتنبأوا
لى بالخفاق حتماً ؟ ان الذين يقولون هذا الكلام هم دائماً أولئك الذين
لم يعانون تجربة ولا قاموا بعمل ولا شرعوا في حياة ، وانما هم عاشوا في
عفونة الكسل . لسان حالهم يقول : « ان فلانا قد كسر أنفه ، فلابد ان
يكسر فلان الآخر أنفه حتماً » . لا لن أكسر أنفي . ان لى عزيمته
قوية ، ولأنعلمن بقليل من الانتباه أى شيء . هل يمكنكم أن تتخلوا أن
المرء يعجز بالإصرار المستمر والعناد المتصل والتفكير الدائب والتأمل
الصبور والحساب الدقيق عن أن يحصل العلم اللازم لكسب عشرين
كوبكاً زيادةً في كل يوم ؟ لاسيما وأنتى قررت ألا أسعى أبداً الى
الحد الأقصى من الربح ، وأن أحتفظ دائماً بهدوء أعصابى وبرودة دمي .
وفي المستقبل ، حين أملك ألف روبل أو ألفين سأترك السمسرة والبيع
بطبيعة الحال . ولئن كنت لا أزال قليل العلم بأمور البورصة والأسهم
والبنوك ، فأنسى في مقابل ذلك كنت أعلم ، كعلمى بأن $2 + 2 = 4$ ،

أنتى سأعرف جميع هذه البورصات وهذه البنوك وسأدرسها فى حينها كأمى انسان آخر ، وأن هذا العلم سيسعى الى سعيأ متى أن الأوان • هل يحتاج المرء من أجل هذا الى كثير من الذكاء ؟ هل عليه أن يكون فى ذكاء سليمان الحكيم ؟ يكفى المرء أن يكون قوى الغريمة • أما العلم والحذق والمعرفة فذلك كله يأتى من تلقاء نفسه • وانما المهم ألا يكف المرء عن « أن يريد » •

ويجب خاصةً ألا يجازف ، وذلك لا يتيسر الا بقوة الغريمة • منذ مدة قصيرة ، بعد وصولى بقليل ، كان فى بطرسبرج اكتاب بأسهم سكة حديدية • فالذين أمكنهم أن يكتسبوا جنوا ربحاً كبيراً ، اذ ارتفعت أسعار الأسهم فى وقت من الأوقات •

وهذا شخص متأخر أو بخيل يرى أسهماً بين يديّ على حين فجأة ، فيعرض على أن أبيعها اياها بربح يساوى نسبةً مئوية من ثمنها • لسوف أبيعها الأسهم ، بل سوف أبيعها اياها حالاً • ولسوف يتهمك الناس على طبعاً ، اذ لو تريثت لثلت ربحاً يقدر بعشرة أضعاف هذا الربح ! صحيح ! ولكن ربحى الآن أضمن ، لأننى أملكه فى جيبي ، أما ربحكم أتم فانه لا يزال فى علم الغيب ! فان قلتم ان هذا ليس هو السبيل الى جنى ربح كبير قلت : عفوكم ، ذلكم هو خطؤكم ، ذلكم هو خطأ جميع أمثال كوكوريف و بولياكوف و جوبونين • تعلموا هذه الحقيقة : ان الاستمرار والعناد فى الربح ، ولاسيما فى الجمع والكنز ، أقوى من أرباح مباغتة ولو بلغت مائة ضعف !

قبل الثورة الفرنسية بقليل كان بباريس رجل اسمه « لاو » تخيل مشروعاً يستحق أن يعد عبقرىاً من ناحية المبدأ حقاً ، لكنه انتهى فى التطبيق الى فشل ذريع • لقد اهتزت باريس كلها حينذاك ، فكان الناس يتنافسون على شراء الأسهم متشاجرين بل متقاتلين • كان الفندق الذى يجرى فيه بيع الأسهم يتلغ أموال باريس كلها • ثم ضاق الفندق عن

استيعاب الوافدين للاكتتاب ، فكان الناس يحتشدون فى الشارع من جميع
المهن وجميع الطبقات وجميع الأعمار، من البورجوازيين والتبلاء وأولادهم،
ومن كوتيسات ومركيزات ومومسات • فكان هؤلاء جميعاً كتلة واحدة
حائقة تشبه أن تكون مجنونة كأنما عضها كلب مسعور • ان جميع المشاعر
التي يحملها كثير من الناس عن نبالة دماثهم وعلو مراكزهم وسمو ألقابهم
وحتى رفعة الشرف وحسن السمعة ، ان ذلك كله قد ديس بالأقدام •
كان الناس يضحون بكل شيء (وحتى النساء) فى سبيل الحصول على عدد
من الأسهم • وانتقل الاكتتاب أخيراً الى الشارع ، ولكن لم يكن ثمة مائدة
يكتب عليها • وعندئذ انما عرضوا على رجل أهدب أن تتخذ حديثه طاولة
للكتابية برهة • فقبل الأهدب العرض ، وفى وسعكم أن تتخللوا الأجر
الذى طلبه ! وبعد قليل (بل بعد قليل جداً) أفلس المشروع : تهدم
كل شيء ، ارسلت الفكرة كلها الى الجحيم ، وفقدت الأسهم كل قيمة !
فمن ذا الذى جنى ربحاً فى هذه القضية كلها ؟ الأهدب ، الأهدب وحده ،
لأنه لم يؤجر حديثه بأسهم بل بدنانير ذهبية ! أنا ذلك الأهدب ! أملك
القدرة على ألا آكل ، وأن أجمع من توفير الكوبكات اثنين وسبعين روبلاً •
وعلى أيضاً أن أصمد حين تعصف حمى بسائر الناس ، وأن أوتر مبلغاً
مضموناً على مبلغ آخر أضخم منه لكنه غير مضمون ! أنا لست ضعيفاً الا فى
الأشياء الصغيرة ، أما الأمور الكبيرة فلا ! كثيراً ما فاتنتى قوة العزيمة فى
الشتون الصغيرة ، حتى بعد ولادة « فكرتى » ، بسبب نفاذ الصبر • أما اذا
كان الأمر خطيراً فلا تموزنى قوة العزيمة أبداً • حين كانت أمى تقدم لى
قبل الذهاب الى العمل قهوة فترت سخوتها ، فقد كنت أعضب ، وأقول لها
كلاماً فظاً ، ومع ذلك فاتنتى ذلك الشخص نفسه الذى عاش شهراً كاملاً
لا يأكل الا خبزاً ولا يشرب الا ماء •

الخلاصة أنه ليس طبعياً ألا يعرف المرء كيف يربح ، وألا يفلح
فى تعلم الربح • لا وليس طبعياً ألا يصبح المرء مليونيراً اذا هو واظب

على الادخار والجمع والكتز بغير انقطاع ، واذا ملك انتباهاً مستمراً وهدوءاً متصلاً ، واذا بذل جهداً دائماً للتوفير ، وطاقةً ما تنفك تزداد وتتسع .
كيف ربح الشحاذ ثروته ان لم يكن قد ربحها بقوة العزيمة ، وشدة الحماسة ، واستمرار المثابرة . أأنا لا أساويه ؟ « على كل حال ، قد لا أجنى شيئاً ، وقد لا يكون حسابي صحيحاً ، وقد أفلس وأنهار . . . فلا خير . . . سأظل أسير الى أمام . أسير لأننى أريد أن أسير » . كذلك كنت أقول لنفسي بموسكو .

فان قلت ان هذا ليس فيه شيء من فكرة ، وليس فيه شيء جديد ، قلت لكم آخر مرة : بل ان فيه أفكاراً لا نهاية لها ، وان فيه جودة لا نهاية لها .

آ . . . لقد أوجست جميع هذه الاعتراضات المبتذلة ، ولشد ما أكون انا نفسى مبتذلاً اذا عرضت فكرتي ! ما الذى قلته أنا فى حقيقة الأمر ؟ اننى لم أشرح عشر معشار فكرتي . اننى أشعر أن كل ما قلته تافه ، فظـ ، سطحي ، وربما كان أصغر من سنى ، ولكن هل يفسد عجز الكاتب قيمة الفكرة التى يعرضها ؟

بقي أن أجيب عن الأسئلة التالية : « لماذا ؟ ما الهدف ؟ أهذا أمر طبيعي سليم أم لا ؟ » ، الخ الخ . وهي أسئلة وعدت بالاجابة عنها .

وهأنذا أبدو أوهام القارىء دفعة واحدة فأقول :

ان نفسى لا تضم أية رغبة فى الانتقام ، وأنا معافى من كل نزعة بيرونيه ، وليس لحقد اليتيم ولا لشعور ابن الزنا أى شأن فى هذا . ان السيدة البرومانطيقية التى قد يخطر ببالها أن تصفح مذكراتى هذه سوف تخفض أنفها خائبة الأمل . ان الهدف الذى أسمى اليه بفكرتى انما هو :
العزلة .

- ولكن ما حاجتك الى أن تكون صاحب مليارات حتى تعيش حياة عزلة . . . ما شأن روتشيلد فى هذه القصة ؟

- ان له مكانه فيها . لأننى ، عدا العزلة ، فى حاجة الى القدرة .

اسمحوا لى بتمهيد : قد يدهش القارىء حتى من صراحتى فى الاعتراف ، فيتساءل بغير قليل من السذاجة كيف لم يحمّر كاتب هذا الكلام خجلاً ؟ فأجيب بأننى لا أكذب للنشر ، وأنتى قد لا أقرأ الا بعد عشر سنين ، وذلك حين تكون الأمور قد تمت على الوجه الأكمل ، فلا يكون على أن أحمر خجلاً من شىء . فاذا كنت فى هذه المذكرات أخطب قارئاً ، فواضح أن ذلك ليس الا أسلوباً فى الكتابة لا أكثر . ان قارئى شخص من صنع خيالى .

لا ، لا ولادتى غير الشرعية التى كانوا يفيظوننى بها كثيراً فى مدرسة

توشار ، ولا الحزن الذى عشته فى سنى طفولتى ، ولا أية رغبة فى الانتقام أو الاحتجاج ، لا شئ من ذلك كله كان له شأن فى ولادة فكرتى : لقد ولدت فكرتى من طبعى ولادة عادية . لم أكن قد بلغت الثانية عشرة من عمري حين كان حضور الناس بل وجودهم يثقل على صدرى وتضيق به نفسى . وقد شق علىّ أحياناً فى لحظات صفائى ، أن لا أستطيع البوح للقرابين منى بما يزرع به قلبى ، بل قل اننى كنت أستطيع ذلك ولكن لا أريده . كان شئ ما يصدنى . كنت شكاكاً ، نافرأ من صحبة الناس ، متجهم النفس . ذلك ما كنت . وكنت عدا ذلك شديد الميل الى اتهام الآخرين . ولكننى سرعان ما أرتد الى نفسى أسائلها : « أليست أنا المخطئ ؟ » . وكثيراً ما كنت أدين نفسى ظلماً . فمن أجل أن أتقى آزمات الضمير هذه ، كنت أجهد أن اعترل الناس . ثم ما الذى كان يمكن أن أجنه من صحبة رفاقى ؟ لقد كانوا جميعاً أقل ذكاءً منى ، لا أستنى منهم أحداً .

نعم ، كنت قاتم المزاج ، فلا أكف عن الانغلاق على نفسى ، ولا أكف عن الرغبة فى الانسحاب من المجتمع . ولعلنى كنت أستطيع أن أنفع الناس ، ولكننى كنت فى كثير من الأحيان لا أرى ما يدعونى الى أن أصنع لهم خيراً . ليس الناس خياراً فأهتم بهم . لماذا لا يأتون هم الىّ ؟ لماذا يكون علىّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى ؟ ذلك ما كنت أقوله لنفسى . اننى قادر على الاعتراف بالجميل ، وقد برهنت على ذلك بألف حماسة ارتكبتها . اننى أرد على البادرة الحسنة ببادرة أحسن . الصراحة آقابلها بالمودة . وقد سبب لى ذلك مذلات كثيرة . الشخص الوحيد الذى كان يفتح لى نفسه هو لاميير الذى طالما ضربنى ضرباً مبرحاً فى سنى طفولتى الأولى . ولكن الفضل فى صراحته انما كان يرجع الى غيائه .

هأتم ترون تقريباً كيف كانت حالتى النفسية حين وصلت الى

بطرسبرج .

حين خرجت من عند درجاشيف (اى شيطان دفعنى الى بيته ؟) ،
ذهبت الى فاسين . وباندفاع مودة ، أزجيت له المديح . ولكن تلك المودة
قد نقصت منذ ذلك المساء نفسه . لماذا ؟ لا شيء الا لأننى مدحته . فبدأ لى
اننى بذلك قد خفضت قدرى . مع ذلك ألا يرتفع قدر المرء حين يطرئ
من تلقاء نفسه أحد يستحق هذا الاطراء ؟ ذلك كان رأيى ومع ذلك نقص
حبنى لفاسين . هذا مثال تعمدت أن أسوقه والقارىء يعرفه . وأصبحت
لا أفكر فى كرافت أيضاً الا وأشعر بمرارة . أما ذنبه فهو أنه شئنى
متلطفاً حتى الباب . وهذا الشعور بالمرارة لم يتبدد حتى فى النقد حين
اتضح كل شيء ولم يبق هناك ما يمكن أن أوأخذه عليه . اننى منذ
أيام دراستى فى الليسيه كنت غضوباً . اذا تفوق على أحد رفاقى فى
امتحان ، أو بزتني فى تمارين الرياضة البدنية ، قاطعته فأصبحت لا أكلمه .
لا لأننى أكرهه أو أغار من نجاحه ، بل لأن هذا طبيعى .

نعم ، لقد استولى على حلم القوة والعزلة طوال حياتى ، حتى فى
سن لو أتيج لأحد أثناءها أن يرى ما كان يدور فى رأسى من خواطر
لضحك ضحكاً شديداً . لذلك أحب السرّ كثيراً . وكنت استرسل فى
الأحلام استرسالاً لا يبقى لى وقتاً للحديث مع الناس . وقد استتج الناس
من ذلك أننى متوحش ، وكان ذهولى يبعثهم على تأويلات أشد ابغلاً
فى الخطأ أيضاً . ولكن خدى المتوردين كاتتا تبرهنان على نقيض ذلك .

وما كان أشد فرحى حين كنت أطمر نفسى تحت أعطيتى فى المساء ،
فتهدأ من حولى ضجة الحياة المشتركة ، وتأخذ أحلامى فى بناء العالم على
ما يشاء لى هواى فى وحدة الليل ! ان حالة الاسترسال فى الحلم هذه قد
لازمتنى الى أن اكتشفت « فكرتى » : فاذا بأحلامى تصبح معقولة بعد أن
كانت فى صورة خيالية روائية .

انصهر كل شيء فى هدف واحد . الواقع أن تلك الأحلام لم تكن

حمقاء حتى قبل ذلك ، وان كانت كثيرة لا حصر لها ! ... وكان بينها
أحلام أفضلها على ما عداها . ولكن لا داعى الى الكلام عنها هنا .

القدرة ! قد يضحك بعض الناس حين يرون شخصاً مثلى « لاقيمة
له » يتطلع الى القدرة ، الى القوة . وسوف يدهشون أكثر من ذلك أيضاً
إذا أنا قلت لهم اننى منذ طفولتى - أو نحو ذلك - لم أستطع فى يوم من
الأيام أن أتخيل نفسى الا فى المنزلة الأولى فى كل مكان وفى كل ظرف .
هذه سمة أخرى : ما زلت أتصف بهذه الصفة ، ولا أستغفر عنها أحداً .

هذه « فكرتى » - وهذه قوتها - : ان المال وحده يستطيع أن يقود
امراً الى المنزلة « الأولى » ، ولو كان تافهاً « لاقيمة له » . قد لا أكون
تافهاً . لكننى أعلم مثلاً ، من النظر فى المرأة ، أن مظهرى الخارجى يضمر
بى ، لأن وجهى عادى لا يتميز بشيء . أما لو كنت غنياً مثل روتشيلد ،
فمن ذا الذى كان يمكن أن يهتم بوجهى ؟ لو كنت غنياً مثل روتشيلد لكان
يكفى أن أصفر صفرة واحدة حتى تهرع الى ألوف النساء تعرض على
محاسنها . بل انى لمقتنع بأنها ستظننى فى النهاية جميلاً ، صادقات كل
الصدق . وقد أكون ذكياً . ولكن يكفى أن يكون جينى سبع بوصات
حتى يغلبنى جارى اذا كان له من البوصات ثمانيا . أما اذا كنت غنياً مثل
روتشيلد ، فان ذلك الحكيم الذى يبلغ جينه ثمانى بوصات سيكون شخصاً
هزيباً جداً ، حتى لقد لا يتيحون له أن يفتح فمه ! ... وقد أكون فكهاً
خفيف الظل . ولكن هذا تاليران ، وهذا بيرون فاذا أنا أمحى أمامهما
فلا يبقى لى وجود . أما اذا كنت غنياً مثل روتشيلد ، فأين يكون بيرون ؟
بل أين يكون تاليران ؟ يختلفان . ان المال قوة طاغية ، ولكنها بمعنى من
المعانى تحقق نوعاً من المساواة : فهى تشوش السيطرة المتغترسة التى
لذكا ، والجمال . ذلك ما خلصت اليه وقررتة وأنا بموسكو .

قد لا يبدو لك هذا كله الا وقاحة واستهتاراً ، وقد تظن أنه يهدف
الى تغليب التفاهة على الموهبة . صحيح . ولكن هذه الفكرة جسورة (وهى

بهذا نفسه لذينة) . أما اذا اعتقدت انى أرغب فى القوة بهدف الانتقام أو الاضطهاد ، كنت تنسب الى - - غير حق - أن نفسى هى نفس أن انسان من الناس . انى لمتنع بأن أبرز الأفراد شيئاً فى جميع فئات النشاط الانسانى لابد أن يتصرفوا هذا التصرف الذى تنسبه الى ظلماً اذا هم أوتوا ما أوتى روتشيلد من ثراء . أما أنا ففكرتى مختلفة عن هذا كل الاختلاف . انى لا أخشى المال : ان المال لن يضطهدنى ولن يحملنى على اضطهاد أحد .

ما أنا فى حاجة الى مال ، أو قل ليس المال هو ما أنا فى حاجة اليه - حتى ولا القدرة . وانما أنا فى حاجة الى ما تتيح القوة للمرء أن يحصل عليه ، ولا يمكنه أن يحصل عليه الا بها : أعنى الشعور المعتزل الهادىء بالقوة ! ما قد تم اكتشاف التعبير عن الحرية التى يبحث عنها المفكرون . الحرية ! أخيراً كتبت هذه الكلمة الكبيرة . . . نعم ، ان الشعور المعتزل بالقوة جميل فى ذاته ومسكر . انى أملك القوة ، واتى هادىء البال . أن الرعود بين يدى جوييتير ، ولكن جوييتير هادىء . هل تسمع جوييتير يرعد أحياناً كثيرة ؟ رب أحقق يظن أن جوييتير نائم . أحل محل جوييتير رجلاً من هؤلاء الأدباء أو امرأة من تلك القرويات ! لتسمعن الرعد عندئذ لا ينقطع قصفه ، ولتسدن أذنيك من هول الصواعق !

انى أفكر فأقول لنفسي : متى ملكت القوة فلن أحتاج اليها . وانى لعلى ثقة باننى ، من تلقاء نفسي ، وبكامل رضاي ، سأحتل المنزلة الأخيرة عندئذ فى كل مكان . لو كنت روتشيلد ، لتجولت مرتدياً معطفاً مرقماً ، حاملاً بيدي مظلة . ولن يؤذيني عندئذ أن يصدمني أحد فى الشارع أو أن أركض فى الوحل حتى لا تدوسنى العربات . حسبى شعورى بأننى أنا روتشيلد حتى أكون فرحاً فى تلك اللحظة . أعرف أن فى امكاني أن أصيب وجبة من طعام لا يصيب أحد مثلها ، وجبة يهيئها لى أحسن طباخ فى العالم : يكفينى أن أعرف هذا . وسوف آكل قطعة من خبز وشريحة

من الجمبون ، فأكون راضياً كل الرضى . وما زال هذا هو تفكيرى الى الآن .

لست أنا من يسعى عندئذ الى معاشره الارستقراطية ، بل الارستقراطيون هم الذين سيسعون عندئذ الى ينشدون صحبى . لست أنا من سيجرى وراء النساء ، بل النساء هن اللواتى سيتهاقن على تهافت الذباب ، ويقدمن الى كل ما تستطيع امرأة أن تقدمه . فأما « العاميات » منهن فسيجذبهن المال ، وأما من كان لهن فكر فسيجذبهن الى حب التعرف الى انسان غريب الأطوار متكبر مفلق على نفسه غير مكترث بشيء . وسوف الألف هؤلاء وأولئك على السواء . ولقد أعطيهن مالا ، لكنى لن أقبل منهن شيئاً . وحب الاطلاع يولد الهوى : فلقد أوقف فى نفوسهن الهوى أيضاً . وأؤكد لكم أنهن لن يظفرن منى بشيء اللهم الا بعض الهدايا . ولن يورثنى هذا الا مزيداً من الدهشة والاستغراب :

« حسبى هذا الشعور .. »

ان الشيء الغريب هو أن هذه الصورة (وهى صحيحة على كل حال) قد أغرتنى وفتنتنى منذ كنت فى السابعة عشرة من عمرى .
لا أتوى أن أضطهد أحداً ولا أن أعذب أحداً . ولكننى أعلم أنتى اذا أردت أن أضيع أحدا من الناس فلن يستطيع شيء أن يمننى من ذلك ، وأن الجميع سوف يعاونونى فى هذا جاهدين . وهنا أيضاً حسبى ذلك . بل انتى لن أنتقم من أحد . لظالماً أدهشنى أن جيمس روتشيلد قد قبل أن يحمل لقب « بارون » ! علام ؟ لماذا ؟ ما حاجته الى اللقب وهو بدونه تفوق على جميع الناس فى هذه الحياة الدنيا ؟ « أوه ! فى وسع ذلك الجنرال الوقح أن يهيننى فى محطة تبديل الأحصنة التى كنا فيها معاً نتنظر الحيل . فلو عرف من أنا لرخص يتولى بنفسه قرن خيول عربتى ، ولساعدنى على الصعود الى مركبتى المتواضعة ! لقد كتب أحدهم يقول ان رجلاً أجنبياً يحمل لقب كونت أو بارون كان فى قطار فينا مع رجل من أصحاب البنوك فى تلك

المدينة فألبس قدميه بابو جيهما، وكان صاحب البنك من العامة بحيث ارتضى منه ذلك ! أوه ! وفى وسع تلك الحسنة الرهية (أقول الرهية لأن بين السنوات من هنّ رهيات !) فى وسع تلك الفتاة التى تنتمى الى الارستقراطية الفخمة الجليلة وتحمل لقباً من ألقاب الشرف ، اذا هى لقبتى عرضاً فى سفينة أو غير ذلك ، أن تنظر الى شزرا وأن تسمع بأنفها وأن تدهش باحتقار من هذا الرجل الصغير الوضع الهزيل الذى يحمل يده كتاباً ويتجراً أن يجلس بجانبها فى الدرجة الأولى ! ولكنها لو علمت من ذاك الذى كانت تجلس الى جانبه ! ولسوف تعلم ذلك ، سوف تعلمه فتأتى تجلس الى جانبى من تلقاء نفسها ، خاضعة خجلى ملاطفة ، ساعة الى نظرة ألقياها اليها ، فرحة بابتسامة أنعم بها عليها . • انى أتعمد ادخال هذه المشاهد قبل الأوان ، لأعبر عن فكرتى تسييراً أوضح . ولكنها مشاهد شاحبة ، ولعلها مبتذلة . ان الواقع وحده يبرر كل شىء .

رب قائل يقول ان حياة المرء على هذا النحو سخيفة : فلهذا لا يكون له قصر ، لماذا لا يكون له منزل مفتوح للناس ، لماذا لا يضم مجتمعات عدة ، ويكون له تأثير ونفوذ ، ولماذا لا يتزوج ؟ ولكن ما الذى سيصير اليه روتشيلد عندئذ ؟ سوف يكون كسائر الناس . سوف يزول كل ما فى • الفكرة • من فتنة وسحر . وسوف يزول كل ما تشمل عليه من قوة روحية أخلاقية . لقد حفظت على ظهر القلب فى طفولتى ، الحوار الداخلى الذى دار بين « الفارس البخيل » الذى صوره بوشكين وبين نفسه . ان بوشكين لم ينتج ما هو أعلى من هذا الكلام بمقياس « الفكرة » . وأنا ما زلت أحرص على هذه المعانى الى اليوم .

وقد يقال لى باحتقار :

- ولكن مثلك الأعلى منحط جداً : المال ! الثراء ! فأين مصلحة المجتمع ، وأين الأعمال الانسانية ؟

ولكن هل تعرفون فى أى وجه من الوجوه سأستعمل ثرائى ؟ أين النأى عن الأخلاق وأين الحطة فى أن تنزل هذه الملايين من برائن يهودية

قدرة ضارة الى يدي انسان معتزل ثابت عاقل يلقي على العالم نظرة ناقبة ؛
على أن أحلام المستقبل هذه ليست بوجه الاجمال الا نوعاً من حكاية ،
ولعلني أخطأت اذ دوتها ، ولعله كان يجدر أن تبقى في رأسي لا تخرج
منه . وأنا أعلم أيضاً أن أحداً قد لا يقرأ هذه الأسطر . ولكن اذا قرأها
أحد ، فهل يقدّر أنني قد لا أحتمل ملايين روتشيلد ؟ نعم ، قد لا أستطيع
أن أحتملها ، لا لأنها يمكن أن تسحقني ، بل بمعنى آخر هو نقيض هذا
المعنى تماماً . لظالما عاقت مراراً ، في أحلامي ، اللحظة المستقبلية التي
سيكون فيها شعوري قد ارتوى ارتواء تاماً ، وأصبحت أرى أن القوة
لا تكفيني . لسوف أرد جميع تلك الملايين الى الناس حينذاك ، لا عن ضجر
ولا عن سأم بغير هدف ، بل لأن مطلبي تفوق هذا كثيراً : ألا فلتقتسم
الامسانية ثروتي عندئذ كما تشاء ، ثم أرتد أنا الى العدم ! لقد أستحيل
يومذاك الى ذلك الشحاذ الذي مات في السفينة ، مع فارق واحد هو
أنهم لن يجدوا شيئاً من مال خيط في أسماك البالية . شعوري وحده
بأنني كان بين يدي ملايين فرميتها في الوحل ، سيكفيني غداءً في صحرائي .
انتي ما زلت مستعداً لأن أفكر هذا التفكير نفسه حتى اليوم . نعم ، ان
« فكرتي » هي « القلعة » التي يمكنني في كل وقت وفي كل ظرف أن
أهرب اليها من جميع الناس ، ولو كذلك الشحاذ الذي مات في المركب .
تلکم هي قصيدتي ! واعلموا انني في حاجة الى ارادتي السيئة « كاملة » ،
لا لشيء الا أن أبرهن « لنفسي » أنني أملك القدرة على العدول عنها .

ولابد من معترض يقول ان هذا الكلام شعر ، وانني لن أتخلي عن
ملاييني أبداً متى ملكتها ، وانني لن أستحيل يوماً الى الشحاذ ساراتوف .
والحق أنني قد لا أتخلي عن ملاييني فعلاً . وأنا لم أزد هنا على أن رسمت
لكم الخطوط العريضة من المثل الأعلى الذي يتصوره فكري . ولكنني
أضيف الآن الى كلامي جاداً أنني اذا بلغت من كثر المال الى الرقم الذي
بلغته ثروة روتشيلد ، فلقد أستطيع فعلاً أن أرمي هذه الثروة في وجه

المجتمع (أما قبل الوصول الى هذا الرقم فقد يكون من الصعب أن أفعل) .
وليس نصف الثروة هو ما سأهبه ، والا كان عملي عملاً مبتدلاً ، وكنت
أفقر نفسي الى النصف لا أكثر . وانما سأهب ثروتي كلها ، الى آخر
كوبك منها ، فبذلك 'أعني نفسي الى الضعف ، أى أصبح أغنى من
روتشيلد ضعفين ! اذا لم تفهموني فليس الذنب ذنبي . ولن أدخل هنا
في شروح .

سوف يقول الناس جازمين : « هذا من الدروشة ، هذا شعر التفاهة
والعجز ، هذا انتصار الضعف والحطة ! » نعم ، أعترف لكم بأن هذا انتصار
الضعف والحطة ، ولكنه ليس انتصار العجز . لقد شعرت بفرح جنوني
حين تصورت نفسي ضعيفاً وتافهاً ، أفف أمام الناس فأقول لهم مبتسماً : أتم
أمثال جاليلو وكوبرنيك ، وشارلمان و نابوليون ، ويوشكين وشكسبير ،
ومارشالات القتال والبلاط ، أما أنا فرجل بلا موهبة ولا نسب كما ترون ،
ولكنني مع هذا فوقكم ، لأنكم خاضعون لهذه الحقيقة من تلقاء أنفسكم .
اننى أعترف بأننى مضيت فى هذا التخيل الى أقصاه ، حتى تصورتنى بغير
تعليم . فبدأ لى أن الأمر سيكون أجمل اذا كان هذا الرجل جاهلاً جهلاً
بشعاً . وقد كان لهذا الحلم الذى يشتمل على مبالغة وغلو أثر فى نفسى منذ
ستى الأخيرة فى الليسيه . فانقطعت عن الدرس تعصباً فكان المثل الأعلى
يزداد جماله بانتقضى الثقافة . وقد تغير رأى الآن فى هذه النقطة . فصرت
أعتقد أن التعليم لن يكون فيه ضرر .

يا سادتى ، هل يعقل أن يكون استقلال الفكر ، مهما يكن استقلالاً
محدوداً ، شاقاً على أنفسكم الى هذا الحد ؟ سعيدٌ مَنْ كان له مثل أعلى
للجمال ولو على خطأ . ولكننى مؤمن بصحة مثلى الأعلى . كل ما هنالك أننى
عرضته عرضاً أخرق ، ولم أحسن الإفصاح عنه . ولاشك فى أننى
سأستطيع بعد عشر سنين أن أعرضه عرضاً أفضل . و بانتظار ذلك
سأحتفظ بهذا كله المذكرى .

ها قد انتهيت من « فكرتى » • واذا كنت قد وضعتها وضماً عاماً سطحياً فهذا ذنبى أنا لا ذنبها هي • ولقد سبق أن نبّهت الى أن أبسط الأفكار هي أعسرهما فهماً • وأضيف الآن الى ذلك أنها أعسرهما عرضاً • لاسيما وأنتى حكيت « فكرتى » فى صورتها الأولى •

وعكس هذا صحيح أيضاً : ان الأفكار المسطحة السريعة يفهمها الناس بسرعة خارقة ، ولا سيما الجمهور ، الشارع • وأكثر من ذلك أنها تعد أعظم الأفكار وأكثرها عبقرية ، ولكنها لا تعد كذلك الا فى يوم ظهورها ، فالبضاعة الرخيصة الثمن لا تدوم طويلاً • ان الفهم السريع دليل على عمية الشيء الذى فهم • ان فكرة بسمارك قد أصبحت عبقرية على الفور ، وبسمارك نفسه رجل عبقرى ، ولكن هذه سرعة تدعو الى الاشتباه : اننى انتظر بسمارك عشر سنين ، فأرى عندئذ ماذا يبقى من فكرته ، بل ربما ماذا يبقى من السيد المستشار نفسه أيضاً • هذه ملاحظة عرضية تماماً ، ولا شأن لها بالموضوع ، ومن الواضح أنتى لم أدخلها على سبيل المقارنة ، وانما للذكرى أيضاً (هذا شرح أخص به القارىء الكثيف ذهنه) •

والآن سأفص حكاييتين لأتهى من فكرتى كيفما اتفق ، حتى لاتربكنا بعد الآن فى المستقبل •

فى الصيف ، فى شهر تموز (يوليه) ، قبل سفرى الى بطرسبرج بشهرين ، وكنت خالياً خلواً تماماً ، طلبت منى ماريا ايفانوفنا أن أذهب الى بلدة ترويتسكى بوساد لأقوم بمهمة لها لدى عانس كانت تقيم هناك ، والمهمة أتفه من أن أعرض لها هنا بالتفصيل • فأتثناء عودتى فى ذلك اليوم نفسه

لاحظت في حافلة القطار شاباً نحيفاً ، في وجهه بثور ، يلبس ثياباً حسنة ، لكنه غير نظيف ، هو واحد من أولئك السمر الذي يضرب لونهم الى البرونز المتسخ . وكان الشاب يلتفت النظر بأنه في كل محطة أو موقف كان ينزل من القطار ختماً ليشرّب شيئاً من الفودكا . وفي خاتمة المسير كانت قد تحلقت حوله عصابة فرحة وان تكن عامة جداً . وكان أكثر أفراد هذه العصابة حماسةً رجلٌ من التجار كان هو أيضاً مثلاً بعض الشيء ، وقد أعجب بما يملكه الشاب من قدرة على أن يشرب بغير انقطاع دون أن يسكر . وكان لا يقل عنه رضاً وارتياحاً فني غبيٌ غباه رهيباً ، كثير الكلام ، يرتدى ثياباً على الزى الأوروبى ، وتفوح منه رائحة كريهة فظيعة : انه خادم كما عرفت ذلك فيما بعد .

وقد انعقدت بينه وبين عاشق الفودكا الشاب صداقة ، فكان هو الذي يدعوهُ الى النزول عند كل موقف قائلاً : « أن الأوان ، هيا بنا ! » ، ثم ينزلان متماسكين متعانقين . وقد أصبح الشاب بعد الشراب صامتاً لا يكاد يقول كلمة واحدة ، ولكن عدد المتحادثين الذين يتحلقون حوله ما ينفك يزداد . فكان يكتفى بالاصغاء اليهم ، ولكنه لا ينى يفهمه ويريل ، ويرسل من حين الى حين أصواتاً من هذا النوع : « تور - تور - لو ! » ، يرسلها فجأة بغير توقع ، ويجرى حركة كاريكاتورية فيحمل اصبعه الى أنفه . وكان ذلك هو ما يبهج البائع والخدم وسائر الناس بهجة كبيرة ، فكانوا يضحكون ضحكاً مجلجلاً جلجلة خارقة بغير تخرج . انه ليستحيل عليك أحياناً أن تدرك لماذا يضحك الناس . واقتربت أنا أيضاً . فلا أدري لماذا أعجبنى هذا الشاب . لعل ما أعجبنى فيه هو هذا الخروج الواضح على المواضع الرسمية المألوفة المقبولة . والمهم على كل حال اننى لم ألاحظ حماقته . لذلك سرعان ما أخذنا نتخاطب بصيغة المفرد من غير كلفة . فلما غادرت القطار علمت منه أنه سيأتى في المساء

بعد الساعة الثامنة الى شارع تفرسكوى • ان الشاب طالب ترك الجامعة •
وذهبت الى الموعد المضروب ، فاليكم اللعبة التي علمنى اياها :

تتجول معاً فى الشوارع ، وبعد قليل ، متى رأينا امرأة حسنة ليس
حولها أحد ، أسرعنا نلتصق بها ؛ وبدون أن نقول لها كلمة واحدة ، نحدق
بها أنا من طرف وهو من طرف آخر ، ونأخذ نجري بيننا حديثاً بديئاً الى
أبعد حدود البذاءة ، محتفظين بمظهر هادئ كل الهدوء ، كأننا لا نراها
البتة • نسمى الأشياء بأسمائها ، جادين جدا لا يعكره معكر ، كأن الأمر
طبيعى الى أقصى درجة ؛ ومن أجل أن نأتى على أشبح الحقاير والدناءات
ندخل فى تفاصيل لا يستطيع أقدر خيال فاسق أن يتخيلها (وكنت قد
تعلمت هذه التفاصيل كلها فى المدارس طبعا ، حتى قبل اللبسيه ، ولكننى
تعلمتها قولاً لا فعلاً) • فكانت المرأة تخاف ، وتغذ الحطى ، ولكننا نغذ الحطى
مثلها ونستمر فى الحديث موغلين فيه مزيداً من الايغال • ولم يكن فى
وسع ضحيتنا أن تفعل شيئاً بطبيعة الحال ، ولا يمكنها حتى أن تصرخ ،
ولا شهود علينا ، ثم انها لو شكتنا لكان ذلك منها امرأ مستهجنأ غريبأ •
سلخنا فى هذه التسلية ثمانية أيام • ولست أفهم كيف أمكنتى أن
أستطيعها • وما كنت أستطيعها فى الواقع •• وانما حدث هذا ••
هكذا ! •• بدا لى الأمر فى البداية طريفاً خارجاً على المألوف وعلى
المواضعات المقررة المقبولة • وكنت عدا ذلك لا أطيق النساء • وقد
أسررت فى ذات مرة الى الطالب أن جان جاك روسو ، فى كتابه
« الاعترافات » ، قد روى أنه فى شبابه كان يحب أن يكشف عوراته
عارية كل العرى ويلبث على هذا الوضع الى أن تمر نساء فتراها • فلم
يجبى الطالب الا بأصواته « تور - لور - لو » • فلاحظت أنه جاهل
جهلاً مطبقاً رهيباً ، وأنه لا يهتم بشيء ذى بال • ولم أكتشف عنده فكرة
واحدة من تلك الفكر الأصيله التى كنت أتوقع ان أجدها عنده • لم أقع
لديه على أصالة بل على تكرر رتيب مرهق • فاصبح تعلقى به يقل • ثم

اتتهى كل شيء على نحو لم يكن فى الحسبان : ففى ليلة تكاثفت فيها الظلمات لاصقتا فتاة فى ريعان الصبا كانت تسير فى الشارع مسرعة وجلة • لعل عمرها ستة عشر عاماً أو يقل • ثيابها نظيفة جدا على بساطة • أغلب الظن أنها تعيش من عملها ، وربما كانت فى تلك الساعة عائدة الى البيت حيث تنتظرها أم عجوز هى أرملة فقيرة مثقلة بأعباء أسرة • ولكن لا داعى الى الانقياد للعواطف • ظلت الفتاة تسمع حديثنا بعض الوقت ، ثم غدت الحطى ، ثم مالت برأسها وغطت وجهها بحجابها خائفة مرتعشة • ثم اذا بها تتوقف على حين فجأة ، فتكشف عن وجهها الذى كان حلواً اذا صدقت ذاكرتى ، ولكنه كان نحيلاً هزيلاً ، وصرخت تقول لنا وقد قدحت عيناها شرراً :

- حقيران !

ولعلها كانت تهتم أن تبكى ، ولكن حدث شيء آخر • فهامى ذى ترفع يدها الصغيرة الهزيلة مهتاجة ، وتهوى على وجه الطالب بصفعة 'سمع صوتها ، ولعلها لا تضارعها فى احكامها صفعة ! فقذفها الطالب بشتيمة وهمّ أن يهجم عليها ، لكننى أمسكته فاستطاعت الفتاة أن تهرب ! فلما صرنا وحيدين تشاجرنا ، ونددت به مخرجاً كل ما كان قد تراكم فى نفسى أثناء ذلك الوقت ، وقلت له انه ليس الا امرأ عاجزاً نافعاً ، وانه لم تساور ذهنه فى يوم من الأيام فكرة • فأجابنى بشتائم ••• (وكنت قد ذكرت له مرة "اننى ابن زنا") ، ثم افترقنا وقد بصق كل منا احتقاراً ، ولم أره بعد ذلك قط • وقد شعرت فى تلك الليلة بغضب شديد • وكان غضبى فى الغد أقل • أما فى غداة غد فكنت قد نسيت كل شيء • وبعد ذلك كنت أتذكر تلك الفتاة من حين الى حين ، ولكننى أتذكرها مصادفةً ، وأتذكرها عرضاً • حتى اذا وصلت الى بطرسبرج بعد خمسة عشر يوماً تذكرت المشهد على حين بغتة • تذكرته فسرعان ما استولى على شعور بالعار بلغ من الشدة أن الدموع سالت على خدى فعلاً •

وظللت أعانى عذاباً شديداً طوال المساء ، وطوال الليل ، ومازلت أعانى شيئاً من هذا العذاب الى الآن . ولقد عجزت فى أول الأمر أن أفهم كيف أمكنتى أن أسقط الى ذلك الدرك الأسفل ، وأن أنسى الحادث خاصة ، وأن لا أحمر منه خجلاً ، وأن لا تلتهمنى الندامة التهاماً . والآن فقط انما أدرك حقيقة الأمر . لقد كان الذنب ذنب « الفكرة » . ان النتيجة التى أخلص إليها هى أنه متى استقر فى ذهن المرء شيء ثابت ، دائم ، مستمر ، قوى ، يملأ عليه نفسه ، فان هذا المرء يفصل فى الوقت ذاته عن العالم معتصماً بالمزلة ، وكل ما يحدث لا يزيد على أن ينزلق بعدئذ على صفحة نفسه انزلاقاً فلا يحدث فيها أثراً . حتى ادراكاته الحسية قد تصبح غير صحيحة . وهو عدا ذلك ، وخاصة ، لا يعدم أن يجد لنفسه عذراً فى كل وقت . لشد ما عذبت أمتى فى ذلك الأوان ! ما أكثر ما كنت أهجر أختى هجراً مخجلاً ! « ولكن لا ! ان لى « فكرتى » ، وكل ما عداها لا قيمة له ! » ذلك ما كنت أقوله لنفسى . وكان يحدث أن أهان ، بل أن أهان بقسوة : فكنت أمضى لا ألوى على شئ ، قائلاً لنفسى بعد ذلك : « هه ! ان لى « فكرتى » وهم لا يعرفون عنها شيئاً » . كانت « الفكرة » تعزىنى عن العار وعن التفاهة . ولكن جميع دنائى كانت كأنها تحتمى تحت « الفكرة » أيضاً . كانت « الفكرة » تسهل على كل شئ ، ولكنها كانت تحجب عنى كل شئ . كذلك . على أن فهم الظروف والأشياء فهماً يبلغ هذا المبلغ من الاضطراب والابهام لا يمكن الا أن يضر بالفكرة نفسها ، ناهيك عما عدا ذلك .

والآن ، اليكم القصة الثانية :

فى أول نيسان (أبريل) من السنة الماضية كانت ماريا ايفانوفنا تحتفل بعيدها . وجاء فى المساء عدد من المدعوين ، عدد ليس بالكبير . وهذه آجرافينا تدخل على حين فجأة لاهثة لهائناً شديداً ، فتعلن أن فى الدهليز أمام المطبخ وليدأ متروكاً يصيح . . . وأنها لا تدرى ماذا تفعل .

فأهاج هذا النبا جميع الحضور ، وهرعنا الى هناك فرأينا قفةً من قش ، ورأينا في القفة بنتاً عمرها ثلاثة أسابيع أو أربعة كانت تبكى معولة . فتناولت القفة وحملتها الى المطبخ ، ورأيت فيها ورقة مطوية نصفين قد كتب عليها ما يلي : « أيها المحسنون الأعزاء ، أنعموا بعطفكم الجميل على هذه البنت التي عمدت باسم آرينا . اتنا ، نحن وهى ، سوف نظل نرفع دموعنا الى السماء أبد الأبدين ، داعين لكم بالخير . وتمنى لكم عيداً سعيداً : أناس لا تعرفونهم » . وعندئذ انما أحزننى يقولوا سيمينوفتش أشد الحزن ، وكنت أحترمه كثيراً . فلقد توجهم وجهه ، وقرر ارسال الطفلة الى « الاسعاف العام » فوراً . فتأملت أشد الألم . لقد كانت الأسرة تعيش عيشة ضيقة . ولكن لم يكن لها أولاد ، وكان يقولوا سيمينوفتش يغبط نفسه على هذا دائماً . أخرجت الصغيرة آرينا من القفة بحذر ، وأنهضتها من كفيها . ففاحت منها رائحة حامضة قوية كالتى تفوح من مواليد أهملوا مدةً طويلة . وبعد أن ناقشت يقولوا سيمينوفتش برهة ، أعلنت له على حين فجأة أننى سوف أتكفل بالطفلة . فأخذ يعترض اعتراضات كثيرة ، بل أخذ يعترض اعتراضات فيها شئ من القسوة ، رغم رقة طبعه ، ثم ختم كلامه بمزاحة ، ولكنه أصر على رأيه بضرورة ارسال الطفلة الى « الاسعاف العام » . ومع ذلك جرى كل شئ كما أردت .

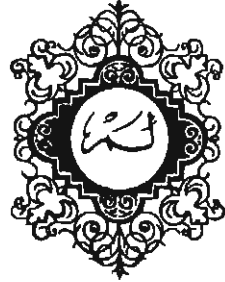
كان يسكن فى العمارة نفسها ، ولكن فى جناح آخر ، نجار فقير جداً ، مسنٌ وسكّير . وكانت زوجته ، وهى امرأة شابة قوية ، قد فقدت منذ مدة قصيرة ولداً لها رضيعاً ، وكان الولد وحيداً الذى لم تنجب غيره بعد ثمانى سنين من زواج عقيم ، وكان الولد بنتاً كذلك ، بل كان من المصادفات الغريبة ومن حسن الحظ أن اسم البنت المتوفاة كان آرينا أيضاً . أقول من حسن الحظ ، لأن هذه المرأة وقد عرفت بالنبا بينما كنا نتناقش فى المطبخ ، أسرعت تجيء الينا لترى ، فما ان عرفت أن الصغيرة اسمها آرينا حتى رق لها قلبها . وكان ثدياها لا يزالان يدران ،

فكشفت. عن صدرها وأخذت ترضع الطفلة . فجنّوت عند قدميها وابتهمت
اليها أن تأخذ البنت متمهداً بأن أدفع نفقات معيشتها كل شهر . فسألت
هل يسمح لها زوجها بذلك . ولكنها أخذتها لتؤويها هذه الليلة على كل
حال . حتى اذا كان الصبح سمح زوجها بحضانة الطفلة على أن يتقاضى
ثمانية روبلات فى الشهر . فقده على الفوز نفقات شهر سلفاً . فمضى
يشرب بها خمراً . وقد رضى يقولاً سيمينوفتش الذى كان لا يزال
يتسم ابتسامة غريبة ، أن يكفلنى لدى الرجل متمهداً بأن لا أتخلف
عن دفع المبلغ . وهو ثمانية روبلات - كل شهر . حتى لقد رفض أن
أرهن لديه الستين روبلاً التى كانت معى . وكان يعرف على كل حال
أن معى مالاً وكان يثق بى . فكان من شأن هذه البادرة اللطيفة منه أن
محت ما حدث بيننا من فتور لحظة . ولم تقل ماريا ايفانوفنا شيئاً ، لكنها
استغربت منى أن ارضى تحمل هذا الهم . وانى لأشكر لهما كثيراً ما
أظهراه كلاهما من رقة الذوق اذ لم يسمح أحد منهما لنفسه بأية مزحة
فى حقى ، حتى لقد نظرا الى الأمر نظرة فيها كل ما يليق ويحسن من
جد . وأصبحت أتب الى عند داريا روديفونوفنا كل يوم ثلاث مرات ؛
وبعد أسبوع نفحتها ثلاثة روبلات زيادة ، على أن يكون هذا المبلغ لها
هى ، بغير علم زوجها . وبثلاثة روبلات أخرى اشترت للطفلة غطاء
وأقمطة . ولكن لم تمض عشرة أيام حتى مرضت الصغيرة آرينا .
فاستدعيت لها الطبيب فوراً ، فوصف لها لا أدرى أى دواء ، وقضينا الليلة
كلها نعدب الطفلة المسكينة بهذا الدواء اللعين . وجاء الطبيب فى الغد
فقال ان الأوان قد فات ، فلما أخذت أتضرع اليه ، وربما أخذت ألوومه
أيضاً قال مترفعاً : « أنا لست الرب » . كان اللسان الصغير والشفتان
الصغيرتان والقم كله قد غطاها طفح أبيض دقيق . وما أن جاء المساء حتى
ماتت آرينا وهى تحنّدى الى بينيها الواسعتين السوداوين كأنما كانت تدرك
وهى فى تلك السن . لا أدرى لماذا لم يخطر ببالى أن التقط للبيئة

الصغيرة صورة فوتوغرافية • على كل حال •• هل تصدقون أنني ما بكيت في ذلك المساء بكاءً ، وانما طفقت أعول عويلاً ، وذلك أمر لم أسمح به لنفسي من قبل في يوم من الأيام قط ! حتى لقد اضطرت ماريا ايفانوفنا أن تعزيني • ومرةً أخرى لم يشتمل موقفها ولا موقف زوجها على أى شىء من سخرية • وقد تولى التجار بنفسه صنع التابوت الصغير • وزينته ماريا ايفانوفنا ببعض الدانتيل ، ووضعت فيه وسادة صغيرة لطيفة • واشترت أنا أزهاراً فثرتها على الطفلة • وهكذا أخذت زهرتى الصغيرة المسكينة ، زهرة الحقول ، التى لا أستطيع الى اليوم أن أنساها ، أصدقتم هذا أم لم تصدقوه • ولكن هذا الحادث الذى يكاد يكون مفاجئاً قد حملنى بعد مدة قصيرة على التفكير ، بل حملنى على التفكير جاداً كل الجد • صحيح أن آرينسا لم تكلفنى مالاً كثيراً : فنفقات التابوت ، والذفن ، والطيب ، والأزهار ، وأجر داريا روديفونوفنا ، لم تزيد على ثلاثين روبلا • وحين سافرت الى بطرسبرج استعدت هذا المبلغ توفيراً من الأربعين روبلاً التى أرسلها الى فرسيلوف للرحلة ، وربحاً من بيع عدد من الأشياء الصغيرة ، فبقي « رأسمالي » سليماً كأنه لم يمس • ولكننى قلت لنفسي : « اذا انحرفت انحرافات أخرى من هذا النوع ، فلن أمضى الى بعيد » • ان حكاية الطالب قد برهنت على أن « الفكرة » يمكن أن تشوش الادراكات الحسية وأن تذهل المرء عن النشاط الواقعى • أما حكاية آرينا فانها تبرهن على نقيض ذلك : تبرهن على أنه ما من « فكرة » تستطيع أن تبلغ من فتن المرء (من فتى أنا على الأقل) حدً منعه من التوقف فجأةً أمام حادث محزن ، والتضحية بكل ما قام به خلال سنين من عمل فى سبيل « الفكرة » • ان التيجتين كليهما صحيحة •

الفصل السادس

١



تتحقق آمالي تحقّقاً كاملاً • كان فرسيلوف غائباً • ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت عند أمي ، وهي رغم كل شيء غريبة • فسرعان ما تبدد نصف ما كان يملأ نفسي من استعدادات حسنة كريمة • غريب أمرى : ما أسرعتني الى التغير والتبدل في مثل هذه الظروف : تكفي ذرة غبار أو شعرة حتى يزول صفاء مزاجي ويحل محله الكدر • ومن سوء الحظ أن مشاعري السيئة أقل سرعة الى التبدد ، رغم أنني لست بالحقود • حين دخلت لاحظت أن أمي كانت قد أسرعت تقطع الحديث الذي يجري بينها وبين تاتيانا بافلوفنا والذي كان واضحاً أنه حديث حامٍ • وكانت أختي قد رجعت من عملها قبل وصولي بدقة واحدة ، ولما تعد الى الخروج من غرفتها بعد •

ان الشقة تضم ثلاث حجرات : الحجرة التي يلثم فيها شمل الجميع كما جرت العادة ؛ والحجرة الوسطى أو الصالون وهي حجرة واسعة سعة كافية وتكاد تكون لائحة ، ففيها دواوين حمراء طرية - لكنها مهترئة بعض الاهتراء - (كان فرسيلوف لا يطبق الأغذية الواقية) ، وفيها بضع سجادات وعدة طاولات واسكملات لا فائدة منها ؛ ثم غرفة

فرسيلوف التي تقع على اليمين ، وهي غرفة صغيرة ضيقة ذات نافذة واحدة ، فيها مكتب حقير ألقيت عليه عدة كتب مهجورة وأوراق منسية ، وأمام الطاولة مقعد رخو لا يقل عنها حقارة قد نفذ نابضه المكسور فانتصب في الهواء ، وذلك ما كان يحمل فرسيلوف على التشكي والأنين والتجديف . وفي تلك الغرفة نفسها انما جعل له سرير على ديوان رخو مهترى أيضاً . ولقد كان فرسيلوف يكره هذا المكتب ، وأظن أنه كان لا يستعمله أبداً ، وانما يؤثر أن يبقى في الصالون ساعات كاملة بغير عمل . وعلى يسار الصالون توجد غرفة صغيرة مماثلة تماماً كانت تنام فيها أمي وأختي . وسبيل الوصول الى الصالون دهليز يؤدي الى المطبخ الذي تسكن فيه الطباخة لوكيريا . فاذا كانت لوكيريا تعمل انتشرت رائحة فضلات طعام في الشقة كلها . فكان يتفق لفرسيلوف في بعض اللحظات أن يلعن حظه وحياته كلها بصوت عال بسبب روائح المطبخ هذه ، وكنت أنا من هذه الناحية على الأقل أوافقه كل الموافقة . انني أكره هذه الروائح أنا أيضاً ، رغم أنها كانت لا تصل الى حينذاك ، فلقد كنت أسكن في أعلى ، في حجرة تحت السقف أصعد إليها على سلم شديد الصرير ، وعر وعورة فظيمة . وكان من طرائف هذه الحجرة التي أسكنها أن لها كوة صغيرة بيضوية الشكل ، وسقفاً واطناً الى حد رهيب ، وأن فيها ديواناً مغطى بقماش مشمع كانت لوكيريا تغطيه في المساء بشرشف وتضع عليه مخدة . أما باقي الأثاث فهو شيان : طاولة من ألواح خشبية لا أكثر ، وكرسی خاسف من خيزران .

الحق أن الشقة كانت لا تزال تضم رغم ذلك بقايا شيء من رخاء زال الآن : ففي الصالون مثلاً يوجد مصباح جميل من الحزف ، وقد علقت بالحاظ صورة رائعة لـ « مادونا » درسدن ؛ وأمام الصورة ، على الحائط الآخر ، صورة فوتوغرافية كبيرة جداً ، تمثل الأبواب البرونزية لكاتدرائية فلورنسة . وفي هذه الغرفة نفسها علقت في ركن من

الأركان خزانه أرفف عليها أيقونات قديمة تملكها الأسرة : فاحدى هذه الأيقونات (وهى أيقونة جميع القديسين) كانت مكسوة بفضة مذهبة - وهذه هى الأيقونة التى كان يراد رهنها - والأيقونة الثانية (أيقونة العذراء) كانت مكسوة بمخمل مطرز بلألىء • وأمام هذه الصور كان يوجد مصباح يشعل فى عشيات الأعياد • ولقد كان واضحاً أن فرسيلوف لا يحفل بهذه الأيقونات من حيث دلالتها : فهو يكتفى بتقطيب حاجيه محاولاً ضبط نفسه حين يرى نور المصباح تعكسه الزخرفات المذهبة ، متشكياً فى رفق من أن ذلك يضر بنظره ، لكنه كان لا يمنع أمى من اشعال المصباح •

ولقد كنت أدخل فى العادة متجهم الوجه ، موجهاً بصرى الى ركن من الأركان ، حتى دون أن أحيى • وكنت أعود الى البيت دائماً قبل هذه الساعة وكانوا يأتوننى بطعامى الى فوق • أما هذه المرة فأننى حين دخلت قلت لأمى فجأة : « يومك سعيد يا ماما ! » ، وذلك ما لم يكن يحدث أبداً من قبل • ولكننى بنوع من الحجل الزائف لم أستطع حتى فى هذه المرة أن أنظر اليها ، وجلست فى الزاوية المقابلة من الغرفة • كنت متعباً جداً ، ولكننى كنت لا أفكر فى ذلك •

قالت تاتيانا بافلوفنا هامسةً :

– هذا القليل الأدب لا يزال يدخل عليك دخولاً وقحاً كما كان يفعل من قبل •

وكانت تاتيانا بافلوفنا تسيح لنفسها أن تقول كلمات جارحة من هذا القبيل ، حتى لقد أصبح ذلك نوعاً من العادة بينى وبينها •

أجابت أمى تقول وكأنها قد طاش صوابها من تحيتى لها :

– يومك سعيد ! •••

وأضافت بما يشبه اضطراب الحجل :

• العشاء مهياً منذ مدة طويلة • آمل أن لا يكون الحساء قد برد •
• أما الكستليات فسأمر بها فوراً •

وهمت أن تنهض مسرعة لتذهب الى المطبخ • فشعرتُ - ربما لأول
مرة منذ شهر - بخجل مفاجيء من رؤيتها تسارع الى خدمتي هذه
المسارعة كلها ، على حين أتى كنت الى ذلك اليوم أطلبها بذلك بنفسى
مطالبة •

قلت لها :

- أشكرك يا ماما ، لقد تعشيت • فلا تزعجى نفسك • وسأبقى
• هنا •

- آ •• طبعاً •• ابقى !

- ولا تقلقى يا ماما ، فلن أقول لآندره بتروفتش بعد الآن كلمات
• فظة •

كذلك أعلنت لها فجأة •

فهتفت تاتيانا بأفولونا تقول :

- الله الله ••• بالنبل والشهامة ! عزيزتى صوتيا ، هل يعقل أن
تظلى تخاطبيني بصيغة الجمع ؟ من هو حتى يستحق هذا التكريم ••• من
أمه ؟ ثم ما هذا ؟ ما لى أراك مضطربة أمامه ؟ هذا مخجل !

قلت :

- سيسرنى أنا نفسى أن تخاطبيني بصيغة المفرد يا ماما !

فأسرعت أُمى تقول :

- آ •• طيب •• اتفقنا •• ذلك أن •• ولكن لا فى جميع المرات •

ابتداءً من اليوم ، اتفقنا •

واحمرت احمراراً شديداً • ان وجهها فى بعض الأحيان

فتان .. وجه طيب .. لكنه ليس ساذجاً البتة .. وجه شاحب قليلاً .
هو وجه انسان مصاب بفقر الدم . خداها نحيلتان جداً ، بل خاسفتان ؛
وقد أخذت تتراكم على وجهها غضون كثيرة ، ولكن الغضون لم تظهر
حول عينيها بعد . وهاتان العينان ، الواسعتان المفتحتان ، تلتمعان دائماً ببريق
ناعم هادىء جذبى . منذ أول يوم . والشئ الذى كنت أحبه أيضاً هو أن
وجهها ليس فيه شئ من حزن أو مذلة . بالعكس : كان تعبير وجهها يمكن
أن يعد جذلاً لولا أنه متخوف غالباً بدون أى سبب على الإطلاق فى بعض
الأحيان . انها ترتاع حتى لقد ترتجف أحياناً لأمر تافه ككل التفاهة ،
وإذا أصغت الى حديث جديد كانت تصغى مذعورة ، الى أن تقتنع اقتناعاً
تاماً بأن الأمور لا تزال تجرى مجرى حسناً كالعادة . وكانت جملة « كل
شئ يجرى مجرى حسناً » ترادف فى ذهنها أن « كل شئ لا يزال يجرى
كما كان » . كل ما يهمها هو أن لا يحدث تغير ، كل ما يهمها هو أن
لا يقع جديد ، وان يكن هذا الجديد سعيداً ! ... فى وسع المرء أن يتصور
أنها قد خوفت فى طفولتها تخويماً رهيباً . وعدا العينين كنت أحب فيها
بيضوية وجهها أيضاً ، حتى لأظن أنها لو كانت وجنتها أقل عرضاً بقليل ،
لكان يمكن أن تعد جميلة ، لا فى شبابها فقط ، بل اليوم أيضاً . ان
عمرها لا يزيد على تسعة وثلاثين عاماً ، ولكن شعرها الكستناوى قد غالطه
بياض كثير منذ الآن .

نظرت الى تاتيانا بأفلوفنا باستياء قاطع وقالت لأمى :

— أترتعدين هذا الارتعاد أمام ولد تافه من هذا النوع ؟ انك مضحكة

يا صوفيا ! لسوف تشيرين غضبى وحققى !

— آه ... تاتيانا بأفلوفنا ، لماذا تقسين عليه هذه القسوة ؟ ولكنك

تمزحين ، أليس كذلك ؟

أضافت أمى هذا السؤال الأخير اذ لاحظت فى وجه تاتيانا بأفلوفنا

نوعاً من التبسم . صحيح أن تقريمات تاتيانا لا يمكن أن يعابها كثيراً ،

ولكنها كانت تبسم هذه المرة لأمي وحدها (ان كانت قد تبسمت) ، لأنها كانت تحب طيبة أُمى جداً شديداً ، ولأنها لاحظت حتما ما بعثه خضوعى فى نفس أُمى من سعادة كبيرة فى تلك اللحظة .

قلت مخاطباً تاتيانا بافلوفنا :

- انك تهجمين على الناس هجوماً فيه شيء من الحشونة ، وكان هجومتك علىّ أنا اليوم فى غير محله يا تاتيانا بافلوفنا . هجمت على وأنا أقول حين دخولى : « يومك سعيد يا ماما ! » . حظى سببى حقاً .

فسرعان ما انفجرت تقول :

- اسمعوا هذا الكلام ! انه يعد ذلك مأثرة منه ! هل يجب علينا اذن أن نركع أمامك لأنك كنت مهذباً مرة فى حياتك ؟ بل هل كنت مهذباً بالفعل ؟ لماذا تنظر الى ركن الغرفة حين تدخل ؟ أنتظن أنتى لا أعرف مدى ما تشعر به من غيظ تجاهها ؟ وكان فى وسعك أن تحينى أنا أيضاً . لقد كنت أتولى تقيطك ، وأنا عرابتك !

ولم أتنازل فأرد عليها طبعاً . ودخلت أختى فى تلك اللحظة ، فقلت لها فوراً :

- رأيت اليوم فاسين يا ليزا . وقد سألتى عنك ؟ هل تعرفينه ؟

فأجابتنى ببساطة كبيرة وهى تجلس الى جانبى وتلقى علىّ نظرة لطيفة :

- نعم ، منذ لوغا ، فى السنة الماضية .

لا أدرى لماذا كان يبدو لى أنها ستنفجر حين أكلمها عن فاسين .

ان أختى شقراء ، شقراء شقرة زاهية . شعرها ليس ك شعر أبى ولا ك شعر أُمى . ولكن عينيها تكادان تكونان عيني أُمى ، وكذلك وجهها

اليضوى • أنفها مستقيم صغير متسق • وهناك خاصة أخرى : ان فى وجهها بقع حمرة ، وذلك ما لا تجده فى وجه أمى • من فرسيلوف ليس فيها شىء ، ربما باستثناء القامة المشوكة الحلوة ، وشىء من فتنة فى المشية لا أدرى ما هى ! أما أنا فليس بينى وبينها أى شبه : بل نحن نقيضان •

أضفت ليزا تقول :

- عرفتهم ثلاثة أشهر •

- هل عن فاسين تقولين عرفتهم ؟ يجب أن تقولى عرفته لا عرفتهم؟ اغفرى لى أننى أصحح لك خطأك ، ولكن يؤلمنى أن يكون أمر تعليمك قد أهمل كل هذا الاهمال •

فانفجرت تاتيانا بافلوفنا قائلة :

- عيب عليك أن تبدى هذه الملاحظة بحضور أمك • ثم ان هذا غير صحيح • ان ليزا لم يهمل أمر تعليمها أبداً •

فقلت بلهجة جازمة :

- أنا ما عنيت بهذا أمى • اعلمى يا ماما أن رأيى فى ليزا كرايى فيك • لقد جعلت منها رائحة من روائح الطيبة والنبيل ، فهى تذكّر حتما بما كنت عليه أنت فى الماضى ، وبما لا تزالين عليه ، وبما سبتظلين عليه الى الأبد ••• وانما أنا عنيت بكلامى ذلك الطلاب الخارجى الاجتماعى الذى أعرف أنه تافه ولكنه ضرورى •

وتابعت كلامى مخاطباً أختى :

- اننى ليسوءنى أن يسمعك فرسيلوف قائلة عن فاسين « هم » بدلاً من « هو » ، ثم لا يصحح لك خطأك من شدة تعاليه علينا وقلة اكترائه بنا • ذلك هو ما يحقنى •

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول وهى ترشقنى بنظرة صاعقة :

- انظروا الى هذا الدب يتصدى لتعليم غيره الآداب ! حذار ياسيد
أن تقول بعد اليوم « فرسيلوف » بحضورى أنا • فلن أطيق ذلك !
- ماما ، قبضت اليوم أجرى خمسين روبلاً • فخذها ، أرجوك •
هى ذى !

قلت هذا لأمى وتقدمت منها ماداً اليها المال ، فسرعان ما ظهر عليها
الارتياح ، ثم قالت وكأنها تخشى حتى أن تمسه بيدها :
- ولكن ... ولكنى لا أدرى كيف آخذ هذا المال !
فلم أفهم • وقلت :

- ولكن يا ماما اذا كتما تعدانى ابناً وأخاً ، فعندئذ ...

- آه ... اننى مذنبه فى حقك يا آرКАДى • هناك أشياء يجب أن
أعترف لك بها ، ولكننى شديدة الخوف منك ...

قالت ذلك وهى تبتسم ابتسامة خجلى ضارعة • فلم أفهم أيضاً
وقاطعتها قائلاً :

- بالمناسبة ، هل تعلمين يا أمى أن القضاء قد فصل اليوم فى قضية
آندره بتروفتش وآل سوكولسكى ؟

فهمت من الذعر تقول وهى تعقد ذراعيها على صدرها ، وتلك حركة
مألوفة فيها :

- نعم أعلم •

وارتعشت تاتيانا بافلوفنا ارتعاشاً شديداً ، وقالت تسأل :
- اليوم ؟ مستحيل • لو أن الحكم قد صدر لأعلمنى بذلك •
ثم أضافت وهى تلتفت الى أمى :
- هل أبلغك أنت ؟

- لا ، لم يكلمنى اليوم • ولكننى خائفة خوفاً شديداً منذ أسبوع
كامل ••• ألا فليخسر القضية على شرط أن تتخلص •ن هذا الأمر
ويجربى كل شيء كما كان يجربى •

فهمت أسأل أمى :

- اذن لم يبلغك أنت أيضاً؟ يا له من رجل عجيب ! هذا مثال على
شدة تعاليه وقلة أكثراته • ألم أقل لكم ذلك منذ قليل ؟

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تسأل :

- ولكن ماذا كان الحكم؟ ماذا كان الحكم؟ هلا قلت أخيراً !

- ولكن ها هو ذا بنفسه قد وصل ، فلمله يطلعنا على ما حدث •

كذلك أعلنت' اذ سمعت وقع خطبه فى الدهليز ، وأسرعت أجلس
بقرب ليزا من جديد ، فقالت لى ليزا هامسة :

- أخى ، ناشدتك الله •• ارحم ماما ••• اصبر على آندره

بتروفتش •

- سأصبر • على هذه النية انما عدت •

وشددت على يدها • فرشقتى ليزا بنظرة ليس فيها اطمئنان • وكانت

على حق •

دخل فرسيلوف راضياً عن نفسه مسروراً بها ، حتى انه لم يجد أن من الضروري أن يخفى ذلك • وقد اعتاد في الآونة الأخيرة على كل حال أن يكشف عن نفسه وأن يظهر على حقيقته بدون أى كلفة أو تحرج لا في لحظات اعتكار مزاجه فحسب ، بل في نوبات مرحة أيضاً ، وذلك أمر يتهيبه كل انسان أكثر ما يتهيب • وكان يعلم مع ذلك حق العلم أننا نستطيع في مثل هذه الحالات أن نفهم كل شيء حتى أدق التفاصيل • لقد أصبح يهمل هندامه اهمالاً شديداً في هذه السنة الأخيرة ، كما لاحظت ذلك تاتيانا بافلوفنا : صحيح أنه يرتدى دائماً ملابس لائقة، ولكنها ملابس عتيقة بغير أناقة • أصبح مستعداً لأن يلبس قميصاً واحداً مدة عشرة أيام ، وكان هذا يحزن أمى حزناً شديداً ، ولكنه يُعِدُّ في المنزل توضيحاً منه وبطولة ، وكانت تلك الجمهرة كلها من النساء المخلصات يرين فيه مأثرة ومكرمة • ان قبعاته رخوة سوداء عريضة الحافات دائماً • وكان اذا خلع قبعته نزلت على جبينه خصلة من شعره الذى كان شديد الكثافة والغزارة وانما يخالطه بياض كثير • وكنت أنا أحب أن أنظر الى شعره حين يخلع قبعته •

- يومكم سعيد • ارى الشمل ملتصبا فليس أحد غائباً • وحتى هذا اراء معكم • لقد سمعت صوته وأنا فى المدخل • لا شك أنه كان يقول فى سوء ، أليس كذلك ؟

كان اذا مزح فى حقى يدل بذلك على أنه رائق المزاج • ولم أجب طبعاً • وعادت لوكيريا وهى تحمل كيساً ممتلئاً بمشروبات ووضعت على الطاولة •

- انتصرت يا تاتيانا بافلوفنا ! ربحت الدعوى ولن يجروا الأجراء
سوكولسكى أن يلجئوا الى محكمة النقض والابرام . أصبحت القضية فى
الجيب ! ولقد وجدت من يقرضنى ألف روبل حالاً . صوفيا ، انركى
شغلك هذا ، لا تعبى عينيك . ليزا ، أنت عائدة من العمل ؟

فأجابت ليزا وقد لاح فى وجهها الحنان :

- نعم يا بابا .

لقد كانت ليزا تسميه بابا . أما أنا فلم أستطع أن أذعن لهذا فى يوم
من الأيام .

- أنت تعبانة ؟

- نعم .

- انركى هذا العمل ، لا تذهبى اليه غداً ، امجريه هجرأ تماماً .

- ولكن ترك العمل سيضايقنى مضايقة أكبر .

- أرجوك . . . اننى أكره النساء اللواتى يعملن يا تاتيانا بافلوفنا .

- وكيف تعيش بغير عمل ؟ امرأة لا تعمل ! . . .

- أعرف ، أعرف . . . هذا الكلام كله حسن ، وأنا موافق عليه

سلفاً . ولكن ما أعنيه انما ينصرف خاصة الى أشغال الخياطة والتطريز

وما الى ذلك مما تقوم به السيدات . . . وهذا يرجع الى احساس من

أحاسيس الطفولة هو من ألمها فى نفسى ، بل قولوا هو من أكثرها ايضاً

فى الخطأ . ففى ذكرياتى الغامضة عن العهد الذى كانت سنى فيه خمسة

أعوام أو ستة ما أزال أرى فى أكثر الأحيان ، بشىء من الاشتمزاز طبعاً ،

مجمعاً من النساء أشبه بمجمع كرادكة قد جلسن الى مائدة مستديرة عابسات

الوجه متجهمات الهيئة ، وأرى مقصات وأقمشة و « بترونات » وصور

موضحة ، وأرى هذه النساء كلها تناقش وتجادل ، هازةً رموسها بوقار

وبطء وهى تقيس وتحسب وتتهيا للقص . ان جميع تلك الوجوه الأنيسة

التي تجنى كثيرا قد أصبحت لا أستطيع الاقتراب منها على حين فجأة • وإذا ارتكبت أى عمل من أعمال العفرتة التي يقوم بها الأطفال ، طردت على الفور • حتى أمى المسكينة تمسكنى من يدي وتكف عن الاستجابة لصراخى وتبرمى لكنها كلها أعين وآذان أمام الشغل الذي هى منصرفه اليه ، فكأنها تتأمل طائراً من الجنة • فتلك القسوة فى الوجوه الذكية ، وتلك الرصانة فى الهيئة قبل القصد ، لا تزال تؤلمنى الى الآن حين أفكر فيها • تانياً بافلوفنا ، انك تحيين الحياطة حباً شديداً ! أما أنا فأنتى أوثر للمرأة أن لا تعمل شيئاً البتة ، مهما يكن هذا ارسقراطياً • لا يذهبن بك الظن الى أنتى أعنيك أنت يا صوفيا ••• ولكن علام العمل ؟ ليست المرأة فى حاجة الى العمل من أجل أن تكون قوة كبرى • ثم انك يا صوفيا تعرفين هذا أيضاً • ما رأيك يا أركادى ماكاروفتش ؟ لا شك فى أنك ستعرض ، أليس كذلك ؟

أجبت قائلاً :

— لا ، أبدأ • هذا تعبير رائع : المرأة قوة كبرى • ولكننى لا أرى لماذا تربط بين هذا الأمر وبين الأشغال التي تقوم بها السيدات ! ثم انك تعرف بنفسك أنه يستحيل على المرء أن يعيش بدون عمل اذا كان لا يملك مالاً •

— كفى الآن !

قال هذا والتفت الى أمى التي كانت مشرقة الوجه أيما اشراق ، على حين أنها ارتعدت حين اتجه الى بالكلام •
واصل كلامه فقال :

— فى الآونة الأولى على الأقل ، لا أريد أن أرى شغلاً هنا ! لنفى انما أطلب منكم هذا • أما أنت يا أركادى ، فلا بد أن تكون اشتراكياً بمض الشيء ، من حيث أنك شاب من هذا العصر • ولكن هل تصدق

يا صديقي أن الذين يحبون الفراغ أكثر من سائر الناس انما هم أبناء الشعب هؤلاء ، أبناء هذا الشعب الذي لا يكف عن العمل .

- لعلهم يحبون الراحة ، لا الفراغ

- بل الفراغ ، الكسل المطلق ، ذلك هو مثلهم الأعلى ! لقد عرفت واحداً من هؤلاء الذين لا يكفون عن العمل ، ولم يكن من أبناء الشعب على كل حال ، وكان رجلاً مثقفاً يحسن التفكير . فصدفتني اذا قلت لك انه كان يحلم بالفراغ الكامل والبطالة التامة كل يوم تقريباً ، ويجد في هذا الحلم لذة عظيمة ومتعة كبيرة . حتى لقد كان يمضي بهذا المشغل الأعلى الى تخوم المطلق ان صح التعبير ، الى الاستقلال الذي لا حدود له ، الى الحرية المستمرة في الاقياد للحلم والتأمل خالياً من كل عمل . وقد لازمه هذا الى اليوم الذي تحطم فيه تحطماً من العمل ، حتى صار يستحيل على أحد أن يقفه ثانية على قدميه ، ومات في المستشفى . فاستخلصت من ذلك جاداً كل الجد أن فكرة مباحج العمل انما اخترعها أناس عاطلون عن العمل ، أناس فضلاء طبعاً . هذه فكرة من « افكار جنيف » في نهاية القرن الماضي . آ . . . تاتيانا ايفانوفنا ، لقد قصصت من الجريدة أمس الأول اعلاناً . اليك الاعلان . . .

قال ذلك مخاطباً تاتيانا بافلوفنا وأخرج من جيب صديرته قطعة من

ورق . وتابع كلامه فقال :

- هذا واحد من أولئك « الطلبة » الأبديين الذين يعرفون اللغات القديمة والرياضيات ويعلنون عن استعدادهم للسفر الى الأرياف ، للذهاب الى شونة ، للرحيل الى أى مكان . اسمعوا هذا الكلام : « معلمة تحضر التلاميذ لدخول جميع مؤسسات التعليم (هل تسمعون ؟ جميع مؤسسات التعليم) ، وتعطى دروساً في الحساب » . هو سطر واحد ، لكنه كلاسيكى . انها تحضر لجميع مؤسسات التعليم : يبدو للمرء أن الحساب داخل في هذا . ولكن لا . انها تذكر الحساب على حدة . ذلك هو الجوع

حقاً ، تلك هي آخر درجة من درجات البؤس . ان هذه الحرقاة هي التي تؤثر في نفسى : طبعاً ، هي لم تكن معلمة في يوم من الأيام ، وهي عاجزة عن تعليم أى شيء . ولكن لا سبيل : يجب أن تحمل الى الجريدة آخر روبل تملكه ، وأن تعلن أنها تحضر لجميع مؤسسات التعليم ، وأنها عدا ذلك تعطى دروساً في الحساب . « في العالم كله وفي أماكن أخرى » (بالايطالية) .

هتفت تاتيانا بافلوفنا تقول :

– آندره بتروفتش ، يجب أن تساعدنا . أين تقيم ؟

– هو ! ما أكثرهم !

ودس العنوان ثانية في جيبه . ثم استأنف كلامه فقال :

– في هذه الصرة هدايا لك يا ليزا ، ولك أنت يا تاتيانا بافلوفنا . أنا وصوفيا لا نحب الحلويات . ولك أنت أيضاً يا فتى ! اخترت كل شيء بنفسى من عند ايلسياف و باليه . لقد طالما هممتنا جوعاً ، كما تقول لوكيريا (ملاحظة : لم يمت أحد من الجوع عندنا في يوم من الأيام) . هنا غنب وسكاكر و تفاح و فطيرة بالفراولة . بل لقد اشتريت خمرة رائحة . واشتريت بندقاً كذلك . غريب بقاء ولعى بالبندق من الطفولة حتى الآن يا تاتيانا بافلوفنا . و ليزا مثلى . هي أيضاً تحب قضم البندق حباً شديداً كسنبج صغير . ذكريات لذيذة يا تاتيانا بافلوفنا : اننى أرى نفسى في بعض الأحيان طفلاً أتجول في الغابة وأقطف بندقاً . الفصل يوشك أن يكون خريفاً ، ولكن الأيام مضية ، والجو بارد أحياناً ، وأوغل في أعماق الغابة ، وأطوف في أبعاد أرجائها ، وأتشم رائحة أوراق الشجر العطرة . اننى أرى في نظرتك شيئاً لطيفاً محبباً يا أركادى ماكاروفتش !

– أنا أيضاً قضيت في الريف أولى سنى طفولتى .

– كيف؟ يخيل الى عكس ذلك... يخيل الى أنك عشت بموسكو،
اللهم الا أن أكون مخطئاً .

فقلت تاتيانا بافلوفنا مؤيدة :

– عند آل آندرونيكوف ، كان يعيش بموسكو ، حين وصلت
أنت اليها . لكنه قبل ذلك كان عند المرحومة عمته بربارا ستيبانوفنا
فى الريف .

– خذى يا صوفيا ، اليك هذا المال ، أمسكيه ! لقد وعدت بخمسة
آلاف فى غضون بضعة أيام .
– ألم يبق للأمرء أى أمل ؟
– اطلاقاً يا تاتيانا بافلوفنا .

– لقد أحبتك دائماً يا آندره بتروفتش ، وأحبيت جميع ذويك ؛
كنت صديقة الأسرة دائماً . ولكننى مهما أكن غريبة عن الأمرء ومهما
يكونوا غرباء عنى ، أظل أشفق عليهم . أحلف لك . لا تزعل يا آندره
بتروفتش !

– لا أتوى أن أقاسمهم يا تاتيانا بافلوفنا .

– أنت تعرف رأىى يا آندره بتروفتش . لقد كان يمكن أن يتنازلوا
عن الدعوى لو أنك عرضت عليك الاقتسام منذ البداية . أما الآن فقد
فات الأوان طبعاً . وما أقوله أنا انما أبنيه على اعتقادي بأن المتوفى ما كان
يمكن أن يساهم فى وصيته .

– ما كان يمكن أن يساهم طبعاً ، بل أذهب الى أبعد من ذلك
فأقول ما كان يمكن الا أن يورثهم كل شىء . ما كان يمكن أن ينسى
أحدأ الا أنا لو أنه طبق القواعد وحرر الوصية كما يجب . ولكن القانون
معى الآن . انتهى الأمر . فلا أستطيع أن أقاسم ، ولا أريد أن أقاسم يا تاتيانا
بافلوفنا . لقد بُتَّ فى القضية .

قال هذه الكلمات فى غضب وضيق ، وذلك شىء كان يندر أن يبيحه
لنفسه . فصمتت تاتيانا بافلوفنا . وخفضت أمتى عينها على شىء من الحزن:
كان فرسيلوف يعلم أنها تؤيد كلام تاتيانا بافلوفنا .

حدثت نفسى قائلاً لها : « هذه صفقة مدنية اس » . وفكرت أيضاً فى
الوثيقة التى أسلمنى اياها كرافت والتى كانت معى فى جيبي ، وفكرت
فى المصير القاسى الذى ستول إليه لو وقعت فى يديه . وأحسست فجأة
بأننى ما زلت أحمل هذه القضية كلها على ظهري . فكان من شأن هذا
الاحساس ، بالاضافة الى سائر ما عداه ، أن أشعل نيران غضبى .

– آر كادى ، أريد أن تكون ملابسك أحسن مما هى الآن يا صديقى .
ما هى الآن رديئة طبعاً . ولكن لعلك ستسمح لى فى المستقبل أن أوصى
بك خياطاً فرنسياً حاذقاً صاحب ذوق رفيع .
فانبريت أقول بخشونة :

– أطلب منك أن لا تعرض علىَّ عرضاً كهذا فى يوم من الأيام .
– لماذا ؟

– لست أرى فى هذا شيئاً من المذلة طبعاً ، ولكننا لسنا على وفاق
تام ، بل لعلنا على خلاف شديد . وفى الأيام القريبه . . . بل غداً . . .
سأقطع عن الذهاب الى الأمير ، لأننى لا أرى أن لى عنده عملاً أقوم به .
– ولكن . . . أليس عملاً أن ترافقه فى نزهة أو أن تمكث الى
جانبه ؟

– هذه أفكار فيها اذلال .

– لست أفهم . ثم ، اذا كنت حساساً الى هذا الحد ، فما عليك الا
أن لا تأخذ منه مالا ، مع استمرارك فى البقاء معه . لسوف تحزنه حزناً
شديداً اذا انقطعت عنه . انه متعلق بك تعلقاً قويا منذ الآن . صدقنى! . . .
على كل حال ، لك ما تشاء . . .

كان واضحاً أنه مستاء •

تقول ان فى امكانى أن لا آخذ منه مالا • ولكننى فى هذا اليوم
ارتكبت بسببك عملاً دنيئاً : لم تكن قد نهيتنى فطالبته اليوم بمرتب
الشهر •

– معنى هذا أنك أردت ذلك • أعترف لك بأننى لم أكن أظن أنك
ستفعل • آ • • ما أحذقكم جميعاً فى هذا الزمان رغم كل شىء • لم يبق
شباب يا تاتيانا بافلوفنا •

كان شديد المرارة ، وكنت أنا كذلك • قلت :

– كان على أن أصفى حسابى معك • • • أنت الذى اضطررتى •
والآن لا أدري ماذا أعمل •

– بالمناسبة يا صوفيا : ردى الستين روبلاً الى آر كادى على الفور •
وأنت يا صديقى لا تغضب من هذا السداد السريع • اننى أحزر من
النظر فى وجهك أن فى رأسك مشروعاً ما ، وأنت فى حاجة الى رأس
مال • • أو شىء من هذا القبيل •

– لا أدري عمّ يعبر وجهى ، ولكننى لم أكن أتوقع أن تحدثك
أمى عن ذلك المبلغ بعد أن رجوتها أن لا تفعل •

ونظرت الى أمى ، وكانت عينى تقدحان شرراً • لا أستطيع أن
أصف مدى ما كان يضطرم فى نفسى من غضب •

– آر كاشا ، بنى ، سامحنى ، ناشدتك الله • لم أستطع أن أمنع
نفسى من أن أحكى له • •

وقال فرسيلوف متجهاً الى :

– لا تؤاخذها يا صديقى على أنها كشفت لى عن أسرارك • ثم ان
نتيها كانت حسنة : لقد أرادت الأم أن تباهى بعواطف ابنها • ولكن

صدقني اذا قلت لك انني كنت أستطيع أن أحزر أنك رأسالي بدون أن
تحكى لي أمك شيئاً • ان جميع أسرارك مكتوبة على وجهك النزيه •
ان له « فكرته » يا تاتيانا بافلوفنا ، كما سبق أن قلت لك ذلك •
أتممت كلامي ساخطاً أقول :

– دع وجهي النزيه • انني أعرف أنك تقرأ أفكار الناس في كثير
من الأحيان ، رغم أنك في حالات أخرى لاترى ما هو أبعد من طرف
أنفك • لقد أدهشني نفاذ بصيرتك دائماً • طيب ، ليكن • ان لي
« فكرتي » • واضح أنك انما استعملت هذا التعبير مصادفة ، ولكنني
لا أخشى من الاعتراف بأن لي « فكرتي » • نعم ، لي « فكرتي » • لست
أشعر من ذلك لا بخوف ولا بخجل •
– لا تشعر بخجل خاصة !

– ومع ذلك لن أكشف لك عن « فكرتي » هذه في يوم
من الأيام •

– معنى هذا أنك لا تعدني جديراً بأن تكشف لي عنها • ولكن
لا جدوى يا صديقي ! انني أعرف جوهر فكرتك منذ الآن • هي على
كل حال :

« انسحب الي الصحراء »

يا تاتيانا بافلوفنا ، ان رأيي أنا هو أنه يريد أن يصبح روتشيلد ،
أو شيئاً من هذا القبيل ، وأن يمضى معتصماً بعظمته • ولسوف يمن علينا
أنا وأنت بمرتب يكفل لنا معيشتنا • قد لا يهب لي أنا شيئاً ، ولكن من
المحقق أنه سيمر بنا كما يمر شهاب • سيكون كالقمر الطالع : ما ان
يظهر حتى يختفي •

ارتعشت في قرارة نفسي • لاشك أن هذا مصادفة • انه لا يعرف
شيئاً ، وهو يتكلم عن شيء أخسر تماماً ، رغم أنه ذكر اسم روتشيلد •

ولكن كيف استطاع أن يحدد عواطفى هذا التحديد الدقيق كله ؛ أنفصل عنهم ، وأنزوى ؟ لقد حزر كل شيء . وهو يريد أن يلطخ بسخريته ما فى الأمر من عنصر المأساة . لقد كان غاضباً غضباً شديداً . ليس فى ذلك شك .

قلت وأنا أحاول أن أضحك وأن أقلب كل شيء الى مزاح :

- اغفرى لى ما أظهرت من اندفاع وغضب منذ قليل يا ماما .
واضح أن آندره بتروفتشس قد أوتى موهبة النفاذ الى أسرار الناس ،
فلا حيلة لنا فى الأمر ، ولا نستطيع أن نخفى عنه أنفسنا .

- أحسن شيء يا عزيزى أنك ضحكت . لا تستطيع أن تتصور مدى ما تسبفه ضحكة جميلة على المرء من سحر وفتنة ، حتى من الناحية الجسمية . أقول هذا جاداً كل الجد يا تاتيانا بافلوفنا ، ان هيئته تم دائماً عن أن فى رأسه أمراً يبلغ من الخطورة أنه يشعر هو نفسه بخجل منه .
- أرجوك جاداً يا آندره بتروفتشس أن تكون أكثر تحفظاً .

- انك على حق يا صديقى . ولكن كان لا بد لى أن أقول هذا مرة حتى انتهى منه ولا أعود اليه . انك لم ترجع من موسكو الا لتثور . ذلك ما نعلمه حتى الآن عن سبب مجيئك . وأما أنك جئت منتوياً أن تدهشنا بعمل يبهر الأبصار ، فذلك أمتنع حتى عن الاشارة اليه ، لأنه أمر طيىم جداً . ثم انك منذ أن وصلت قبل شهر لا تكف عن الاستهزاء بنا والسخرية منا . وأنت مع ذلك رجل ذكى ، ففى وسعك أن تدع هذا الضحك وهذا التهكم لأولئك الذين لا يملكون الا هذه الوسيلة انتقاماً لتفاهتهم . انك منلق دائماً ، مع أن مظهرك لائق وخدك المتوردتين تشهدان بأن فى وسعك أن تنظر الى جميع الناس وجهاً لوجه براءة تامة . انه سوادوى يا تاتيانا بافلوفنا . لا أستطيع أن أفهم لماذا هم جميعاً سوداويون فى هذا الزمان !

- اذا كنت تجهل حتى أين نشأت وربيت ، فأنتى لك أن تعرف
لماذا أنا سوداوى ؟

- ذلك هو السر كله : أنت غاضب لأننى نسيت أين نشأت
وربيت !

- لا ، أبداً . لا تنسب الى حماقة كهذه الحماقة . يا ماما ، ان
آندره بتروفتش قد هأنى منذ لحظة بأننى ضحكت . فلنضحك اذن .
علام بقى متجهمين هذا التجهم ؟ هل تجبون أن أقص عليكم حكايات
مضحكة عنى ؟ لاسيما وأن آندره بتروفتش لا يعرف شيئاً عن مغامرات
حياتى ؟

كنت أغلى وأفور . كنت أعلم أننا لن نلتقى بعد الآن جميعاً كما
نلتقى اليوم ، وأننى متى خرجت من هذا المنزل فلن أعود اليه أبداً .
لذلك لم أستطع فى عشية ذلك كله أن أضبط نفسى . وقد حرص هو
نفسه على الوصول الى هذه النتيجة . قال وهو يلقى على نظرة ثاقبة :

- هذا لطيف ممتع ، بشرط أن يكون مضحكاً حقاً ! لقد توحشت
قليلاً يا صديقى فى ذلك المكان الذى نشأت وربيت فيه . على أنك
ما تزال لاثقاً رغم كل شيء . انه اليوم فاتن يا تاتيانا بافلوفنا ، ولقد أحسنت
جداً اذ فضضت هذه الصرة .

ولكن تاتيانا بافلوفنا قطبت حاجبيها ، حتى انها لم تلتفت واستمرت
تفرض الصرة وترتب الهدايا فى أطباق . وبقيت أمى حائرة مضطربة ،
وكانت تدرك وتوجس أن الأمور تجرى مجرى سيئاً . ومرة أخرى
لكزتى أختى بكوعها .

بدأت أتكلّم بهيئة طليقة فقلت :

- أريد أن أحكى لكم ببساطة كيف لقي أب ابنه العزيز أول مرة .
- وقد حدث هذا في ذلك المكان نفسه « الذي نشأت وربيت فيه » .
- ولكن ألا ترى يا صاحبي أن هذا سيكون مملاًّ باعثاً على الضجر ؟ أنت تعلم أن « جميع فنون القصص ... » (بالفرنسية) .
- فقاطعتُه قائلاً :

- لا تطبّ حاجيك يا آندره بتروفتش . ليس ما سأحكّيه هو ما تظن .. أبداً ! ان غايتي هي أن أضحككم جميعاً .

فقال بصوت اصطنع له طلاقة كاذبة :

- سسمع الله منك يا عزيزي . أنا أعرف أنك تحبنا جميعاً ، وأنتك .. لا تريد أن تعكر علينا صفو سهرتنا .
- لاشك أنك من وجهي انما حزرت أنني أحبكم ؟
- نعم ، من وجهك قليلاً ..

- وأنا حزرت من وجه تاتيانا بافلوفنا ، منذ مدة طويلة ، انها مفرمة بي . لا ترشقينى بنظرات قاسية هذه القسوة كلها يا تاتيانا بافلوفنا ! الضحك أفضل ! الضحك أفضل !

فالتفتت تاتيانا بافلوفنا الىّ بحركة مباغتة ، وتأملتني ببصر نافذ مدة نصف دقيقة ، ثم قالت وهي تهددني باصبعها :

- حذار !

وكانت تبلغ من الجذ في تهديدها أن ذلك لا يمكن أن يكون
مرده الى مزحتي الحقاء ، وانما هو نوع من الانذار فكأنها تقول :
« أتراك تريد أن تبدأ ؟ » •

- آندره بتروفتش ، أنت لا تتذكر اذن كيف التقينا في الحياة
أول مرة ؟

- أحلف لك اننى نسيت ، واستغفرك عن هذا صادقاً • كل
ما أتذكره أن ذلك حدث فى زمان بعيد جداً • • ولست أدري الآن أين
تم اللقاء • •

- وأنت يا ماما ، هل تتذكرين متى كنت فى الريف ، فى القرية
التي ربيت فيها حتى السنة السادسة أو السابعة من عمري ؟ أأقمت فى
تلك القرية فعلاً ، أم أننى فى الحلم انما بدا لى أننى رأيتك هناك أول
مرة ؟ اننى منذ مدة طويلة أحب أن ألقى عليك هذا السؤال ، ولكننى
كنت أتراجع دائماً • وقد حان الوقت الآن •

- كيف لا أتذكر يا صغيرى آرКАДى ! طبعاً أتذكر ! لقد جئت
أزور بربارا ستيانوفنا ثلاث مرات ؟ مرة حين كانت سنك لا تكاد تبلغ
عاماً واحداً ؛ ومرة حين كنت فى نحو السنة الرابعة من العمر ؛ ومرة
حين كنت قد تجاوزت العاشرة •

- ها • • نعم ! لقد ظلمت أريد أن ألقى عليك هذا السؤال طول
هذه المدة !

احمرت أسمى احمراراً شديداً من سبيل الذكريات المبالغت هذا ،
وسألتنى بعاطفة حنون :

- هل يمكن حقاً يا صغيرى آركَادى أن تتذكر زيارات أمك بعد
انقضاء هذه المدة كلها ؟

- لا أتذكر شيئاً ، ولا أعرف شيئاً ، غير أنني قد بقي لي من وجهك شيء في قرارة قلبي طول حياتي ، وبقي لي عدا ذلك أنني عرفت أنك أُمي . تلك القرية كلها إنما أراها اليوم كحلم من الأحلام . بربارا ستيانوفنا ، أتذكرها قليلاً لأن حَديها كانت دائماً معصوبتين . وحول المنزل ما زلت أرى أشجاراً كبيرة أظن أنها كانت أشجار زيزفون ، وأرى في بعض الأيام شمساً قوية تدخل من النوافذ المفتوحة ، وأرى مساكب أزهار وممر أشجار ، وأراك أنت يا ماما ، لكنني لا أراك رؤية واضحة الا في لحظة واحدة هي لحظة تناولي في كنيسة القرية التي حملتني فيها بين ذراعيك لأتناول القربان وأقبل الكأس . كان ذلك في الصيف ، واجتازت القبة حملمه من نافذة الى أخرى ..

قالت أُمي :

- رياه ! ما أصدق هذه الذكريات ! وعقدت أُمي ذراعيها على صدرها . وتابعت تقول :

- انني أتذكرها ، تلك الحمامة . وقد تحركت أنت في لحظة التناول نفسها وصحت تقول : « الحمامة ، الحمامة ! » .

- ان وجهك ، أو شيئاً منه هو تعبير فيه ، قد بلغ من عمق الرسوخ في ذاكرتي أنني منذ خمس سنين عرفتك بموسكو فوراً وعرفت أنك أُمي ، رغم أن أحداً لم يذكر لي ذلك . ثم سُجبت من منزل آل أندرونيكوف بعد لقائني الأول بأندره بتروفتش . كنت قد مكثت عندهم زمناً طويلاً في هدوء ومرح ، خمس سنين . انني أتذكر أدق التفاصيل من بيتهم الذي يقع في أحد مباني الدولة ، وأتذكر جميع تلك السيدات والآسستات اللواتي هرمن اليوم هراً شديداً ، أتذكر الليت زاخراً ، وأتذكر أندرونيكوف نفسه الذي كان يتولى بنفسه شراء الثبنة من المدينة ، وجلب الدواجن والأسماك والخنازير الرضيعة ، وكان ينوب على المائدة مناب زوجته التي تصطنع الكبرياء فيسكب لنا الحساء

بنفسه • وكنا نتندر على هذا دائماً ، وكان هو بيننا أول المتندرين • هناك
انما علمتني الفتيات اللغة الفرنسية ، ولكنني كنت أحب حكايات كرييلوف
خاصة ، فحفظت منها عدداً كبيراً على ظهر القلب ، وكنت أتشد
آندرونيكوف واحدة في كل يوم : كنت أدخل مكتبه الصغير رأساً ، سواء
أكان منهمكاً في عمل أم لا • وبسبب حكاية من تلك الحكايات انما
تعارفنا يا آندره بتروفتش •• أرى أنك بدأت تتذكر •

- حقاً •• أتذكر بعض التذكر يا عزيزي •• ماذا أشدنتني
حينذاك ؟ أحكاية من حكايات كرييلوف أم جزءاً من مسرحية « كبير
من الفكر ضرر » ؟ ما أقوى ذاكرتك على كل حال ! ••

- لا فضل لي في تذكر هذه الأشياء : لقد ظلت ماثلة في فكري
على الدوام •

- عظيم ، عظيم ، يا صديقي ! حديثك يشوقني •

حتى لقد ابتسم • وبعده ابتسمت أمي وأختي • لقد عادت
الطمأنينة ، الا الى تاتيانا بافلوفنا التي كانت جالسة في ركن بعد أن
رتبت الهدايا على الطاولة ، فقد ظلت ترشقني بنظرة شذراء • وتابعت
كلامي فقلت :

- قالكم القصة : في ذات صباح ، جاءت صديقة طفولتي ،
تاتيانا بافلوفنا ، التي كانت تبجس في حياتي على حين غرة دائماً ، جاءت
تأخذني من عند آل آندرونيكوف • أركبوني عربة ، وأودعوني في
منزل فخم من منازل الأسياد • كنت قد نزلت عند فاناريوتوفا يا آندره
بتروفتش ، في المنزل الذي كان خالياً حينذاك ، وكانت قد اشترته منك
في الماضي • كانت هي مسافرة في الخارج • وكنت ما أزال ألبس
بلوزات • فألبسوني هناك رداء لطيفاً أزرق وملابس داخلية ناعمة
رفيقة ، دفعة واحدة • وقضت تاتيانا بافلوفنا النهار كله محتفية بي ،

واشترت لى أشياء كثيرة جداً • وأخذت أطوف فى الغرف الخالية ، وأنظر الى نفسى فى جميع المرايا • حتى اذا كان صباح الغد ، فى نحو الساعة العاشرة ، بينما كنت أتجول فى أرجاء البيت ، رأيتى - لا أدرى كيف - أدخل مكتبك مصادفة • وكنت قد رأيتك بالأمس ، لحظة وصولى الى هذا المنزل ، ولكننى لم أرك الا عابراً ، وذلك على السلم • كنت أنت نازلاً لتركب العربة ذاهباً لا أدرى الى أين • كنت فى ذلك الوقت وحيداً بموسكو ، بعد غياب طويل جداً ، وكنت لا تريد أن تمكث الا وقتاً قصيراً ، فكنت تطلب فى كل مكان ، فلا تكاد تبقى فى البيت أبداً • فلما صادقتنا أنا و تاتيانا بأفلوفنا ، لم تزد على أن قلت : « ها ! » ، حتى دون أن تتوقف •

قال فرسيلوف مخاطباً تاتيانا بأفلوفنا :

- انه يصف الواقعة بحب •

فأشاحت تاتيانا بأفلوفنا وجهها دون أن تحجب •

- انى لأتصورك الآن كما كنت فى ذلك الحين جميلاً مزدهراً • ما أكره ما دب اليك الهرم وما نالك من دمامة أثناء هذه السنين التسع ، اغفر لى صراحتى • ولقد كنت آنذاك فى السابعة والثلاثين على كل حال ، ولكننى كنت لا أتعب من النظر اليك • ما كان أجمل شعرك ! كان غزيراً ، أسود ، لامعاً ، لا يتخالطه شعرة واحدة بيضاء • أما شاربك وعارضك فكأنها من حسن الاتقان قد صنعها صانع جواهر • لا أجد تعبيراً أفضل من هذا التعبير • وكان وجهك شاحباً كإياباً ، لا شحوب المرض كشحوبه الآن ، بل • • بل كشحوب وجه ابنتك أنا أندريفا التى شرفت برويتها منذ قليل • وكان فى عينيك حدة وحرارة وحلقة • وكانت أسنانك لامعة ، خاصةً حين تضحك • ذلك أنك انفجرت تضحك حين نظرت الى عند دخولى مكتبك • لم أكن أحسن تمييز الأشياء فى ذلك الأوان • فأبهجت ابتسامتك قلبى • كنت ترتدى فى ذلك الصباح سترة

من مخمل كحلى وتندثر بوشاح أخضر ، وتلبس قميصاً مزداناً بتخاريم
من الآسبون . وكنت واقفاً أمام المرأة ، مسكاً بكتاب في يدك ، منهمكاً
في استظهار وانشاد أقوال تشاتسكى ، ولاسيما صيخته الأخيرة :

عربتى ، عربتى

هتف فرسيلوف يقول :

- آ . . ما أصدق ما يذكر ! كنت قد رضيت ، رغم قصر اقامتى
بموسكو ، أن أمثل دور تشاتسكى عند ألكسندرا بتروفنا فيتوفتوفا ، على
مسرحها الخاص ، بسبب مرض ييلايكو .

هتف تاتيانا بافلوفنا تسأله :

- ماذا ؟ أنسيت اذن ؟

- لقد ذكرنى . الواقع أن تلك الافامة القصيرة بموسكو لعلها
كانت أجمل أيام حياتى ! كنا جميعاً فى عز الشباب آنذاك . . كنا نتنظر
كل شىء بحرارة شديدة . وقد التقيت فى موسكو عندئذ بعدد كبير
من . . ولكن أكمل يا عزيزى ، أكمل ، لقد أحسنت ايما احسان هذه
المرّة اذ دخلت فى التفاصيل . .

- وكنت واقفاً أنظر اليك . فاذا أنا أصبح فجأة : « آ . . . رائع !
هذا هو تشاتسكى الحقيقى » ، فسرعان ما التفتّ وسألتنى : « أنت تعرف
تشاتسكى ؟ » ثم جلست على الديوان ، وأقبلت على قهوتك رائق المزاج
جدلاً أشد الجدل . فذكرت لك حينئذ ان الجميع فى منزل آل
آندرونيكوف يقرأون كثيراً ، وأن الآسات يحفظن شعراً كثيراً على ظهر
القلب ، وأنهن يمثلن فيما بينهن مشاهد من مسرحيات جريبويدوف ، وأنا
طوال الأسبوع الماضى كنا نقرأ معاً فى المساء بصوت عال « أقاصيص
صياد » ، وأننى أحب خاصة حكايات كريلوف وأحفظها على ظهر القلب ،
فدعوتنى أن أشدك شيئاً ، فأنشدتلك على حكايته « الخطية الصعبة » :

خطيبة تحلم فى خطيبها

فهتفت فرسيلوف من جديد :

- نعم ، نعم ، الآن تذكرت كل شىء ! ولكتنى أتذكرك أنت أيضاً يا صاحبى . كنت فى ذلك الحين فتى لطيفاً ظريفاً ، كنت فتى صغيراً لذيذاً . يميناً لقد فقدت كثيراً أثناء هذه السنين التسع .

عندئذ ضحكت تاتيانا بافلوفنا نفسها . لقد كان واضحاً أن آندره بروفتشس كان يمزح ويشار لنفسه مما قلته له أنا . وابتهج الجميع . لقد أحسن الرد على العمز بمثله . وتابعت أنا سرد ذكرياتى فقلت :

- وفيما كنت أنا أشد كنت أنت تبسم . ولكن ان أضدت نصف الحكاية حتى استوقفتنى وقرعت الجرس وأمرت الخادم الذى دخل فى تلك اللحظة بأن يدعو تاتيانا بافلوفنا . فسرعان ما جاءت تاتيانا بافلوفنا وقد بلغت هيتها من التعبير عن شدة الفرح أنى بعد أن كنت رأيته بالأمس لم أكد أتعرفها اليوم . وبحضور تاتيانا بافلوفنا أعدت انشاد « الخطيبة الصعبة » ، ونجحت فى انشادها نجاحاً باهراً . فابتسمت لى تاتيانا بافلوفنا ، حتى انك انت يا آندره بروفتشس قد هتفت تقول لى : « مرحبى ! » . وأضفت تقول بحرارة : « ان انشاد حكاية « الزيز والنملة » انشاداً حسناً أمر يستطيعه كل فتى ذكى فى سنى . فلا يستغرب المرء حسن انشاده ، أما انشاد حكاية « الخطيبة الصعبة » فشأنه شأن آخر : خطيبة تحلم فى خطيبها . . . لا اثم فى هذا ولا تريب . . . اسمعى كيف ينشد هذا الشطر : « لا اثم فى هذا ولا تريب ! » . الخلاصة أنك تحمست كثيراً . وقد أخذت تكلم تاتيانا بافلوفنا عندئذ باللغة الفرنسية . فسرعان ما قطبت حاجبها وأخذت تواجهك باعتراضات ، حتى لقد كانت تبدى اعتراضاتها بحرارة شديدة . ولكن لما كان يستحيل على أحد أن يعارض آندره بروفتشس اذا هو أراد شيئاً ، فقد أسرع تاتيانا بافلوفنا تقمادنى الى بيتها . وهناك غسل وجهى ويدها مرة أخرى ، وغُيرت ملابسى الداخلية

ودُهنت بالعطر ، حتى لقد 'جَعَدَ لي شعري' . حتى اذا جاء المساء ارتدت تاتيانا بافلوفنا هي نفسها ثياباً ضخمة ، ثياباً أفجم مما كان يمكن أن أظن ، وركبتا عربة ، و'أخذت لأول مرة في حياتي الى المسرح ، فشهدت عرضاً قام به هواة عند فيتوفتوفا : شموع ، تماثيل ، سيدات ، عسكريون ، جنرالات ، أنسات ، الستارة ، صفوف الكراسي ، الخ تلك كلها أشياء لم يسبق أن رأيت مثلها في حياتي . وقد اختارت تاتيانا بافلوفنا مكاناً متواضعاً في صف من الصفوف الأخيرة وأجلستني بقربها . وكان هناك أطفال غيري طبعاً ، ولكنني كنت لا أنظر الى شيء ، وانما انتظر بدء التمثيل خافق القلب . حتى اذا ظهرت انت على المسرح يا أندره بتروفتش ، بلغت أنا من الحماسة حداً سألت معه دموعي . لا أدري لماذا يا أندره بتروفتش . لماذا دموع الحماسة تلك ؟ ذلك أمر ظل يبدو لي غريباً كلما تذكرته خلال هذه السنين التسع ! وأخذت أتابع المسرحية منهار القلب . كل ما فهمته طبعاً هو « أنها » خاتمه ، وأن أناساً أغبياء لا يستحقون حتى أن يلمسوا أصبعاً في قدمها كانوا يسخرون منه . وحين كان يخطف في حفلة الرقص كنت ادرك أنه رجل 'أذل وأهين' ، وأنه يقترع جميع أولئك الأفراد ، ولكنه رجل كبير ، كبير جداً . لا شك أن ما كنت قد تعلمته عند آل أندرونيكوف ساعدني على الفهم ، ولكن تمثيلك ساعدني أيضاً يا أندره بتروفتش . كنت أرى مسرحاً لأول مرة ! وفي لحظة الانصراف ، حين صرخ تشاتسكي نادياً : « عربتي ، عربتي ! » (ولقد صرخت صرخة مدهشة !) وثبتت عن كرسيي وطفقت أصفق مع كل من كانوا في الصالة ، وصحت أقول بكل ما أملك من قوة : مرحي !

أتذكر أيضاً أنني أحسست في تلك اللحظة نفسها بما يشبه أن يكون وخزة دبوس « تجت الظهر قليلاً » . ان تاتيانا بافلوفنا هي التي فرصتي غاضبة غضباً شديداً ، ولكنني لم أول ذلك انتباهاً ! حتى اذا انتهى التمثيل قادتني تاتيانا بافلوفنا الى البيت ، قائلة لي : « لا يمكن أن تبقى

فتحضر حفلة الرقص ، رغم اننى سأحرم بسببك من حضورها ، وقد
ظلمت تونينى طول الطريق يا تاتيانا بافلوفنا ونحن فى العربة . وهذيت
أنا الى آخر الليل . وفى الساعة العاشرة من الغد وجدتني أف أمام
مكتبك . ولكن الباب كان مغلقا : كنت تستقبل بعض الناس ، و تعالج
بعض الأعمال . ثم غبت فجأة طول النهار ولم تعد الا فى الليل ، فلم
أرك بعد ذلك أبداً ! أما ما الذى كنت أريد أن أقوله لك ، فقد نسيت ،
بل كنت لا أعرفه حتى فى ذلك الوقت ، ولكننى كنت احترق شوقاً الى
رؤيتك فى اسرع وقت . لقد سافرت فى صباح غد منذ الساعة الثامنة الى
سربوخوف : كنت قد بعث أرضك فى تولا منذ مدة قصيرة لترد الى دائيتك
ديونهم ، أو لترضيهم بدفع جزء منها على الأقل ، ولكن كانت قد بقيت
لك من أرضك قطعة لا بأس بها ، ومن أجل ذلك انما جئت عندئذ الى
موسكو التى كنت لا تستطيع أن تظهر فيها حتى ذلك الحين خوفاً من أولئك
الدائنين وكان ذلك الرجل الفظ الغليظ سربو خوف هو الوحيد بين سائر
الدائنين الذى لم يرض أن يقبض نصف الدين بدلاً عن تمامه . ولم
ترض تاتيانا بافلوفنا حتى أن تجيب عن أسئلتى ، وكانت لا تزيد على أن
تقول لى : « اطمئن . سأذهب بك بعد غد الى مدرسة داخلية . حضر
نفسك . خذ دفاترك . رتب كتبك . وتعلم كيف ترتب حقيقتك بنفسك .
انك لم تخلق لتعيش عيشة أمير يا سيد ، الخ الخ . أكثر ما صدعت
أذنى بهذا الكلام فى تلك الأيام الثلاثة يا تاتيانا بافلوفنا ! واقدتني فعلاً
الى مدرسة توشار الداخلية ، أنا الغر البرىء ، أنا المغرم بك يا أندرو
بتروفش . صحيح أن ذلك اللقاء لم يكن الا مصادفة شاذة ، ولكن
صدقتى اذا قلت لك اننى بعد ستة أشهر كنت ما أزال أريد أن أهرب من
عند توشار وأن أذهب اليك .

قال فرسيلوف موقفاً كلامه :

— لقد قصصت فأبدعت ، فأيقظت جميع ذكرياتى ! غير أن ما يخطف

اتباهي خاصة فيما قصصته انما هو غناء بعض التفاصيل الغريبة ، فيما يتعلق بديونى مثلاً . فمن أين عرفت هذه التفاصيل ، ناهيك عن انها غير لائقة ؟

- هذه التفاصيل ؟ من أين عرفتھا ؟ اننى اعود فأكرر لك اننى خلال هذه السنين التسع لم يشغلنى شيء كما شغلنى الاهتمام بجمع تفاصيل عنك .

- اعتراف عجيب ، وشاغل عجيب !

وأدار لى ظهره ، مضطجماً على مقعده نصف اضطجاع ، وفتح فمه بتأؤب خفيف لا أدرى أهو تمعده تمعداً أم لا .

- هل تريد أن أحكى لكم كيف أردت أن أهرب من عند توشار ؟

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول :

- امنعه يا أندره بتروفتش ! اردعه ! اطرده من هنا !

فأجابها فرسيلوف بجد :

- لا يا تاتيانا بافلوفنا ! لا شك أن فى ذهن آر كادى مشروعاً . فيجب أن نتيج له اكمال كلامه قطعاً . فليستمر ! ليقتصص ما يريد أن يقصه فتخلص ! وذلك هو كل ما يرغب فيه على كل حال أن يتخلص الى الأبد . هيا يا عزيزى ، ابدأ قصتك الجديدة . وأنا انما أصفها بأنها جديدة من باب التجوز ، لأننى أعرف نهايتها منذ الآن ، ثق بهذا .

- أردت أن أفر من المدرسة هارباً اليكم ، الأمر بسيط . تاتيانا بافلوفنا ، تذكرين أن توشار ، بعد دخولي المدرسة بخمسة عشر يوماً ، بعث اليك برسالة . لا ؟ لقد أطلعتني ماريا ايفانوفنا على هذه الرسالة فيما بعد ، وكانت بين أوراق آندرونيكوف أيضاً . لقد ارتأى توشار فجأة أن المبلغ الذي كان قد طلبه ضئيل جداً ، فكتب يقول لك « بوقار » انه يربى في مدرسته الداخلية أمراء وأولاد أعضاء في مجلس الشيوخ ، ويرى أنه لا يليق بمؤسسته أن تحتفظ بتلميذ أصله كأصلي ، اللهم الا أن يُدفع له أجر اضافي .

- « يا عزيزي » ، في وسعك أن ...

فقاطعها قائلاً :

- ليس هذا بشيء ، ذى بال : لكنني أريد أن أقول كلمة عن توشار . لقد أجبتّه من الريف يا تاتيانا بافلوفنا ، بعد خمسة عشر يوماً ، بأنك ترفضين طلبه رفضاً قاطعاً . اتنى ما زلت أراه في خيالي داخلاً على الصف وقد احمر وجهه احمراراً شديداً . انه فرمى قصير القامة مدور الجسم ، في نحو الخامسة والأربعين من العمر ، جاء من باريس رأساً في الواقع ، وكان من قبل اسكافياً ، ولكنه استقر بموسكو منذ زمن بعيد مدرساً للغة الفرنسية يحمل لقب أستاذ ، بل يحمل كذلك رتباً كان يعتز بها أعظم الاعتزاز . هو رجل جاهل فظ حقاً . ولقد كنا في مدرسته الداخلية ستة لا أكثر . وكان بين هؤلاء التلاميذ واحد هو ابن اخت عضو في مجلس الشيوخ من موسكو . وكنا نعيش في مدرسته عيشة أسرة ، تحت اشراف زوجته في أكثر الأحيان ، وهي امرأة متكلفة متصنعة كانت

ابنة موظف روسي لا يُعرف من هو • وكنت في خلال تلك الأيام الخمس عشرة أتكبر على رفاقي تكبراً شديداً ، واتباهى بسترتي الزرقاء وأعتز بأبي آندره بتروفتش ، فاذا سألوني لماذا أسمى دولجوروكي ولا أسمى فرسيلوف ، لم اضطرب من السؤال البتة ، لأنني كنت أجهل أنا نفسي سبب ذلك •

صرخت تاتيانا بأفولوفنا تقول بلهجة فيها ما يشبه التهديد :

- آندره بتروفتش !

ولا كذلك أمي ، فكانت تصفي الى كلامي لا تغيب عنها منه كلمة واحدة ، وترغب رغبة واضحة في اتمامه •

قال فرسيلوف من بين أسنانه :

- انني ... أتذكر توشار « هذا » فعلاً • وكان قد زكّني لي كثيراً ...

واصلت حديثي قائلاً :

- دخل توشار « هذا » حاملاً الرسالة بيده ، وتقدم من الطاولة المصنوعة من خشب السنديان ، التي كنا نحن الستة جالسين اليها منهمكين في تعلم درس نسيت الآن ما هو ، فأمسك كفي امساکاً قوياً ، وأنهضني ، وأمرني بأن آخذ دفاتري ، قائلاً لي « مكانك ليس هنا » • ودلني على غرفة صغيرة تقع على يسار حجرة المدخل ، وتوجد فيها طاولة صغيرة مع كرسي من خيزران وديوان مغطى بقماش مشمع ، تماماً كالغريفة التي أعيش فيها الآن تحت السقف • فذهبت الى هناك مدهوشاً ومحمراً احمراراً شديداً • انني لم أعامل قبل اليوم بمثل هذه الغلظة والفظاظة • وبعد نصف ساعة ، حين غادر توشار الصف ، مضيت أبادل رفاقي النظرات والضحك • وكانوا هم يضحكون عليّ ساخرين ، ولكني أنا لم يخطر

ببالي شيء من ذلك ، وظنت أننا نضحك معاً لما يملأ نفوسنا من فرح
وجذل . وفي تلك اللحظة انبجس توشار . فأمسك خصلة من شعري ،
وجرني الى خارج الصف قائلاً لي : « اياك أن تخالط بعد اليوم هؤلاء
الأولاد الذين ينتمون الى أسر كريمة . انك أنت حقير المنبت . ما أنت
الا نوع من خادم ! » . ولطم خدي المدورة الحمراء لكمة آلتني ايلاًماً
شديداً . وأعجبتني للكمة فكررها ثانية فثالثة . فلبثت ساعة كاملة أبكي
بكاء شديداً وقد دفنت رأسي في يدي . لا بد أن شيئاً لا أتوصل الى
ادراكه قد حدث . لم أفهم كيف يستطيع انسان غير شرير مثل توشار ،
وهو رجل أجنبي ، حتى انه كان يبتهج أعظم الابتهاج لتحرير الفلاحين
الروس ، كيف يستطيع أن يضرب طفلاً ساذجاً مثلي . الحق انني في
قرارة نفسي كنت مندهشاً لا أكثر . لم أشعر بأنني 'أهنت' . كنت لا أحس
بعد بأنني أهان . خيل الى أنني قد ارتكبت غلطة من الغلطات ، وأنني
بعد هذا القصاص سؤففر لي كل شيء ، فنغدو جميعاً مرحين من جديد ،
ونمضي نلعب في فناء المدرسة ، ونستأنف حياة حلوة .

قال فرسيلوف وهو يتسم ابتسامة فيها اهمال انسان اعتراه السأم :

— ليتني عرفت هذه الأمور يا صاحبي . . . ان توشار هذا رجل
وغد حقاً ! على كل حال ، أنا لم أفقد أمل في أن تسترد شجاعتك ، فتغفر
لنا أخيراً جميع هذه الأشياء ونستأنف حياة سليمة .

وأتبع ذلك بتأؤب قوي . فهتفت أقول محتاراً :

— ولكنني لا أتهم أحداً ، لا أتهم أحداً قط ، بل لا اشتكي حتى
من توشار . ثم انه لم يضربني الا مدة شهرين . أذكر أنني كنت أريد
دائماً أن أهدي غضبه ، فكنت ارتمي على يديه لأقبلهما ، وكنت أقبلهما
ذارفاً كل ما في عيني من دموع . وكان رفاقي يسخرون مني ويحتقرونني
لأن توشار كان يستعملني في بعض الأحيان خادماً ، فيأمرني أن أجيئه

بملاسه حين كان يرتدى ثيابه • وهنا سُحذت صفات الخادم في نفسى
بالغريزة ، فكنت أبذل كل ما أملاك من طاقة لارضائه ، دون أن أشعر
بأى شيء من المهانة ، لأننى كنت لا أزال عاجزاً عن فهم الأمر ، بل اننى
ليدهشنى حتى هنا اليوم كيف لم أدرك أننى كنت دون كافة رفاقى
كثيراً ، فلا شك أن رفاقى قد شرحوا لى بعض الأمور ، لأننا فى مدرسة
راقية • على أن توشار قد أصبح فى النهاية لا يلطم خدى بل يضرب
اليتى • حتى انه بعد ستة أشهر أخذ يلاطفنى من حين الى حين • ولكننى
كنت واثقاً بأنه لا بد أن يضربنى مرة فى الشهر ، ليدكرنى بأن على أن
أبقى فى مكاني لا أتجاوزه • ولم ألبث أن أرجعت الى سائر الأولاد ،
وسُمح لى بأن ألعب معهم ، ولكن توشار لم يستطع مرة واحدة خلال
هذه المدة كلها - وهى سنتان ونصف سنة - أن ينسى ما بينى وبينهم من
فرق فى الظروف الاجتماعية • ويغلب على ظنى أنه ان كان لم يقته أن
يستعملنى خادماً له على الدوام ، ولو بغير مبالفة ، فانما كان يفعل ذلك
ليذكرنى بما بينى وبين رفاقى من فرق فى الظروف الاجتماعية • ثم
هربت • أقصد فكرت فى الهروب بعد انقضاء خمسة أشهر على ذيك
الشهرين الأولين • لقد كنت بطيئاً فى عزم أمرى على اتخاذ قرار دائماً •
وكنت حين أرقد فى فراشى وأخفى نفسى تحت غطائى ، لا ألبث أن أحلم
بك فوراً يا أندره بتروقتش ، بك وحدك • لا أدرى لماذا كان يحدث
ذلك • حتى لقد كنت أراك فى المنام • وكنت أحلم خاصةً بأنك ستجىء
فجأة ذات يوم ، فاذا أنا ارتمى بين ذراعيك ، فنتشلتنى من هذا المكان ،
وتأخذنى الى عندك ، الى مكتبك • وأحلم بأننا لا نزال نضحك فى المسرح ،
النخ ، وأتأنا - وهذا هو الشيء الأساسى - لن نفترق بعدئذ أبداً • فكانت
هذه الأحلام تلهب نفسى • وفى الغداة ، حين أستيقظ من النوم ، يستأنف
الصية سخرياتهم ويعودون الى احتقارهم • وقد بدا لأحدهم يوماً أن
يضربنى وأن يجبرنى على الباسه حذاءيه ، ووصفنى بكل النعوت ،

وحرص حرصاً خاصاً على افهامي أصلي ، فأفرح ذلك السامعين فرحاً عظيماً . حتى اذا وصل توشار أحسست في داخل نفسي بشيء لا يطاق . أدركت أنني هنا لن يُغفر لي أبداً في يوم من الأيام . آه . . . بدأت شيئاً فشيئاً أفهم الأمر الذي لن يغفر لي ، وأعرف ما هي جريمتي ! وهكذا قررت أن أهرب . حلمت بالهرب مدة شهرين ، واتخذت قرارى أخيراً .

كان ذلك في شهر أيلول (سبتمبر) . ان يوم السبت يناسبني : فرفاقي ينصرفون لقضاء عطلة الأحد ولا يعودون الا في صباح يوم الاثنين . حذمت من أمتعتي ما لا غنى لي عنه في صرة . وكان كل ما معي من مال روبلين . كنت أريد أن أنتظر حلول الفسق . قلت لنفسي : « متى حل الفسق هبطت على السلم ، وخرجت ثم انصرفت قدماً . . . » الى أين ؟ كنت أعرف أن أندرونيكوف قد سافر الى بطرسبرج ، فقررت أن أعرف منزل فاناروتوفا في شارع آربات . وحدثت نفسي قائلاً : « سوف أفضي الليل في أي مكان ، متجولاً أو جالساً على دكة ، حتى اذا طلع الصبح سألت أحداً في فناء الدار : أين هو أندره بتروفش الآن ، واذا لم يكن بموسكو ففي أية مدينة هو أو في أي بلد من البلاد ؟ وسيرضون أن يذكروا لي المكان فأمشي . ومن حين الى حين أسأل أحداً عن الاتجاه الذي يجب أن أسير فيه . فأمشي ، وأمشي . وأظل أمشي . وأفضي الليل في أي مكان تحت الأدغال ، ولا أكل الا خبزاً ، فيكفيني الروبلان مدة طويلة . . . ولكن استحال عليّ في يوم السبت أن أهرب . فكان يجب أن أنتظر الى يوم الأحد . وشاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يغيب توشار وامراته . ولم يبق في البيت الا آجاتي وأنا . فانتظرت حلول الليل مضطرباً اضطراباً رهيباً . كنت جالساً - ما زلت أتذكر ذلك - أمام نافذة صفّنا ، انظر الى الشارع الأعبر ، وبيوته الخشبية الصغيرة ، والمارة القلائل . كان توشار يقيم في آخر العالم . ومن نوافذنا كان يرى

باب المدينة • قلت لنفسي : « ليته هو الباب الذي يجب أن أخرج منه »
وكانت الشمس تغرب محمرة احمراراً رائئاً ، وكان الهواء بارداً ، وكانت
تهب ريح قارصة تثير الغبار ؛ كهذا اليوم تماماً • وعمّ الظلام أخيراً ؛
فوقفت أمام الأيقونة ، وصليت ، لكنني صليت مسرعاً ، مسرعاً كل
الاسراع ، لأنني كنت استعجل الهرب حالاً • وتناولت صرتي ، ونزلت
سائراً على رعوس الأصابع ، فكانت درجاته تصر ، وكنت أشعر بخوف
رهيب من أن تسمعني آجائي في المطبخ • وكان المفتاح على الباب ،
ففتحت ، فسرعان ما أحرق بي الظلام الدامس كثيـء مجهول خطر
لا حدود له ، وأطارت الريح طاقيني • أصبحت في خارج الدار • ودوى
على الرصيف الآخر صراخ أجش أبح هو صراخ سكير كان يطلق
الشتائم تلو الشتائم • فتوقفت ، ونظرت ، ثم اذا بي أعود أدراجي على
مهمل ، ثم أصدت السلم في رفق ؛ وفي رفق أخذت أخلع ملابسي بعد
أن وضعت صرتي على الأرض ، ثم رقدت على بطني بدون دموع أذرفها
وبغير فكرة واحدة تخطر ببالي • ومنذ تلك اللحظة أنما أخذت أفكر
يا آندره بترفشش ! نعم ، منذ اللحظة التي أدركت فيها أنني لست خادماً
فحسب ، بل جباناً رعديداً أيضاً ! عندئذ انما بدأ تطوري الحقيقي
المطرد •

هنا ضاحت تاتيانا بإفلوفنا تقول وهي تثب عن مكها فجأة وثوباً لم
يكن في حسابي قط :

– وعندئذ انما بدأت أنا أعرف ما أنت في واقع الأمر ! انك لم تكن
خادماً في ذلك الأوان فحسب ، بل مازلت خادماً الى الآن : ان نفسك
نفس خادم ! ما الذي كان يمكن أن يمنع آندره بترفشش من أن يعهد
بك الى اسكافي يعلمك حرفة الاحذية ؟ كان سيحس اليك لو علمك
حرفة ! من ذا الذي يمكن أن يطالبه بأكثر من هذا ؟ ان أباك ، ماكار
ايفانوفشش كان يرجو ان لا نخرجك من ظرفك الاجتماعي حتى لقد كان

يطلب بهذا مطالبة ويكاد يصر عليه اصراراً . لا ، لا ، انك لا تحسن تقدير صنيع آندره بتروفتش اذ أوصلك الى الجامعة . انك بفضلها انما تتمتع الآن بحقوق الطبقات العليا . انظروا : كان الصبيان يسخرون منه ويناكذونه ، فحظف لينتقم من الانسانية بأسرها . . . ما أنت الا نذل ! . . .

يجب أن أعترف أن غضبة تاتيانا بافلوفنا قد سحقتني . فهضت عن مكاني ونظرت لحظةً وأنا لا أجد ما أجيئها به .
وقلت أخيراً وأنا التفت الى فرسيلوف عامداً بعد تفكير :

— ان ما قالته تاتيانا بافلوفنا الآن شيء جديد حقاً . ان فرسيلوف قد تفضل فلم يجعلني اسكافيا . فيا لي من خادم حقاً ، لأن هذا لم يرضني ، وانما طالبت ، فوق آلائه ونعمه ، طالبت به هو ، طالبت بفرسيلوف نفسه ، طالبت به كله كاملاً غير منقوص ! حتى حقوق الطبقات العليا لم ترفق قلبي . ذلك أنني أردت أباً . فهل يمكن أن يكون امرؤ خادماً أكثر من هذا ؟ يا أمي ، ما تزال ماثلة في ضميري ، منذ ثمانية أعوام حتى الآن ، تلك اللحظة التي جثنتي فيها وحيدة الى عند توشار ، وتلك الطريقة التي استقبلتك بها . ولكن ليس هذا أوان الحديث عن هذا الأمر . ان تاتيانا بافلوفنا لا تسمح به . فالى الغد يا أمي ، فلعلنا سنلتقي مرة أخرى . ويا تاتيانا بافلوفنا ، وما عساك قائلة لك انني مازلت خادماً فلا أستطيع أن أقبل أن يكون لرجل امرأة ، فاذا هو يتزوج امرأة أخرى ؟ تلك مغامرة كادت تقع لأندره بتروفتش في « امس » . يا أمي ، اذا كنت لا تريد البقاء مع زوج قد يتزوج امرأة أخرى في الغد ، فاذكرى أن لك ابناً يعد بأن يكون ابناً يحترم أمه الى الأبد ، اذكرى هذا ثم تنصرف ، ولكن يجب الاختيار « فاما أنا واما هو » فمن تختارين ؟ انني لا أطلب جواباً على الفور . فأنا أعرف أن هذه أسئلة لا يستطيع المرء أن يجيب عنها حالاً . . .

لم أستطع أن أكمل كلامي ، لأنني اندفعت اندفاعاً شديداً وطاش
ضواحي . اصفرت أُمي اصفراراً قوياً ، وخانها صوتها فلم تستطع أن
تتلق : عجزت عن أن تقول كلمة واحدة . وانبرت تائباناً تلفظ صاحبةً ،
حتى انني لم أستطع أن أميز ما كانت تقوله ، بل لقد لطمتني على كفتي
بقبضة يدها مرتين . لكنني أتذكر أنها أعولت تقول « ان أقوالى مدرؤسة
محسوبة ، قد هياتها نفس وضيعه معقدة » . وكان فرسيلوف جالساً
لا يتحرك ، وكان جاداً لا يتسم . وصعدت الى حجرتى تحت السقف .
وكانت النظرة الوحيدة التى شيعتني هى نظرة الاستنكار من أختى التى
كانت تهز رأسها وقد لاحت فى وجهها القسوة .

الفصل السابع

١



أصف جميع هذه المشاهد دون مراعاة أو مداراة
لنفسى ، وذلك حتى يكون كل شيء واضحاً ،
ذكريات كان أو انطباعات • حين صعدت الى
حجرتى كنت أجهل جهلاً مطلقاً هل يجب علىّ
أن أحمر خجلاً أو أن أشمخ انتظارا لأننى قمت بواجبى • ولو كنت
ذا تجربة أوسع لأدركت أن أى شك حول مثل هذا الأمر يجب أن يفسر
تفسيراً سيئاً • على أن هناك ظرفاً أخسر حيرتني : اننى لا أعرف
ما الذى كان يمكن أن يبهجنى ، ولكن واقع الحال هو أننى كنت أحس
بفرح جنونى ، رغم شكوكى ورغم شهورى بأننى قد أخفقت منذ قليل
اخفاقاً ذريعاً حين كنت تحت • حتى الشتائم المقدعة التى رمتنى بها تاتيانا
بافلوفنا كانت تبدو لى باعثة على الضحك ، وكانت لا تحقننى البتة • أغلب
الظن أن مرد ذلك الى أننى قد حطمت أغلالى على كل حال ، وشعرت
بحريتى أول مرة •

وكنت أحس أيضاً أننى أفسدت مصالحى : ما عساي أفعل الآن
بالوثيقة التى تتعلق بالميراث ؟ وكان فى هذا السؤال مزيد من الاضطراب •

لسوف يظنون حتماً أنني أردت الانتقام من فرسيلوف • ولكنني منذ أن كنت تحت ، كنت قررت - أثناء المناقشات - أن أرجع في هذه المسألة حكمي يفصل فيها ، وأن أختار فاسين حكماً ، أو أن أختار أحداً غيره إذا لم يمكن أن اختاره هو ، وكنت منذ ذلك الوقت أعرف من ذا الذي سأختاره • لقد حدثت نفسي قائلاً : سأذهب يوماً الى فاسين ، أذهب اليه الوحيدة ؛ ثم ، ثم أعيب عن أبصار الناس قاطبةً ، زمناً طويلاً ، أشهراً عدة ، أعيب حتى عن فاسين ، بل أعيب خاصةً عن فاسين ، وقد أرى أمي وأختي وحدهما من حين الى حين • ذلك كله كان مضطرباً مشوشاً • وكنت أحس أن شيئاً ما قد عمل ، ولكنه لم يعمل كما ينبغي أن يعمل •• وكنت مغتبطاً • أكرر : كنت رغم كل شيء سعيداً •

وقررت عندئذ أن أنام قبل أوان نومي في العادة ، متوقفاً أن يكون عليّ أن أسير في الغد مسافات طويلة • لقد اتخذت قرارات عقدت النية على تنفيذها بطريقة أو بأخرى ، عدا استئجار مسكن والانتقال اليه • ولكن السهرة لم تختتم دون أن يحدث شيء لم يكن في الحسبان ، فهذا هو فرسيلوف يفلح في أن يدهشني الى أبعد حدود الدهشة • كان لا يجيء الى حجرتي أبداً ، أبداً • ولكن ما ان انقضت ساعة واحدة حتى سمعت وقع خطاه على السلم ، وسمعت يناديني طالباً أن أنير له الطريق • فتناولت شمعة ، ومددت اليه احدي يدي فأمسكها ، وساعدته على التسلق اليّ •

- « شكراً » (بالفرنسية) يا صديقي • انني لم أصعد الى هنا مرة واحدة ، حتى يوم استأجرت البيت • كنت أقدّر ما عسى يكون هذا المكان • ومع ذلك لم أتوقع أبداً أن يكون حجرة كلب كهذه التي أرى •

ووقف فرسيلوف في وسط حجرتي ينظر فيما حوله مستطعماً مستغرباً ، وقال :

– هذا تابوت ، تابوت حقيقى !

والحق أن حجرتى كان بينها وبين جوف التابوت شبه ، حتى لقد أعجبت بدقة تشبيهِه اياها بالتابوت • انها غريفة ضيقة طويلة • وفى مستوى كفى ، لا أعلى منه ، تبدأ الزاوية التى تتشكل من التقاء جدارها بسقفها الذى كنت أستطيع أن ألمسه براحة كفى • وقد وقف فرسيلوف فى أول الأمر منحنياً خشيّة أن يصطدم رأسه بالسقف • ولكن رأسه لم يصطدم بالسقف ؛ فجلس بهدوء على ديوانى الذى كان قد أمسى سريراً • أما أنا فلم أجلس ، وانما كنت أنظر اليه مندهشاً أعمق الاندهاش • قال :

– ان أملك لا تدرى هل يجب عليها أن تأخذ المال الذى عرضته عليها نفقات لاقامتك عندنا هذا الشهر • والحق أن هذا التابوت الذى تقيم فيه لا يستحق أن تدفع عنه أجراً ، بل لعلنا أن نكون نحن المدينين لك ! اننى لم أجيء الى هنا مرة واحدة •• وانه ليصعب علىّ أن أتخيل أن يعيش انسان فى هذا المكان •

– لقد تعودت هذه السكنى • ولكن الشيء الذى لا يمكننى أن أتعوده هو أن أراك عندى بعد الذى حدث تحت ••

– حقاً لقد كنت شديداً الفظاظلة تحت ! •• ولكن لى ، أنا أيضاً ، غايات خاصة سأشرحها لك ، وان يكن وجودى هنا ، فى حقيقة الأمر ، ليس بالشيء الحارق • وحتى ما حدث تحت ليس شاذاً فى الواقع ، وانما هو من طبيعة الأشياء • ولكن هناك نقطة تفصيلية أرجوك أن توضحها لى: هل ما رويته تحت ، وما ألقيته على مسامعنا بذلك الاحتفال والاهتمام هو كل ما كان فى نيتك أن تكشف لنا عنه أو أن تفضى الينا به ؟ أليس عندك شيء آخر ؟

– ذلك كل شيء • أو فلنترض أنه كل شيء •

- هو اذن قليل يا صديقي . ان دخولك في الموضوع ، وأسلوبك في دعوتنا الى الضحك ، ورغبتك الشديدة في الكلام ، كل ذلك جعلني أتوقع أن يتمخض عن أكثر مما تمخض عنه .

- ولكن فيم يهملك هذا ؟

- يهمني لأنه يفقد الاحساس بالاعتدال . علام كل هذا اللغط والصخب ؟ أتفضى شهراً كاملاً في صمت وتحضير من أجل أن يتمخض فجأة عن .. لا شيء ؟! ..

- كان في نيتي أن أحكي أكثر مما حكيت ، ولكنني خجلت حتى مما قلته . ما كل شيء يمكن أن يحكى بكلام . هناك أمور يحسن بالمرء أن يسكت عنها فلا يجيء على ذكرها أبداً . لقد قلت ما فيه الكفاية . ثم انك قد فهمت .

- ويعذبك في بعض الأحيان أن تفكر لا تسعه قوالب الألفاظ ؟ يا صديقي ، هذا العذاب لم يوهب الا لصفوة مختارة من الناس . أما القبي الأحمق فهو راض دائماً عما يقول ؛ وهو عدا ذلك يقول دائماً أكثر مما يجب أن يقول . أولئك أشخاص يجبون الزيادة .

- مثلما كنت أنا تحت ، أليس كذلك ؟ أنا أيضاً قلت أكثر مما كان يجب أن أقول . طالبت « بفرسيلوف كله » . هذا كثير جداً . لست في حاجة الى فرسيلوف .

- أرى يا صديقي أنك تريد أن تتدارك ما فاتك من وقت . انك نادم . ولما كان الندم يعني عندنا أن يتهجم المرء فوراً على أحد ، فقد عزمت أمرك على أن لا تخطئني مرة أخرى . لقد جئت اليك قبل الأوان ، فما تزال نارك مستمرة لم تنطفئ . ثم انك لا تتحمل النقد . ولكن اجلس ، أرجوك . أريد أن أبلغك شيئاً . شكراً ، أحسنت ! ان ما قلته لأملك لحظة انصرافك يدل دلالة واضحة على أن من الأفضل أن نفترق على كل

حال • وقد جئت لأنصحك بأن تفارقنا في هدوء كامل وبغير فضيحة ، حتى لا تُحزن أملك مزيداً من الحزن وحتى لا تروّعها مزيداً من الترويع • ان مجرد صعودي اليك الآن قد خفف عنها وأحسن اليها : انها مقتنعة بأننا سنستطيع أن نتصالح ، وبأن كل شيء سيظل يجري كما كان يجري • وأعتقد أننا اذا استطعنا ، أنا وأنت ، أن نضحك ضحكاً صاخباً ، مرةً أو مرتين ، سوف نزرع الفرح في قلوبهما الوجلين ، كليهما • ان قلوبهما بسيطان ، ولكنهما زاخران بالحب والصدق والبراءة • فلماذا لا نفرحهما قليلاً اذا استطعنا الى ذلك سبيلاً ؟ هذه هي النقطة الأولى • واليك النقطة الثانية : هل من المحتم أن نفرق ونحن نكر أسناننا ، ونحترق ظمأً الى الانتقام ، ونصب اللعنات ، وما الى ذلك ! صحيح أننا لن نتعاقب ، ولكن من الممكن أن نفرق ونحن تبادل الاحترام ان صح التعبير ، أليس كذلك ؟

- هذا كله سخافات ! أعدك بأن أنصرف دونما فضيحة ؟ ويكفي ذلك ! أيقظك أمر أمي ؟ يخيل الىّ مع ذلك أن طمأينة أمي لا تهملك كثيراً • هذا منك كلام لا أكثر !
- ألا تصدقني ؟

- انك تكلمني كما يكلم طفلاً حقاً •

- يا صديقي ، أنا مستعد لأن استغفرك عن هذا ألف مرة ، وأن استغفرك أيضاً عن كل ما تسبه اليّ ، عن سني طفولتك ، وهلم جراً • ولكن ما عسى ينتج عن ذلك « يا ولدي العزيز » ؟ أظن أنك أذكى من أن تضع نفسك في مثل هذا الوضع النبيّ ؟ دعك من أنني لا أفهم في الواقع طبيعة المآخذ التي تأخذها عليّ فهماً واضحاً ، ولكنني أسألك : ما الذي تهمني به ؟ بأنك لم تُسمّ عند ولادتك باسم فرسيلوف ؟ ليس هذا ما تهمني به ؟ انك تضحك وقد لاح في وجهك اختقار ، ولوحت بيدك تحمي بها نفسك • أليس ذلك هو ما تهمني به ؟

- لا ، صدقتى • صدق أمتى لا أرى أى شرف فى أن يكون
اسمى فرسيلوف •

- دعنا من الشرف • ثم ، ألا يجب أن يكون جوابك ديموقراطياً؟
ما الذى تتهمنى به اذن؟

- لقد نظقت تاتيانا بافلوفنا منذ ساعة بكل ما كنت أريد أن أعرفه
ولم أتوصل الى فهمه حتى ذلك الحين : أنك لم تشأ أن تجعلنى اسكافياً ،
وأن علىّ اذن أن أشكر لك جميلك • اتنى لا أدرك أين هو عقوبى
ونكرانى الجميل ، حتى بعد أن ألقى على هذا الدرس • ألا يمكن أن
يكون دمك المتعطرس هو الذى يتحدث فىّ الآن يا آندره بتروفتشس؟

- لا أظن ذلك • يجب عليك أن تسلم ، عدا هذا ، أن جميع
هجماتك التى أردت لها أن تسقط علىّ أنا منذ قليل ، لم تزد على أن
آمتها وعذبتها ، هى • ويخيل الى مع ذلك أنك لست أنت من يحق له
أن يدينها • وما هو ذنبها فى حقل؟ بالمناسبة : اشرح لى هذه النقطة
أيضاً يا صديقى : لأى سبب وعلى أية نية أذعت فى المدرسة وفى اللسيه
وطوال حياتك وحتى لأى انسان تلقاه (لقد ذكر لى هذا) أنك ابن زنا؟
لقد علمت أنك تتلذذ باذاعة هذا • وما ذلك منك فى الواقع الا غباوة
ونميمة دنيئة : أنت دوجوروكى ، الابن الشرعى لماكار ايفافتشس
دوجوروكى ، الشخص المحترم ، المتميز ذكاءً وخلقاً • واذا كنت قد
أصبت خطأ من تعليم عال ، فانما يرجع الفضل فى ذلك الى فرسيلوف ،
مولاك سابقاً • ولكن ما الذى نتج عن تصرفك؟ انك بما أذعته من أنك
ابن زنا - وتملك نميمة - انما فضحت أمك ، ولطختها بالوحل فى نظر
كل انسان • وذلك يا صديقى ليس من النبى فى شىء ، لاسيما وأن أمك
ليست هى الأئمة : ان لأملك خلقاً هو الصفاء الكامل والبطهارة التامة •
واذا لم تُسَمَّ باسم فرسيلوف ، فلسبب وحيد هو أن زوجها ما يزال
موجوداً •

- كفى ! اننى أوافقك كل الموافقة ، وأثق بذكائك ثقة تبلغ من القوة أننى أأمل أن تكف عن هذه التقريرات التى ما أظن الا أنها طالت كثيراً . أنت رجل تهوى الاعتدال .. وهناك اعتدال فى كل شيء ، حتى فى هذا الحب المفاجيء لأمى . فدعنا من هذا وقل لى : اذا كنت قد قررت أن تجيء الىّ وأن تقضى عندى ربع ساعة أو نصف ساعة (وأنا مازلت لا أعرف لماذا جئت ، ولكن لنسلم بانك جئت لادخال الطمأنينة والسكينة الى قلب أمى ، ، واذا كنت عدا ذلك تجد لذة كبيرة فى الحديث معى رغم كل ما جرى تحت ، فحدثنى اذن عن أبى ، عن ماكارا ايفانوف ، حدثنى عن هذا الجواب . منك أنت انما أريد أن أسمع شيئاً عنه . اننى اتوى منذ مدة طويلة أن أطلب منك هذا . وأحب كذلك ، ونحن نفترق - ربما الى أمد طويل - أن أحصل منك على جواب عن هذا السؤال الآخر : هل يعقل أن لا تكون قد استطعت خلال هذه السنين العشرين أن تؤثر فى أوهاام أمى ، وكذلك الآن فى أوهاام أختى ، فبند الظلمات الأولى التى تخيم على بيئتهن القديمة ؟ لست أتكلم عن طهارتها طبعاً ، فانها كانت دائماً أسمى منك كثيراً فى مجال الأخلاق ، معذرة .. ولكن ما هى الاجثة سامية . أما الحياة فهى لفرسيلوف وحده . وكل ما عداه ممن حوله ، كل ما له ارتباط به ، انما هو أشبه بنبات .. نبات يشرفه أن يغذيه بطاقاته وبما فيه من عصارة الحياة . غير أنها كانت هى أيضاً حية فى الماضى ، أليس كذلك ؟ فقل لى : هل وجدت فيها ما تجبه ؟ هل كانت امرأة ؟

- يا صديقى ، اذا أردت أن تعرف ذلك ، فاعلم أنها لم تكن امرأة فى يوم من الأيام ..

قال ذلك وهو يجعد وجهه ذلك التجعيد القديم الذى احفظ ذكراه والذى كان يحقنى أشد الحق ، أقصد ذلك التجعيد الذى يوهم المرء أنه ازاء انسان يملك طيبة صادقة أشد الصدق ، مع أن نفسه لا تشمل

فى الواقع الا على سخرية واستهزاء ، حتى لقد كان يتفق لى فى بعض
الأحيان أن لا أفهم من هيته شيئاً • وعاد يقول :

– لا ، لم تكن امرأة فى يوم من الأيام • ما من امرأة روسية
بامرأة •

– هل البولندية أو الفرنسية هى المرأة ؟ أم أن الايطالية ،
الايطالية المشبوبة ، هى التى تأسر لب روسى متحضر من الطبقة العليا
مثل فرسيلوف ؟

– هذا ما كان ينقصنى ! كان ينقصنى أن ألقى هنا واحداً من
المتعصين للسلافية !

وانفجر فرسيلوف ضاحكاً •

اننى أتذكر ما رواه كلمة كلمة • حتى لقد كان يتحدث راضياً
مسروراً • وكان واضحاً لى أنه لم ييجىء الى ليشرتر معى أو ليطنثن أمى ،
وانما جاء مبيتاً نيات أخرى •

بدأ فرسيلوف ثرثرته المصطنعة فقال :

- لقد عشنا أنا وأمك هذه السنين العشرين كلها فى صمت • وكل ما جرى بيننا انما جرى فى صمت أيضاً • فالسمة الرئيسية التى تتسم بها هذه العلاقة التى دامت عشرين عاماً هى الصمت • حتى أننى أظن أننا لم نتشاجر مرةً واحدة • صحيح أننى تقيت كثيراً ، فكنت أتركها وحيدة ، لكننى كنت أعود فى النهاية دائماً • « اننا نعود دائماً » ، هذه أبرز صفة يتصف بها الرجال ، وهى من عظمتهم • فلو كان الزواج رهناً بالنساء وحدهن لما استمر زواج • والسمة التى تميز بها أمك انما هى الطواعية والمذلة ، الخضوع والاذعان ، التسليم والرضى ، ولكنها تتصف أيضاً بالصلابة والثبات والقوة ، القوة الحقيقية • أحب أن تلاحظ أنها بين النساء اللواتى لقيتهن خيرهن جميعاً • ان لها قوة ، أشهد بذلك : لقد رأيت كيف دعمتها هذه القوة • فمتى كان الأمر قناعات (لا قناعات حقيقية فهذه ليس محل بحث ، بل ما يمكن أن يسمى عندها قناعات) ومتى كان الأمر تبعاً لذلك أمر شئ تعده مقداساً ، كانت مستعدة لأن تواجه جميع الصعاب وأن تتحمل جميع أنواع العذاب كما يتحملها شهداء • فانظر بنفسك : أنا أشبه جلاداً يعذب الناس ؟ ذلك هو السبب الذى حملنى على الصمت فى جميع الأحيان تقريباً ، وليس السبب هو أن الصمت أسهل • ولست نادماً على ذلك ، أعترف لك • فهذه الطريقة جرى كل شئ بيننا من تلقاء نفسه على نحو انسانى رجب • حتى اننى لا أنسب لنفسى فى هذا أى فضل • يجب أن أقول لك فى هذه المناسبة اننى أميل قليلاً الى أن أظن أنها لم تؤمن بعواطفى الانسانية فى يوم من الأيام ، وأنها لذلك ارتحشت من الخوف دائماً • ولكنها رغم ارتعاشها من

الخوف لم تلزم نفسها بتحصيل أية ثقافة • هؤلاء أناس يحسنون تصريف أمورهم أكثر منا • انهم على وجه الاجمال يعرفون كيف يدبرون شئونهم الصغيرة خيراً مما نعرف ذلك نحن • انهم يستطيعون أن يواصلوا الحياة على ما يشاءون في أكثر الظروف مناقضة لطبيعتهم ، وأن يقوا في تلك الظروف ما هم فلا يتغيروا • أما نحن فلا نملك هذه البراعة التي يملكون •

- من هؤلاء الذين تعنيهم ؟ اننى لا أفهم عنك فهماً واضحاً •

- الشعب يا صديقى • الذين أعنيهم هم الشعب • لقد برهن الشعب على قوته الحية الكبيرة خلال التاريخ ، لا جسيماً فحسب ، بل سياسياً كذلك • ولكن لترجع الينا : أستطيع أن أقول ان أملك لم تكن دائمة الصمت • انها تتكلم أحياناً ، ولكنها تتكلم بطريقة تجعلك تدرك ادراكاً واضحاً أنك قد أضعت وقتك سدى فيما سقته اليها من أحاديث ولو كنت قد سلخت من عمرك خمس سنين في اعداد هذه الأحاديث شيئاً بعد شيء • وما أعجب الاعتراضات التي تواجهك بها ولم تخطر لك ببال ! لاحظ مرة أخرى اننى لا أصفها بالقباء البتة • بالعكس : ان في هذا نوعاً من ذكاء ، بل ان فيه ذكاء فذاً • ولكن لعلك لن تعترف لها بهذا الذكاء !

- لم لا ؟ ان ما لا أصدقه هو أن تؤمن أنت حقاً بأنها ذكية ، وأن لا تكون في ذلك مراثياً •

- صحيح ؟ أنت تعدنى حرياء ؟ يا صديقى ، اننى أسرف في مداراتك ، كولدى المدلل • ولكن لنقف عند هذا الحد في هذه المرة !

- حدثنى عن أبى • قل لى الحقيقة ان استطعت •

- ماكارا ايفانوفتشس ؟ نعم ، ان ماكارا ايفانوفتشس هو كما تعلم قن خادم أحبباً فيما يقال أن يصبح ذا شهرة ••
- أراهن على أنك في هذه اللحظة تفار منه !

- بالعكس يا صديقي ، بالعكس . واذا شئت أن تعرف الحقيقة فاعلم اننى مرتاح أشد الارتياح الى أن لك مزاجاً معقداً هذا التعقيد كله . أحلف لك اننى أعانى الآن ندامة قوية عميقة ، وأننى فى هذا اليوم نفسه ، بل فى هذه اللحظة التى تمر ، أحسن - ربما للمرة الألف - بالأسف فى غير طائل لما حدث منذ عشرين سنة . شهد الله أن كل ما حدث قد حدث حدوداً إنسانياً فيما يخصنى أنا ، على الأقل بحسب الفكرة التى كانت قائمة فى ذهنى عن فضيلة الانصاف بالروح الانسانية . آه .. لشد ما كنا نحترق فى ذلك الحين شوقاً الى فعل الخير وخدمه المجتمع والفكرة ، ولشد ما كنا نؤدين الألقاب والرتب ، وأمتيازاتنا الموروثة ، وتملك الأطيان ، وحتى بنك تسليف الفقراء ، فى رأى بعضنا على الأقل . أحلف لك . كان عددنا قليلاً ، ولكننا كنا نحسن الكلام ، بل كنا فى بعض الأحيان نحسن العمل أيضاً ، وأكد لك .

- أيام كنت تتحجب على الكتف مثلاً ؟

- يا صديقي ، اننى أوافقك سلفاً على كل شئ . بالمناسبة : حكاية الكتف هذه ، أنا الذى رويتها لك ، فأنت اذن فى هذه اللحظة تسيء استفلال صدقى وقتى . لاحظ أن الانتحاب على الكتف لا يضعنى فى وضع سيء الى الحد الذى يبدو لأول وهلة ، ولا سيما اذا رددته الى زمانه . لقد كنا عندئذ مبتدئين فى نزعنا الانسانية . صحيح أن ذلك كان منى تصنعاً وتكلفاً . ولكننى كنت أجهل حينذاك أننى لم أكن صادقاً . انظر الى نفسك مثلاً : أنت طبيعى دائماً فى الحياة العملية ؟

- حين كنا تحت ، منذ قليل ، أسرفت فى العاطفية بعض الاسراف ، وما ان رجعت الى هنا حتى احمر وجهى خجلاً اذ تصورت أنك قد تظن أننى فعلت ذلك عامداً . صحيح أن المرء يمثل فى بعض الأحيان ، مهما يكن صادقاً . ولكننى أحلف لك أننى كنت اليوم ، تحت ، طبيعياً بغير تصنع البتة .

– حسن ما تقوله • لقد أجدت التعبير : « ان المرء يمثل فى بعض الأحيان ، مهما يكن صادقاً » • فذلك بعينه هو ما جرى لى أنا : لقد اتجيت صادقاً رغم أننى كنت أمثل تمثيلاً • وأوافقك : كان فى امكان ماكار ايفانوفتشس أن يعد الاتحاب على كفه زيادة فى السخرية ، لو كان أذكى قليلاً • ولكن استقامته أساءت عندئذ إلى نفاذ بصره • والشئ الذى أجعله هو : أخذته بى شفقة حيثذ أم لا • أذكر اننى كنت أحترق شوقاً الى أن يرثى لخالى •••

قاطعته قائلاً :

– والآن اذ تقول هذا الكلام انما أنت تسخر • انك على وجه الاجمال ، فى جميع ما قلته لى خلال هذه المدة كلها ، طوال هذا الشهر كله انما كنت تسخر • لماذا كنت تتصرف معى دائماً هذا التصرف حين تكلمنى ؟

أجاب يقول بهدوء ورفق :

– أتظن ذلك ؟ انك شديد الحساسية سريع التأذى • اذا كنت أضحك فلست أضحك منك أو على الأقل لست أضحك منك وحدك ، فاطمئن • لكننى فى هذه اللحظة لا أضحك • لنعد الى ما كنا فيه • لقد عملت حينذاك كل ما كان فى وسعى أن أعمله ، وصدقنى اذا قلت لك اننى لم أعمل ما عملت فى سبيل مصلحتى • لقد كنا نحن ، أعنى معشر المتأزين فى ذلك الزمان ، عاجزين عن العمل لمنفعتنا بالقياس الى أبناء الشعب • بالعكس : كنا نسيء الى أنفسنا أكبر الاساءة ، وأظن أن هذا بعينه هو ما كنا نعد « المصلحة العليا التى هى مصلحتنا » بأسمى معانى هذه الكلمة طبعاً • ان المثقف فى هذا الزمان أشد تعلقاً بالمنفعة وسعياً اليها من جيلنا • لنعد الى حديثنا : شرحت لماكار ايفانوفتشس كل شئ ، بصراحة خارقة ، حتى قبل ارتكاب الخطيئة • اننى أسلم اليوم بأن كثيراً من تلك

الأشياء لم يكن فى حاجة الى شرح ، ولا سيما بمثل تلك الصراحة . فلو أقصرت فى الشرح لكان ذلك أقرب الى الأدب والتهديب ، ناهيك عن العاطفة الانسانية . ولكن أين للمرء أن يكبح جماح نفسه حين يريد أن يغامر فيقوم أثناء الرقص بخطوة جميلة بعد أن يكون سكر الرقص قد أخذ منه كل مأخذ ! لعل هذا ما كانت تقتضيه ضرورات الجمال والحير : انى لم أجد جواباً عن هذا السؤال بعد . على كل حال ، هذه مشكلة أعمق من أن يتناولها حديث سطحى كالحديث الذى يدور بيننا الآن . لكننى أحلف لك انى ما زلت أموت خجلاً من هذه الذكرى فى بعض الأحيان . عرضت عليه ثلاثة آلاف روبل . كان صامتاً . وكنت وحدى أتكلم . تصورت أنه خائف منى ، أى خائف مما للسيد من حقوق على العبد ، فبذلت أقصى جهدى لأشجعه . انى أتذكر هذا . حضضته على أن يفصح عن جميع رغباته دون أن يخشى شيئاً ، بل حضضته على أن يتقدم ما شاء أن يتقدم . وعلى سبيل الضمان قطعت له عهداً على نفسه أنه اذا رفض شروطى ، أى الثلاثة آلاف روبل واعتاقه (هو وامراته طبعاً) ورحيله (بدون امراته طبعاً) ما عليه الا أن يعلن ذلك صراحةً حتى أعتقه فوراً ، وأرد اليه امراته ، وأهديهما كليهما هذه الثلاثة آلاف روبل نفسها ، فلا يكون عليهما هما أن يرحلا عندئذ ، وانما أرحل أنا الى ايطاليا لحدث هذا فاننى ما كنت سأصطحب « الآسة » سابويكوف الى ايطاليا ، ثق بهذا . كنت فى ذلك الحين أظهر من أن أفعل ذلك . وقد أدرك ماكار هذا حق الادراك أننى سأفعل ما أقول . ولكنه بقى صامتاً لا يتكلم ، ثم لم يتحرك الا حين أردت أن أرتمى على كتفه مرة ثالثة ، فإذا هو يتقهقر ، ويُسجى يده بشاره تم عن قلة الاكتراث ، ويخرج حتى بغير تخرج ، فأدهشنى منه ذلك ، أوكد لك . ونظرت الى نفسه عندئذ فى مرآة عرضاً ، وهذه ذكرى لن أنساها فى يوم من الأيام . تستطيع أن

نقول عامةً انهم حين يصمتون فلا ينطقون ، يكون الأمر أرهب ما يكون .
ولقد كان ماكار قاتم المزاج ، فكان لا يوحى اليّ بالثقة ، حتى انني كنت
اذا دخل عليّ أشعر بذعر هائل : ان في هذه البيئة أفراداً ، أفراداً كثيرين ،
تتجسد فيهم الوقاحة ان صح التعبير . وهذا أحق أن يُعشى من الطعنات .
فما أكثر ما جازفت وعرضت نفسي للخطر ! فلو أن «أوريا» القروي هذا
قد أخذ يزرع ويقذف الشتائم ، فما عسى كان يحدث لي أنا «داود» ،
الصغير ، وما عسى كنت أستطيع أن أفعل ؟ ذلك هو السبب في انني
عرضت الثلاثة آلاف روبل منذ البداية مدفوعاً الى ذلك بغريزتي . ولكنني
أخطأت البظن لحسن الحظ : فلقد كان ماكار ايفانوفتش هذا شيئاً آخر
مختلفاً كل الاختلاف ***

- قل لي : هل كانت الخطيئة قد وقعت ؟ لكأنك قلت منذ لحظة انك
استدعيت الزوج قبل حدوث الخطيئة .
- أعني *** أقصد ***

- اذن كانت الخطيئة قد وقعت . وقلت منذ لحظة انك أخطأت البظن
فيه ، وانه كان مختلفاً كل الاختلاف عما صوّر لك خيالك *** فماذا
كان ؟

- ماذا كان ؟ آه *** انني لا أزال أجهل ما هو . لكنه انسان
مختلف كل الاختلاف ، بل انسان لائق جداً ، هل تتصور ؟ انني أخلص
الى هذه النتيجة لان احساسى بارتكاب ذنب في حقه قد تضاعف مثي
وثلاث . لقد قبل الرحيل منذ النداء ، بدون كلام طبعاً ، وبدون أن يفضّل
شيئاً من التعويضات التي عرضتها عليه .
- أخذ المال ؟

- كيف لا ؟ حتى لقد أدهشني في هذه الناحية يا صديقي . لم
أكن أحمل ثلاثة آلاف روبل طبعاً . فأخرجت من جيبي سبعمائة وقدمتها
اليه دفعةً أولى . فهل تعرف ماذا فعل ؟ طلب مني سنداً قيمته ألفان

وثلاثمائة روبل ، واشترط أن يحزر السند لأمر تاجر . وبعد ذلك بستين تسليح بهذا السند وطالبنى بالمال مع فوائده عن طريق المحاكم ، فأدهشنى مرةً أخرى ، لا سيما وأنه كان يجول جامعاً صدقات لبناء كنيسة ، وما يزال يجول منذ عشرين سنة الى الآن . اننى لا أفهم : ما حاجة جوال مثله الى ذلك المبلغ كله لنفسه ؟ . ان المال شىء يرغب فيه من يعيش فى المجتمع . . . وأنا كنت قد عرضت عليه ذلك المبلغ صادقاً ، أو قل فى ابان الحرارة الأولى والاندفاع الملتهب ، أما بعد ذلك ، بعد تراكم جميع تلك الدقائق ، فقد كان طبعياً أن أثوب الى رشدى . . . وكنت أظن أنه سيعفينى . . . أو قل سيعفينا أنا وهى ، أو أنه سيمهلنا بعض الوقت على الأقل . ولكنه لم يقبل حتى أن يمهلنا . . .

(يجب أن أسوق هنا ملاحظة لا غنى عنها : كان يكفى أن يموت فرسيلوف حتى تبقى أمى فى أواخر أيامها بغير قرش واحد . ولكن الثلاثة آلاف روبل التى بقيت كاملة غير منقوصة حتى لقد ضاعفتها الفوائد المتراكمة قد أوصى بها ماكار ايفانوف لأمى فى السنة الماضية . كان قد حقيقة فرسيلوف منذ ذلك الحين) .

— قلت يوماً ان ماكار ايفانوفتش أقام عندكم عدة مرات ، وانه كان ينزل دائماً الى شقة أمى . . .

— نعم يا صديقى ، وأعترف لك اننى كنت فى البداية أخشى تلك الزيارات كثيراً . ولقد جاء طوال هذه المدة ، أى خلال هذه العشرين سنة ، ست مرات أو سبعة لا أكثر . فكنت فى الزيارات الأولى أخشىء اذا اتفق أن كنت بالمنزل . حتى اننى فى أول الأمر كنت لا أفهم : مامعنى هذا ؟ لماذا يجيىء ؟ ولكننى بعدئذ ، بدا لى من بعض العلامات أن ذلك لم يكن منه غباءً الى الحد الذى صوره لى خيالى . ثم ثار حب الاطلاع فى نفسى عرضاً ، فمضيت أراه ، فخرجت من ذلك بانطباع طريف ، أوكد لك . كانت تلك زيارته الثالثة أو الرابعة ، وكنت قد عينت منذ برهة

وجيزة وسيط صلح ، وصرفت همي ، كما ينبغي أن أفعل ، الى دراسة روسيا . فعرفت منه أشياء لا حصر لها . وعدا ذلك وجدت فيه ما لم أكن أتوقع أن أجده البتة : وجدت نفساً طيبة ومزاجاً متساوياً ، حتى لقد وجدت فيه ما يشبه أن يكون جذلاً ، فكان هذا أدعى الى دهشتي من كل ما عداه . لم يشر الى « الأمر » أيسر اشارة (« هل تفهم ؟ ») . ورأيت يتقن فن الكلام بلغة واضحة وعبارات رائعة ، أى لم أقع فى أحاديثه على تلك الجمل المزوقة المشوشة التى يلاحظها المرء فى حديث الأفتان الخدم والتى أعترف لك بأننى لا أطيقها ولا أتحملها رغم جميع آرائى الديمقراطية ، ولم أقع فى أحاديثه على تلك الألفاظ التى يتعمد بعض كتاب المسرح الرواية أن يستعملوها فيما يكتبون بدعوى أنها « روسية ضميمة » ، وبدعوى أنهم « روس صادقون » . لا ولا رأيت يتكلم فى الدين الا قليلاً جداً ، ما لم تسأله ، حتى لقد رأيت يروى أقاصيص فكهة ظريفة عن الأديرة وحياة الرهيان اذا كنت تهتم بسماعها . ولكننى وجدت فيه خاصة ، ذلك الاحترام ، احترام المرء لنفسه على تواضع وبغير تبجح ، ذلك الاحترام الذى أرى أنه الشرط الذى لا بد منه للمساواة القصوى ، بل أرى أنه يستحيل على المرء بدونه أن يبلغ التفوق . فهذه القدرة على عدم التأذى انما يستطيع المرء أن يتحكم بنفسه فيملك حسن اللهجة ، وبها انما يتجلى الانسان الذى يحترم نفسه حقاً أية كانت كاله ، وأياً كان قدره . ولسوف ترى اذا عشت أن ملكة احترام النفس هذه ، مهما تكن الظروف ، ملكة نادرة كندرة الكرامة الصادقة والوقار الحق . غير أن الشيء الذى خطف بصري وأثار انتباهي أكثر من كل ما عداه بعد ذلك ، بعد ذلك لا فى البداية ، هو أن ماكار هذا على جانب عظيم جداً من المهابة ، وأؤكد أيضاً أنه على جانب عظيم جداً من الوسامة والجمال . صحيح أنه شيخ ، ولكنه .

« ملوح الوجه ، فارع الطول ، مشوق القوام »

بسيط المظهر ، جليل الطلعة • حتى لقد ادهشني أن صوفيا المسكينة
فضلتني عليه • كان عندئذ في الخمسين من عمره ، ولكن هذا لا ينفي أنه
كان رجلاً قوياً جسوراً ، وانني كنت بالقياس اليه شاباً قيماً متحذلقاً • على
انني أتذكر أن شيب شعره كان شديداً ، فلايد أنه كان شائباً حين تزوجها
فلعل هذا ان يكون قد أثر فيها •

ان هذا الرجل فرسيلوف يتصف بما يتصف به أبناء المجتمع الراقى
من تلك العادة الكريهة الباعثة على الاشمئزاز • فبعد أن قال أشياء فيها
كثير من الذكاء وكثير من الانصاف (حين لم يستطع أن يفعل غير ذلك) ،
اذا هو يسف هذا الاسفاف عامداً فيسوق ملاحظة حمقاء غبية من نوع
هذه للملاحظة عن بياض شعر ماكار ايفانوفتش وعن أثر ذلك في أمي •
لقد فعل ذلك عامداً ، ربما دون أن يدرك هو نفسه لماذا فعله • انها عادة
من عادات أبناء المجتمع الراقى • ولو سمعته لاعتقدت أنه يتكلم جاداً
كل الجد ، ولكنه في قرارة نفسه انما كان يسخر أو يضحك •

لا أدري لماذا اعتراني حنق شديد رهيب على حين فجأة . اننى أمتعض
الآن امتعاضاً كبيراً كلما تذكرت بعض نورات غضبى أثناء ذلك الحديث .
نهضت عن كرسيى بغتةً وقلت له :

- اسمع . لقد زعمت أنك انما جئت الىّ خاصة من أجل أن تظن
أنى أنا تصالحنا . وقد انقضى من الوقت ما يكفى لايهامها بذلك . فهلا
تركتنى وحيداً ؟

فاحمر قليلاً ونهض قائلاً :

- يا عزيزى ، انك تتصرف معى بشعر كلفة ولا حرج . الى اللقاء .
لا تُفرض الصداقة فرضاً . لكننى أبيع لنفسى أن ألقى عليك هذا
السؤال : هل تريد أن تترك الأمير فعلاً ؟

- آه .. آه ... كنت أعلم أنك تبيت نيات معينة ...

- أى تظن أننى جئت لأحضك على البقاء مع الأمير لأن لى فى ذلك
منفعة . ولكن ألا تعتقد أيضاً يا صديقى أننى استدعيتك من موسكو لأننى
أجنى من ذلك فائدة ما ؟ ألا ما أشد حساسيتك وما أسرع تأذيك !
بالعكس : هذا كله لخيرك أنت . اننى أتمنى ، حتى اليوم وقد تحسنت
أحوالى المالية ، أن تسيح لنا ، أنا وأمك ، أن نمد اليك يد المعونة ...
- أنا لا أجبك يا فرسيلوف ...

- تنادىنى باسم « فرسيلوف » أيضاً ؟ ... بالمناسبة : يؤسفنى أشد
الأسف أننى لم أستطع أن أترك لك هذا الاسم . وذلك هو كل ذنبى
اجمالاتاً ، اذا كان ثمة ذنب ، أليس كذلك ؟ ولكننى أكرر لك اننى لم
يكن فى وسمى أن أتزوج امرأة متزوجة ، فكر فى الأمر بنفسك !
- لعل هذا هو السبب فى أنك أردت أن تتزوج امرأة لا زوج لها ،

فطاف بوجهه تقبض خفيف قصير وقال :
 - تقصد مدينة « امس » • اسمع يا آرКАДى ! لقد أبحث لنفسك
 غضباً من هذا النوع منذ ساعة مشيراً الىّ باصبعك أمام أمك • فاعلم أن
 هذا هو الأمر الذى تخطى • فيه أكبر الخطأ ؛ انك عن هذه الحكاية مع
 المرحومة ليديا آخماكوفلا لا تعرف شيئاً البتة • لا ولا تعرف أن أمك قد
 ساهمت فيها مساهمة كبيرة • رغم أنها لم تكن معى هناك • اذا كنت قد
 رأيت فى حياتى امرأة تتحلى بالفضيلة • فانما وقع لى هذا فى ذلك الوقت
 حين نظرت الى وجه أمك • ولكن كفى • هذا كله لا يزال سرّاً • وأنت
 تتكلم عما تجهل • وتعتمد فى كلامك على افاديل •••
 - لقد قال الأمير • فى هذا اليوم • انك من عشاق القتيات الصغار
 اللواتى لا خبرة لهن •

- الأمير قال هذا ؟

- نعم • اسمع : هل تريد أن أقول لك • على وجه الدقة • السبب
 الذى حضك على المجيء الى ؟ لقد ظلمت أسماى طول الوقت عن سر
 هذه الزيارة • وهأنذا أكتشفه أخيراً •

كان فرسيلوف قد همّ أن ينصرف • ولكنه وقف فجأة والتفت الى
 متبهاً • قلت :

- لقد أقلت من لسانى منذ ساعة أن الرسالة التى بعثها توشار الى
 تاتيانا بافلوفنا • والتى وقعت بين أوراق آندرونكوف • صارت بعد موته
 الى يدي ماريا ايفانوفنا بموسكو • وقد رأيت حين قلت هذا الكلام • رأيت
 فى وجهك نوعاً من التقبض • فلما رأيت الآن ذلك التقبض نفسه يلم
 بوجهك مرةً أخرى أدركت حقيقة الأمر : لقد راودتك هذه الفكرة حين
 كنا تحت : اذا عثر عند ماريا ايفانوفنا على رسالة كانت بين أوراق
 آندرونكوف • أفلا يمكن أن يعثر عندها على الرسالة الأخرى أيضاً ؟

لا شك أن أندرونيكوف قد ترك رسائل تبلغ مبلغاً كبيراً من خطورة
القآن وشدة الحاجة إليها ، أليس كذلك ؟

- ففي رأيك اذن أننى انما جئتك لاستدراجك الى الكلام ؟

- نعم •

فاصفر وجهه اصفراراً شديداً •

هذه الفكرة ليست من عندك • اننى أشم رائحة المرأة وراء أقوالك
الزاخرة بالكراهية وظنونك الملائى بالشر •

- المرأة ؟ هذه المرأة قد رأيتها أنا فى هذا اليوم نفسه • ولملك من
أجل أن تتجسس عليها انما تريد أن تبينى عند الأمير ؟

- أرى أنك ستوغل فى طريقك الجديد اينغلا بعيداً جداً • أتكون
هذه هى « فكرتك » ؟ أكمل يا صديقى أكمل ، انك تملك من مواهب
التجسس ما لا سبيل الى جحوده ! حين يؤتى المرء موهبة من المواهب فيجب
عليه أن ينميها •

وتوقف فرسيلوف عن الكلام ليسترد أنفاسه •

- حذار يا فرسيلوف ! لا تجعلنى عدوك !

- يا صديقى ، لا أحد فى مثل هذه الحالة يفصح عن كل أفكاره ،
وانما هو يحتفظ بها لنفسه • والآن هات ضوءاً ، أرجوك • مهما تكن
عدوى ، فما أظن أنك تمنى لى أن تقطع رقبتى على سلّمك •
نم أضاف يقول وهو ينزل :

- هه ! ما رأيك يا صديقى فى أننى ، طوال هذا الشهر ، كنت
أحسبك فتى طيباً ؟ ألا انك تبلغ من شدة الرغبة فى الحياة ، والظماً الى
الحياة أنك لو وهبت ثلاثة أعمار لما اكتفيت بها ! هذا مكتوب على وجهك •
وأمتالك أكثرهم طيبون • لقد أخطأ ظنى فيك •

ليس في طائفتي أن أصف شدة انقباض صدرى حين خلوت الى
نفسى : لكأنتى قد قطعت قطعة من لحمى . أما لماذا ثارت نائرتى فجأة ،
ولماذا أغلظت له الالهانة والابناء الى هذا الحد عامداً ، فذلك سؤال لا أعرف
له الآن جواباً ، ولا عرفت له جواباً في ذلك الحين . ولشدهما اصفر وجهه!
ألم يكن ذلك الاصفرار تعبيراً عن العاطفة أصفاه وأصدقها ، وعن الحزن
أعمقه وأقواه ، لا تعبيراً عن الغضب والاساءة ؟ لقد بدا لى دائماً أنه في
كثير من اللحظات كان يحبنى ، فلماذا ، لماذا لا أصدق اليوم هذا ، لاسيما
وأن أموراً كثيرة قد اتضحت بعد ذلك ؟

ولكننى قد ثارت نائرتى فجأة ، فطرده ، ربما لاننى افترضت ذلك
الافتراض الذى ساورنى بفته او هو أنه جاء الى آملأ أن يعرف ألا يزال
عند ماريا ايفانوفنا رسائل أخرى من أوراق آندرونيكوف ؟ أما أنه كان
مضطراً أن يبحث عن تلك الرسائل وأنه يبحث عنها فعلاً ، فذلك ما كنت
أعرفه . ولكن لعلنى فى تلك الدقيقة بعينها قد أخطأت الظن كثيراً . ومن
يدرى ؟ لعلنى أنا الذى جعلته ، بخطأ ظنى ، يفتن الى ماريا ايفانوفنا بعد
ذلك ، وأوحيت اليه أنها قد يكون عندها رسائل !

واليكم فى النهاية هذا الشيء الغريب الآخر : مرةً أخرى ردد
ما يجول فى خاطرى كلمةً كلمةً (عن الاعمار الثلاثة) ، وذلك ما كنت
قد عبرت عنه لكرافت بهذه الألفاظ نفسها . صحح أن توارد الحواظر
بالفاظها مصادفة . ولكن كيف عرف جوهر طبيعتى ؟ ما هذه البصيرة
النافذة ؟ ما هذا الحدس الصدق ؟ ولكن اذا فهم شيئاً من الأشياء فهما يبلغ
هذا المبلغ من القوة ، فلماذا لا يفهم الشيء الآخر ؟ هل يستطيع المرء أن

يصدق أنه كان لا يتظاهر تظاهراً ، بل كان عاجزاً بالفعل عن أن يدرك أن ما كنت في حاجة إليه ليس هو نبالة محتد فرسيلوف ، وأن ما كنت لا أستطيع أن أعفّره له ليس هو مولدى من زنا ، وأنتى على مدى حياتى كلها انما كنت فى حاجة الى فرسيلوف ، فرسيلوف نفسه ، فرسيلوف كله ، فرسيلوف الأب ، وأن هذه الفكرة قد خالطت دمي ؟ هل يمكن لرجل أوتى هذا الفكر المرفه أن يكون ضيق النظرة فاسد الرأى الى هذا الحد ؟ واذا لم يكن كذلك ، فعلا يغيظنى ، وعلام يتظاهر ؟

الفصل الثامن

١



في الصباح التالي أن استيقظ في أبكر وقت ممكن • وكانت العادة في بيتنا أن ننهض في نحو الساعة الثامنة ، أقصد أمي وأختي ؛ أما فرسيلوف فقد كان ثوم الضحى فلا ينهض الا في التاسعة والنصف • وكانت أمي تأتيني بالقهوة في الثامنة والنصف تماماً • لكنني في هذه المرة لم أنتظر القهوة ، واختفيت من البيت في الساعة الثامنة • وكنت منذ العشية قد وضعت لنهارى خطة عمل عامة • ولكني رغم عزمي المشبوب على وضع هذه الخطة موضع التنفيذ فوراً ، كنت أجس أن نفسي زاخرة بأنواع من التردد ازاء نقاط هامة من هذه الخطة • لذلك قضيت الليل كله نصف نائم ، حتى لأكاد أهدى ، وواقفتي أحلام كثيرة ، فلا أستطيع أن أقول اني تمت حقاً • ومع ذلك نهضت منتعشاً مرتاحاً كما لم أكن منتعشاً ولا مرتاحاً في أى وقت مضى • وكانت أمي هي التي أحب أن أتحدث لقاءها خاصة • فاني معها لا أستطيع أن أتكلم الا في موضوع معين ، فكنت أخشى أن أتحول عن أهدافي بتأثير شعور جديد لا يكون في حسابي •

كان الصباح بارداً ، وكان يتموج على الطبيعة كليهما ضباب رطب أبيض . لا أدري لماذا تعجبنى دائماً أصباح بطرسبرج التى تضج بالحركة رغم مظهرها الدميم ، ولماذا يفتنى كثيراً منظر هذه الجمهرة من الناس الأنانيين المهمومين المنصرفين الى أعمالهم مسرعين فى الساعة السابعة من البكور . وانى لأحب خاصةً أن أتجه الى أحد فى الطريق فأسأله عن شيء متعجلاً ، أو أن يتجه الىّ أحد بسؤال : ان السؤال والجواب مقتضبان دائماً ، واضحان ، جليان ، ينطق بهما السائل والمجيب دون أن يقفا ، ويتبادلانهما بما يشبه الصداقة فى جميع الأحيان . هذه لحظة من النهار يكون المرء فيها مستعداً للإجابة أحسن استعداد . ان ساكن بطرسبرج يكون فى الظهر وفى المساء أقل استعداداً لتبادل الكلام . حتى انه يكون متأهباً للتأنيب والتقريع ، أو للسخرية والاستهزاء ، لأيسر الأسباب . ولا كذلك فى البكور قبل العمل ، فهذا وقت الرصانة والجد . لاحظت ذلك .

اتجهت الى بطرسبرجسكيا ستورونا من جديد . واذا كان علىّ أن أعود حتماً الى فوتاكا ظهراً للقاء فى بيته (لأن فاسين انما يكون بالبيت ظهراً فى أغلب الأحيان) ، فقد حشيت الحطى دون أن أتوقف فى أى مكان ، رغم ما كنت أشعر به من رغبة قوية شديدة فى ابتلاع فنجان من القهوة هنا أو هناك . ذلك أنتى كان يجب علىّ أن أفاجئ ايفيم زيفاريف فى بيته قطعاً قبل أن يخرج ؛ فاتجهت اليه ، وكدت أن أصل بعد قوات الأوان ، اذ كان قد فرغ من احتساء قهوته وتأهب للخروج .

– ما الذى يجيء بك الىّ كثيراً ؟

بهذا استقبلنى دون أن يتحرك من مكانه . قلت له :

– سأشرح لك .

ان بدايات النهار ، ومنها بدايات النهار فى بطرسبرج ، تحدث فى

الطبيعة الانسانية أثراً يشبه تبدد السكر . هناك أحلام ملتبهة تراود المرء في الليل ، حتى اذا طلع النور وهبَّ البرد ، وتبخرت تبخراً كاملاً . وقد اتفق لى أن تذكرت في الصباح بعض أحلام الليل التي لم أكد أفرغ منها أو حتى بعض أفعاله ، فاذا أنا أنظر اليها نظرة فيها لوم واشمئزاز . ولكن يجب أن أذكر مع ذلك ، عابراً ، أن أصباح بطرسبرج ، حتى أكثرها خلواً من الشعر ، هي عندي بين أصباح سائر الكرة الأرضية ، أروعها وأشدّها إثارةً للخيال . هذا رأيي أنا أو قل هو شعوري أنا ، ولكنني أصر عليه . وفي نظري أن الحلم الوحشي الذي يراه هرمان في قصة « البنت البستونية » (وهو شخصية رائعة ، غير عادية ، تمثل نموذج الشخص البطرسبرجي ، ونموذج العهد البطرسبرجي !) ينبغي له ، في صباح من أصباح بطرسبرج هذه ، المتعفة الرطبة المضبة ، أن يقوى مزيداً من القوة . مائة مرة تراءت لى من خلال الضباب هذه الرؤيا العجيبة ، ولكن الثابتة : « حين سينقش هذا الضباب ويرتفع ، ألن يحمل معه كل هذه المدينة المتعفة الدبقة ؟ وهذه المدينة ، ألن تصعد مع هذا الضباب وتزول كالدهان ، ولا يبقى في مكانها الا المستنقع الفنلندي القديم ، ويبقى في وسط المستنقع - من أجل الجمال ان شئتم - هذا التمثال البرونزي ، تمثال الفارس المتطى صهوة حصانه المنهوك ؟ لست أستطيع على كل حال أن أعبر عن جميع مشاعري ، ما دام هذا كله خيالاً ، وما دام كله شعراً في آخر الأمر ، أى سخافات ! ومع ذلك فانتى كثيراً ما ألقى على نفسي ولا أزال ألقى على نفسي سؤالاً هو في هذه المرة سؤال جنون مطبق : « ها هم أولاء جميعاً يركضون ويسرعون . فمن يدرى ؟ ألا يمكن أن لا يكون هذا كله الا حلماً . أن يمكن أن لا يكون ههنا انسان واحد حقيقي ، وفعل واحد واقعي ، فيكفى أن يستيقظ شخص فجأة ، أعنى الشخص الذي يرى هذا الحلم ، حتى يتبدد كل شيء ؟ » . ولكن هأنذا تأيت عن موضوعي .

أقولها سلفاً : ان فى حياة كل نسان مشاريع وأحلاماً تبلغ من الشذوذ والغرابة ، فيما يبدو ، أن المرء يستطيع من أول نظرة ودون تمرض للخطأ أن يعدهما جنوناً . وان جنوناً من هذا النوع هو ما كنت أحمله فى ذلك الصباح الى زياريف ، الى زياريف لأننى ليس لى أحد غيره ببطرسبرج يمكن أن أتجه اليه فى هذه المرة . والحق أننى لو كنت أملك حرية الاختيار لكان ايفيم آخر من أستطيع أن أعرض له اقتراحى .

وحين جلست أمامه أحسست أن الهذيان والحمى مجسدين قد جلسا أمام الاعتدال والاسفاف مشخصين . ولكن بينما كنت أنا مؤيداً بالفكرة والعاطفة الصحيحة ، كان هو لا يؤيده شىء الا هذه النتيجة العملية : ذلك لا يعمل ! الخلاصة : أوضحت له أننى ليس لى ببطرسبرج أحد أستطيع أن اتخذه شاهداً غيره ، فى قضية شرف تبلغ مبلغاً كبيراً من الخطورة ، وأنه رفيق قديم وأنه ليس له حق فى أن يرفض ، وأننى أريد أن أدعو الى المبارزة ضابطاً من الحرس برتبة ليوتان هو الأمير سوكولسكى ، لأنه منذ أكثر من سنة قد صفع أبى فرسيلوف بمدينة « امس » . يجب أن أذكر أن ايفيم كان على علم بجميع تفاصيل حياتى العائلية ، وعلاقتى بفرسيلوف ، وكان يعرف كل ما أعرفه أنا نفسى عن حياة فرسيلوف . كنت قد أفضيت اليه بهذا كله مراراً ، باستثناء بعض الأسرار طبعاً . وقد أضفى الى كلامى جالساً على عادته ، مشعناً كمصفور فى قفص ، صامتاً رصيناً متعاضماً مع شعره الأشقر المنفوش . وكانت ابتسامة جامدة ساخرة قد ارتسمت على شفتيه لا تبارحهما . وكانت هذه الابتسامة مؤذية ، لا سيما وأنها ليست مقصودة ، وانما هى مرتسمة على شفتيه بغير ارادة منه . كان واضحاً أنه فى تلك اللحظة كان يحس بأنه يتفوق على تفوقاً كبيراً فى الذكاء والارادة على السواء ، تفوقاً حقيقياً واقعياً . حتى لقد تراءى لى أنه يحتقرنى بسبب ما حدث امس عند درجاشيف . فلا بد أن يكون الأمر كذلك : ان ايفيم هو الجمهور ، ان

ايقيم هو الشارع ، والشارع لا ينحنى الا للنجاح دائماً .
قال يسألني :

- وفرسيلوف ، ألا يعرف عن الأمر شيئاً ؟
- طبعاً لا يعرف .

- فبأي حق تتدخل في شئونه ؟ ثم ... ما الذي تريد أن تبرهن
عليه بهذا العمل ؟

كنت أعرف هذه الاعتراضات ، فأوضحت له فوراً أن الأمر ليس
سعيّاً الى الحد الذي يتصوره . فأولاً : سأبرهن لذلك الوقح الذي هو
أمير أنه لا يزال يوجد رجال يفهمون الشرف حتى بين أبناء طبقتنا .
وثانياً : سأخزي فرسيلوف وألقنه درساً . وثالثاً - وذلك هو الشيء
الأساسي : سوف يرى فرسيلوف ، ولو كان على حق في أنه - لاقتاعات
قائمة في نفسه - لم يدعُ الأمير الى المبارزة بل تحمّل الصفة ، سوف
يرى على الأقل أن هناك مخلوقاً قادراً على أن يشعر بالاهانة التي ألحقت
بفرسيلوف كشموره باهانة "ألحقت به هو ، ومستعداً لأن يضحي بحياته في
سيله ... مع أنه يفصل عنه الى الأبد .

- على مهلك .. لا تصرخ .. ان عمتي لا تحب هذا . قل لي من
فضلك : أليس بين فرسيلوف وبين هذا الأمير سوكولسكي نفسه دعوى
ينظر فيها القضاء بشأن ميراث ؟ انها اذن لوسيلة طريفة جديدة من أجل
كسب الدعوى بقتل الخصم في مبارزة .

فأوضحت له أنه ليس الا غياً ووقحاً وأنه اذا كانت ابتهامته
الساخرة تتسع لحظة بعد لحظة ، فما هذا الا دليل على صلف نفسه وقلة
عقله ، وانه لا يستطيع أن يفترض أن هذه الاعتبارات الخاصة بالدعوى
التي ينظر فيها القضاء لم تخطر بباله منذ البداية ، وان هذه الاعتبارات
لا يمكن أن تشرف بوجودها الا رأسه الخاوي . ثم عرضت له أن
القضاء قد فصل في الدعوى ، وأن فرسيلوف قد كسبها ، وأن

الدعوى لا تستهدف الأمير سوكولسكى بل الأمراء سوكولسكى ، فاذا مات منهم واحد بقى الآخرون ، ولكن يحسن طبعاً تأجيل التحدى الى ما بعد انقضاء المهلة القانونية لرفع الدعوى الى محكمة النقض (رغم أن الأمراء سوكولسكى لا يتوون رفعها الى محكمة النقض) ، وانما يحسن ذلك من باب التقييد بالمواضعات المألوفة ، حتى اذا انقضت المهلة القانونية قامت المباراة ، ولقد جئت وأنا أعلم أن المباراة لن تتم اليوم ، ولكننى فى حاجة الى اتخاذ احتياطاتى ، لأننى ليس لى أحد أتخذه شاهداً لى ولا أعرف احداً ، فاذا رفض ايقيم أن يكون ذلك الشاهد ، كان لى من الوقت ما يتسيع للبحث عن شخص غيره على الأقل . فلهدنا السبب انما جئت .

— ما كان عليك الا أن تجيء بعد انقضاء المهلة القانونية ، بدلاً من

أن تقطع عشرة فراسخ بدون طائل .

قال ذلك ونهض وتناول كسكيتته . فسأته :

— أتكون شاهدى اذن ؟

— لا ، طبعاً لا

— لماذا ؟

— أولاً للسبب التالى : اذا وافقت الآن على أن أكون شاهداً لك

فى المستقبل ، فسوف تجيء الى هنا كل يوم طوال مدة المهلة القضائية .

وثانياً لأن هذا كله سخافات لا أكره . أتظن أنتى أرضى أن أدمر مستقبلى

من أجلك ؟ وماذا لو سألتى الأمير : « من أرسلك ؟ » فقلت له : —

« دولجوروكى » ، فقال لى : — « وما شأن دولجوروكى بفرسيلوف ؟ » .

قد يكون على عندئذ أن أشرح له أصلك ، أليس كذلك ؟ لسوف يفتس

اذن من فرط الضحك !

— فما عليك عندئذ الا أن تلطمه على خطمه !

— سخف !

- - أتخاف وأنت القوى ؟ لقد كنت أقوانا جميعاً في الليسيه .
- - أخاف . طبعاً أخاف . ثم ان الأمير سيرفض أن يبارزك .
- ان المرء يبارز نداءً له .
- - أنا أيضاً بثقافتى سيد . ان لى امتيازات . اننى ند له . واذا كان
- أحدنا لا يرقى الى مستوى الآخر فهو الذى ليس لا يرقى الى مستوى .
- - لا ، لا ، أنت صغير جداً !
- - صغير ؟ كيف ؟
- - هكذا ! نحن كلانا صغير ، وهو كبير .
- - غبى ! اننى بحكم القانون أستطيع أن أتزوج منذ سنة .
- - تزوج ما شئت أن تتزوج . ولكن هذا لا ينفى أنك فتى غير
- لم يشب عن الطوق بعد .
- أدركت أنه يريد أن يسخر منى . ولقد كان فى وسعى طبعاً أن
- أستغنى عن رواية هذا الجزء النبى من قصتى ، بل لعله كان يستحسن
- أن يغيب هذا الجزء فى المجهول . أضف الى ذلك أنه منفر بما يتصف
- به من تفاهة وقلة فائدة ، رغم أنه كانت له نتائج خطيرة .
- ولكن من أجل أن أعاقب نفسى مزيداً من العقاب ، سأروى
- الحاتمة . فبعد أن أدركت أن ايفيم يسخر منى ، أبحث لنفسى أن أضربه
- على عظم كتفه الأيمن بقبضة يدى اليمنى . فأمسكنى عندهنذ من
- المنكين ، وأدارنى الى جهة الشارع ، وبرهن لى فعلاً على أنه كان
- أقوانا جميعاً فى الليسيه .

لا شك أن القارىء سيتخيل أنني حين تركت ايفيم كنت معتكر المزاج غاضباً ، ولكن القارىء سيخطئ إذا هو تخيل ذلك . فلقد كنت أدرك أن الحادث هو مما يقع بين تلاميذ مدرسة ، بين تلاميذ ليسيه ، وأنه لايمس جوهر القضية . وقد شربت قهوة فى جزيرة فاسيلي متعمداً أن أتجنب مطعم الأمس فى بطرسبرجسكاياستورونا : فان هذا المطعم وهزاره يثيران الآن فى نفسى كرهاً مضاعفاً . ان بى صفة غريبة : هى أنني يمكن أن أكره الأماكن والأشياء ككرهى للأشخاص تماماً . كذلك أحب فى بطرسبرج أماكن معينة سعيدة ، أعنى أماكن سعدت فيها يوماً . ومن أعجب الأمور أنني أدخر تلك الأماكن السعيدة ، أى أتعمد أن أغيب عنها زمناً طويلاً ، لأذهب اليها فيما بعد ، حين أكون وحيداً وحدة تامة ، وحين أكون شقيماً شقاء شديداً ، فأمضى الى هناك نشداناً للعزاء واحياءً للذكرى .

وفيما كنت أشرب القهوة ، أثبتت بينى وبين نفسى على ايفيم وقدردت فيه ما يتصف به من حسن الادراك . نعم ، انه يملك من الحس العملى أكثر مما أملك ، ولكن هل هو فى قلب الواقع أكثر منى ؟ ان الواقعية التى لا ترى ما هو أبعد من الأنف أشد خطراً من الخيال الجامح المجنون ، لأنها عمياء .

ولكننى مع ثنائى على ايفيم (الذى لا شك أنه كان فى تلك اللحظة مقتنعاً بأننى أعمره بالشتائم مطوفاً فى الشوارع) ، لم أتدخل عن شئ من اقتناعائى كما لم أتدخل عن شئ منها الى هذا اليوم . لقد رأيت أماماً ما ان ينصب عليهم سطل من ماء بارد حتى يبجدوا لا أعمالهم فحسب ، بل أفكارهم أيضاً ، وحتى يضحكوا مما كانوا منذ ساعة واحدة يعدونه مقدساً ! ما أسهل ذلك عليهم ! لعل ايفيم كان على حق أكثر منى حتى فى جوهر الأمر ، ولعلنى أشد الأغبياء غباءً ، ولعلنى كنت غير صادق ، ولكن

هذا لا ينفي أن فى قرارة المسألة نقطة كنت فيها أنا أيضاً على حق ، وأن
عندى أنا أيضاً شيئاً صحيحاً عجز الناس عن فهمه خاصة فلم يدركوه فى
يوم من الأيام •

وصلت الى بيت فاسين فى الزاوية التى يلتقى فيها فوتاكا وجسر
سان سيمون عند تمام الظهر تقريباً ، ولكنه لم يكن فى البيت • لأنه يعمل
فى جزيرة فاسيلى ، ولا يعود الا فى مواقيت معينة ، ومن هذه المواقيت
ساعة الظهر فى جميع الأيام تقريباً • واذ كان ذلك اليوم عيداً نسيت
الآن ما هو ، فقد كنت أقدر أن أجده حتماً • فلما لم أجده وطنت نفسى
على انتظاره رغم أنى أجيئه أول مرة •

اليكم كيف فكرت فى الأمر : ان الرسالة التى أملكها والتى تتعلق
بالميراث تثير مسألة ضمير • فاذا احتكمت الى فاسين كنت أعلن له بذلك
أنى أحترمه احتراماً عميقاً فلا بد أن يرضيه هذا ارضاء كبيراً •
صحيح أن أمر هذه الرسالة كان يشغل بالى حقاً وأنى كنت مقتنعاً
اقتناعاً شديداً بضرورة الاحتكام الى أحد • ولكن أظن أنى كنت
أستطيع ، حتى منذ تلك اللحظة ، أن أخرج من هذه الصعوبة دون
الاستعانة بشخص غريب • وكنت أعرف خاصة ، أنا نفسى ، أنه يكفى
أن أسلم الرسالة الى فرسيلوف ، يداً بيد ، ثم فليفعل بها ما يشاء ! ذلك
كان الحل • أما أن أنصب نفسى قاضياً أعلى فى قضية من هذا النوع ، فذلك
أمر غير لائق البتة • وحين أسلم الرسالة ، يداً بيد ، دون أن أقول
شيئاً ، فأضع نفسى فى خارج القضية ، فان كل ما يحدث عندئذ يكون لى
كسباً وربحاً ، هذا عدا انى اذ أفعل ذلك أعلو على فرسيلوف علواً
واضحاً ، لأن تنازلى وحده ، من جهتى ، عن منافع الميراث (لأن جزءاً
من الميراث كان سيؤول الىّ ، بصفتى ابن فرسيلوف ، فى الحال أو فى
المستقبل ، يهب لى حقاً معنوياً فى الحكم على سلوك فرسيلوف فى المستقبل •
وما من أحد كان يستطيع أن يأخذ علىّ أنى دمرت الأمراء ، لأن

الوثيقة التي أملكها ليس لها أى قيمة قضائية حاسنة . هذا كله فكرت فيه وقتله لنفسي بوضوح فى غرفة فاسين الحالية ، حتى لقد خطر ببالي فجأة اننى انما جئت الى فاسين راغباً فى أن أعرف منه السلوك الذى يجب على أن أسلكه ، لشيء الا أن أبرهن له فى هذه المناسبة على أننى أنبل الناس وأزهدهم بالمنفعة ، فبذلك أتقم لنفسي من مذلة الأمس .

وشعرت باشمئزاز كبير . ولكننى لم أنصرف بل بقيت ، رغم علمي

بأن هذا الاشمئزاز سيزداد دقيقة بعد دقيقة .

يجب أن أذكر أولاً أننى كرهت غرفة فاسين كرهاً شديداً . من حقهم أن يقولوا : « أرني غرفتك فأقول لك من أنت ! » كان فاسين يستأجر غرفة مفروشة عند مستأجرين فقراء يتخذون من التأجير مهنة ، وكان فى البيت مستأجرون آخرون . اننى أعرفها . . . هذه الحجرات الضيقة التى لا تكاد تكون مفروشة ، والتى تطمع مع ذلك فى أن تبدو مريحة مترفة . ان فيها - بالضرورة - ديواناً رخوياً مشترى من « سوق العتيق » ، ديواناً يخشى المرء تحريكه ، وحوضاً ، وسريراً من حديد وراء حاجز . لا بد أن فاسين كان أحسن المستأجرين وأكثرهم ضماناً : ان لكل مؤجرة مستأجراً مفضلاً تحمل له الامتتان والشكر حتماً . ففرقة ترتب ترتيباً أفضل ، وتكنس كسناً أحسن ، وفوق ديوانه توضع صورة من الصور ، وتحت طاولته تفرش سجادة نجيعة . والناس الذين يحبون هذا النوع من النظافة التى تفوح منها رائحة العفن ويحبون - خاصة - هذا النوع من العناية والاحترام من جانب المؤجرين ، يكونون هم أنفسهم محل شبهة . ولقد كنت مقتنعاً بأن لقب « أحسن المستأجرين » كان يملق فاسين . ولا أدري لماذا أخذ الحق يجتاح نفسى شيئاً فشيئاً من رؤية هاتين الطاولتين المزدهمتين بالكتب . كانت الكتب والأوراق والحجرة ، كان ذلك كله مرتباً يبعث على أشد الاشمئزاز والنفور . انه ذلك الترتيب الذى يوافق المثل الأعلى لفلسفة الجمال عند مؤجرة

ألمانية وخدامتها • ان الكتب كثيرة • وهى كتب حقاً ، لا جسراند ولا مجلات ، ولا بد أنه كان يقرأها • وأغلب الظن أنه حين يقرأ أو يكتب ، يصطنع هيئة تعبير عن أشد الوقار والجد ، وأعظم الاهتمام والانشغال • أما أنا فلا أدري لماذا أفضل أن تكون الكتب فوضى ، فهذا على الأقل ينبىء بأن المرء يعمل بدون اغترار وتبجح • صحيح أن فاسين هذا مهذب مع الزائرين الى أقصى حد ، ولكن كل حركة من حركاته كأنها تقول : « يسرنى أن أقضى معك ساعة من الزمن ، ولكنى ، ولكنى ، متى انصرفت أنت ، سأعود أنا الى ما كنت فيه من أمور ذات شأن • • • » وصحيح أن المرء يستطيع أن يجرى معه حديثاً شاقاً جداً ، وأن يتعلم منه شيئاً ، ولكن كل اشارة من اشاراته تكاد تنطق عنه قائلة : « سنتحدث معاً ، وسأشوقك كثيراً ، حتى اذا انصرفت أنت عدت أنا الى ما هو شائق حقاً • • • » ومع ذلك لم أنصرف بل بقيت • وقد أصبحت الآن على يقين كامل من أنني لست فى حاجة الى نصائحه •

مكثت ساعة بل تزيد ، جالسا أمام النافذة ، على أحد الكرسيين المصنوعين من خيزران ، اللذين كانا هناك • وكان مما يزيد حنقى أن الوقت يمضى ، وأن على أن أجد مسكناً قبل المساء • وتمنيت أن أتناول كتاباً عسى أن أبدد الضجر ، ولكنى لم أفعل : فلقد كانت فكرة التسلى وحدها تضاعف اشمزازى • ان صمتاً مطقياً يخيم منذ أكثر من ساعة • ولكن هاذا أميز فجأة ، على مقربة منى ، وراء الباب الذى يسده ديوان ، بدون أن أريد ذلك ، وعلى نحو تدريجى ، همساً ما ينفك يقوى شيئاً بعد شيء • هما صوتا امرأتين ، يسمعها المرء واضحين ، ولكن يستحيل عليه أن يميز الكلام • ولكنى من فرط ضجرى حاولت أن أميز ما تقوله المرأتان • كان واضحاً أنهما تتكلمان بحرارة ، واندفاع ، وأن حديثهما لا يدور على ترهات • ان أحد الصوتين يتضرع ويتوسل ، وان الصوت الثانى يجيب نافذ الصبر رافضاً معارضياً • لا شك أن المرأتين مستأجرتان

آخرين . وسرعان ما تسرب الى الملل ، وألفت أذناي هذه الأصوات ،
فكنت أصغى ، ولكننى أصغى كالألة بلا ارادة ، حتى لقد كنت فى
بعض الأحيان أصغى نسياناً تاماً أتتى أصغى ، ثم اذا بحادث خارق
يقع على حين بفتة : لكأن أحداً قد نط من على كرسيه بكلتا ساقيه ،
أو اندفع فجأة وأخذ يقرع الأرض بقدميه . ثم 'سمع أنين ، ثم
'سمعت صرخة ، بل قل سمع زئير كزئير وحش غاضب لا يهمه أن
يسمعه غريبه أو أن لا يسمعه . فوثبت الى الباب ففتحته ، وفتح فى
الوقت نفسه باب آخر فى نهاية الممر (وقد علمت فيما بعد أنه باب
المؤجرة) ، وخرج من الباب رأسان غريبان مستطلعان . فسرعان
ما انقطع الصراخ ، ولكن الباب الذى يجاور بابى فتح فجأة ، وخرجت
منه - فيما بدا لى - امرأة شابة وكلت هاربة ونزلت السلم بسرعة . وقد
أرادت امرأة أخرى مسنة أن تصدها عن الهرب ولكنها لم تفلح فى
ذلك ، فلم تزد على أن أخذت تناديهما فى أنين وشكاة :

- أوليا ! أوليا ! الى أين تركضين ؟ آه ! ...

لكنها وقد أبصرت بابنا المفتوحين اسرعت ترد بابها دون أن تفلقه،
وانما تركته مشقوقاً لتسمع ما يحدث على السلم ، الى أن غاب وقع خطى
أوليا الهاربة غائباً تاماً .

رجعت الى نافذتى . وعاد الهدوء يخيم . حادث لا قيمة له ، بل
لعله سخيف ! وكففت عن التفكير فيه .

بعد ذلك بربع ساعة دَوَى فى الدهليز ، أمام باب فاسين ، صوت
رنان طلق هو صوت رجل . وأمسكت يدي بقبضة الباب وشقته ، فاستطعت
أن أبصر فى الدهليز رجلاً طويلاً القامة لا بد أنه لمحنى أيضاً ، بل لا بد
أنه كان يتفرس فى ، ولكنه لم يدخل بعد ، وظل يكلم المؤجرة من آخر
الدهليز ويده على قبضة الباب . فكانت المؤجرة ترد عليه بصوت نحيل
منهم جدل ، وكان فى وسع المرء أن يدرك من هذا الصوت وحده أن

المرأة تعرف هذا الزائر معرفة قوية وأنها تحترمه وتقدره قدرأ كبيراً ،
سواء من حيث هو زائر يحظى بثقتها ، ومن حيث هو انسان مرح لطيف .
وكان الرجل المرح يصيح ويمزح ، ولكن الكلام كله يدور على أن
فاسين ليس في غرفته ، وأنه لن يعثر عليه أبداً ، وأن هذا لا يحدث
لغيره قط ، وأنه سينتظر كما انتظر في المرة السابقة ، وكان هذا كله
يدو للمؤجزة أمراً يبلغ غاية الفكاهة . وأخيراً دخل الزائر فاتحاً الباب
على سعته كلها .

انه رجل حسن الهندام ، يرتدى ثياب « سيد » كما يقال ، ولكن
ليس في هيئته ما ينم عن أنه « سيد » ، رغم رغبته الواضحة في الظهور
بهذا المظهر . وكان طلقاً غير متحرج ، بل قل كان وقحاً على السجية ،
وهذا أقل كراهية الى النفس من رجل وقح درس نفسه مدة طويلة
أمام مرآة . وكان شعره الكستأوى الذى وخطه الشيب قليلاً ، وحاجباه
الأسودان ، ولحيته الكبيرة ، وعيناه الواسعتان ، كان ذلك كله لا يهب
له طابعاً خاصاً ، بل يسبغ عليه لا أدري أى نوع من الشبه بجميع الناس .
ان رجلاً مثله يضحك ، ويهم أن يضحك في كل لحظة ، ولكنك لاتشعر
فى صحبته بشيء من المرح أبداً . ومن الهزل ينتقل بسرعة الى الوقار ،
ومن الوقار الى المرح ، أو الى غمزات بالأعين ، ولكن هذا كله يتعاقب
فوضى وبغير علة ظاهرة . على كل حال ، لا داعى الى وصفه منذ الآن .
لقد عرفت هذا السيد مزيداً من المعرفة فيما بعد ، لذلك رسمت له هنا
ملامح أدق كثيراً من الملامح التى كان يمكننى أن أرسمها له لحظة فتح
الباب ودخل الغرفة . فعلت ذلك على غير ارادة منى . ومع هذا يصعب
على حتى هذا اليوم أن أقول عنه أى شيء محدد دقيق معين ، لأن الطابع
الرئيسى الذى يطبع أمثاله هو أنهم أناس غير مكتملين ، أناس مبشرون ،
أناس غير محددين .

ما ان جلس حتى خطر ببالى فجأة أنه لابد أن يكون زوج أم

فاسين ، وهو رجل يقال له السيد ستيلكوف ، سبق أن سمعت عنه شيئاً ، ولكننى سمعت ما سمعته عرضاً فيستحيل علىّ أن أتذكر ما هو : كل ما أتذكره هو أن ما سمعته لم يكن خيراً • كنت أعلم أن فاسين اليتيم قد لبث مدة طويلة فى كنفه ، ولكنه تحرر من سلطانه منذ سنين كثيرة ، وأن أهدافهما ومصالحهما متعارضة ، وأنهما يعيشان الآن منفصلين فى كل أمر من الأمور • وقد تذكرت أيضاً أن ستيلكوف هذا يملك بعض الثراء ، بل أنه رجل نصاب ، أى اننى لعلنى كنت قد عرفت عنه أشياء فيها مزيد من التفاصيل ، لكننى نسيتهما •

شملى بنظره دون أن يحينى • ووضع قبعته العالية على الطاولة أمام الديوان ، وأبعد الطاولة بقدمه بدفعة قوية ، وجلس على الديوان الذى لم أجرؤ أنا أن أجلس عليه ، بل قل تهاوى عليه تهاوياً بلغ من الثقل أننى سمعت الديوان يقرقع تحته ، وترك ساقيه تتدليان ، ثم رفع طرف قدمه اليمنى التى تتعل حذاء لناعاً وأخذ يتأمل الحذاء • ولكنه لم يلبث أن التفت الىّ وقاسنى بعينه الواسعتين الجامدتين قليلاً • وقال وهو يهز لى رأسه هزاً خفيفاً :

– لن أراه اذن قط !

فلم أجب بكلمة •

– ليس سليماً • له آراء فى كل أمر • قادم من بطرسبرجسكاياستورونا !

سألته :

– أنت قادم من بطرسبرجسكاياستورونا ؟

– بل أنا الذى أسألك هذا السؤال •

– أنا ... أنا قادم من هناك فعلاً ، ولكن كيف عرفت ذلك ؟ •

– كيف ؟ همّ ...

وغمز بعينه • ولكنه لم يتنازل فيفضل بالاجابة •

قلت :

- أنا لا أقيم في بطرسبرجسكاياستورونا ، ولكنني قادم منها ،
فمنها انما جئت الى هنا •

وظل يتسهم صامتاً ، وكانت ابتسامته تصطنع طابع الخطورة ، فكرهتها
كرهاً شديداً : ان فيه شيئاً مما في البلهاء •
وقال أخيراً :

- عند السيد درجاشيف ؟

- ماذا عند السيد درجاشيف ؟

وحملت •

فنظر الى وقد لاح في هيئته معنى الانتصار • قلت :

- أنا لا أعرف درجاشيف !

- هم •••

قلت :

- كما تشاء •

وأصبح الآن كريهاً الى نفسي مقيتاً •

- هم •• نعم •• لا ! •• اسمح لي • هب أنك تشتري شيئاً من
دكان وأن مشترياً ثانياً يشتري شيئاً آخر من دكان آخر مجاور ، فما هو
هذا الشيء الآخر في رأيك ؟ هو مال عند بائع يسمونه مرابياً •• ذلك
أن المال هو أيضاً شيء ، وأن المرابي هو أيضاً تاجر •• هل تتابع كلامي ؟
- أظن •

- ويمر مشتر ثالث فيقول مشيراً الى أحد الدكانين « هذا حسن »

ويقول مشيراً الى الدكان الآخر « هذا غير حسن » ، فما عسى يكون رأيي
في هذا المشتري ؟

— ما يدرينى أنا !

— لا ، اسمح لى • لقد ضربت مثلاً • لا بد للانسان من أن يضرب
أمثلة • هب أنتى أتجول فى شارع نفسكى ، فلاحظت على الرصيف المقابل
فى الجهة الأخرى من الشارع رجلاً آخر أحب أن أعرف طبعه •
ثم وصلنا كلانا الى شارع مورسكاييا حيث « المخزن الانجليزى » ، فلاحظنا
متجولاً ثالثاً داسته عربية • انتبه الآن انتباهاً قوياً : ان شخصاً رابعاً يمر
فيريد أن يعرف طباعنا نحن الثلاثة جميعاً ومنا الرجل الذى داسته العربية •
أقصد يريد أن يعرف طباعنا من حيث الروح العملية والميل الى الأمور
الجدية • • هل تتابع كلامى ؟

— معذرة • انتى أتابع ، ولكن بصعوبة شديدة •

— نعم ، هذا ما قدرته • فسأغير الموضوع • هب أنتى فى مدينة من
مدن المياه المعدنية بألمانيا ، كما سبق أن ذهبت الى هناك مراراً كثيرة •
ليس مهماً أن أعين اسم المدينة • وأتجول فأرى انجليزاً • ولكن ها نحن
أولاء جميعاً ، بعد شهرين ، وقد انتهى الموسم ، فلتقى فى الجبال ، ونمضى
تسلق معاً ، متوكئين على عصى مديبة الأطراف ، فنصعد تارةً فى جبل
وتارةً فى جبل آخر • لا قيمة لسؤالك عن الجبل أى جبل هو ؟ يستوى
أن يكون هو هذا الجبل وأن يكون ذاك • ولكن هب أنتى عند المنعطف ،
أى فى خاتمة الشوط ، هناك حيث يقطر الرهبان خمرتهم ، التقيت بواحد
من سكان الجبل وقف جامداً معتزلاً ينظر فى صمت ، فأردت أن أعرف
مدى ما يتصف به من روح الجد : فما رأيك ؟ هل أستطيع أن أتجه
بالكلام الى الانجليز الذين أسير معهم بعد أن لم أستطع فى مدينة المياه أن
أجرى أى حديث بينى وبينهم ؟

- ما يدرينى ! معذرة • اننى أجد فى متابعة كلامك عناءً كبيراً •
- كبيراً ؟
- نعم ، انك تعبنى •
- همّ ••

وطرف بعينه وحرك يده باشارة لا شك أنها كانت تعبر عن معنى الانتصار والظفر • ثم استل من جيبه بوقار كبير وهدوء شديد ، جريدة لا بد أنه اشتراها منذ برهة قصيرة ، ففضها وأخذ يقرأ فى الصفحة الأخيرة منها ، كأنه يريد أن يدعى فى راحة تامة • ولبث خمس دقائق لا يرفع إلى بصره •

- لم تنزل أسعار أسهم « برست جريف » ، هه ؟ انها لا تزال فى ارتفاع ! ما أكثر الأسهم التى تدهورت أسعارها •

قال ذلك وهو ينظر إلى مهتماً أبلغ الاهتمام • قلت :

- مازلت لا أعرف عن شؤون البورصة كثيراً •

- أأنت تستنكر ؟

- أستنكر ماذا ؟

- المال •

- لا أستنكر المال •• ولكننى أرى أن منزلة الفكرة قبل منزلة

المال •

- أئى •• معذرة •• هب أن رجلاً هو رأسمالي كما يقال ••

- الفكرة أولاً ، والمال بعد ذلك • فبدون فكرة عليا ينهار المجتمع

رغم كل ما يملكه من مال •

لا أدرى حقاً لماذا تحمست • ونظر إلى بشىء من الغباء ، كرجل

أصبح لا يعرف كيف يخرج من المأزق ، ثم تهلت أساريه فجأة ،
وارتسمت على شفتيه ابتسامة جذلة ماكرة وقال :

- وفرسيلوف ، هه ؟ حظى بالقيمة ، هه ؟ حكموا له أسس ،
هه ؟

فرايت فجأة ، وعلى دهشة كبيرة منى ، أنه يعرف مَنْ أنا منذ
مدة طويلة ، وأنه ربما كان يعرف أشياء كثيرة أيضاً . ولكننى لا أفهم
لماذا احمر وجهى فوراً ، وشخصت بىصرى اليه شخصاً غيباً أبله فلا
أستطيع عنه لحظة . فكان واضحاً أنه انتصر ، وكان ينظر الىّ فرحاً كأنه
قبض علىّ بجيلة ماكرة ، وأمسكنى متلبساً بالجرم . ثم رفع حلجبيه وقال :

- لا ! اسألنى أنا عن السيد فرسيلوف ! ماذا قلت لك منذ هنيهة عن
الحد فى الأمور ؟ منذ سنة ونصف كان فى وسعه أن يتم صفقةً كبيرة
بواسطة ذلك الطفل ، ولكن ضربته لم تصب هدفها ، ودق عنقه ..

- بواسطة أى طفل ؟

- بواسطة طفل لا يزال رضيعاً ، وهو ينفق على حضائته سرّاً .
ولكنه لن يجنى من ذلك شيئاً ، لأن ..

- أى طفل رضيع ؟ ما هو الموضوع ؟

- هو ولده طبعاً ، هو ولد له من « الأنسة » ليديا آخماكوفاً ..
« فتاة فتاة كانت تلاطفنى » ، فوسفور أعود الثقاب ، هه ؟

- ما هذه السخافات ؟ انه لم يولد له ولد من آخماكوفاً أبداً !

- غريب أمرك ! أين كنت أنا اذن ؟ يخيل الىّ مع ذلك أنتى
طبيب ومولد . ان اسمى ستيلكوف . ألا تعرفنى ؟ صحيح أنتى فى ذلك
الحين كنت قد انقطعت عن ممارسة مهنة التوليد منذ مدة طويلة . ولكننى
كنت أستطيع أن أسدى بنصيحة عملية فى حالة عملية .

- أنت مولد .. هل ولدت آخماكوفاً ؟

- لا ، لم أولدها أبداً . وإنما كان هناك ، فى الضاحية ، طيب اسمه جراتس ، مثقل بأعباء أسرة ، أُعطي نصف دينار ، وهو المبلغ الذى 'يدفع هناك للأطباء ، ثم انه عدا ذلك لم يكن قد استدعاه أحد . المهم أنه ذهب وناب منابى . فأنا الذى أوصيت به لتزداد الظلمات كثافة . هل تتابع كلامى ؟ أنا من جهتى لم أزد على أن أسديت بنصيحة جواباً عن سؤال من فرسيلوف ، من آندره يتروفتش فرسيلوف ، سؤال التمس فرسيلوف جوابه منى سرّاً ، ولكن فرسيلوف فضّل أن يطارد أرنيين فى آن واحد . كنت أصغى الى كلامه مندهشاً أعمق الاندهاش .

- والمثل يقول عندنا ، بل عند الشعب : « من طارد أرنيين لم يستطع أن يصطاد أيّاً منهما » . وأنا أقول : ان الاستثناءات اذا تكررت أصبحت هى القاعدة العامة . لقد طارد أرنباً ثانياً ، أو قل بالروسية الفصيحة طارد سيده ثانية ، فلم يظفر بأية نتيجة ! طير فى اليد خير من عشرة طيور على الشجرة . انه يتردد حيث يجب الاسراع . فرسيلوف ! ألا انه « نبى للنساء » ، كما وصفه أمامى الأمير الشاب سوكولسكى فأحسن الوصف أيما احسان . لا ، انك لتعجبني حقاً ! اذا أردت أن تعرف أشياء كثيرة عن فرسيلوف ، فتعال اسألنى أنا !

كان واضحاً أنه معجب بسمى الذى تدور من فرط الدهشة ! اننى لم أسمع عن هذا الطفل الرضيع قبل ذلك أبداً . وفى تلك اللحظة فرقع باب غرفة الجارتين ، ودخل الى غرفتهما شخص مسرع .

- فرسيلوف يسكن فى سيمينوفسكى بولك ، شارع موجايسك ، عمارة لتفينوفا ، رقم ١٧ ؟ أنا قادمة من مكتب العناوين !

بذلك صاح صوت امرأة غاضبة . وكانت كل كلمة من كلماتها

مسموعة • فقطب ستيلكوف حاجيه ، ورفع أصبعه أعلى من رأسه
وقال :

– نحن نتكلم عنه هنا ، وها هو ذا يظهر •• تلك هى الاستثناءات
التي تتكرر ! صدق المثل : أذكر الديق وحضر القضيب ••
ونفض عن مكانه بوثة فجلس على الديوان ووضع أذنه على الباب
الذي كان يسده. هذا الديوان •

دهشت دهشة شديدة • لقد أدركت أن تلك الصرخة لا بد أنها
صادرة عن المرأة الشاببة التي هربت منذ قليل مهتاجةً اهتياجاً كبيراً •
ولكن ما شأن فرسيلوف هنا؟ وعاد الصراخ الذى سمعته منذ قليل يدوى
مسموراً • انه صراخ انسان قد جن غضباً لأنه 'يمنع عنه شيء ما ، أو يصد
عن فعل شيء ما • وكان الفرق الوحيد هو أن الصرخات أو الاعوات قد
دامت الآن مدةً أطول • كان نمة صراع ، وكلمات عجلى سريعة :
« لا أريد ، لا أريد » ، « ردوه هذا ، ردوه هذا ، حالاً » ، أو شيئاً من
هذا القليل لا أستطيع أن أتذكره تذكره دقيقاً • وكما حدث من قبل ،
ونب أحد الى الباب فجأةً ففتحه ، واندفعت المرأتان فى الدهليز تحاول
احدهما أن تصد الأخرى عن الهروب ، كما وقع منذ قليل • فاذا بصاحبنا
ستيلكوف الذى كان قد نزل الى أسفل الديوان وراح يصنى مثلثاً ،
اذا به يشب الى الباب دفعة واحدة ويخرج الى الدهليز متجهاً الى المرأتين •
واقتربت أنا أيضاً من الباب بطبيعة الحال • ولكن ظهور ستيلكوف فى
الدهليز كان له أثر كأثر سطل من ماء بارد : فما ان رأته الجارتان حتى
أسرعتا تبيان فى غرفتهما ، وتغلقتان بابها فيقرقع • وقد هم ستيلكوف
أن يركض وراءهما ، لكنه توقف رافعاً أصبعه مبتسماً مفكراً • فرأيت
فى ابتسامته هذه المرة شيئاً فيه أقصى الحب والشر واللؤم • حتى اذا أبصر
المؤجرة واقفة أمام بابها من جديد ، أسرع اليها سائراً على رءوس
الأصابع ، ولبث يهامسها مدة دقيقتين ، فكان واضحاً أنه حصل منها على

بعض المعلومات ، ثم قفل راجعاً الى الغرفة بخطى فيها اختيال وثبات ، وتناول من على الطاولة قبعته العالية ونظر الى وجهه في المرآة ، ورتب شعره ، ومضى الى باب الجارتين حتى دون أن ينظر الى ، فظل يتنصت عليهما دقيقة ، وقد ألصق بالباب أذنه وراح يرسل الى المؤجرة عند الطرف الآخر من الدهليز غمزات تحمل معنى الانتصار ، فكانت المؤجرة تهدده باصبعها وتهز رأسها كأنها تقول : « آآآ يا للعفريت .. يا للعفريت ! » . ثم هاهو ذا ينقر على بابهما بسلاميات يده وقد لاح في وجهه عزم يخالطه ترقق وتلطف . وما هو ذا صوت من الداخل يسأل :

— من ؟

— هل يؤذن لي بالدخول ، لأمر بالغ الخطورة ؟

كذلك أجاب ستيلكوف بصوت عال فيه وقار وحرصانة . فلم يفتح الباب بسرعة ، ولكنه فتح مع ذلك ، فتح في أول الأمر قليلاً أو قل شق شقاً ، غير أن ستيلكوف أمسك قبضته امسأكاً قوياً ، فلا يستطيع أخذ أن يعيد اغلاقه . وبدأت المحادثة ، فكان ستيلكوف يتكلم بصوت عال ، وما ينفك يحاول أن يدخل الغرفة . لا أتذكر الكلمات التي قالها ، ولكن حديثه كان يدور على فرسيلوف ، وكان يذكر أنه يستطيع أن يجيء بأخبار ، وأن يزود بايضاحات ، وكان يردد : « لا ، أسألاني أنا ، أسألاني أنا » وهلم جراً . ولم يلبث أن أدخل بسرعة . فرجعت الى ديوانى ، وأخذت أنصت ، لكننى لم أستطع أن أميز كل شيء ، وانما كنت أسمع اسم فرسيلوف يتردد كثيراً . وحزرت من نبرة الصوت أن ستيلكوف قد سيطر على الحديث ، فهو الآن لا يتكلم مخاتلاً بلف ودوران ، بل يجرى كلامه طلقاً حاسم اللهجة ، كحديثه معى منذ قليل ، فتارة يسأل قائلاً : « هل تتابعان ما أقول ؟ » ، وتارة يقول آمراً : « دعاني أوغل مزيداً من الايفال الآن ! » وما الى ذلك . ولكن لا بد أنه كان لطيفاً غاية اللطافة مع

المرأتين • وقد جلجلت ضحكة منذ الآن مرتين ، وأغلب الظن أنه كان ضحكا فى غير محله ، لأننى كنت أسمع ، عدا صوته وأعلى من صوته أحيانا ، صوتى المرأتين اللذين لا يعبران عن أى ابتهاج ، ولا سيما صوت المرأة الشابة الذى أطلق الصرخات قبل ذلك • كانت هذه المرأة الشابة تتكلم كثيرا ، بلهجة عصبية ، وسرعة ظاهرة ، من أجل أن تتهم وتشكى وتطالب بالعدل حتماً • ولكن ستييلكوف لا يبقى هادئاً : فيها هو ذا يرفع صوته أكثر فأكثر ، ويزداد ضحكه لحظة بعد لحظة • ان أشخاصاً من نوعه لا يحسنون الاصفاء الى الآخرين • ولم ألبث أن نزلت عن الديوان ، اذ بدا لى أن من العيب أن أتنصت ، ورجعت الى مكانى السابق أمام النافذة على كرسى الخيزران • وكنت مقتنماً بأن فاسين لا يضرر لهذا السيد أى اعتبار ، ولكن لو أفصحت له عن رأبى ، لهباً يدافع عنه برصانة ووقار ، ولأخذ يلقتنى درساً فيقول : « هذا رجل عملى ، انه واحد من رجال الأعمال هؤلاء المحدثين الذين يستحيل أن نحكم عليهم من وجهة نظرنا العامة الباردة » • وانى لأتذكر من جهة أخرى أننى كنت فى تلك اللحظة محطم النفس وكان قلبى يخفق خفقاناً قوياً وكنت أنتظر أن يقع حادث ما • وانقضت عشر دقائق ، فاذا أنا أسمع فجأة ، فى وسط ضحكة فطيمة ، وثوب أحد عن كرسيه ، كما حدث منذ برهة ، وأسمع المرأتين تصرخان ، وأسمع وثوب ستييلكوف أيضاً ، والأحظ أنه أصبح يتكلم بلهجة أخرى ، كأنه يحاول أن يبرر نفسه ، كأنه يضرع الى المرأتين أن تتكرما فتسمعا كلامه الى نهايته ••• ولكنهما لم تصغيا اليه • ودوت صرخات : « أخرج من هنا ! ما أنت الا وغد ! ما أنت الا وقع ! » • كان واضحاً اذن أنه يُطرد • وقد فتحت باب غرفتى فى اللحظة التى خرج فيها ستييلكوف الى الدهليز من عند الجارتين مدفوعاً بأيديهما دفعاً • فلما رأنى يصرخ مشيراً الى قائلاً لهما :

- هذا ابن فرسيلوف !

وأضاف :

- لم تريد أن تصدقاني ... فانظرا اذن ! هذا هو ابنه بنفسه ، هذا هو بعينه !

وقبض على يدي قبضاً قوياً ، دون أن يضيف الى ما قاله شيئاً .

كانت المرأة الشابة في الدهليز . وكانت المرأة المسنة في شق الباب على مسافة خطوة منها . أتذكر أن الفتاة المسكينة لم تكن دميعة : انها في نحو العشرين من العمر ، ولكنها نحيلة هزيلة مريضة الهيئة ، يضرب لونها الى الحمرة ، وتشبهه أختي بعض الشبه وجهاً ، وتلك سمة خطفت بصري ، ونقشت في ذاكرتي . ولكن ليزا ما اجتاحتها في يوم من الأيام - ولا أمكن أن تجتاحها في يوم من الأم - نوبة غضب شبيهة بنوبة الغضب التي تهز الاسنانة التي تقف أمامي الآن . كانت شفاتها بيضاوين ، وكانت عيناها الشهابوان قدحان شرراً ، وكانت ترتعش من شدة الحلق من قمة رأسها الى أخمص قدميها . أذكر أيضاً أنني أنا نفسي كنت في وضع يبلغ غاية الغباء والحزى ، فأننى لم أجد كلمة أقولها ، بجريرة هذا الرجل الفظ الوقح .

- هبه ابنه ! ما قيمة ذلك ؟ واذا كان في صحبتك فلا بد أن يكون وغداً حقيراً مثلك .

والتفتت الى فقالت لي :

- اذا كنت ابن فرسيلوف فأبلغ أبك عنى أنه سافل ، منحط ، وأننى لست في حاجة الى ماله . . . خذ . . . خذ . . . خذ . . . ردّ اليه هذا المال فوراً .

واستلت من جيبتها عدة أوراق نقدية . ولكن المرأة المسنة (وهى أمها كما عرفت ذلك فيما بعد) أمسكت ذراعها وقالت لها :
- ولكن قد لا يكون كلامه صحيحاً يا أوليا ! قد لا يكون هذا ابنه !

فألقت عليها أوليا نظرة سريعة ، وفكرت ، وتفكرت في باحتقار ،
وعادت تدخل غرفتها ، ولكنها قبل أن تفتح الباب ، وقفت على العتبة ،
وشملت ستيلكوف بنظرها مرة أخرى وقالت له :

- اخرج من هنا !

حتى لقد قرعت بقدمها الأرض ! ثم خبطت الباب فأغلقتة ، وسمع
صوت أقفاله من الداخل بالفتاح . وكان ستيلكوف ما يزال قابضاً على
كتفى ، فرفع اصبعه وقد تمدد فمه بإبتسامة طويلة تنم عن تفكير ، ثم حذق
الى بنظرة سائلة مستفهمة ، فجمجمت أقول له .

- أرى سلوكك معي سخيفاً ومعيباً .

ولكنه كان لا يصغى الى كلامي ، ورغم أنه لم يحول بصره عني .
وتمتم يقول حاله الهيئة :

- هذا ما ينبغي أن يد . . . ر . . . س !

- ولكن كيف تجرأت أن تقحمني في هذه الأمور ؟ من هذه ؟
من هذه المرأة ؟ لقد أمسكت كتفى وجررتني . ما هذا الفعل ؟

- أوه ! امرأة فقدت بكارتها « الاستثناء الذي يتكرر كثيراً » . هل
تبع كلامي ؟

وغرز اصبعه في صدري . فقلت وأنا أدفع اصبعه :

- دعني ! شيطان يأخذك !

ولكنه أخذ يضحك فجأة ، أخذ يضحك ضحكاً هادئاً رفيعاً جذلاً .
وأخيراً وضع قبعته على رأسه ، ثم قال وقد تغيرت سحنته واربد وجهه
وتقطب حاجباه :

- يجب نصح المؤجرة • عليها أن تطردهما من الشقة، وأن تطردهما بأقصى سرعة ، والا ••• سوف ترى ! احفظ ما أقوله لك ، سوف ترى •••

وظهر عليه الابتهاج ، وقال يسألنى :

- أنتتظر جريشا ؟

فأجبت به بجزم :

- لا ، لن انتظره •

- طيب • سيان !

وبدون أن يضيف حرفاً واحداً ، أدار ظهره وخرج ، وأخذ يهبط السلم حتى دون أن يلقى نظرة على المؤجرة التى كان يبدو عليها أنها تنتظر منه ايضاحات وأنباء • وتناولت قبعتى أنا أيضاً ، وأسرعت أنزل بعد أن رجوت المؤجرة أن تبلغ فاسين أن دولجوروكى جاء اليه •

أضعت وقتى • فهأنذا أبادر الى البحث عن مسكن منذ خرجت • كنت ذاهلاً • وظللت أطوف فى الشوارع عدة ساعات • ودخلت خمسة بيوت مفروشة أو ستة ، لكننى واثق بأننى مررت بنحو عشرين بيتاً دون أن ألاحظها • ما كنت لأتصور أن العثور على مسكن أمر يبلغ هذا المبلغ من الصعوبة • لذلك ضاق صدرى ضيقاً شديداً • ان جميع الغرف التى رأيتها تشبه غرفة فاسين ، بل هى أسوأ منها ، وكراؤها مع ذلك باهظ جداً ، أو هو فوق طاقى المالية • ولم أكن فى حاجة الى أكثر من ركن أضطجع فيه • فكنت اذا أفصحت عن هذا أجاب فى احتقار بأن على اذن أن أتجه الى أناس ممن • يؤجرون أركاناً • زد على ذلك أن جميع البيوت التى رأيتها كانت تزدهم بمستأجرين شاذين يكفى أن أنظر الى سحنهم حتى أحس أننى لا أستطيع أن أساكنهم ، بل أننى مستعد لأن أدفع مالاً من أجل ألا أعيش بجوارهم • ففى أحد البيوت مثلاً رأيت أناساً بغير رديجوت ، يبلغ عددهم عشرة أشخاص ، يرتدون صديرة ، وقد تشعثت لحاهم ، وظهر عليهم الفضول ، وليس فى سلوكهم أى تحرج ، قد احتشدوا فى غرفة ضيقة شديدة الضيق وراحوا يلعبون بالورق ويشربون البيرة • وقد عرضت على فى ذلك البيت غرفة الى جانب تلك الغرفة • وفى بيت آخر انهمرت على أسئلة المؤجرين فكنت أنا الذى أجيب عن الأسئلة ، وبلغت اجاباتى من الغباء أنهم كانوا ينظرون الى دهشين • وفى بيت ثالث ثارت ثائرتى و غضبت • ولا داعى الى وصف هذه التفاصيل التافهة على كل حال • وانما أردت أن أقول اننى وقد تعبت تعباً شديداً ، أصبت شيئاً من طعام فى نزل حين هبط المساء وكاد الظلام أن يخيم • وانتهيت الى اتخاذ قرار حاسم هو أن أذهب وحدى وبنفسى الى

فرسيلوف ، فأسلمه الرسالة الخاصة بالميراث (دون أى شرح أو تعليق) ،
ثم أصدد الى فوق فأخذ أمتعتى فأملأ بها حقيتى وصرة ، وأمضى الى فندق
أبيت ليلتى فيه . كنت أعلم أن فى آخر شارع أوبلوخوف ، بقرب
« قوس النصر » فنادق يستطيع المرء أن يكتري فيها لنفسه غرفة مستقلة
بثلاثين كوبكاً . فقررت أن أبذل هذه التضحية فى تلك الليلة حتى
لا أبقى عند فرسيلوف مدة أطول . ولكنى حين مررت أمام « معهد
التكنولوجيا » ، خطر ببالى فجأة أن أدخل على تاتيانا بافلوفنا التى تسكن
فى شقة أمام المعهد . وكانت حجتى التى عللت بها نفسى للدخول على تاتيانا
بافلوفنا هى هذه الرسالة نفسها التى تتعلق بالميراث ، ولكن رغبتى هذه التى
لا تقاوم انما كانت لها أسباب أخرى الآن ، وهى أسباب أعجز اليوم
عن وصفها : كان قد حدث فى فكرى خلط عجيب بين « الطفل الرضيع »
و « الاستثناءات التى تصبح قاعدة عامة » ، وما الى ذلك . ترى أكنت أريد
أن أروى شيئاً ، أم كنت أريد أن أصطنع أوضاعاً ، أم كنت أريد أن
أشاجر تاتيانا بافلوفنا ، أم كنت أريد أن أبكى ؟ لست أدري ، ولكنى
صعدت سلم تاتيانا بافلوفنا . لم أكن قد زرتها الى مرة واحدة قبل اليوم ،
فى بداية اقامتى بموسكو ، وذلك لأنقل اليها رسالة من أمى لا أذكر الآن
ما هى ، ولكننى أذكر أننى دخلت على تاتيانا بافلوفنا ونقلت اليها الرسالة
وانصرفت بعد دقيقة ، فلا أنا جلست ولا هى منعتنى من الانصراف .

فرعت الجرس . فسرعان ما فتحت لى الطباخة الباب ، وأدخلتنى
صامتة لا تتكلم . ان هذه التفاصيل ضرورية جداً من أجل أن نفهم كيف
أمكن وقوع ذلك الحادث الحارق الجنونى الذى كان له شأن خطير فى كل
ماتبعه من أحداث . ولتبدأ بالكلام على الطباخة . انها فنلندية سيئة الطبع
فطساء الأنف أظن أنها كانت تكره مولانها تاتيانا بافلوفنا ولكن
تاتيانا بافلوفنا كانت لا تستطيع أن تنفصل منها ، وكانت تتعلق بها تعلقاً
شديداً كحلق العوانس بكلابها ذات الأنوف الرطبة ، أو بقططها الغافية

دائماً . كانت الفنلندية تتقلب بين حالتين : فهي اما متأففة متدمرة ،
واما صامته في اثر شجار تظلي خرساء لا تنطق بحرف واحد خلال
أسابيع بكاملها عقاباً لمولاتها . ولا شك أن مجيئي قد صادف يوماً من
أيام الصمت هذه ، لأنني حين سألتها : « هل السيدة في البيت ؟ » -
وقد أقيت سؤالي واضحاً كل الوضوح فيما أتذكر - لم تجبني
بكلمة ، ورجعت الى مطبخها دون أن تفتح فيها . واذا ظننت عندئذ
أن السيدة في البيت ، دخلت غرفة الاستقبال ، ولكنني لم أجد أحداً ،
فانتظرت ، ظناً مني أن تاتيانا بافلونفا لن تلبث أن تخرج من غرفتها ، والا
فهل كان للطباخة أن تدخلني ؟ ولبثت واقفاً مدة دقيقتين أو ثلاث . وكان
الظلام يخيم ، وكانت شقة تاتيانا متجهمة في ذاتها من كثرة ما يتدلى فيها
من ستائر وقماش هنا وهناك . ولنقل الآن كلمتين عن هذه الشقة الكريهة
من أجل أن يتصور القارئ هذا المكان الذي وقع فيه الحادث . ان تاتيانا
بافلونفا ، بسبب طبعها المستبد العنيد ، وبسبب ما تتصف به من حبه
الظهور بمظهر السادة النبلاء ، لم تستطع أن تكتفي بغرفة مفروشة ،
فاستأجرت هذا المسكن الذي يحاكي شقة ، لا لشيء الا أن تعيش فيه
مستقلة وأن تكون سيدة بيتها . والحق أن الغرفتين اللتين تتألف منهما
هذه الشقة أشبه بقفصين من أقفاص عصافير الكناري ، قد التصق أحدهما
بالآخر ، وكان كل منهما أصغر من أخيه . وهما تقعان في الطابق الثاني ،
وتطلان على فناء العمارة . انك حين تدخل هذه الشقة يعطالك في أول
الأمر ممر صغير مطووط ، لا يزيد عرضه على متر ، ثم ترى قفص
عصافير الكناري على يسارك ، فاذا نظرت الى أمام ، عند أخسر الممر ،
أبصرت مدخل مطبخ صغير . ان الأربعة عشر متراً مربعاً من الهواء ،
التي لا بد منها للإنسان حتى يعيش اثنتي عشرة ساعة ، قد تكون متوفرة
في هذا البيت ، ولكن لا شك أنه لا يتوفر فيه من الهواء أكثر من ذلك .
الغرفتان واطنثان الى حد مخيف ، والأبشع من هذا أن النوافذ والأبواب

والسقف والجدران والأثاث ، أن كل ذلك كان مكسوّاً أو مغطى بقماش من قطن ، قماش فرنسي جميل مشجر ، لذلك تبدو الغرفة أضيق من واقعها مرتين ، حتى لكأنها جوف عربية . ولقد كان المرء يستطيع في الغرفة التي كنت أنتظر فيها أن يتحرك ملتفتاً إذا أراد ، رغم أن المكان مزدحم بالأثاث ، ولم يكن الأثاث رديئاً : ففي الغرفة أنواع شتى من الطاولات الصغيرة المصنوعة من خشب مرصع مزدان بالبرونز ، وفيها أنواع من العلب ، ومنضدة لأدوات الزينة رائعة الجمال بل واسعة التراءء . أما الغرفة الصغيرة الأخرى التي كنت أتوقع أن تخرج منها تاتيانا بافلوفنا ، وهى غرفة النوم التي تفصلها عن الأولى ستارة ، فليس فيها الا سرير كما عرفت ذلك من بعده . ان هذه التفاصيل كلها ضرورية لفهم الحماقة التي ارتكبتها .

انتظرت لا يساورنى أى شك . وانى لكذلك اذا بالجرس يرن .
وسمعت الطباخة تجتاز الممر بغير تعجل ، وتدخل عدداً من الزوائد صامتة ، كما فعلت معى منذ قليل . هما سيدتان تتكلمان كلتاهما بصوت عال . . ولكن ما كان أشد دهشتى حين تعرفت صوت احدهما فعرفت أنها تاتيانا بافلوفنا ، وتعرفت صوت الثانية فعرفت أنها المرأة التي لم أكن متهيئاً لأن ألقاها الآن أبداً ، ولا سيما فى هذا المكان ! لا شك فى أنها هى ، « امرأة الأمس » ! فما العمل ؟ اننى لا ألقى هذا السؤال على القارىء . وانما أنا أتخيل تلك الدقيقة لنفسى ، وما زلت الى اليوم عاجزاً عاجزاً مطلقاً عن أن أفسر لنفسى كيف ارتيمت فجأة وراء الستارة ، فصرت فى غرفة نوم تاتيانا بافلوفنا ! المهم اننى اختبأت ، وما كدت أتب تلك الوثبة التي اخفتنى عن الأنظار حتى دخلت السيدتان . لماذا لم أهبّ الى لقاتهما بدلاً من أن أختبيء ! لا أدرى . لقد حدث هذا كله مصادفة ، على غير وعى منى ، وعلى غير ارادة .

ولطوت عند السرير ، فلم ألبث أن لاحظت أن للغرفة باباً يفضى

الى المطبخ ، أى مخرجاً يمكن اللجوء إليه والهروب منه اذا وقع مكروه!
ولكن يا للهول ! لقد كان الباب مقفلاً بالمفتاح ، ولم يكن المفتاح بالقفل .
فنهالكت على السرير يائساً مكروباً . ولقد كان واضحاً لى أننى سأستسمع
الآن الى حديثهما ، وأدركت منذ الجمل الأولى ، منذ الأصوات الأولى ، أن
حديث المرأتين سرى جداً. وخرج جداً . أوه ! لا شك أن الرجل النيل
الشريف المستقيم يجب عليه ، حتى فى مثل تلك اللحظة ، أن يخرج
ويقول بصوت عال : « أنا هنا ، انتظرا ! » ، وأن يخرج مهما يكن وضعه
عندئذ مضحكاً . ولكننى لم أنهض ولم أخرج . وخفت أحقر خوف .

قالت تاتيانا بافلوفنا متوسلة ضارعة :

– كاترين نيقولايفنا ، عزيزتى ، هدئى نفسك ، أرجوك ، ان هذا
الاضطراب ليس من طبيعتك . حيثما تكونى يكن الفرح ، فما بالك فجأة . . .
آمل أن تطللى واثقة بى . . . أنت تعرفين مدى اخلاصى لك . . . وتعرفين
أن هذا الاخلاص لك يساوى على الأقل اخلاصى لأندره بتزوفتش الذى
لا أكتمه وفائى له الى الأبد . صدقينى اذن ! أحلف لك بشرفى انه لا يملك
هذه الوثيقة ، وربما كان لا يملكها أحد على الاطلاق . ثم انه لا يقدر
على هذا النوع من المكائد ، فليس حسناً منك أن تضعيه فى موضع
شبهة . أتما كلاكما تخيلتما هذه العداوة . . .

– الوثيقة موجودة . وهو لا يتورع عن شىء . أمس دخلت ، فكان
اول شخص لقيته هو « ذلك الجاسوس الصغير » الذى فرضه على الأمير !

– دعيك من هذا الكلام . « ذلك الجاسوس الصغير » أولاً ، ماهو
جاسوس . أنا الذى ألححت على وضعه عند الأمير . ولولا ذلك لفقد
عقله فى موسكو أو مات جوعاً . أو هذه هى على الأقل المعلومات التى
تلقيناها من هناك . ثم ان هذا الصبى الفظ ليس أكثر من أبله . فكيف
يمكن أن يتخذ جاسوساً ؟

- هو أبله ، نعم ، ولكن ذلك لا ينبغي أن يصبح وغداً . لقد كنت
معتكدة المزاج بالأمس ، ولولا ذلك لفظت من الضحك : اصفر وجهه ،
وتقدم مسرعاً ، وراح يسلم متلطفاً ، وأخذ يرطن بالفرنسية . ومع ذلك
كانت ماريا ايفانوفنا تحدثني عنه حديثها عن عبقرى ! ان تلك الرسـالة
لم 'تتلف' ، وهى بين أيدي خطرة ، استتجت ذلك من هيئة ماريا ايفانوفنا .
- عزيزتى الجميلة ! ألم تقولى أنت نفسك ان ماريا ايفانوفنا ليس
عندها شيء ؟

- هى تزعم ذلك . ولكنها تكذب بل هى حاذقة فى الكذب ! قبل
رحلتى الى موسكو كان لا يزال يساورنى أمل فى ألا تكون قد بقيت
أية ورقة ؟ أما هنا ، هنا ، هنا . . .

- ولكن يقال يا عزيزتى انها انسانة طيبة جداً عاقلة جداً ، وان
المرحوم كان يقدرها أكثر من سائر بنات أخوته وأخواته . أنا لا أعرفها
طبعاً ، ولكن كان يجب عليك أن تغالبيها قليلاً يا عزيزتى الجميلة ! ليس
صعباً عليك أن تفتنيها : اننى - أنا العجوز - مفرمة بك ، مولهة بحبك ،
حتى لأكاد أقبلك . . . فهل كان يعز عليك أن تفويها ؟

- غالبتها يا تاتيانا بافلوفنا . حاولت . حتى انها سرت بذلك سروراً
كبيراً . لكنها ماكرة . انها هى أيضاً ماكرة . لا ، لا . هذه شخصية
غريبة ، شخصية موسكوية ! تصورى أنها نصحتنى بأن ألتجىء هنا الى
رجل اسمه كرافت ، كان مساعد أندرونيكوف ، فلعله يعرف شيئاً ! وأنا
أعرف من هو كرافت هذا ، بل اننى أذكره قليلاً . ولكن ما ان كلمتني
عن كرافت حتى أيقنت فوراً أنها لا تجهل شيئاً ، بل تعرف كل شيء ،
وانما هى تكذب . . .

- ولكن لماذا تكذب ؟ على كل حال ، يمكن التماس معلومات من

كرافت ! ان هذا الألماني ليس بالرجل الثرثار ، وهو شريف جداً فيما
أذكر . ولكن لابد من سؤاله ، وأظن أنه ترك بطرسبرج

- رجع أمس . اننى قادمة من عنده وهذا بعينه هو السبب فى
أنك تريننى على هذه الحال من التخوف والارتعاش الشديد . كنت أريد
أن أسألك يا ملاكى تاتيانا بافلوفنا ، ما دمت تعرفين جميع الناس ، أما من
وسيلة الى البحث بين أوراقه ؟ لابد أنه ترك أوراقاً . فمن الذى تؤول اليه
هذه الأوراق ؟ ذلك أنها قد تقع بين أيدٍ خطيرة . لقد جئتُ أسألك أن
تسدى الى بنصيحة .

- أى أوراق تعنين ؟ ألم تقولى انك قادمة من عند كرافت ؟
كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا التى لم تفهم من سؤالها شيئاً . فأجابت
كأترين بقولايانا :

- نعم نعم ، اننى قادمة من عنده . ولكنه اتحر ! مساء أمس .
فقفزت من على السرير . لقد استطعت أن أبقى لاطياً ساكناً حين
سمعتها تصفنى بأننى جاسوس وبأننى أبله . وكنت كلما أوغلتا فى
حديثهما مزيداً من الايقال ، أحس احساساً أقوى بأننى لا أستطيع أن
أظهر لهما ، فليس ذلك لائقاً . كنت قد عزمت فى قرارة نفسى ، بعد
أن كف قلبى عن خفقانه الشديد ، أن أنتظر الى اللحظة التى تشيع فيها
تاتيانا زائرتها (هذا اذا واتانى الحظ فلم تحتج الى دخول غرفتها قبل ذلك)
فمتى انصرفت أخمأكوفا كنت مستعداً لأن أظهر فأخوض معركة مع تاتيانا
بافلوفنا ! أما الآن وقد علمت باتتجار كرافت فقد قفزت واعترائى نوع
من التشنج ، وأصبحت عاجزاً عن التفكير فى أى شىء ، عاجزاً عن التبصر
بعواقب الأمور ، فإذا أنا أرفع الستارة وأجدنى واقفاً أمامهما . ولم تكن
حلقة الظلام قد اشتدت بعد ، فكان يمكنهما أن تريانى شاحباً مرتعشاً .
فهاهما تصرخان . وكيف لا تصرخان ؟

تمتت أقول ملتفتاً الى آخماكوفا :

- كرافت ؟ اتحر ؟ أمس ؟ عند غروب الشمس ؟

فأعولت تاتيانا بافلوفنا تسألني وقد غرزت أصابعها في كفي :

- أين كنت ؟ من أين خرجت ؟ كنت تجسس علينا ؟ كنت

تنصت على حديثنا ؟

وقالت كاترين نيقولايفنا وهي تنهض عن الديوان وتشير الى

ياصبعها :

- ماذا قلت لك عنه ؟

فقاطعتها صارخاً وقد استبد بي غضب مسعور :

- هذه كلها أكاذيب ! هذه كلها حماقات وسخافات ! لقد وصفتي

من لحظة بأنني جاسوس • فأعلمي اذن أنه لا شيء يستحق من المرء عناء

أن يتجسس ، بل لا شيء يستحق منه عناء أن يعيش في هذه الحياة الدنيا

مع أناس من أمثالكم ! ان الأخيار ينتهون الى الانتحار • لقد اتحر كرافت

في سبيل الفكرة ، من أجل هيكوب • ولكن أني لك أن تعرفي شيئاً

عن هيكوب ؟ ••• لقد حكم على الانسان هنا أن يحيا في وسط مكائدكم ،

وأن يتخبط في احوال أكاذيبكم وأخاديعكم ودسائسكم المستترة

الحقيه ••• كفي !

صرخت تاتيانا بافلوفنا قائلة :

- اضعيه ! اضعيه !

ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت تنظر الى (أذكر هذا كله بأدق

تفاصيله) دون ان تحول بصرها عن لحظة واحدة ، ودون أن تتحرك من

مكانها قيد شعرة ، فما كان من تاتيانا بافلوفنا الا أن هبت واقفة تريد ان

تولى تنفيذ النصيحة بنفسها ••• فرأيتني أرفع يدي بغير ارادة مني لأحمي

وجهي من صفتها • فإذا هي تتصور من هذه الحركة التي قمت بها أنني
أهددها • فصرخت تقول لي :

- هيا ! اضرب ، اضرب ! فبهرن على أنك بمحتدك خادم • آمت
الأقوى ، فلماذا تتخرج من نساء مسكينات ؟

فصرخت أقول :

- كفى تخرصاً ، كفى ! ما رفعت يدي على امرأة في يوم من
الأيام ! لكنك سفينة يا تاتيانا بافلوفنا • ولقد كنت تحتقريني دائماً • علام
احترام الناس ؟ وأنت يا كاترين نيقولايفنا ، أراك تضحكين • فلا شك
أنت تضحكين من هيتي : نعم ، ان الله لم يهب لي وجهاً كوجوه مرافيك •
لكني لا أشعر أمامك بهوان ومذلة • بل التقيض هو الصحيح : فأنا
أحس بأنني أعلى منك • ولا قيمة للتماير على كل حال ، فانما المهم أنني
لم أرتكب ذنباً • لقد جئت الى هنا عرضاً ياتاتيانا بافلوفنا • والمذنب الوحيد
انما هو طباحتك الفنلندية ، بل قولي ان الذنب انما يقع على تعلقك الشديد
بها • لماذا لم تجبني حين سألتها عنك ، لماذا أدخلتني الى هنا رأساً ؟ ولعلكما
تدر كان أنني ما كنت لأستطيع أن أخرج من غرفة امرأة على حين فجأة • •
دفعه واحدة • • هكذا • • والا كان ذلك أمراً عجيباً شاذاً • • لذلك
آثرت • • أن أسمع شنائكما على أن أظهر لكما • أما تزالين تضحكين
يا كاترين نيقولايفنا ؟

صاحت تاتيانا بافلوفنا قائلة وهي تكاد تدقني دفعا :

- اخرج من هنا ، اخرج من هنا ! لا تأبهي لأكاذيبه يا كاترين
نيقولايفنا • سبق أن قلت لك انه وُصف لي من هناك بأنه مجنون •

- مجنون ؟ من هناك ؟ من وصفني بأنني منجون ؟ ولكن لا خير ،
كفى هذا ! يا كاترين نيقولايفنا ، أحلف لك بكل ما أقدس ، أن هذا

الحديث الذي سمعته سيظل مكتوماً لا أبوح به لأحد • هل ذنبي أنني
اكتشفت أسراركم؟ واعلمي خاصةً أنني تارك أبالك منذ الفد • فتستطيعين
أن تطمئني وأن تهدئي بالآء فيما يتعلق بالوثيقة التي تبحثين عنها •
- ماذا؟ أى وثيقة تعنى؟

اضطربت كثيرين نيقولايفنا اضطراباً بلغ من القوة أن لونها شحوب
شحبواً شديداً • أو هذا ما بدا لى أنا • فأدركت أنني قلت أكثر مما كان
ينبغى أن أقول •

وخرجت مسرعاً • وشيئتانى بنظراتهما صامتتين • وكنت أقرأ فى
وجهيهما دهشة قصوى • الخلاصة أنني ألقىت لغزاً •

الفصل التاسع

١



أعود الى البيت • ومن أشد العجب أنني كنت
راضياً عن نفسي مغتبطاً بها • صحيح أن المرء
لا يكلم النساء بهذه اللهجة ، ولا سيما مثل هذه
النساء ، بل قل مثل هذه المرأة ، (ذلك أنني
لا أدخل تاتيانا بافلوفنا في حسابي) • اعلمه لا يجوز لرجل أن يقول لامرأة
من هذا النوع : « أنا لا أعبا بمكائلك ودسائسك ! » • ولكنني قلت
ذلك ، وهذا بينه هو ما كان يجعلني راضياً مغتبطاً • كنت موقناً على
الأقل أنني اذ خاطبتها بهذه اللهجة قد بددت كل ما كنت فيه من وضع
مضحك ، ناهيك عما عدا ذلك • غير أن وقتي لم يتسع للتفكير في هذا
كله زمناً طويلاً : ذلك أن كرافت كان يملأ جوانب نفسي كلها • لا أقصد
أن انتحاره كان يؤلمني ويعذبني كثيراً ، وانما أقصد أن نفسي قد اهتزت
للتبا اهتزازاً قوياً واضطربت اضطراباً شديداً • وحتى اللذة العادية التي
يشعر بها الناس حين يرون مصيبة تنزل بغيرهم ، كأن تكسر ساق أحد
أو يقطع شرفه أو يموت له عزيز أو ما الى ذلك ، حتى هذه اللذة العادية
لم أشعر بها ، وانما اجتاحتني شعور آخر ، شعور قوي الى أقصى حدود
القوة ، شعور بالحزن أو شعور بالحسرة •• لا أدري •• ولكنه شعور

يبلغ غاية القوة والحسن • وعن هذا أيضاً كنت راضياً وبهذا أيضاً كنت مقتبلاً • أمر عجيب : ما أكثر الأفكار الغريبة عما أنت فيه ، التي يمكن أن تتدفق وتتلاحق في ذهنك حين يهزك نبأ ضخم كان ينبغي له في الظاهر أن يخنق سائر المشاعر وأن يبشر جميع الخواطر التي لا تمت إليه بصلة ، ولا سيما الخواطر التي لا قيمة لها ولا خطورة • ومع ذلك فإن هذه المشاعر والخواطر هي التي عرضت لي وملأت نفسي • ما أزال أذكر أنني قد اجتاحتني هزة عصبية قوية ، شيئاً بعد شيء ، دامت عدة دقائق ، بل دامت طول الوقت الذي قضيته في البيت متحدثاً مع فرسيلوف •

وقد جرى هذا الحديث مع فرسيلوف في ظروف خاصة غير مألوفة . سبق أن قلت أننا نقيم في جناح بقاء عمارة وهذا المسكن رقمه ١٣ ؛ فقلت أن أصل الـ إلى بوابة المبنى سمعت امرأة تسأل بصوت عال ، وقد نفذ صبرها واشتد ضيقها : « أين يقع المسكن رقم ١٣ ؟ » • إنها سيدة فتحت بلب ذلك صغير مجاور • ولكن أحداً لم يجب عن سؤالها ، بل لعلمهم ظردوها ، لأنني رأيتها تهبط الدرجات غاضبةً مكروبةً يائسةً ، وصرخت تقول وهي تخطئ الأرض بقدمها :

– فأين البواب اذن ؟

وكنت قد تعرفت هذا الصوت منذ مدة • فقلت وأنا أتقدم منها :

– أنا ذاهب إلى المسكن ١٣ ؛ عمن تسألين ؟

– انني أبحث عن البواب منذ ساعة • سألت جميع الناس ، وصعدت

جميع السلالم •

– ان المسكن الذي تسألين عنه يقع في فناء العمارة • ألم تعرفيني ؟

ولكنها كانت قد تعرفتني • وواصلت كلامي فقلت :

– تريدان أن ترى فرسيلوف ؟ لك معه شأن ، ولى أنا معه شأن

أيضاً • انني أت إليه لأودعه إلى الأبد • فهيا بنا •

- أأنت ابنه ؟

- لا قيمة لهذا • هينى ابنه ، رغم أن اسمى دولجوروكى أنا ولد غير شرعى • ان لهذا السيد عدداً كبيراً من الأولاد غير الشرعيين • ورب ابن شرعى يترك منزل أبيه إذا أوجب عليه الضمير والشرف ذلك • جاء هذا حتى فى التوراة • ثم انه قد نال ميراثاً فلا أريد أن أقاسمه هذا الميراث • أريد أن أكتفى بكدم يمينى • ومن كان كريم القلب ضحى حتى بحياته اذا لزم ذلك • لقد اتحر كرافت فى سبيل الفكرة ! تصورى ! كرافت الشباب الذى كانت تعقد عليه آمال كبار ! حتى فى التوراة جاء أن على الأولاد أن يتركوا آباءهم وأن ينوا لأنفسهم أعشاشاً •• حين تجرفك الفكرة •• حين يكون له فكرة •• آه •• ان الفكرة هى الأمر الرئيسى •• كل شىء قائم فى الفكرة ••

واصلت هذه الثروة بمض الوقت الى أن بلغنا بيتنا • لاشك أن القارىء لاحظ أننى لا أراعى نفسى ولا أدارى نفسى ، وانما أصفها بما هى • اننى أريد أن أتعلم قول الحق •

كان فرسيلوف بالبيت • دخلت دون أن أترك معطفى • وكذلك فعلت هى • كانت ثيابها خفيفة جداً : فستان قائم اللون تتحرك فى أعلام قطعة من قماش لا أدرى ما هى ، ولكنها وضعت هنالك لتكون بمثابة ياقة أو خمار ؟ وطافية عتيقة مجرودة تغطى الرأس وهيئات أن تجمله •

حين دخلنا الصالة كانت أمى فى مكانها المألوف مكبة على شغلها ، وخرجت أختى من غرفتها لتنظر ، ووقفت عند العتبة • وكان فرسيلوف ، على عادته ، لا يعمل شيئاً ، فنهض يستقبلنا •• وحدق الى بنظرة قاسية مستهمة ، فأسرعت أقول لأطمئنه وأنا أتحنى :

- أنا لا شأن لى فى الأمر • لقد التقيت بها أمام الباب ، وكانت تسأل عنك ، فلا يدلها أحد • لكن لى أنا أيضاً قضية سوف يسرنى أن أشرحها لك بعد قليل ••

ولكن فرسيلوف ظل يتأملنى مستطلعاً •
وبدأت الفتاة تتكلم وقد نفذ صبرها فقالت :
- هل تسمح ؟

فالتفت فرسيلوف اليها • فأردفت تقول :

- لقد فكرت طويلاً فى السبب الذى دعاك الى أن تترك لى هذا
المال بالأمس ، فاتهيت الى •• الخلاصة : اليك مالك فخذ •

وأطلقت صرخةً كما فعلت من قبل ، وألقت على الطاولة حزمة من
الأوراق المالية • واستطردت تقول :

- اضطررت أن أذهب الى مكتب العناوين لأعرف أين تسكن ،
ولولا ذلك بلّثت قبل الآن •

ثم أضافت وهى تلتفت فجأة الى أمى التى شجب لونها شحوباً
شديداً :

- اسمعى انت • انى لا أريد أن أهينك • فوجهك يدل على أنك
سيده شريفة ، وربما كانت هذه الفتاة ابنتك • لا أدري أأنت زوجته
أم لا • ولكن اعلمى أن هذا الرجل يقص من الصحف الاعلانات التى
تنشرها المربيات والمعلمات بأخر ما يملكن من قروش ، ويطوف على
هؤلاء المسكينات سعياً الى منافع غير شريفة مغرياً اياهن بالمال • لا أدري
كيف أمكنتى أن أقبل ماله أمس ! كانت هيئته تذلل على استقامة وصدق •
قف مكانك ! لا تقل كلمة واحدة ! أنت رجل دنىء يا سيد ! وهبك
شريف النيات فاننى لا أريد مالك ! آه •• ما أشد سرورى بأن أفضحك
وأخزيك أمام نساك ! لعنة الله عليك !

وهربت مسرعه • ولكنها عند العتبة التفتت ، لا لئىء الا أن تصرخ
قائلة :

- يقال انك نلت ميراثاً !

ثم اخفت كما يخفى ظل • يجب أن أذكر مرة أخرى أنها كانت بشدة غضبها كجنية • شدة فرسيلوف شدهاً عميقاً • ولبت في مكانه حالماً ، وكأنه يفكر في شيء ما • ثم التفت الى فجأة وسألني :

- ألا تعرفها البتة ؟

- رأيتهما هذا الصباح مصادفةً في بيت فاسين • كانت تضطرب في الدهليز وتطلق الصرخات وترسل اليك اللعنات • ولكننا لم ندخل في حديث ، ولا أعرف عنها شيئاً • وقد التقيت بها الآن أمام الباب • لا بد أنها معلمة الأمس ، « تلك التي تعطي دروساً في الحساب » •

- هي نفسها • مرةً في حياتي قمت بعمل حسن ، و • • • وأنت ماذا جاء بك ؟

فأجبت بقولي :

- اليك رسالة • لا داعي الى أن أشفعها بايضاحات • انها من كرافت • وقد تلقاها كرافت من المرحوم أندرونيكوف • اقرأها فينيرك مضمونها • ولكنني أضيف أن أحداً في العالم لا يعرف الآن بوجود هذه الرسالة سوى ، لأن كرافت الذي أعطانيها أمس قد انتحر فوراً بعد زيارتي له •

فيما كنت أتكلم لاهتاً متعجبلاً ، تناول هو الرسالة ، فجعلها في يده اليسرى ، وتابع النظر الى باتباه • وحين أبلغته نبأ انتحار كرافت أنعمت النظر في وجهه لأرى ما أحدثه النبأ في نفسه • فما رأيكم اذا قلت لكم ان النبأ لم يحدث في نفسه أي أثر ؟ حتى حاجباه لم يرتفعا ! بالعكس : حين رأني أتوقف عن الكلام استل نظارته التي تركز على الأنف ويتدلى منها شريط أسود (وكان لا يفارق هذه النظارة أبداً) وقرَّب الرسالة من

شمعة ، وأخذ يقرؤها بعد أن ألقى نظرة على التوقيع الذي يذيلها • ليس
فى وسعى أن أصف لكم عمق الجرح الذى أصابتنى به كبرياؤه وقلة
احساسه • لا بد أنه يعرف كرافت معرفة قوية • وهذا نبأ خارق على كل
حال ! ولقد كنت أتمنى طبعاً أن أحدث فى نفسه أنساً • انتظرت
نصف دقيقة ، واذ كنت أعرف أن الرسالة طويلة ، فقد أدت له ظهري
وانصرفت • كانت حقيقتى مهياً منذ مدة طويلة ، ولم يبق على إلا أن
أجعل بعض أمتعتى فى صرة • وخطرت ببالى أمى : لم أكن قد اقتربت
منها • وبعد عشر دقائق كنت قد تهيأت تهيؤاً تاماً ، وهمت أن أمضى
باحثاً عن عربة ، فاذا بأختى تدخل على فى حجرتى تحت السقف •

- خذ • ان ماما ترسل اليك الستين روبلاً التى أعطيتها اياها ،
وترجوك مرة أخرى أن تغفر لها أنها حدثت آندره بتروفتش فى الأمر •
ثم اليك عشرين روبلاً أخرى • فقد دفعت بالأمس نفقات اقامتك خمسين
روبلاً ، وماما تقول انها لا يحق لها أن تأخذ منك الا ثلاثين ، لأنها لم
تنفق عليك أكثر من ذلك ، فهى ترد اليك العشرين روبلاً الزائدة •
- شكراً ، لكننى أرجو أن يكون ما قالته حقاً • استودعك الله
يا أختى • أنا راحل •

- الى أين ؟

- الى الفندق مؤقتاً ، حتى لا أفضى فى هذا البيت يوماً آخر فوق
ما قضيت فيه من أيام • قولى لماما اننى أحبها •

- هى تعرف أنك تحبها • وهى تعرف أيضاً أنك تحب آندره
بتروفتش • كيف لم تخجل من الايتان بتلك الفتاة المسكينة ؟
- أنا لم آت بها ، أحلف لك • وانما لقيتها أمام الباب •
- بل أنت الذى أتيت بها •
- أؤكد لك ••

- فكر جيداً ، واسأل نفسك ، تجد أنك أنت أيضاً كنت سيئاً
في ...

- كل ما هنالك انني سررت جداً باخزاء فرسيلوف • تصوري
أن له ولداً رضيعاً من ليديا آخماكوفا •• ولكن لماذا أقول لك هذا
الكلام ؟

- هو ؟ له ولد رضيع ؟ خطأ •• ليس الولد منه • من ذا الذي
قصّ عليك هذه الأكتوبية ؟
- ما أدراك أنت ؟

- ما أدراي أنا ؟ أنا التي ربيت هذا الولد في لوجا • اسمع
يا أخي : ألاحظ منذ مدة طويلة أنك ، بدون أن تعرف شيئاً ، تهين
آندره بتروفتش ، وبذلك نفسه تهين ماما أيضاً •

- طيب • اذا كان هو على حق ، فأنا على خطأ • ولكن هذا لا ينفي
أنتي أحبك كثيراً • لماذا تحمرين يا أختي ؟ طيب طيب • هانت ذى
تزدادين احمراراً • على كل حال ، سوف أطلب مبارزة ذلك الأمير
الصغير ، انتقاماً للصفعة التي كالهيا لفرسيلوف بمدينة « امس » • واذا
كان فرسيلوف غير مخطيء في حق آخماكوفا ، فيكون هذا أولى ••

- ما هذا الذي تقوله يا أخي ؟ ألا فكرت قليلاً ؟

- من حسن الحظ أن الدعوى قد فصل القضاء فيها • هانت ذى
الآن تصفرّين •

ابتسمت ليزا ابتسامة صفراء من خلال ذعرها وقالت :

- ولكن الأمير لن يبارزك •

- عندئذ سأخزيه على رموس الأشهاد • ما بك يا ليزا ؟

لقد بلغت ليزا من صفرة الضعف والوهن أنها أصبحت لا تستطيع
أن تثبت على قدميها ، فإذا هي تنهالك على الديوان •

- ليزا !

هكذا نادتها أمها من تحت •

فاستجمعت ليزا قوتها ونهضت ، وابتسمت لى ابتسامة رقيقة زاخرة
بالحنان ، وقالت :

- أخى ، دع هذه السخافات ، أو فانتظر حتى تعرف من الأمر
أكثر مما تعرف الآن • ان ما تعرفه قليل جداً •

- لسوف أتذكر يا ليزا أنك شجيت حين علمت أنني سآبارز
الأمير •

- نعم نعم ، تذكر هذا !

وابتسمت مرةً أخرى مودعة ، وبزلت •

ناديت حودياً ، ونقلت أمتعتى بمعاونته • لم يعترضنى فى البيت
أحد ، ولا استوقفنى أحد • ولم أودع ماما حتى لا ألقى فرسيلوف • وفيما
أنا أركب العربة ، برقت فى خاطرى فكرة سريعة ، فإذا أنا أقول
للحودى :

- فوتانكا ، جسر سان سيمون !

وأعود الى عند فاسين •

قدرت أن فاسين لا بد أن يكون مطلعاً على نبأ انتحار كرافت ، وأنه أعرف مني كثيراً بالأمر • وذلك ما وقع • فسرعان ما روى لي فاسين جميع التفاصيل ملياً ورغبتى ولكن بغير حرارة • فاستتجت من ذلك أنه متعب ، وكان ذلك حقاً • لقد ذهب في الصباح الى كرافت • وكان كرافت قد أطلق على نفسه رصاصة مسدس (ذلك المسدس نفسه !) بالأمس ، منذ هبط المساء ، كما يستخرج ذلك من يومياته • ان الكلمات الأخيرة التي دونها في يومياته انما كتبها قيل انتحاره بلحظات ، وفيها يذكر أنه يكتب في العتمة تقريباً وأنه لا يكاد يميز الأحرف ، ولكنه لا يريد أن يشغل شمعة ، مخافة أن يخلف وراءه حريقاً ، ثم هو يضيف الى ذلك في السطر الأخير قوله هذا الغريب : « أما أن أشعل الشمعة لأطفئها قبل إطلاق الرصاص مع اطفاء حياتي ، فذلك ما لا أريده ، • وكان كرافت قد بدأ كتابة هذه اليوميات أمس الأول ، فور عودته الى بطرسبرج ، قبل زيارته درجاشيف •

وكان بعد انصرافي يدوّن شيئاً كل ربع ساعة ، أما مرات التدوين الثلاث أو الأربع الأخيرة فلم يكن يفصل بين الواحدة والأخرى منها الا خمس دقائق • ولقد أدهشني أشد الدهشة أن فاسين ، وقد أصبحت هذه اليوميات تحت بصره منذ مدة طويلة (اذ أعطيها ليقراها) لم يحاول أن ينسخها ، لاسيما وأنها لا تملأ أكثر من ورقة واحدة ، وأن جميع التدوينات قصيرة ، « ولاسيما في الصفحة الأخيرة ! » • وذكر لي فاسين مبتسماً أنه يتذكر كل ما ورد في اليوميات ، وأن كلامها فوضى لا ينظمه ناظم وانما هي تسجيل لكل ما كان يخطر ببال المتحر • وقد هممت

أن أجيبه بأن قيمتها انما تكمن في هذا نفسه ، ولكنني أمسكت عن الكلام ،
وآثرت أن ألح على أن يتذكر شيئاً مما قرأ . فتذكر بضعة أسطر فعلاً .
كان كرافت قد كتبها قبل اطلاق الرصاص على نفسه بنحو ساعة ، وفيها
يقول انه « يشعر بقشعريرة » وانه « تمنى أن يشرب كأساً من الحمرة
طلباً للدفع ، ولكنه تصور أن شرب الحمرة سيزيد غزارة الدم المسفوح ،
فامتنع عن الشرب » . قال فاسين ان كل ما كتبه هو من هذا النوع تقريباً .

هتفت أقول :

- أفهذا ما تسميه سخافات ؟

- متى تكلمت عن سخافات ؟ كل ما هنالك انني لم أنسخ اليوميات .
وأنا أرى انها عادية وان لم تكن سخيفة ، أو قل انها طبيعية ، أي هي
ما لا بد أن يحدث في مثل هذه الحالة . .

- ولكن الأفكار الأخيرة ، الأفكار الأخيرة . .

- الأفكار الأخيرة تكون في بعض الأحيان تافهة تافهة عجيبة .
أعرف منتجراً تشكى في يومياته من أنه لم تزره في مثل هذه الساعة
الخطيرة أية « فكرة عليا » : فلا شيء إلا أفكار جوفاء تافهة .

- وهل القشعريرة فكرة جوفاء أيضاً ؟

- أتقصد القشعريرة أم غزارة الدم المسفوح ؟ انه لأمر معروف .
جداً أن كثيراً من الذين يقدرن على التفكير في موتهم الوشيك ، سواء
أكان موتهم بارادتهم أم كان بغير ارادتهم ، يهتمون في كثير من الأحيان
بحسن حالة جثمانهم . وبهذه الروح انما كان كرافت يخشى انسكاب
دم غزير . .

جمعت أقول :

- لا أدري هل هذه واقعة معروفة . . وهل هذا الذي تقوله

صحيح ، ولكن يدهشنى أن ترى فى الأمر كله شيئاً طبيعياً الى هذا الحد .
ان كرافت كان منذ وقت قصير يتكلم ويتحرك ويجلس بيننا . فهل يعقل
أن لا تأخذك به أية شفقة ؟

- بل تأخذنى به شفقة طبعاً . ولكن هذه قضية أخرى . ثم ان
كرافت نفسه ، على كل حال ، قد صور موته فى صورة استنتاج منطقي .
وقد تبين أن كل ما قيل عنه بالأمس عند درجاتشيف صحيح . لقد ترك
دفترأ ضخماً وضعه نتائج علمية تذهب الى أن الروس جنس من الطبقة
الثانية ، وأقام نتائجه على علم الهيئة ودراسة الجمجمة ، بل على الرياضيات
أيضاً ، واستخلص من ذلك أن المرء اذا كان روسياً فلا داعى الى أن
يحيا . فالشيء الذى يتميز به موت كرافت ، اذا شئت أن تجد له صفة
تميزه ، ليس أنه استنتج هذه النتائج ، ففى وسع المرء أن يستخلص
من النتائج المنطقية ما يشاء ، وانما هو أن يتحرر تدعيماً لهذه النتائج .
ذلك هو الشيء النادر الذى لا يحدث كل يوم .
- يجب أن تكبر قوة ارادته على الأقل .

قال فاسين متهرباً :

- وربما كان يجب أن تكبر شيئاً آخر .

ولكن كان واضحاً أن ما يدور فى خلد فاسين انما هو غباء كرافت
وضعف عقله . فكان ذلك يثير حتمى . قلت :

- بالأمس تحدثت أنت نفسك عن العواطف يا فاسين .

- ولست اليوم أنكرها . لكننى ازاء عنف الأمر الذى وقع لا أملك
الا أن أجد فيه من فحش الخطأ ما يجعل حكمى قاسياً يطرد من نفسى
حتى الشعور بالشفقة .

- لقد أدركت من النظر فى عينيك أنك ستقول سوءاً فى حق

كرافت • ومن أجل أن لا أسمع ما مستقوله ، قررت أن لا أسألك رأيك •
ولكنك أفصحت عن رأيك من تلقاء نفسك ، فلا يسعنى الا أن أوافق
برغم ارادتى على رأى رجل له ما لك من قوة الحجّة • ولكننى مستاء منك
يا فاسين • انى آسف على كرافت •
- أرى أننا نغالى قليلاً •••

فقاطمته قائلاً :

- نعم ، نعم ••• ولكن من المطمئن على الأقل أن الأحياء الذين
يحكمون على المتوفى يستطيعون دائماً فى مثل هذه الحالة أن يقولوا
لأنفسهم : « مهما يكن المتحر جديراً بالشفقة والتسامح ، فما نزال نحن
أحياء ، فلا داعى أن نصرف فى الحزن • » •

- طبعاً ••• من هذه الناحية كلامك صحيح • ولكن •• ولكن
أظن أنك فيما قلته الآن كنت مازحاً • طريفة نكتتك • اسمع • لقد اعتدت
أن أشرب الشاي فى مثل هذه الساعة فسأمر لىفى بشاي • وستشاركنى
طبعاً •

قال ذلك ثم خرج وهو يشمل ببصره حقيتى وصرتى •

والحق انى أردت أن أسخر منه انتقاماً لكرافت • فقلت ما قلته على
نحو ما استطعت • ولكن أعرب ما فى الأمر أنه فى البداية قد أخذ جملى
مأخذ الجذ : « ما نزال نحن أحياء » • ومع ذلك ، ومهما يكن من أمر ،
فقد كان أقرب منى الى الحق والصواب ، حتى فى موضوع العاطفة •
اعترفت بذلك لىفى دون أى امتعاض • ولكننى أحسست أنى لا أحبه •
فلما صار الشاي أمامنا أعلنت له أنى أريد أن يستضيفنى هذه
الليلة ، فاذا كان ذلك مستحيلاً فما عليه الا أن يصارحنى ، فأذهب الى
الفندق • ثم بسطت له الأسباب التى تدفعنى الى طلب هذه الضيافة ، ذاكرأ

أنتى على شقاق مع فرسيلوف ، ولكن دون أن أدخل فى التفاصيل • فأصغى الى فاسين باتباه ، غير أنه لم يظهر عليه شيء من انفعال • وكان يقتصر على الاجابة عن أسئلتى ، ولكن اجاباته كانت لا تخلو من افاضة ، وكانت لهجته لا تخلو من لطف ومودة • ولم أقل كلمة واحدة عن الرسالة التى جئت الى بيته فى الصباح لأسأله النصيح فى أمرها • وانما ذكرت أن زيارتى السابقة لم يكن لها من غرض غير الزيارة • اننى بعد الذى قطعته على نفسى لفرسيلوف ، وهو أن لا يعرف أحد عن هذه الرسالة شيئاً سواى ، قد أصبحت أعقد أنه ليس من حقى أن أجيء على ذكرها لأحد أبداً • وكان يزعجنى كثيراً من جهة أخرى أن أكلم فاسين فى بعض الأمور ، أقول فى بعض الأمور لا فى جميع الامور ، حتى لقد أفلحت فى اثاره اهتمامه حين قصصت عليه المشاهد التى وقعت فى الدهليز وفى غرفة الجارتين ، وأختتمت فى بيت فرسيلوف • فكان ينصت الى باتباه شديد ، ولا سيما حين كان الحديث يتناول ستيلكوف • حتى انه استعادنى الكلام مرتين ، ثم شرد فكره حين أثبت على ذكر الأسئلة التى ألقاها ستيلكوف عن درجاتشيف • على أنه انفجر فى النهاية ضاحكاً • فبدالى فجأة فى تلك اللحظة أنه لا شيء ولا أحد يمكن أن يربك فاسين فى يوم من الأيام • وانى لأذكر أن هذه الفكرة قد عرضت لذهنى فى صورة تشرقه كثيراً • وقلت اختم حديثى عندئذ :

— لم أستطع أن استخلص شيئاً مما قاله السيد ستيلكوف ، فانه ينطق بكلام مبهم متهرب ، وان معانيه يجرى بعضها وراء بعض متلاحقاً فلا تماسك •••

فسرعان ما ظهر الجد فى هيئة فاسين • وقال :

— صحيح أنه لم توهب له ملكة الكلام ، ولكن يتفق له أن يبدى ملاحظات تبلغ غاية الصحة والصواب فى وهلة واحدة • ثم ان أمثال

هذا الرجل أناس عمليون ، أو قل انهم رجال عمل لا رجال فكر • فيجب
أن نحكم عليهم بهذا المقياس •

وذلك بعينه ما كنت قد أدركته من قبل •

قلت :

— ومع ذلك أحدث عند جارتك فضيحة رهية ، فلا يستطيع أحد
أن يتنبأ بما كان يمكن أن ينتهى إليه هذا كله •

وعن هاتين الجارتين أسرّ الى فاسين أنهما هنا منذ ثلاثة أسابيع
تهرباً ، وأنهما قادتان من الأقاليم ، وأنهما تشغلان غرفة صغيرة جداً ،
وأن جميع الدلائل تشير الى أنهما فقيرتان فقراً مدقماً ، وأنهما تنتظران
هنا شيئاً ما • كان لا يعرف أن الفتاة نشرت اعلاتاً فى الجريدة تذكر فيه
أنها معلمة ، ولكنه علم أن فرسيلوف زارهما • وقد وقعت الزيارة فى
غيته ، غير أن المؤجرة ذكرتها له • وكانت الجارتان لا يخالطان أحداً ،
ولا تلقيان حتى المؤجرة • وقد لاحظ فاسين فى الأيام الأخيرة أن لدى
الجارتين مشكلات لا تجد سبيلها الى الحل فعلاً ، ولكن لم يسبق أن وقعت
عندهما مشاهد كالمشاهد التى وقعت اليوم • اتنى أتذكر حديثنا عن الجارتين
بسبب الأحداث التى تلت ذلك • وكان يخيم فى غرفتهما آتذ صمت
كصمت الموت • وقد ظهر على فاسين اهتمام شديد حين ذكرت له أن
ستيلكوف رأى أن عليه أن يكلم المؤجرة عن هاتين الجارتين ، وأنه ردد
مرتين قوله « سترى ، سترى » : وأضاف فاسين يقول : « سوف ترى أن
هذه الفكرة لم تساوره لغير سبب • ان له فى بعض الأمور نظرة حادة
صائبة • »

— أتعتقد اذن بأن من الواجب أن تقصح المؤجرة بطردهما من

البيت ؟

— لا ، ليست المسألة مسألة طردهما من البيت • ولكننى أخشى أن

تقع قصة • على كل حال ، فان جميع هذه القصص لا بد تنتهى أخيراً على نحو من الأنحاء ... دعنا من هذا !

وامتنع فاسين امتناعاً قاطعاً عن ابداء رأيه فى زيارة فرسيلوف للجارتين •

– كل شىء ممكن • أحسنّ الرجل بأن فى جيبه مالاّ •• ومن الجائز مع ذلك أن لا يكون قد أراد الا اعطاء صدقة ، فهذه أمور هى من تقاليدہ ، بل لعلها قائمة فى طبيعته وميوله •

فلما ذكرت له أقاويل ستيلكوف عن « الطفل الرضيع » ، قال فاسين بلهجة جادة خاصة (مازلت أسمعها) :

– هنا يخطئ ستيلكوف كل الخطأ • ان ستيلكوف يبالغ أحياناً فى الاعتماد على حسه العملى والركون اليه ، وقد يتسرع فى استخلاص النتائج بمنطقه الذى كثيراً ما يكون صادقاً نافذاً • فرب حادث واحد تختلف دلالاته اختلافاً شديداً باختلاف الأشخاص ، فيخضع للمنطق ويمكن التنبؤ به تارة ، ويتخذ صوراً خارقة ليست فى الحسبان تارة أخرى • وذلك ما وقع : فان ستيلكوف وقد عرف جزءاً من القضية استتج أن الطفل ولد فرسيلوف ، والحق أنه ليس من فرسيلوف •

واللحت على فاسين مستريداً من المعرفة ، فما كان أشد دهشتى حين علمت أن الولد من الأمير سيرجى سوكولسكى • ان ليديا آخماكوف ، بسبب مرضها أو بسبب طبيعتها الخالية الشاذة ، كانت تتصرف فى بعض الأحيان تصرف مجنونة • لقد تولت بحب الأمير قبل وصول فرسيلوف ، ولم « يجد الأمير حرجاً فى قبول حبها » برهة قصيرة ، تساجرا بعدها كما يعرف العارفون ، فطردت ليديا الأمير ، ويبدو أن الأمير ابتهج بهذا الطرد وسر به سروراً كبيراً • كانت ليديا فتاة عمجية الأطوار (كذلك أضاف فاسين) : ومن الجائز جداً أنها لم تكن سليمة العقل فى يوم من

الأيام • ولكن الأمير حين سافر الى باريس كان يجهل كل الجهل أنه ترك
ضحيته جلي ، وظل يجهل ذلك الى النهاية ، أى الى حين عودته • وفي
أثناء ذلك أصبح فرسيلوف صديق ليدا ، فعرض عليها الزواج ، خاصة
بسبب حبها الذي كان ظاهراً (ولكن لم يفتنوا اليه حتى النهاية تقريباً) •
وكانت ليدا قد تولت بحب فرسيلوف فطار لبها فرحاً بعرضه ، « ولم
تر فى هذا العرض تضحية فحسب » ، مع تقديرها للتضحية فى الوقت
نفسه • وولد الطفل (بنتاً) قبل الأوان بشهر أو ستة أسابيع ، فهد
به الى مرضعة يمكن فى ألمانيا ، ثم استرده فرسيلوف ، وهو يعيش الآن
فى روسيا ، ربما ببطرسبرج •

– وما حكاية أعواد الكبريت الفوسفورية ؟

قال فاسين :

– لا أعرف عن هذا شيئاً البتة • وقد ماتت ليدا أخمكوكفا بعد
الولادة بخمسة عشر يوماً • ما ظروف موتها ؟ لا أدري • وقد علم الأمير
بوجود الطفل منذ عاد من باريس ، ويبدو أنه فى الوهلة الأولى لم يصدق
أن الطفل منه ••• ومن جهة أخرى جهدت جميع الأطراف فى إبقاء
القصة سرّاً لا يقشرو بين الناس • وما تزال الى اليوم محفوفة بالغموض •
هتفت أقول مساء :

– ولكن ما هذا الأمير ؟ أهكذا تعامل فتاة مريضة ؟

– لم يكن مرضها فى ذلك الحين قد تفاقم • ثم انها هى التى طردته •
صحيح أنه ربما كان قد أسرع يستفيد من هذا الطرد ، فلم يلبث أن رحل
على الفور •

– أتهرب سلوك رجل نذل مثله ؟

– لا • ولكننى لا أصفه بأنه نذل • ان فى الأمر شيئاً آخر غير
النذالة • على كل حال ، هذه مسألة عادية مألوفة • انه لا ينفرد بهذا
السلوك من دون سائر الناس •

- قل لى يا فاسين : هل عرفته من قرب ؟ اننى أحب كثيراً أن اعتمد على رأيك بسبب ظرف يمسنى جداً .

ولكن فاسين أجاب هنا بكثير من التحفظ . انه يعرف الأمير ، ولكنه لم يشأ أن يقول كلمة واحدة عن ظروف تعرفه اليه . وقد أسرَّ الى بعد ذلك أن طبع الأمير يبيز له أن يكون متسامحاً فى الحكم عليه . « ان نفسه تزخر بمبول خيرة ، وهو انسان يمكن التأثير فيه ، لكنه لا يملك لا من العقل ولا من الارادة ما يمكنه من السيطرة على رغباته وشهواته » . وهو رجل لا ثقافة له ، لكنه مهووس بالتقل والتشرد بين أفكار وأمور لا قدرة له على فهمها . من ذلك أنه يصدع أذنيك بأقوال من هذا النوع : « أنا أمير ، أنا سليل زوريك . ولكن لماذا لا أكون مساعد اسكافى اذا احتجت الى أن أجنى رزقى وكنت عاجزاً عن عمل شيء آخر ؟ سوف يقرأ الناس على لافتة دكانى حيثذ : « الأمير فلان ، حذاء » ، هل ثمة ما هو أنبل من هذا ؟ » . انه يقول هذا الكلام مستعداً لتنفيذه ، وذلك هو الأمر الخطير . أضاف فاسين هذه الجملة ، وأردف : ولكنه لا يقول هذا الكلام عن اقتناع ، وانما يقوله عن خفة عقل وسرعة تأثر . ثم تأمى الندامة بعد ذلك حتماً ، فيكون على أتم الاستعداد للانتقال الى التقيض تماماً . وهكذا تجرى حياته كلها . ان فى عصرنا أناساً كثيرين يجدون أنفسهم محصورين فى طريق مسدودة ، لا لشيء الا لأنهم ولدوا فى عصرنا .

بذلك ختم فاسين كلامه . فشرد ذهنى ووجمت حالماً مفكراً . ثم سألت فاسين :

- هل صحيح أنه طرد فى الماضى من الجيش ؟

- لا أدرى أطرده أم لا . ولكننى أعلم أنه ترك الجيش بعد بعض المضايقات . لعلك لا تجهل أنه فى الحريف الماضى ، وقد أحيى الى التقاعد ، قد قضى شهرين أو ثلاثة أشهر فى لونغاً ؟

.. أنا .. أعلم أنك كنت حينذاك فى لونا .
- نعم ، كنت فى لونا أيضاً بعض الوقت . وكان الأمير يعرف
كذلك الزباث ما كاروفنا ؟
هتفت أقول :

- صحيح ؟ كنت أجهل هذا . اننى لم أكلم أختى الا قليلاً . ولكن
هل استقبلته أمى فى بيتها ؟

- لا . هذه معرفة قديمة تمت فى لقاء بيت ثالث .

- نعم . ثم ، ماذا قالت لى أختى عن ذلك الطفل ؟ هل كان الطفل
فى لونا أيضاً ؟

- بعض الوقت .

- وأين هو الآن ؟

- لا بد أن يكون بطرسبرج .

صحت أقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- لن أصدق أبداً أن تكون أمى قد شاركت أية مشاركة فى هذه
الألعاب من قصة ليديا كلها !

فقال فاسين وهو يتسهم ابتسامة تسامح :

- فى هذه القصة ، التى لا أحاول أن أحلل عقدها على كل حال ،
لا أرى أن دور فرسيلوف يشتمل على شىء يستحق أن يلام عليه لوماً
شديداً فى حقيقة الأمر .

وأظن أن فاسين كان قد سئم من الحديث معى ، ولكنه لا يريد أن
يظهر سأمه .

وهتفت أقول مرة أخرى :

— لن أصدق أبداً ، أبداً ، ان امرأة يمكن أن تتنازل عن زوجها
لامرأة أخرى ! لا ، هذا شيء لن أصدقه أبداً ! ... أحلف أن أمي لم
تشارك أية مشاركة في هذا الأمر .

— يخيل الى مع ذلك أنها لم تعارضه .

— لو كنت في مكانها لثرت وعارضت ، من باب العزة والشمم على

الأقل .

قال فاسين يختم كلامه :

— لا أريد من جهتي أن أقطع بحكم في هذا الموضوع .

والواقع أن فاسين ، رغم ذكائه كله ، كان لا يفهم في شؤون النساء
شيئاً ، فكانت دائرة كبيرة من الأفكار والحوادث ، غريبة عنه مجهولة لديه .
وصمت . وكان فاسين يعمل مؤقتاً في شركة مساهمة ، وكنت أعلم أنه
يحمل شيئاً من عمله الى بيته . فلما ألححت في القاء الاسئلة عليه ، أعلن
لي أن هناك حسابات يجب عليه أن ينجزها ، فرجوته رجاء حاراً أن
لا يشعر من وجودي بخرج ، وأن يشرع في انتجاز عمله . وأظن أن
ذلك قد سره . ولكنه قبل أن يجلس الى مكتبه أراد أن يهييء لي سريراً
على الديوان . وكان قد عرض عليّ أن أنام على سريريه هو ، ولكنتي
رفضت ، وأظن أن هذا أيضاً قد سره . واستمرنا من المؤجرة مخدّة
وغطاء . وكان فاسين مهذباً ولطيفاً الى أقصى حد ، لكنني كنت أشعر بشيء
من الضيق حين أراه يتكلف هذا العناء من أجلي . أذكر أنني قبل ثلاثة
أسابيع ، حين اتفق لي عرضاً أن بت ليلة عند ايفيم في بطرسبرجسكيا
ستورونا ، كنت أكثر ارتياحاً . انه هو أيضاً قد أعد لي سريرى على الديوان
بغير علم عمته ، مفترضاً — لا أدري لماذا — أنها ستستاء اذا علمت أن رفاقاً
له يجيئون اليه للمبيت عنده . لقد ضحكنا كثيراً ، واتخذنا من قيص
شرشفاً نغطى به الديوان ، ولفنا معطفاً فجعلناه مخدّة . وأذكر أن

زفاريق ، بعد أن أتممتنا هذا العمل كله ، ربت على الديوان براحة يده
قائلاً بماطفة :

- « ستام كملك صغير » (بالفرنسية) •

فكان من شأن هذا المرح الغبي ، وهذه الجملة الفرنسية التي لاتناسبه
أكثر مما يناسب البقرة أن تلبس مريلة ، كان من شأن ذلك أن قضيت
عند هذا المهرج ليلة بديعة • أما عند فاسين فما كان أشد ارتياحى حين
رأيته يجلس أخيراً الى مكتبه ويدير لى ظهره •

اضطجعت على الديوان ، وطفقت أفكر فى أمور كثيرة وأنا أنظر الى

• ظهره •

كان ثمة أشياء كثيرة تبعث على التفكير • وكانت نفسى مضطربة ، فلا شىء فيها مكتمل • صحيح أن بعض الاحساسات أبرز من بعض ، ولكن ما من احساس بينها كان يجزئى وراءه جراً تاماً ، وذلك من فرط وفرتها وغزارتها • كان كل شىء يبرق برقاً ان صح التعبير ، بغير ترابط ولا تماسك ، وكنت أنا نفسى لا أريد أن أتلبث على شىء ، ولا أن أقيم أى نظام • حتى ذكرى كرافت تراجعت شيئاً فشيئاً ، فأصبحت فى المقام الثانى من اهتمامى • ان ما يث الاضطراب فى نفسى أكثر من كل ما عداه انما هو حالتى الشخصية • أنتبى الآن قد « قطعت صلتى » بها هى ذى حقيقتى ، وهأنذا بعيد عن البيت ، وهأنذا أبدأ حياة جديدة • لكأن كل ما سبق أن عقدت النة عليه وهيات له الأسباب انما كان قبل الآن لهواً وضحكاً ، ثم اذا بكل شىء « ينقلب الآن الى واقع على حين فجأة » ، على حين غرة خاصة • وكانت هذه الفكرة تشجعنى ، وكانت تبهجنى رغم الاضطراب الذى كنت أحسه لأسباب شتى • ولكن ... ولكن كان ثمة احساسات اخرى • وكان بينها احساس يتمنى أن يتقدمها جميعاً وأن يستولى على نفسى كلها • ومن غريب الأمر أن هذا الاحساس كان هو أيضاً يشجعنى ، ويدفعنى الى فرح شديد • ومع ذلك كان هذا الاحساس قد بدأ يخوف : لقد خفت منذ مدة طويلة ، طويلة جداً ، أن أكون قد أسرفت فى الكلام عن موضوع الوثيقة مع آخماكوف ، بدافع الحماسة والمفاجأة • قلت أحدث نفسى : « نعم ، لقد قلت أكثر مما كان يجب أن أقول ، فلا بد أنهما حزرنا شيئاً • ياللمصيبة ! لا شك فى أنهما لن تدعا لى راحة اذا ساورتها شبهة • ولكن لعلهما لن تعثرا على » • سوف اتوارى عن الأنظار ! ولكن ماذا اذا لاحقتانى ؟ ... ، فاذا أنا أتذكر ، بغير قليل من التلذذ ، ما وقع لى مع

كاترين نيقولايفنا كاملاً لا يتقصه شيء من التفاصيل . فأرى نظرتها التي كانت جريئة ولكنها كانت كذلك مدهوشة أشد الدهش ، وأرى كيف تركتها مشدوهة مضطربة مشوشة ؟ « ليست عيناها سوداوين سواداً حالكا مع ذلك وانما السواد الحالك في الأهداب وحدها فهذا ما يضقى على العينين مظهر السواد الشديد »

أذكر أن هذه الذكرى قد أثارَت في نفسي اشمزازاً قوياً على حين فجأة ، اشمزازاً وتقززاً منها ومنى على السواد . فأخذت أكيل لنفسي أنواعاً من اللوم ، وحاولت أن أصرف فكري الى شيء آخر . وخطر ببالى هذا السؤال فجأة : « لماذا لم يساورنى أى استياء من فرسيلوف بسبب حكايته تلك مع الجارة ؟ » . كنت من جهتي مقتنعاً اقتناعاً قوياً بأنه مثل دور العاشق الولهان ، وانه لم يجيء إلا نشداناً للتسلية ، ولكن ذلك لم يثر غضبي فى الواقع . حتى لقد بدا لى أنه يستحيل على المرء أن يتصوره فى غير هذا الصورة . ولئن سررنى أنه أخزى ، فأننى ما اتهمته ولا أدته قط . وانما كان الشيء الذى يهمنى هو نظرة الكراهية تلك التى ألقاها علىّ حين دخلت عليه مع الجارة . لقد قلت محدثاً نفسى خافق القلب : « ها قد أخذنى أخيراً مأخذ الجدد ! » . آه . . . هل كان يمكن أن اغتبط لكراهيته هذا الإغتباط كله لولا أن كنت أتحبه ؟

وغفوت فى النهاية ، ثم نمت نوماً كاملاً . وفيما يشبه الحلم ، رأيت فاسين . . . وقد أنهى عمله - يرتب كل شيء بضايعة ، ويلقى على ديوانى نظرة ثابتة ، ثم يخلع ملابسه ويطفىء الشمعة . كان الوقت قد جاوز منتصف الليل .

بعد ساعتين ، استيقظت منتفضاً وجلست على ديوانى • كان ينبعث وراء الباب فى غرفة الجارتين صراخ رهيب واتحباب وبكاء وعويل • وكان باب غرفتنا نحن مفتوحاً على مداه ، وكان الدهليز مضاءً ، وكان فيه أناس يصيحون ويركضون • فأردت أن أنادى فاسين ، لكننى سرعان ما أدركت أنه لم يكن فى سريره • ولم أعرف أين يمكننى أن ألتمس أعواد ثقاب ، فتناولت ملابسى تلمساً ، وارتديتها فى الظلام • لكأن المؤجرة وجميع المستأجرين كانوا على موعد فى غرفة الجارتين • ان العويل يصدر عن صوت واحد اجمالاً ، هو صوت الجارة المسنة ، أما صوت الفتاة الذى سمعته أمس وما أزال أتذكره تذكراً واضحاً كل الوضوح ، فقد كان صامتاً صمتاً مطلقاً • هذه هى الملاحظة الأولى التى برقت فى خاطرى • وما ان انتهيت من ارتداء ملابسى حتى دخل فاسين مسرعاً ، فتناول أعواد الثقاب فى لحظة واحدة بيد تعرف المكان ، وأثار الغرفة • وكان يلبس قميصاً وثوباً للمنزل وخفين ، فسرعان ما أخذ يرتدى ثيابه •

هتفت أسأله :

– ماذا حدث ؟

فقال بما يشبه الغضب :

– قصة مزعجة مربكة ! ان الجارة الشابة التى حدثتني عنها بالأمس

قد شنت نفسها فى غرفتها •

فانطلقت من صدرى صرخة • لن أستطيع أن أصف الألم الشديد الذى اعترانى ! وهرعنا الى الدهليز • أعترف أتى لم أجرؤ أن أدخل غرفة الجارتين • ولم أر الفتاة المسكينة التى شنت نفسها الا فيما بعد •

بل لم أنظر إليها الا من بعيد • كانت مغطاة بشرشف برز تحته تعسلا
حذاءيها الضيقان • لم أنظر الى وجهها • كانت الأم فى حالة فظيعة
مخيفة • وكانت معها المؤجرة التى لم ألاحظ فيها كثيراً من الارتياح •
وكان المستأجرون قد تجمعوا فى غرفة المأسة • ولم يكن عددهم كثيراً :
بحار عجوز دائم التذمر متشدد فى مطالبه • لكنه اليوم هادىء كل الهدوء
وعجوزان - زوج وامراته - قدما بالأمس من اقليم « تفير » • وهما
شخصان محترمان من رتبة معينة • لن أصف بقة تلك الليلة • ولا الذهاب
والاياب • ولا الزيارات الرسمية • لقد ظللت الى مطلع الصبح ارتعش
إرتعاشاً صغيراً سريعاً من شدة الاضطراب • ورأيت أن من واجبى أن
لا أرقد • رغم أنى لا أقدم أية معونة ولا أقوم بأن عمل مفيد • وكانت
وجوه الجميع تعبر عن يقظة شديدة على كل حال • بل كانت تعبر عن همة
وتشاط • وقد خرج فاسين من البيت للقيام باجراءات رسمية فى أغلب
الظن • وبرهنت المؤجرة على أنها فى هذه الأحوال امرأة ذات شهامة •
وأنها خير مما ظننت فيها • وقد أفتتها (وذلك أمر شعرت منه بفخر)
بأنه لا يجوز أن تترك الأم وحيدة مع جثمان ابنتها • وبأن عليها أن تنقلها
الى غرفتها حتى الغد على الأقل • فسرعان ما وافقت على رأئى • ورغم أن
الأم أخذت تتخبط وتبكي رافضة أن تترك جثمان ابنتها • فقد رضيت أن
تذهب الى غرفة المؤجرة أخيراً • ولم تلبث المؤجرة أن سارعت تأمر باشغال
السماور • وتفرق المستأجرون بعد ذلك ذاهبين الى غرفهم وأقفلوا
أبوابهم بالمفاتيح • ولكننى لم أشأ أن أرقد بحال من الأحوال • وظللت عند
المؤجرة طول الليل • فسرت المؤجرة بأن يكون فى غرفتها شخص آخر •
وأن يكون هذا الشخص عدا ذلك قادرا على أن يتحدثها فى الأمر • وكان
السماور نعم الجليس • ان السماور فى روسيا ضرورة لازمة فى جميع
الكوارث والنوازل • ولاسيما ما كان منها فظيماً مفاجئاً شاذاً ••
فحتى الأم شربت فنجانين من الشاي • ولكن بعد أنواع من التوسل

والتضرع طبعاً ، حتى لكأننا أجبرناها على الشرب اجباراً . والحق انى لم أر فى حياتى كرباً أفسى من كرب هذه الأم ولا بأساً أوضح من بأسها . وقد طاب لها بعد الانتحاب الشديد والصراخ المسعور أن تأخذ فى الكلام عما جرى لابنتها ، فأصغيت الى قصتها بنهم قوى . ان بين النساء الذين نزلت بهم المصائب ، ولاسيما النساء منهم ، أناساً يجب عليك فى مثل هذه الحالة أن أن تدعهم يتكلمون ما شاعوا أن يتكلموا . هذه نفوس حرتها أنواع الشقاء والمحن والأحزان حرتاً ان صح التعبير ، فلا شىء يدهشها بعد ذلك ، ولو كان كوارث مفاجئة ، ولا شىء ينسيها قاعدة من قواعد فن الكياسة والتماس المودة والشفقة ، ولو كان منظر جثمان أعز مخلوق لديها . ولست أحكم على هؤلاء الناس . فليس مصدر هذا عندهم أنانية عامية ولا تربية فجحة . بل لعل فى هذه القلوب من صفاء الذهب ما ليس فى قلوب أبطال لهم من النبل أعظم مظهر ؛ ولكن التعود الطويل على المذلة ، وغريزة البقاء ، واستمرار ما يعانون من القلق والخوف والاضطهاد ، قد غلبهم على أمرهم أخيراً . فمن هذه الناحية كانت المتحجرة المسكينة لا تشبه أمها . ولكنهما متشابهتان فى ملامح الوجه تشابهاً تاماً ، وان تكن الفتاة جميلة حقاً . ان الأم لم تطعن فى السن ، فهى فى نحو الخمسين من عمرها ؛ وكانت شقراء هى أيضاً ، ولكن عينها غائرتان وخديها خاسفان وأسنانها كبيرة صفراء متفاوتة . وكل ما فيها يمت الى الاصفرار بصلته : فجلد الوجه واليدين أشبه بالرق ؛ وفستانها القائم قد اصفر من فرط قدمه ؛ وظفر الابهام من اليد اليمنى كان مدهوناً بشمع أصفر لا أدرى لماذا !

ولقد كانت القصة التى روتها مشوشة فى بعض الأحيان ، فلا ترابط بين أجزائها . وسوف أروى لكم الآن ما فهمته وما أتذكره .

لقد جاءتنا من موسكو . وهى أرملة منذ مدة طويلة ، ولكنها أرملة « مستشار » . كان زوجها موظفاً ، ولم يترك لها شيئاً ، « الا مائتى روبل هى راتب المعاش ، ولكن ما قيمة مائتى روبل ؟ » . ومع ذلك ربت أوليا ، وأرسلتها الى اللسيه . . « وما كان ألمها فى الدراسة ، ما كان ألمها ! لقد نالت عند تخرجها من المدرسة مدالية فضية . . » (هنا ذرفت المرأة دموعاً غزيرة بطبيعة الحال) . وكان زوجها قد خسر عند تاجر من بطرسبرج مبلغاً يساوى قرابة أربعة آلاف روبل . وفجأة استرد التاجر نراه . « لدى أوراق ، وقابلت محامياً ، فقيل لى : طالبى بالدين ، وستقبضين المبلغ حتماً . . » ففعلت ذلك ، فأخذ التاجر يوافق . فقيل لى : اذهبى اليه بنفسك . فحزمتنا أمتعتنا ، أنا وأوليا ، وجئنا الى بطرسبرج ، ونحن فيها منذ شهر . وكنا نملك قليلاً من المال . واستأجرنا هذه الغرفة لأنها أصغر الغرف ، ولكنها فى بيت شريف . لاحظنا هذا بأعيننا ، وهو الشيء الهام فى نظرنا : فاننا ونحن امرأتان بغير خبرة يمكن أن يسيء الينا الناس وأن ينالونا بأذى . ودفعنا لك أجرة شهر سلفاً . ولكن المعيشة فى بطرسبرج باهظة التكاليف . ورفض التاجر أن يدفع لنا حقناً . قال : « أنا لا أعرفكما ولا أريد أن أعرفكما » ، وكانت الأوراق التى بيدي غير كافية . أدركت ذلك بنفسى ، ونصحونى بأن استشير محامياً شهيراً . كان المحامى الذى نصحونى باستشارته استاذاً . لم يكن محامياً عادياً بل كان من رجال التشريع ، فلا بد أن يقول لى ما الذى يجب على أن أعمله . ذهبت اليه حاملة له آخر ما نملك ، خمسة عشر روبلاً . لم يصغ الى كلامى ثلاث دقائق . وقاطعنى يقول « فهمت ، فهمت . أعرف . اذا أراد التاجر أن يدفع دفع ، واذا لم يشأ أن يدفع فلن يدفع . واذا أقت

دعوى ، فقد 'يحكم عليك بدفع النفقات • فالأفضل أن تحلى المسألة معه صلحاً ، حتى لقد زج فى كلامه آيات من الانجيل مازحاً متهمكاً : « كن مصالِحاً لخصمك ما دمت معه فى الطريق ، قبل أن تخسر آخر فلس » • وشيعنى ضاحكاً • هكذا ضيعت خمسة عشر روبلاً ! رجعت الى أوليا • وجلست كل منا أمام الأخرى • وكنت أبكى • • أما هى فأنها لم تبك • بل بقيت ساكنة ، شامخة ، متألمة • وهكذا كان شأنها طول حياتها • لا « آه » ولا « أوه » ! لا تذرف دموعاً • وتظل عينها قاسيتين • وكنت اذا رأيتها على هذه الحال تسرى فى ظهري رعدة • صدقتى اذا أردت أن تصدق : كنت أخاف منها ، أخاف منها حقاً ، منذ مدة طويلة • وكنت أشتهى فى بعض الأحيان أن أتسكى ، ولكننى لا أجرؤ أن أتسكى أمامها • عدت الى التاجر مرة أخيرة ، وذرفت دموعاً غزيرة • فلم يزد على أن قال لى : « طيب » ، حتى دون أن يصفى الى كلامى • يجب أن أذكر لكما أننا كنا لا نتوى أن نمكث مدة طويلة هذا الطول كله ، لذلك نفذ كل ما كان منا • رهنت جميع أثوابى واحداً بعد واحد ، فكنا نعيش مما تقترض • وتفدت ثيابنا كلها • فأعطيتى آخر قميص عندها • وذرفت دموعاً مريرة • وقرعت بقدمها الأرض من شدة غضبها ، وهرعت تذهب الى التاجر بنفسها • انه رجل أرمل • فكلّمها هكذا : « تعالى غداً غد فى الساعة الخامسة ، فقد يكون عندى ما أقوله لك » • فرجعت الى البيت فرحة جذلى • وأبلغتني ما قاله لها : « سيكون عندى ما أقوله لك » • فسررت أنا أيضاً • ولكن شعرت فى الوقت نفسه بثقل يجثم على صدرى • قلت لنفسي : سوف يحدث شيء ! ولكن هل كنت أجرؤ أن أفاتحها بما يساورنى ؟ وفى غداة الغد رجعت من عند التاجر شاحبة شحوباً شديداً ، مرتعشة ارتعاشاً قوياً ، وارتمت على السرير • ففهمت كل شيء ، ولم أجرؤ حتى أن أسألها عما حدث • هل يمكنك أن تصدق ما وقع ؟ لقد أخرج لها هذا اللص الحقيير خمسة عشر روبلاً ، وقال : « اذا وجدتك

عذراء زدت المبلغ أربعين روبلاً . . . قال لها هذا ، في وجهها ، دون
خجل . فما كان منها الا أن هجمت عليه - فيما روت لي - ولكنه دفعها
عنه برجله ، ومضى الى غرفة أخرى أقفل عليه بابها بالمفتاح . واهى
لأعترف لكما صادقة أننا كنا مع ذلك لا نكاد نملك ما تقفان به . وأخذنا
صديرة مبطنة بجلد أرنب فبناها . ثم ذهبت الى الجريدة ، ونشرت اعلانا
تقول فيه : أحضّر لجميع العلوم ، وللحساب . وقالت لي : « سأقبل أن
يدفع لي ثلاثون كوبكاً » . وأصبحت في النهاية ، أنا أمها ، ارتاع حين
أراها . أمسيت لا تقول لي شيئاً ، بل تبقى جالسة على النافذة ساعات
بكاملها تنظر الى سطح المنزل المقابل ، ثم تصرخ قائلة على حين فجأة :
« لسوف أعمل غسالة ، أو أعمل حفارة اذا لزم الأمر » . تقول ذلك
ثم تفرع الأرض بقدمها . ذلك أننا ليس لنا أحد يمكن أن نلتجىء اليه .
ما المصير الذى ينتظرنا ؟ وكنت ما أزال أخاف أن أتحدث معها . ونامت
مرة في وضع النهار ، ثم اذا هي تستيقظ فجأة فتفتح عينيها وتنظر الى
وكنت أنا جالسة على الصندوق ، أنظر اليها أيضاً . فاذا هي تنهض دون
ان تقول شيئاً ، وتدنو منى ، فتقبلنى بقوة ، بقوة ، ثم تفقد كلتانا الصبر ،
فأخذ نبكى ، ونظل متعاقبين لا تترك احدانا الأخرى . لم يحدث لها هذا
في حياتها الا تلك المرة . وفيما نحن كذلك دخلت علينا خادمتك
ناستاسيا وقالت : « هناك سيدة تسأل عنكم » . حدث هذا منذ أربعة
أيام . ودخلت تلك السيدة : انها ترتدى ثياباً حسنة ، وتتكلم
الروسية ، ولكن بلكنة ألمانية . قالت : « هل أعلنت في الجريدة أنك
تعطن دورساً ؟ » ، فاحتفينا بها ، وأجلسناها ، وكانت تضحك بلطف
ومودة . وأضافت تقول : « لست أجيء من أجلى أنا ، بل من أجل
ابنة أختى التى لها أولاد صغار . فتعالى الينا اذا شئت ، وستفاهم » .
وأعطت عنوانها : شارع كذا ، عمارة كذا ، شقة كذا . ان العمارة
تقع قرب جسر فوزنسكى . وانصرفت . ذهبت أوليا الى العنوان .

بل سعت اليه في ذلك اليوم نفسه . ثم اذا هي تعود بعد ساعتين
 مصابة بنوبة عصبية رهيبية . وقد روت لى ما حدث لها فيما بعد
 فقالت : سألت البواب : « أين الشقة رقم كذا ؟ » ، فنظر الى البواب وقال :
 « ما حاجتك الى هذه الشقة ؟ » . وكان في لهجته غرابة شديدة ، حتى
 لتراود المرء ريبة من سماع هذه اللهجة وحدها . ولكن أوليا قوية
 الكبرياء ، نافذة الصبر ، فلا تستطيع أن تطبق الأسئلة الكثيرة والكلمات
 الفظة . فقال لها البواب مشيراً باصبعه الى السلم : « طيب . هنى ذى
 الشقة فاذهبى اليها » . وأدار لها ظهره ، وعاد الى حجرته . فهسل
 تصورون ما الذى حدث ؟ دخلت أوليا الشقة ، وسألت ، فسرعان ما هرعت
 نساء من جميع الجهات تقول لها : « ادخلى ، ادخلى ! » ، وقد هرعن
 جميعاً ضاحكات ، مبهرجات ، مخضبات الوجوه بالأصباغ والمساحيق ؛
 نساء ساقطات يبعثن على التفرز ، أهدقن بها وجررنها جراً ، وكان هناك
 من يعزف على البيانو . قالت لى أوليا : « أردت أن أهرب ، ولكنهن لم
 يتركنى » . فخافت ، وخارت ساقاها فلا تكادان تحملانها . والنساء
 ما يزلن ممسكات بها ، يكلمنها بلطف ورقة ، ويشجعنها . وفتحن زجاجة
 من خمرة بورتو 'يردن أن يسقينها احتفاءً بها وتكريماً لها . فانتفضت
 وأخذت ترشقهن بالشتم مرتشئة مرددة : « اتركنى ، اتركنى » .
 وهجمت على الباب فأمسكنها ، فأخذت تعول . وعندئذ وثبت الأخرى ،
 تلك التي جاءت الينا ، فصفت أوليا صفتين ، ودفعتها الى الخارج وهي
 تقول لها : « أنت لا تستحقين يا قاذورة ، أنت غير جديرة بسكنى بيت
 لائق ! » وهتفت امرأة ثانية قائلة لها وهي تهبط على السلم : « أنت
 جئت تعرضين نفسك ، لأنك ليس فى بيتك طعام تسدين به رمقك ،
 والا لما رضينا أن ننظر اليك وأنت على ما أنت عليه من هذه الدمامة
 كلها ! » . وقد قضت ليلتها فى حمى وهذيان . وفى الصباح كانت
 عيناها تسطعان . نهضت وقالت : « سأستكى » . ولم أفل أنا شيئاً ،

ولكنى فكرت بينى وبين نفسى : « كيف تمكن الشكوى ؟ أين الأدلة ؟ » .
وأخذت أولياً تسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، وتلوى يديها ؛ وأخذت
الدموع تسيل من عينيها ، ولكنها تكثر أسنانها متجلدة مكابرة . وقد
صار وجهها بلون التراب منذ تلك اللحظة ، وظل على هذه الحال حتى
النهاية . وتحسنت فى غداة الغد ، وسكتت عن الكلام ، فاعتقدت أنها
هدأت وسكنت . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر من ذلك اليوم انما جاء
السيد فرسيلوف .

أقول بصراحة : اننى مازلت غير قادرة على أن أفهم كيف أمكن
أن تصنى أولياً اليه من أول كلمة وهى على ما عليه من سوء الظن وشدة
الارتياب . والحق أن ما جذبنا كلتينا اليه هو هيئته الجادة الرصينة ، بل
القاسية ، وكذلك أسلوبه فى الكلام وهو أسلوب رقيق ، مهذب ،
لا مهذب فحسب ، بل فيه توقير واحترام أيضاً ، بدون أن تملق مع
ذلك : ان المرء يحس أن كلامه تابع من قلبه . قال : « قرأت اعلانك فى
الجريدة . وأرى أنك لم تحسنى كتابته ، وذلك قد يسىء اليك . » ثم
ذكر بعد ذلك شيئاً لم أفهمه ، شيئاً عن الحساب . ولكننى رأيت أولياً تحمر
(فلا بد أنه رجل ذكى جداً) ، حتى لقد سمعتها تشكره . وألقى عليها
عدداً من الأسئلة . وعرفت أنه يقيم بموسكو منذ مدة طويلة ، وأنه يعرف
مديرة ليسيه معرفة شخصية . وأضاف يقول : « سوف أجد لك دروساً ،
لأننى أعرف كثيراً من الناس هنا ، بل أستطيع - اذا شئت الحصول على
وظيفة ثابتة ، أن أوصى بك أشخاصاً لهم نفوذ كبير . ولكن اسمحى لى ،
بانتظار أن يتحقق ذلك ، أن ألقى عليك سؤالاً صريحاً بغير لف ولا
دوران : ألا أستطيع أن أساعدك فى شىء على الفور ؟ وثقى بأنك أنت
التي تحسنين الىّ اذا أتحت لى أن أساعدك ، فيكون علىّ أنا أن أشكر لك
صنيعك . والأمر بسيط : سوف ترددين الىّ المساعدة متى حصلت على
الوظيفة . وأقسم لك بشرفى أننى من جهتى اذا وقعت يوماً فى ضائقة

كالصانقة التي تعانين منها ، فلن أخجل من أن أطلب مساعدتك ، وسوف
 أرسل اليك عندئذ زوجتي وابنتي . . . » . لن أروى لكما كل حاله ،
 وحسبى أن أذكر أنني ذرفت دموعاً حين رأيت شفتي أوليا تختلجان
 شكراً وعرفاناً بالجميل . ولقد أجابته هكذا : « اذا قبلت مساعدتك ،
 فانما أقبلها لثقتي برجل شريف مستقيم انساني يمكن أن يكون بمثابة
 أبى . . . » . لقد عبرت عما فى ذهنها بكلام يبلغ هذا المبلغ من الحسن
 والايجاز والنبيل : « رجل انساني ! » . فما كان منه الا أن نهض فوراً
 وهو يقول : « سأجد لك دروساً ووظيفة ، حتماً ؛ سأهتم بهذا الأمر منذ
 اليوم ، لا سيما وأنتك حاصلة على شهادات كافية . . . » ولكننى نسيت
 أن أقول لكما انه منذ دخل قد دقق فى شهادات اللبسيه لأنها أرته اياها ،
 وانه سألها فى موضوعات كثيرة . وقد قالت لى أوليا بعد انصرافه : « هل
 تعرفين يا ماما أنه امتحنتنى امتحاناً . . . ما أذكاه ! ما أمتع الحديث مع رجل
 فى مثل علمه وثقافته ! . . . » . كان وجهها يشع فرحاً . وكان على
 الطاولة ستون روبلاً . قالت لى : « ارفعيها يا ماما . سوف نحصل على
 وظيفة . وسوف نرد اليه القرض فى أقرب وقت . سوف نبرهن على أننا
 أناس شرفاء ، وأن لنا شعوراً مرهفاً واحساساً رقيقاً ، ولقد لاحظ هو ذلك
 طبعا . . . » . ثم صحت . ورأيت أنها تتنفس تنفساً عميقاً . وقالت لى بعد
 برهة : « لو كنا أناساً أفظاظاً يا ماما ، لرفضنا مساعدته كبرياء وأنفة ولكننا
 بقبولنا هذه المساعدة برهنا على رقة شعورنا ، وعلى أننا نثق به رجلاً
 جديراً بالاحترام ، شائب الشعر ، أليس كذلك ؟ » . فلم أفهم فى أول
 الأمر شيئاً ، وقلت : « لكن علام نرفض مساعدة رجل نبيل غنى يا أوليا ،
 اذا هو كان فوق ذلك طيب القلب ؟ » . فقطبت حاجبيها وقالت : « لا ياماما ،
 ليس هذا هو الأمر ، ليس الأمر أمر مساعدة بل أمر روح انسانية . أما
 المال فلعله كان ينبغى أن لا نأخذه . ألم يعد بأن يجد لى وظيفة ؟ كان هذا
 يكفى . . . رغم شدة حاجتنا الى المال . . . » . قلت « كفاك يا أوليا ، ما نحن

في حال تسمح لنا بالرفض ، حتى لقد ضحكت وأنا أقول لها هذا الكلام .
 كنت بيني وبين نفسي مسرورة . ولكن ها هي ذى أوليا تعود الى الموضوع
 بعد ساعة قائلة : « تريشى يا ماما . لا تنفقي من هذا المال شيئاً . » قالت
 ذلك بلهجة قاطعة . فسألتها : « لماذا ؟ » ، قالت : « نعم ياماما ، تريشى » .
 ثم لم تنطق بعد ذلك بشيء . وإنما ظلت مساءها كله صامتة . حتى اذا
 كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، استيقظت فسمعت أوليا تنقلب على
 سريرها وتسالني : « ألسنت نائمة يا ماما ؟ » ، فأجبتها : « لا » ، فقالت :
 « هل تعلمين ؟ لقد أراد أن يهينني » . قلت : « ما هذا الكلام ؟ » . قالت :
 « حتماً ، حتماً ، انه رجل دنيء . اياك أن تنفقي كوبكاً واحداً من ماله . » .
 وهممت أن أجيبها ، حتى لقد بدأت أبكي على سريرى ، ولكنها انقلبت
 الى جهة الحائط قائلة لى : « لا تجيبيني ، دعيني أنام ! » . ونظرت اليها
 فى الصباح ، فلم أتعرفها من فرط تغيرها . صدقاً أو لا تصدقاً ، لكننى
 أحلف لكما أمام الله أنها قد جنت ! انها منذ عوملت تلك المعاملة فى ذلك
 البيت الساقط القدر ، قد اختل قلبها ، واختل عقلها أيضاً نظرت
 اليها فى ذلك الصباح ، فاستبدت بى الحيرة وصرت لا أدرى كيف أتصور
 الأمر واستبدت بى الخوف . قلت لى نفسى : « يجب أن لا أعارضها .
 سألتنى : « ماما ، لم يترك عنوانه ، أليس كذلك ؟ » . فقلت : « أنت على
 خطأ يا أوليا . لقد سمعت حديثه أمس ، فأثيت عليه ، ثم أوصلت أن
 تذرفى دموع الشكر والعرفان بالجميل . » . ولم أقل لها شيئاً آخر ، ولكنها
 أخذت تصرخ ، وتضرب الأرض بقدمها قائلة لى : « ليس فى قلبك الا
 عواطف ذل ! هى تربية عهد العبودية ، القديمة . . . واضح هذا ! » .
 ما أكثر ما قالته لى من كلام جارح ! . . . وتناولت قبعتها ، وهربت .
 لم أستطع أن أصددها . وصححت أناديهها على السلم . ثم تساءلت ماذا
 دهاها ؟ الى أين هربت ؟ لقد ذهبت الى مكتب العناوين ، لتعرف أين
 يسكن السيد فرسيلوف . وقالت لى حين عادت : « فى هذا اليوم نفسه

سأردُّ إليه ماله ، سأرمى ماله في وجهه • لقد أراد أن يهينني ، كما فعل سافرونوف (التاجر) ، ولا فرق بينهما الا في أن سافرونوف فعل ما فعله بفظانة فلاح ، أما هو فبمكر واحتتيال ، ورياء ونفاق • • • وفي تلك اللحظة نفسها نقر على الباب ذلك السيد الذي جاءنا أمس ، وقال : سمعتكما تتكلمان عن فرسيلوف ، فأستطيع أن أزودكما بأنبائه • • • فما ان سمعت اسم فرسيلوف حتى وثبت الى الرجل مستعرة الغضب • وأخذت تتكلم ، وتكلم • فكنت أنظر اليها فلا أصدق عيني • عهدي بها شديدة الصمت ، ما رأيتها في حياتها تتدفق في الكلام هذا التدفق ، فكيف تندفع الآن في الحديث هذا الاندفاع ، ولا سيما مع رجل لا تعرفه ؟ وكانت خذاها حمراوين ، وكانت عيناها تسطمان • قال الرجل لها : انك على حق يا آنسة • ان فرسيلوف يشبه كل الشبه أولئك الجزالات الذين يوصفون في الصحف • يتزين واحدهم بجميع أوسمته ، ويسعى الى المربيات اللواتي ينشرن اعلانات في الجرائد ، يسعى ويجد مطلبه • واذا لم يجده يتكلم ، ويبذل الوعود البراقة ، ثم يرجع من حيث أتى ! يكون قد تسلى على الأقل • « حتى أوليا ضحكت ، ولكن ضحكها كان متقطعاً عجيباً • وتناول ذلك السيد يدها وحملها الى قلبه قائلاً : « أنا أيضاً أملك ثروة في امكاني دائماً أن أعرضها على فتاة جميلة • ولكن حسبي في أول الأمر أن أقبل يدها • • • » ، ورأيت أنه يجذبها الى صدره ليعانقها ويقبلها ، فوثبت أوليا ، ووثبت أنا معها في هذه المرة ، وتعاوننا كلتانا على طرده • وفي المساء استردت أوليا المال مني وخرجت مسرعة ، ثم رجعت فقالت لي : « ماما ، انتقمت من ذلك الرجل الحقير ! • • • قلت لها : « أوليا ، من يدري أننا لم ندمر سعادتنا بأيدينا ، من يدري أنك لم تهينى رجلاً شريفاً محسناً ! » وبكيت ألماً وحسرة • لم أستطع أن أسيطر على نفسي • فاذا هي تصرخ قائلة : « لا أريد ، لا أريد ، هيه أشرف انسان في العالم ، فانتى لا أريد صدقاته ! لا أريد أن يشفق على أحد ! • • »

ورقدت خالية البال من أية فكرة • لم يدر في خلدي شيء • لظالما نظرت اليه ، هذا المسمار المدقوق في الجدار من بقايا مرآة ، فلم يخطر في ذهني شيء ، لا أمس ، ولا قبله ، ولا في يوم من الأيام • لم أقدر أن يحدث حادث • لاسيما وأنتى كنت لا أتوقع هذا من عزيزتى أوليا • ومن عادتى أنتى أنام نوماً ثقيلاً ، وأشخر ؛ انه الدم يصعد الى رأسى • وقد ينزل الدم الى قلبى فأصرخ فى نومى ، فتوقظنى أوليا فى الليل وتقول لى : « ما هذا يا ماما ؟ انك تنامين نوماً يبلغ من الثقل انه يصعب ايقاظك عند الحاجة • » فأقول لها : « آ • • • نعم نعم يا صغيرتى أوليا ، ان نومى ثقيل ، ثقيل جداً • • • » ولا بد اذن أنتى كنت فى هذه الليلة أشخر ذلك الشخير • وهذا ما كانت تنتظره أوليا: فنهضت دون أن تخشى شيئاً • وكان عندنا سير طويل نحزم به حقيبتنا ، وكان السير ملقى فى الغرفة ظاهراً للعيان طول هذا الشهر • ولقد حدثت نفسى بالأمس قائلة ان على أن أضعه فى مكان ، فليس يليق أن يبقى ملقى فى الغرفة هكذا ! أما الكرسى فلا بد أنها دفعته بقدمها ؛ ومن أجل أن لا تحدث ضجة وضعت تحته تنورتها • ولا شك أنتى لم أستيقظ الا بعد مدة طويلة ، بعد ساعة أو أكثر • فناديتها : أوليا ! أوليا ! لكن نوعاً من رؤيا قد وافانى فناديتها • واما لأنتى لم اسمع تنفسها فى السرير ، واما لأن سريرها بدا لى فى الظلام خالياً ، فقد رأيتى أثب دفعة واحدة وأمد ذراعى أتلمس السرير: لم يكن فى السرير أحد ، وكانت المخدة باردة • عندئذ انقبض قلبى ، وتجمدت فى مكانى كأننى تمثال من حجر ، واضطرب عقلى • قلت لنفسى : « لا بد أنها خرجت » • ثم لاح لى بقرب السرير ، فى الزاوية ، أمام الباب ، أنتى أراها واقفة • فنظرت اليها دون أن أقول كلمة ، ونظرت الى هى أيضاً فى الظلام دون أن تتحرك • ولكن لماذا هى واقفة على الكرسى • وقلت لها بصوت خافت جداً : « أوليا • انتى خائفة • أوليا ، هل تسمعيننى ؟ » • عندئذ اتضح فى نفسى كل شيء فجأة • فتقدمت خطوة

الى أمام ، ومددت ذراعى نحوها ، وطوقتها • فكانت تترجع بين يدي •
وأمسكتها فظلت تترجع • أدركت كل شيء • ولم أشأ أن أدرك •••
وأردت أن تصرخ ••• ولكن صوتى لم يخرج • تأوهت فى داخلى :
آه ••• وهويت على الأرض • وعندئذ صرخت •

.
.

قلت لفاسين فى الصباح ، بين الساعة الخامسة والساعة السادسة :
— لولا صاحبك ستيلكوف يا فاسين ، كان يمكن أن لا يحدث شيء
• مما حدث •

— ما يدريك ؟ بل كان سيحدث حتماً • لا يجوز للمرء أن يحكم
فى الأمور على هذا النحو • لقد كان كل شيء يسير بالفتاة الى هذه
الحلأمة • صحيح أن ستيلكوف ، فى بعض الأحيان •••

ولم يكمل فاسين جملته ، وقطب حاجبيه ممتعضاً ؛ وانصرف فى
الساعة السادسة ، فخلوت أخيراً الى نفسى • لقد طلع النهار • وكنت
أشعر بشيء من دوار • ووافتنى صورة فرسيلوف : ان القصة التى روتها
عنه السيدة تظهره فى ضوء جديد • ومن أجل أن أفكر فى الأمر على
مهل ، استلقيت على سرير فاسين بملابسى وحذائى لحظة ، وليس فى
نيتى أن أنام أبداً • لكننى لم ألبث أن نمت ، لا أذكر كيف تم هذا • نمت
قراية أربع ساعات • ولم يوقظنى أحد •

الفصل العاشر

١



في نحو الساعة العاشرة والنصف ، فلبث مدة لا أصدق عيني : فعلى الديوان الذي نمت عليه في الليلة البارحة كانت تجلس أمي ، وبجانبتها الجارة المسكينة المفجوعة ، أم المتخرة . وكانت الاثنان قد أمسكت كل منهما يد الأخرى ، وراحتا تتحدثان بصوت خافت حتى لا توقظاني طبعاً ، وكاتتا كلمتهما بكيان . نهضت ووثبت لأقبل أمي ، فأشرق وجهها وقبلتني ، ورسمت عليّ إشارة الصليب بيدها اليمنى ثلاث مرات . ولم تكن قد نطقنا بمد بكلمة واحدة حين فتح الباب ، فدخل فرسيلوف وفاسين . مدّ اليّ فاسين يده . ولم يخاطبني فرسيلوف بكلمة ، بل تهالك على المقعد . أغلب الظن أنه جاء الى هنا هو وأمي منذ وقت . وكان وجهه مشدوداً ، وكانت هيئته تتم عن هم وقلق . ولا شك أنه كان قد بدأ حديثاً مع فاسين ، فهاهو ذا يكمل حديثه قائلاً له بصوت واضح جداً :

- ان ما آسف له أكثر من كل شيء آخر هو أنني لم أستطع أن أعالج هذا الأمر كله مساء أمس . ولولا ذلك لما وقعت هذه الحادثة الرهيبة ! كان في الوقت متسع . لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد .

وما ان خرجت من عندنا هاربة حتى قررت بينى وبين نفسى أن أدركها هنا ، فأبدد ما قام فى ذهنها من فهم خطأ • ولكن تلك القضية المستعجلة التى لم تكن فى الحسبان ، والتى كان يمكنى مع ذلك أن أرجئها الى اليوم ••• بل كان يمكنى أن أرجئها أسبوعاً ••• تلك القضية المؤسفة هى التى حالت بينى وبين اللحاق بالفتاة الى هنا ، فأفسدت كل شىء • أمور تحدث !

فقال فاسين معترضاً :

- لعلك ما كنت لتستطيع أن تقنعها • ان أحقاداً مريرة كبيرة كانت قد تجمعت فى نفسها قبل أن تلقاها •

- بل كنت سأفصح فى آفئاعها • كنت سأفصح حتماً • وكانت فى ذهنى فكرة أخرى ، هى أن أرسل اليها صوفياً آتدريقنا نيابة عنى • لقد خطرت هذه الفكرة ببالى ، ولكنها لم تستقر فيه • كان يمكن أن تفصح صوفياً آتدريقنا ، فلو نفذنا هذه الفكرة لأمكن أن تكون المسكينة حية الآن • لا ، لا ! لن أقحم نفسى بعد اليوم فى ••• • أعمال خير ، ••• ها قد جربت فكان مسعاً وبالأ • ما كان أعبانى حين ظننت أنتى ما أزال من أبناء هذا العصر ، وأنتى أفهم طبيعة الشباب فى هذا الزمان ! نعم ، ان آدمقتنا قد شاخت حتى قبل أن تنضح • بالمناسبة : ان عدداً هائلاً من الناس لا يزالون بحكم العادة يظنون أنفسهم من جيل الشباب لأنهم كانوا حتى الأمس يتمون الى جيل الشباب ، ولا يدركون أنهم قد أقصوا ونحووا •

قال فاسين بتعقل وحكمة :

- هناك خطأ واضح فى فهم المسألة • ان أم الفتاة تعترف بأن ابنتها ، بعد الحادث الذى وقع لها فى بيت المومسات ، قد أصبحت كمن فقد عقله وأصابه جنون • أضف الى ذلك الظروف القاسية ، والاهانة الأولى التى

ألحقها بها التاجر . . . ان هذا كله يمكن أن يحدث في الماضي على هذا النحو نفسه ، وليس هو في رأيي صفةً تميز بها شبيبة هذا العصر .

– ان شبيبة هذا الزمان نافذة الصبر قليلاً ، ناهيك طبعاً عما تتصف به الشبيبة في جميع الأزمنة من ضعف ادراك الواقع ، ولا سيما شبيبة الزمان الحاضر . قل لي : ماذا لفق السيد ستيلكوف هنا ؟

فانبريت أتدخل في الحديث فجأة فقلت :

– ان السيد ستيلكوف هو سبب البلاء كله . فلولا لما حدث شيء .
لقد صبّ على النار زيتاً .

فأصفي فرسيلوف ، ولكنه لم ينظر الى . وقطب فاسين حاجيه .
ثم استأنف فرسيلوف كلامه فقال ماطماً كلماته بدون تعجل :

– هناك شيء آخر مخيف ألوم نفسي عليه . يخيل الىّ انني بحكم عادة سيئة مستحكمة قد أبحث لنفسي شيئاً من المرح معها ، فضحكت ضحكة خفيفة ، أي انني لم أكن قاطعاً وجافاً وجهماً بالقدر الكافي ، وهذه صفات ثلاث أظن أن الجيل الجديد يقدرها قدرأ كبيراً . فلعلني أتحت لها أن تحسبني نوعاً من سيلاون متجولاً .

فعدت أقاطعه مرة أخرى قائلاً بعنف :

– بالعكس : ان الأم تؤكد أنك أحدثت في نفسها اثرأ حسناً رائعاً ، وأن الفضل في هذا الأثر انما يرجع الى ما كان فيك من جدٍ بل من فسوة ، وما كان فيك من صدق . هذه أقوالها هي نفسها . ان الفتاة الراحلة قد أتت عليك بعد انصرافك تناء يحمل هذا المعنى ذاته .

فتمتم فرسيلوف وهو يلقي علىّ أخيراً نظرة سريضة خاطفة :

– ه . . . كذا ؟

ثم أضاف قائلاً لفاسين وهو يمد اليه ورقة صغيرة :

– خذ اذن هذه الورقة ، فلا بد منها للقضية .

فتناول فاسين الورقة ؟ واذا رأى أنني أنظر إليها مستطعماً ، أعطانيها لأقرأها . انها بطاقة كتب فيها سطران مضطربان كتبنا خربشةً بالقلم الرصاص ، وأغلب الظن أنهما كتبنا في الظلام : « ماما ، ماما العزيزة ، اغفري لي أنني قد رسبت في مطلع الحياة : ابتكك أولياً التي أورتك آلاماً . » .

قال فاسين شارحاً :

– وجدت البطاقة في هذا الصباح .

فهتفت أقول :

– يا لها من رسالة عجيبة !

فسألني فاسين :

– عجيبة ؟ لماذا ؟

– هل يستطيع المرء ، في لحظة كتلك اللحظة ، أن يكتب

بهذا الأسلوب الهزلي ؟

فنظر الى فاسين مستفهماً . فتابعت كلامي أقول :

– هذا الهزل نفسه عجيب . انه من اللغة التي يتخاطب بها تلاميذ

المدرسة . من ذا الذي يستطيع ، في مثل تلك اللحظة ، وفي رسالة

لأمه الشقية ، أمه التي يحبها هذا الحب الذي نراه واضحاً في الرسالة

نفسها ، أن يكتب : « رسبت في مطلع الحياة » ؟

فسألني فاسين وهو لا يزال لا يفهم :

– لماذا ؟

وقال فرسيلوف أخيراً :

- ليس ههنا أى هزل . قد يكون التعبير غير دقيق ، قد يكون ناشزاً ، قد يكون من بقايا اللغة التي يتخاطب بها التلاميذ في المدرسة كما تقول ، أو قد يكون مستمداً من رواية سلسلة قرأتها الفتاة ، ولكن لا شك في أن الفتاة حين استعملته لم تلاحظ أنها تستعمل لهجة فيها هزل ، وانما هي استعملته في هذه الرسالة النظيفة بسداجة تامة وجد كامل .

- مستحيل . لقد أنهت دراستها ، وحصلت عند تخرجها على مدالية فضية .

قال فرسيلوف :

- لا شأن للمدالية الفضية في هذا . كثيرون من يتهون دراستهم في هذا الزمان على هذا النحو !

فقال فاسين مبتسماً :

- تقصد الشيبية أيضاً !

فأجابه فرسيلوف وهو ينهض ويتناول قبعته :

- لا ، أبداً .

ثم أضاف يقول بجد غير معهود فيه :

- لئن كان الجيل الحالي أقل معرفة بالأدب ، فمما لا شك فيه . . . أن له مزايأ أخرى ! ثم ان قولي « كثيرون » لا يعنى « الجميع » . فانت مثلاً لا يمكننى أن اتهمك بأن ثقافتك الأدبية ناقصة ، ومع ذلك فانت لا تزال شاباً .

فلم أستطع أن أمنع نفسى عن أن أقول :

- ولكن فاسين لا يجد في هذا « الرسوب » خيراً ، ولا يعده سوءاً .

مدّ فرسيلوف يده الى فاسين صامتاً . وتناول فاسين كسكيتته ليخرج
معه قائلاً لى : الى اللقاء .

وخرج فرسيلوف دون أن يوليني اتبهاً . وكنت أنا أيضاً على
عجلة من أمرى ، لا أملك من الوقت ما أستطيع أن أضيعه سدى : كان
على أن أسعى باحثاً لنفسي عن مسكن يؤوينى . ان حاجتى الى هذا
أقوى منها فى أى وقت مضى !

وكانت أسمى قد انصرفت مصطحبة الجارة . فلما خرجت الى الشارع
وجدتني مشرق المزاج . ان اجساساً جديداً رجياً قد نبت فى نفسى .
وشامت المصادفة أن ينجح مسعائى . فسرعان ما وقعت على مسكن
مناسب كل المناسبة . سوف أعود الى هذا من بعد . أما الآن فلأفرغ من
الشيء الأساسى .

حين عدت الى بيت فاسين لأخذ حقيبتى لم تكن الساعة قد
تجاوزت الواحدة كثيراً . وكان فاسين فى البيت فما ان رأيت حتى
هتف يقول لى جذل الهيئة صادق النبوة :

- كم يسعدنى أنك وجدتنى ! كنت على وشك أن أخرج . هناك
حدث يجب أن أنقله اليك ، وأنا على يقين من أنه سيهمك كثيراً .
فهتفت أقول :

- أنا على يقين من ذلك سلفاً .

- هيه ! ما أشد هذه الكبرياء فى هيئتك ! قل لى : ألم تكن تعرف
شيئاً عن رسالة كانت عند كرافت ، ووقعت أمس بين يدي فرسيلوف ،
فى أمر الميراث الذى آل اليه ؟ ان كاتب الوصية قد عبر فى هذه الرسالة
عن ارادته بما يناقض حكم المحكمة . ويرجع تاريخ الرسالة الى زمن
بعيد . الخلاصة اننى لا أعرف ما ذا تتضمن الرسالة على وجه الدقة ،
ولكن ألا تعرف أنت شيئاً عن ذلك ؟

- أعرف ، طبعاً ! لقد اقتادني كرافت أمس الأول الى بيته ...
من عند أوائلك السادة ، فأعطاني الرسالة . وأنا الذي سلمتها أمس الى
فرسيلوف .

- صحيح ؟ ذلك ما قدرته . تصور أن القضية التي تكلم عنها
فرسيلوف هنا منذ قليل ، والتي حالت بينه وبين اللحاق بالفتاة في مساء
الأمس ليبدد ما وقع في وهما من سوء الظن ، انما هي قضية آثارها تلك
الرسالة . لقد ذهب فرسيلوف الى محامي الأمير سوكولسكي رأساً ،
في مساء الأمس ، وأعطاه الرسالة وتنازل عن الميراث كله . وقد اكتسب
هذا التنازل الآن صفة شرعية . فان فرسيلوف لا يهب هبة ، وانما
يعترف في صك التنازل بأن الميراث حق كامل للأمرء .

ذهلت . ولكنني سررت . الحق انني كنت مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن
فرسيلوف كان سيتلف هذه الرسالة التي تعرض مصلحته للخطر . وأكثر
من ذلك أنني قلت لكرافت : ان ائتلاف الرسالة عمل غير شريف ، حتى
انني كررت هذا القول لنفسى في المطعم ، ولكنني كنت في قرارة نفسى
أحس أن هذا الحل يفرض نفسه ، وانه طبعى ، سواء أكان الرجل
شريفاً أم كان غير شريف . واذا أمكنتني أن أتهم فرسيلوف فيما بعد ،
فانما يكون ذلك منى تظاهراً ، اى انني كنت سأصدر الاتهام عامداً
لأحتفظ بتفوقى على فرسيلوف . أما الآن ، وقد علمت بالماثرة التي قام بها ،
فقد أحسست بحماسة صادقة تامة . وأسفت لاستخفافى بالفضيلة وقلة
اكترائى بالواجب ، وسرعان ما وضعت فرسيلوف في منزلة أعلى كثيراً
من منزلتى في هذا المضمار . وأوشكت أن أقبل فاسين . وهتفت أقول
فيما يشبه الهديان من النشوة :

- ما أعظمه من رجل ! ما أعظمه من رجل ! من ذا الذى كان
يمكن أن يفعل ما فعله ؟
قال فاسين :

– اعترف معك بأن كثيراً من الناس ما كانوا ليفعلوا ما فعل ...
وأن عمله عمل ينزله في منزلة عالية من النزاهة والزهد بالمنفعة ...

– « ولكن ، ؟ أكمل يا فاسين ... هل عندك ما تعترض عليه
قائلاً « ولكن ، ؟ »

– طبعاً ، عندى « ولكن ، » . ان العمل الذى قام به فرسيلوف
يشتمل في رأى على تسرع ، ويشتمل على ... على ... ماذا أقول ؟
كيف أعبر ؟ نعم يشتمل على شيء من الزيف

– الزيف ؟

– نعم . لقد أراد بهذا الفعل أن يرفع قدر نفسه ... كان كمن
يبنى لنفسه « نصباً » يرتقيه . لقد كان فى وسعه أن يقوم بعمل نزيه
دون أن يلحق بنفسه ضرراً . فكأنه أراد أن يقلد نفسه وسام شرف بايداء
مصلحته . لقد كان فى وسعه – والظروف هى ما عرفت من ان حكم
القضاء صدر ومن أن الوثيقة ليس لها قيمة حاسمة – كن فى وسعه
أن يحتفظ لنفسه بنصف الميراث أو بجزء كبير منه فى أقل تقدير ، دون
أن يعترض على ذلك أى وجدان مهما يكن شديد الاحساس ، قوى
التزمت . وهذا رأى محامى الخصوم نفسه . لقد تحدثت مع المحامى
منذ برهة . فلو فعل فرسيلوف ذلك لكان قد قام بعمل لا يقل جمالاً
عن العمل الذى قام به . ولكنه فعل ما فعل جأ بالظهور ورغبة فى
المباهاة . لقد تحمس السيد فرسيلوف كثيراً وأسرف فى التسرع . ألم
يقل هو نفسه منذ قليل انه كان يستطيع أن يرجى الأمر أسبوعاً ؟ ...

– اسمع يا فاسين ... لا يسعنى الا أن أوافق على أن ما تقوله
سليم ... ولكننى أود أن أرى الأمور تجرى كما جرت !

– هذه مسألة ذوق . أنت الذى حرزتى على الكلام . ولولا ذلك
لصمت وما قلت شيئاً .

وتابعت كلامي فقلت :

- هب عمله نصباً يرتقيه اعلاءً لقدر نفسه فان هذا رغم ذلك أفضل . ان ميل المرء اعلاء قدر نفسه ، ولو بارتقاء « نصب » ، أمر جدير بالاعتبار والتقدير . ان له « مثلاً أعلى » على كل حال ، واذا كان الناس في هذا الزمان ليس لهم مثل أعلى ، فما هذا بتقدم . صحيح ان هذا المثل الأعلى مشوه بعض التشويه ، ولكنني أفضل ان يوجد على أن لا يوجد . ولا شك أنك تفكر هذا التفكير نفسه يا فاسين صديقي ، يا عزيزي فاسين ! أنا أعرف أنني أسرف في الحماسة حتى لكأنني أهدي ، ولكنت تفهم عنى طبعاً ، والا لم تكن فلسين . على كل حال ، فأننى أعانقك وأقبلك يا فاسين !

- من شدة الفرح ؟

- من شدة الفرح ! ذلك أن هذا الرجل « كان ميتاً فبعث ، وكان ضائعاً فرجع ! » . أنا فتى سيبى ، يا فلسين ، أنا لا أساويك . لذلك أشعر أحياناً بأننى أصبح انساناً آخر ، أسمى وأعمق في أن واحد . اننى بعد أن كنت لك المديح أمس الأول (وما مدحتك في الواقع الا لأنك أذلتتنى وأرهقتنى) ، ظللت أكرهك يومين كاملين ! وقد عاهدت نفسى في تلك الليلة على أن لا أجيئك من بعد أبداً ، لكن جئت اليك في صباح أمس ، فأننى لم أفعل ذلك الا من حنق ، هل فهمت ؟ من « حنق » ! وحين جلست على هذا الكرسي ، أخذت أتقد غرفتك ، وانتقدك أنت نفسك ، وانتقد كل كتاب من كتبك ، وانتقد مؤجرتك كنت أحاول أن أخفض قيمتك وأن أسخر منك

- ما كان ينبغي أن تقول لى هذا .

- فى مساء أمس ، حين استتجت من احدى عباراتك أنك لاتفهم المرأة ، أسعدنى كثيراً أننى أستطعت أن أغلبك . ومنذ قليل ، بمناسبة

الكلام عن « الرسوب في مطلع الحياة » ، سعدت مرة أخرى بسعادة هائلة لأننى استطعت أن أخطئك . وما ذلك كله الا لأننى مدحتك فى ذلك اليوم ...

كان فاسين لا يزال يتسسم ، دون أن يدهش أى دهش . وهتف يقول أخيراً :

- ولكن هذا أمر طبعى . هذا ما يحدث دائماً ، لجميع الناس تقريباً ، بل هذا هو الشعور الأول الذى يشب فى النفس . ولكن لا أحد يعترف به ، ولا ينبغى الاعتراف به على كل حال ، لأنه ينقضى ولا ترتب عليه أية نتيجة .

- يحدث لجميع الناس ؟ هل هذا ممكن ؟ هل جميع الناس على هذه الشاكلة ؟ هل يمكن أن يعرف المرء هذه الحقيقة ثم يحافظ على هدوئه ؟ بمثل هذه الأفكار ، تصبح الحياة مستحيلة !

- فأنت اذن ترى ما يراه القائل :

لوهم^٣ يسمو بالنفس خير من ألف حقيقة دنيئة .

فهتفت أقول :

- هذا صحيح كل الصحة . ان هذا البيت من الشعر يعبر عن بديهية مقدسة !

- لا أدرى ! لا أريد أن أجزم بأن هذا البيت من الشعر صادق أو كاذب . ان الحقيقة قائمة فى مكان بالوسط . كذلك شأنها دائماً . فرب أمر واحد يكون حقيقة مقدسة تارة ، ويكون كذباً سقيهاً تارة أخرى . غير أن هناك شيئاً أعلمه علم اليقين هو أن هذه الفكرة ستظل احدى النقاط الهامة التى يثور حولها الجدل وتكون موضع خلاف ونزاع بين الناس . وانى للأحظ على كل حال أن بك الآن رغبة فى الرقص . فهيا

أرقص ! الرقص متعة ولكنني في هذا الصباح قد تلقيت ركاباً ضخماً من
من العمل • وأرى أننا تأخرنا •

صحت أقول وأنا أمسك حقيتي :

— سأصرف حالاً ، سأصرف حالاً • ولكن لي كلمة واحدة •
لئن حدث لي مرة أن « ارتعيت على عنق أحد أقبلة » ، فما ذلك الا لأنك
نقلت الى النبأ منذ وصولي بفرح صادق ، ولأنك قد أسعدك أنني وجدتك
في البيت ، حتى بعد قضية « الرسوب في مطلع الحياة » • فهذا السرور
الصادق قد رد « قلبي الفتى » اليك زاخراً باللحبة • استودعك الله ،
استودعك الله ، سوف أحاول أن لا أجيء اليك الا بعد مدة طويلة ، بعد
أطول مدة ، وأنا أعرف أنك ترتاح لغيابي ارتياحاً عظيماً • اقرأ هذا في
عينك • وعلى كل حال ، فان في غيابي عنك خيراً لنا كلينا ••

وفيما أنا في هذه الثرثرة التي تكاد تخفني مرحاً وجدلاً ، سحبت
حقيتي ومضيت بها الى مسكني الجديد • وكان الشيء الذي يرضيني
ارضاء خاصاً هو أن فرسيلوف قد غضب مني ، ورفض أن يكلمني وأن
ينظر اليّ • فما ان أودعت حقيتي في المسكن الجديد ، حتى طرت الى
صاحبي الأمير المعجوز • يجب أن أعترف بأن بمدى عنه خلال هذين
اليومين قد شق على نفسي قليلاً • ولا بد من جهة أخرى أنه علم بما فعله
فرسيلوف •

كنت أعرف أنه سيفرح برؤيتي فرحاً شديداً ، وأقسم اننى كنت سأذهب اليه فى ذلك اليوم بصرف النظر عن رغبتى فى سماع ما سيقوله عن فرسيلوف . ولكن كان يخيفنى أمس ، وقبل ساعات ، أنتى قد ألقى عنده كاترين نيقولايفنا ، أما الآن فلا أخشى شيئاً .

عانقتى من شدة فرحه .

وسرعان ما هجمت على الموضوع الأساسى ، فبدأت حديثى معه

قائلًا :

- هيه ! ما رأيك فيما فعله فرسيلوف ؟

فأدرنى بقوله :

- « يا بنى العزيز » هذا عمل عظيم ، هذا عمل نبيل ! حتى كيليان

(الموظف الذى يعمل تحت) قد شده منه شدها كبراً . هذا العمل

جنون طبعاً ، ولكنه عمل باهر . انه مآثرة عظيمة ! يجب على المرء أن

يعرف كيف يقدر المثل الأعلى .

- أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ لقد كنا دائماً على اتفاق فى هذه

النقطة .

- يا عزيزى نحن دائماً متفقان . أين كنت ؟ لقد أردت أن أذهب

اليك حتماً ، ولكننى كنت لا أعرف أين يمكننى أن أجدك . . ولم يكن

فى وسعى أن أذهب الى فرسيلوف طبعاً . . رغم اننى اليوم ، بعد

ما حدث . . هل تعلم يا صديقى ؟ انه بمثل هذه الميزات انما أتيح له أن

ينتصر على النساء . أنا من هذا على يقين . .

- بالمناسبة ، قبل أن أسمى . . لقد سمعت تعبيراً قيل فى حقه ،

فحفظته لأقوله لك خاصة . أمس ، قال شخص بذىء حقير وهو يشتم

فرسيلوف ، قال ان فرسيلوف « نبي للنساء الفاضلات » . ياله من تعبير

عجيب ! التعبير نفسه ، هه ؟ حفظته لأقوله لك . .

- « نبي للنساء الفاضلات ! » تعبير أخاذ ! هاهاها ! تعبير ينطبق عليه تماماً ! بل قل انه لا ينطبق عليه ، لكنه تعبير أصاب هدفاً ، بل قل انه لم يصب أى هدف . . ولكن . .

- لا بأس ، لا بأس ! لا تقلق ! انظر الى الكلمة الموقفة فحسب . .

- الكلمة رائعة ، وان لها لمعنى عميقاً . . الفكرة صحيحة كل الصحة . أقصد . . لعلك ستصدق ما سأقوله لك . . الخلاصة . . سأقضي اليك بسر . هل لاحظت فى ذلك اليوم أبواب تلك ؟ هل تصدق أنها أغرمت بآندره بتروفتش ؟ بل اننى أعتقد أن أملاً يساورها . .

صحت أسأله مستاءً :

- أى أمل ؟

- « يا عزيزى » لا تصح هذا الصياح . الأمور تجري دائماً هذا المجرى . وأنت من جهة أخرى على حق ، من وجهة نظرك . بالمناسبة : قل لى يا صديقى ، ماذا حدث لك فى المرة الماضية أمام كاترين نيقولايفنا ! لقد رأيتك تترنح ، وكدت تسقط ، حتى اننى هممت أن أثب لأمسك بك .

- ليس هذا أوان الكلام فى هذا الأمر . على كل حال ، اضطربت بعض الاضطراب ، لسبب من الأسباب . .

- وهأت ذاً يحمر وجهك .

- وهل أنت فى حاجة الى مزيد من الالحاح ؟ انك تعرف أن بينها وبين فرسيلوف شقاقاً . . ثم هنالك تلك الأهور كلها . . المهم اننى اضطربت . دعنا من هذا الى حين آخر .

ورأيت ضابطاً شاباً جميلاً يدخل . فنظرت اليه بعين نهمه ، لأننى لم أكن قد رأيته من قبل أبداً . واذا قلت انه جميل ، فلأن جميع الناس كانوا يقولون عنه ذلك ، ولكن يجب أن أذكر أن وجهه الشاب الجميل

كان فيه شيء منفر • انى أسجل هنا شعوراً أحسسته فى الوهلة الأولى ، شعوراً خامرنى منذ أول نظرة ، ثم بقى فى نفسى لم يارحها • انه نحيل الجسم ، حسن القامة ، كستناوى اللون ، نضر البشرة على شيء من صفرة ، جازم النظرة ، تبدو فى عينيه ، القاتميين قليلاً ، فسوة ، حتى حين يكون هادئاً • ولكن نظرتة الجازمة هى نفسها الشيء المنفر فيه ، لأن المرء يحس أنها لا تكلفه الا ثمناً بخساً جداً • الخلاصة •• انى لا أعرف كيف أعبر عما أريد أن أقوله • على كل حال ، كانت هيئته قادرة على الانتقال من القسوة الى المودة فجأة ، وذلك بصدق لا يستطيع المرء أن يمارى فيه أو أن يججده • فهذا الصدق كان فيه جذاباً • وثمة سمة أخرى : لقد كانت سحته ، رغم هذه المودة وهذا الصدق ، خالية من الفرح • فحتى حين كان هذا الأمير يضحك ، تحس رغم كل شيء أن قلبه لا بد أن يكون خالياً من الفرح ، الفرح الحق ، الفرح الرشيق المضى • ولكن ما أصعب رسم صورة لوجه من الوجوه ! انى من جهتى عاجز عن هذا كل العجز •

وسرعان ما اندفع الأمير الشيخ يعرّف أحدنا بالآخر ، على ما جرت به عادته المستحكمة الحمقاء •

- صديقى الشاب آر كادى آندريفتش (أيضاً آندريفتش)
دولجوروكى •

فالتفت الأمير الشاب الى جهتى معبراً بوجهه عن احترام عظيم • ولكن كان واضحاً أنه لم يسمع باسمى من قبل • وتابع صاحبى الأمير الذى لا يطاق ، تابع كلامه قائلاً :

- هو •• قريب آندره بتروفتش ••

ما أثقل هؤلاء الأمراء العجائز احياناً بعاداتهم المستحكمة !

وسرعان ما حزر الأمير الشاب من أنا • فسرعان ما قال :

- آ . . نعم . . سمعت عنك منذ مدة طويلة . وقد سررت كثيراً
بمعرفة اختك اليزابث ماكاروفنا ، السنة الماضية ، في مدينة لونغما . وقد
حدثتني عنك أيضاً . .

دهشت دهشة كبيرة : ان سروراً صادقاً مخلصاً قد التمع في
وجهه .

وتمتت أقول وأنا أعقد ذراعى على ظهري :

- اسمح لي يا أمير . يجب أن أقول لك بصراحة - ويسرنى أن
أقول هذا الكلام بحضور أميرنا الغالي - اننى أرغب فى لقائك رغبة
شديدة ، وان هذه الرغبة قد استبدت بى فى الآونة الأخيرة ، واشتدت
بالأمس اشتداداً خاصاً ، ولكن لنية أخرى وغرض آخر . أقول لك هذا
بصراحة مهما يدهشك . خلاصة الأمر أننى كنت أريد أن أدعوك الى
المبارزة بسبب الاهانة الى ألحققتها منذ ثمانية عشر شهراً بفرسيلوف فى
مدينة « امس » . فاذا اتفق أن رفضت التحدى بحجة اننى تلميذ فى
المدرسة وأننى فتى مراهق ، فأننى كنت سأوجه اليك هذا التحدى أياً كان
جوابك ، وأياً كان العمل الذى تستطيع أن تقوم به . وما أزال عاقداً
عزمى على انفاذ هذا النية نفسها . اعترف لك بذلك .

وقد ذكر لى الأمير المعجوز فيما بعد اننى ألقيت جملتى الأخيرة هذه
بكثير من النبل والشمم .

وارتسم على وجه الأمير الشاب أسى صادق . وأجابنى بلمهجة
فيها حرارة :

- انك لم تترك لى أن أتم كلامى . لئن كنت قد وجهت اليك بضع
كلمات تابعة من القلب ، فانما السبب فى ذلك ما أحمله الآن لأندره
بتروفتش من عواطف صادقة . يؤسفنى أننى لا أستطيع أن أذكر لك
على الفور جميع الظروف والملابسات ، ولكننى أحلف بشرفى أننى منذ

مدة طويلة أشعر بأعمق الأسف للفعل السيء الذى بدر منى بمدينة « امس » • وحين عدت الى بطرسبرج كنت قد عقدت العزم على أن أقدم لآندره بتروفتش كل الترضيات الممكنة أى أن أطلب منه العفو والمغفرة صراحةً على النحو الذى يحدده هو نفسه ، وفى الصورة التى يرسمها بارادته • ان مؤثرات سامية جداً وقوية جداً هى التى كانت سبب هذا التبدل فى رأى • أما أننا كان بيننا دعوى ينظر فيها القضاء ، فذلك أمر لم يكن له أى تأثير فيما اتخذت من قرار • ولكن موقفه منى بالأمس قد هزنى هزاً قوياً • وصدقنى اذا قلت لك اننى حتى هذه اللحظة مازلت مضطرباً أشد الاضطراب لم استرد توازنى بعد • اعلم أننى انما أجيء الآن الى الأمير لأبلغه أمراً فى غاية الخطورة : منذ ثلاث ساعات ، أى - على وجه التحديد - فى اللحظة الذى كان يحرق فيه ذلك الصك مع المحامى ، جاءنى الرجل الذى هو محل ثقة آندره بتروفتش ، ونقل الى منى دعوةً الى المباراة • • دعوة رسمية • • تاراً لحادثة « امس » • • • هتفت أقول :

- دعاك الى المباراة ؟

وأحسست بعينى تلتهبان ، وبالدم يصعد الى رأسى •

- نعم ، دعانى الى المباراة • وقد قبلت التحدى فوراً • لكننى قررت ، قبل النزال ، أن أبعث اليه رسالةً أعلن له فيها رأى فى الفعل الذى صدر عنى ، وأعرب له فيها عن أسفى لهذه الخطيئة الرهيبة التى ارتكبتها • • ذلك أنها كانت خطيئة رهيبة ، خطيئة فظيعة ، مشؤمة ! • • أرجو أن تلاحظ أن هذه الخطوة التى أقوم بها قبيل المباراة ، أعنى هذا التراجع الذى يصدر عنى عشية النزال ، أمر مشين يحرك ألسنة الناس بما يسيء الى سمعتى ، ويحرض رفاقى فى الحين على هاجس القول فى حقى ، هل تفهم ما أعنى ؟ ومع ذلك اتخذت قرارى وعزمت أمرى • ولكن الوقت لم يتسع لارسال الرسالة ، فبعد انقضاء ساعة واحدة على

دعوته اياى للنزال ، وصلتني منه رسالة جديدة يرجونى فيها أن أعفر له أنه أزعجنى ، وأن أوصى تحديه ، ويضيف الى ذلك أنه « يأسف لهذه النوبة الطارئة من الوضاعة والأناية التى اعترته عرضاً ، تلك ألفاظه نفسها . وبذلك يسهل على أمر القيام بتلك الخطوة ، أعنى ارسال الرسالة . وأنا لم أرسلها بعد ، ولكننى جئت أباحث الأمير قليلاً . وصدقنى اذا قلت لك ان ما عانيته من عذاب الضمير يفوق ما عاناه أى انسان . هل يرضيك هذا الايضاح ، ولو الى حين علي الأقل ، يا أركادى ماكاروفتش ؟ هل تقبل أن تسبغ على شرف اعتقادك بصدق ما أقول صدقاً كاملاً ؟

غلبت . لقد رأيت صراحة لا مرأى فيها ، صراحة لم أكن انتظرها أبداً . لا ولا كنت أنتظر شيئاً من هذا القيل قط . فتمت أجليه بكلمات لا أدري ماذا كانت ، ومددت اليه يدي مستقيمين ، فهزهما بيديه فرحاً . ثم خلا بالأمر ، وتحدث معي في غرفته نحو خمس دقائق .

حتى اذا خرج من غرفة الأمير قال لى بصوت عال صريح اننا سنصرف معاً ، وانه سيطلقنى على الرسالة التى سيرسلها الى آندره بتروفتش وانه سيطلقنى كذلك على الرسالة التى تلقاها منه .

فوافقت على ذلك مسروراً أعظم السرور . وانهمك الأمير بتوديعى وتشيعى ، ونادانى أيضاً الى غرفته دقيقة فقال لى هناك :

– « يا صديقى ، ما أسعدنى ، ما أسعدنى ! .. وستكلم فى هذا من بعد على كل حال . أما الآن فان هناك عمليين أرجو أن تكرم فتنجزهما لى بنفسك على جناح السرعة فى البنك .

قال ذلك وناولنى قراطيس تقتضى منى ، فيما زعم ، أشد اليقظة والانتباه ، وشرح لى أن على أن أذهب الى البنك ، فأودع رسالة ، وأوقع

على ورقة ، الخ •••

فهمت أقول له ضاحكاً وأنا أتناول الأوراق :

- ما أشد مكرك ! يميناً ليس هذا منك الا تظاهراً وادعاءً ، وليس هناك أى عمل يجب على أن أقوم به • وما هاتان المهمتان المزعومتان الا من صنع خيالك لفتتهما تليفياً لتوهمني بأن لوجودى معك نفعاً ، وانى أتقاضى أجرى عن جدارة واستحقاق !

فقال لى :

- أحلف لك انك لمخطىء « يا بنى ! » • هما مهمتان مستعجلتان
كل الاستعجال •

ثم هتف يقول وقد فاض قلبه رقة وعاطفة وحناناً على حين فجأة :
- « بنى العزيز ! » •

ووضع يديه على رأسه وأردف يقول :

- اننى أباركك ، وأبارك مستقبلك •• لتكن قلوبنا عامرةً بالطهارة
والعفة كما نحن الآن •• ولنتحلّ بالخير والجمال الى أقصى ما نطيق •
لنحب الجمال •• فى جميع صورهِ وكافة أشكالهِ •• « هيا •• أخيراً ••
أخيراً •• لنشكر الله على نعمهِ وآلائهِ •• اننى أباركك •• » •

ولم يكمل كلامه ، بل أخذ يبكى فوق رأسى • وأعترف بأننى
كدت أن أبكى أنا أيضاً • ولئن لم أبك فاننى على الأقل قد قبلت صاحبى
الشاذ صادقاً مسروراً • بل تبادلنا قبلات كثيرة •

قادنى الأمير سرجى (أقصد سرجى بتروفنش ، وبهذا الاسم
 سأسميه بعد الآن) قادنى الى بيته فى مركبة أنيقة ، فأخذت أعجب بما فى
 شقته من فخامة وأبهة ، أو دحك من الفخامة والأبهة وقل انها شقة
 كالشقق التى يملكها أناس من « علية القوم » : غرف واسعة عالية وضوء
 (رأيت منها غرفتين وكانت الغرف الأخرى مغلقة) ، وأثاث ان كان
 لا يذكر بقصر فرساي أو عصر النهضة ، فانه لين طرى مريح وافر أنيق
 غاية الأناقة ، الى سجاد ثمين ، وخشب محفور ، وتمائيل صغيرة . ومع
 ذلك كان الناس مجتمعين على أن هذه الأسرة فقيرة معدمة ، وانها أصبحت
 لا تملك شيئاً البتة . ولكن يجب أن أضيف الى هذا أن الأخبار كانت
 تقول ان الأمير سرجى كان يحب أن يزر الزماد فى العيون حيث يكون ،
 سواء هنا أو فى موسكو أو فى الجيش ، وانه مقامر ، وانه مدين . وكنت
 أنا أرتدى ردنجاتاً مهترئاً ، وكان الردنجات عدا ذلك مغطى بالزغب بعد
 أن نمت من غير أن أخلع ثيابى ، ولم أكن قد بدلت قميصى منذ أربعة
 أيام . على أن الردنجات لم يكن يبعث على الاشمزاز ، لكننى ما ان وجدت
 نفسى عند الأمير حتى تذكرت ما أوصانى به فرسيلوف من تفصيل رداء
 جديد .

قلت شارذ الذهن :

– تصور أنتى قضيت الليل دون أن أخلع ثيابى ، بسبب حادثه
 انتحار !

فلما رأيتة يصيخ بسمعه متبهاً على القور ، رويت له القصة بايجاز .
 غير أن ما كان يهمه أكثر من كل ما عداه انما هو الرسالة التى يتوى أن

يبعثها الى فرسيلوف . وقد استقرت من جهتي أنه لم يظهر فيه حتى شيء من تبسم ، بل لم تبدر منه حتى حركة يسيرة تحمل هذا المعنى ، حين أعلنت له بغتة منذ قليل ، أنني أريد أن أدعوه الى مبارزة . فأغلب الظن أنني عرفت كيف أجبره على أن لا يضحك ، غير أن الأمر يظل محل استغراب من رجل مثله .

جلسنا متقابلين في وسط الغرفة أمام مكتب كبير ، وأراني رسالته الى فرسيلوف ، وكانت مهياً تهيةً كاملة . كانت الرسالة تتضمن جميع المعاني التي عبر عنها الأمير . حتى لقد كتبت بلهجة فيها حرارة . والحق أنني كنت لا أعرف بعد ماذا يجب أن أراه من رأي حاسم في هذه الصراحة الظاهرة وهذه الميول الطيبة الحيرة ، ولكنني قد بدأت انقاد للأفتان بالرجل ، حتى لقد تساءلت ما الذي يدعو الى أن لا أصدقه ؟ انه مهما يكن طبعه ، ومهما تكن الاشاعات التي تروج عنه ، قد يتصف بميول حسنة وسجايا كريمة . ورأيت الرسالة الأخيرة التي بعثها اليه فرسيلوف أيضاً ، وهي سبعة أسطر يعلن له فرسيلوف فيها عدوله عن تحديده ، وتراجعته عن دعوته الى مبارزته . فرأيت أن هذه الرسالة رغم ما ضمنها فرسيلوف من كلام عن « وضاعته » وعن « أنانيته » تتميز في جملتها بنوع من الاستعلاء . أو قل ان المرء يحس حين يقرأها أن الخطوة التي قام بها فرسيلوف تشتمل على نوع من الاحتقار ! . وقد حاذرت أن ابدى له هذه الملاحظة .

قلت أسأله :

– ولكن ما رأيك أنت في عدوله هذا ؟ ألا تعتقد أنه خاف ؟

فابتسم الأمير ، ولكن ابتسامته كانت تشتمل على كثير من الجدل ،

وقال :

– لا ، حتماً .

وكان يبدو عليه من جهة أخرى مزيد من الهم • وتلعب كلامه
يقول :

- اننى أعرف شجاعة هذا الرجل • ولكن له - وهذا رأى خاص
بى طبعاً - طرازاً فريداً فى النظر الى الأمور ••
فقاطعته قائلاً بحرارة :

- قطعاً • ان شخصاً اسمه فاسين يرى أن فى حكاية الرسالة
والتنازل عن الميراث نوعاً من اقامة « نَصَبٍ » يرتقيه اعلاءً لقدره فى نظر
الناس عن عمد • أما رأىى أنا فهو أن هذه الأنبياء لا يفعلها المرء حباً
بالظهور ، وانما هى تقابل شعوراً عميقاً وعاطفة صادقة •

قال الأمير :

- اننى أعرف السيد فاسين معرفة جيدة •

- آ •• نعم •• لا بد أنك رأيت فى لوجا •

فنظر كل منا فى صاحبه فجأة • وأذكر أننى قد احمر وجهى
قليلاً • وانقطع الحديث على كل حال • وكنت أنا ميلاً الى الكلام •
كنت أتصور اللقاء الذى تم بالأمس ، فيحضنى ذلك على أن ألقى عليه
بعض الأسئلة ، ولكننى لا أعرف كيف أتصرف فى الأمر ، وكنت أشعر
بغير قليل من الارتباك • ومما خطف بصرى أيضاً ما لاحظته فيه من حسن
أدب ورقة تهذيب وطلاقة حركة ، أى ما رأيت فيه من ذلك البريق الذى
يكتسبه أمثال هؤلاء الناس وهم لا يزالون فى المهد • لكننى وقعت فى
رسائله على خطأين فاحشين من أخطاء الاملاء • وأنا فى لقاء أمثال هؤلاء
الناس لا أخفض رأسى أبداً ، حتى انى شرستى تعنف فى بعض الأحيان
عنفاً سسيئاً • ولم يكن من شأن رديجوتى المغطى بالزرغب أن يهدى •
ما يضطرم فى نفسى • وكنت قد لاحظت أن الأمير يتفرس فى أحياناً بكثير
من الاستطلاع •

قلت فجأة :

- قل لي يا أمير : ألا ترى في قرارة نفسك أنه أمر مضحك أن يدعوك « غر » مثلى الى مبارزة ، ولاسيما بسبب اساءة لحقت شخصاً غيره ؟

فأجابني برصانه ووقار قائلاً :

- انه لأمر طبيعي أن يفضب المرء لاساءة ألحقت بأبيه . فلست أرى في سملك شيئاً سخيلاً يبعث على السخرية .
- أما أنا فأرى عملي سخيلاً سخفاً رهيباً . . من وجهة نظر شخص آخر طبعاً ، لا من وجهة نظري أنا . ولاسيما أن اسمي هو دولجوروكي ، وليس فرسيلوف . فاذا كنت لا تقول الحقيقة ، أو اذا كنت تلتطف الأمور من باب الكياسة التي يلتزمها أبناء المجتمع الراقى ، فأنت اذن تخدعني وتفشنى في سائر الأمور الأخرى .

فكرر يقول بجذ كبير :

- لا ، لا أرى في هذا شيئاً سخيلاً . انك لا تستطيع أن لا تحس بدم أبيك فيك ! . . صحيح أنك ما تزال فتى يافعاً ، و . . لا أدري . . لكن يخيّل اليّ أنه لا يجوز لقاصر أن يبارز ، وأنه لا يجوز لأحد أن يلبي دعوته الى النزال . . فيما توجهه الأنظمة ! . . غير أن هناك اعتراضاً واحداً يجدر أن ننظر فيه : انك حين تدعو الى المبارزة على غير علم من الشخص الذي لحقت به الالهانة والذي تريد أن تثار له ، ألا تكون بذلك قد انتقصت من قدره ولم توله ما يجب له من احترام ؟

وفجأة دخل خادم ليبلغ عن قدوم زائر ، فانقطعت محادثتنا . وأغلب الظن أن الأمير كان ينتظر هذا الزائر ، فما ان رأى الخادم حتى نهض دون أن يكمل كلامه ، وتقدم الى لقائه مسرعاً ، فكلمه الخادم بصوت خافت ، فلم أسمع من كلامه شيئاً . وقال لي الامير :

- معذرة . سأرجع بعد دقيقة .

وخرج . وبقيت وحيداً . وأخذت أذرع الغرفة ذاهباً آيباً وأنا مسترسل في التفكير . غريب : لقد أعجبني الأمير ولم يعجبني . ان فيه

شيئا لا أستطيع أن أصفه وأن أعبر عنه ، لكنه نبي ، يصدمني ويؤذيني .
قلت أحدث نفسي : « اذا كان لا يسخر مني فإنه اذن مملى ، سداجة ..
ولو كان يسخر مني ، لبدا لي أكثر ذكاءً » ، برقت هذه الفكرة
العجيبة في ذهني . ودنوت من الطاولة فأعدت قراءة رسالته الى
فرسيلوف . ومن ذهولي لم أشعر بانقضاء الوقت ، حتى اذا أفقت من
شرودى لاحظت فجأة أن دقيقة الأمير دامت ربع ساعة . فاضطربت من
ذلك بعض الاضطراب . وعدت أسير في الغرفة ذاهباً آيياً . ثم تناولت
قبعتي أخيراً وقررت أن أنصرف . اننى أتذكر هذا . قلت لنفسى : اذا
رأيت أحداً بعثته يستدعى الأمير ، حتى اذا جاء ودعته مؤكداً أن ثمة
عملاً يناديني وأننى لا أستطيع المكوث معه أكثر مما مكثت . فبدا لي أن
هذا أحفظ للكرامة ، لأننى تصورت أنه بتركى هذه المدة الطويلة انما
يدل على أنه يزدريني .

وكان للغرفة بابان اثنان يقعان فى طرفى جدار واحد . وكان
البابان كلاهما مغلقين . وكنت قد نسيت من أى باب دخلنا ، أو قل اننى
لذهولى فتحت واحداً من البابين بغير تفكير ، فاذا أنا أفاجأ باختي ليزا
جالسة على ديوان فى غرفة طويلة ضيقة . ولم يكن فى الغرفة أحد
غيرها ، فلا بد أنها كانت تنتظر أحداً . ولكن ما ان اعترتني هذه الدهشة
الأولى حتى سمعت صوت الأمير يتكلم بصوت عال راجعاً الى المكتب .
فأغلقت الباب ، ودخل الأمير من الباب الآخر فلم يلاحظ شيئاً . أتذكر
أنه أخذ يعتذر عن تأخره أشد الاعتذار ، وأنه جاء على ذكر امرأة سماها
آنا فيدوروفنا . ولكننى كنت قد بلغت من الأشدهاء والاضطراب أننى لم
أكد أفهم من كلامه شيئاً ، وتمتمت أقول ان على أن أعود الى بيتى حتماً .
ثم خرجت متعجل الحطى . ولاشك أن هذا الأمير المهذب ذلك التهذيب
كله قد بدا له سلوكى غريباً . وقد شيعنى الى الباب وهو ما يفتأ يتكلم
ويتكلم ، بينا أنا لا أجييه بشيء ولا أنظر اليه .

صرت فى الشارع ، فاسندرت يسرةً ، وأخذت أسير على غير هدى • كان كل شىء فى رأسى مختلطاً مضطرباً • وكنت أسير سيراً بطيئاً • أظن أننى قطعت مسافة طويلة ، تبلغ نحو خمسمائة خطوة • وانى كذلك اذا أنا أحس ربثاً رقيقاً على كفى • فالتفت • فرأيت أختى ليزا • لقد أدركتنى ، ولامست كفى بمظلتها • وكان فى نظرتها المتألمة فرح عظيم ، وشىء من مكر •

- يسرنى جداً أنك سرت فى هذا الطريق ، والا لما استطعت أن ألقاك طول النهار •

كانت تلهت قليلاً من سرعة السير •

- ما أشد لهائك !

- ركضت كثيراً لأدركك •

- ليزا ، أنت من رأيت منذ قليل ؟

- أين ؟

- عند الأمير • • الأمير سوكولسكى • •

- لا ، لست أنا • • لا يمكن أن تكون قد رأيتنى • •

فصمت • وسرنا نحو عشر خطوات • انفجرت ليزا ضاحكة ،

وقالت :

- طبعاً أنا التى رأيتنى ! رأيتنى وحدقت الى عيني ، وحدقت اليك

أنا أيضاً • فلماذا تلقى هذا السؤال ؟ ما أغرب طبعك ! • • ولقد راودتنى

رغبة قوية فى الضحك حين حدقت الى • • كانت هيئتك مضحكة جداً •

وضحكت ضحكاً شديداً • فبدد ضحكها قلقي •

- ولكن ما جاء بك الى هناك ؟

- زريت آنا فيدوروفنا •

- أية آنا فيدوروفنا ؟

- السيدة ستوليايفا • حين كنا نقيم بمدينة لوزا ، كنت أقضي عندها أياماً كاملة • كانت تستقبلنا أنا وماما ، وكانت تجيء إلينا أيضاً • وكانت لا تزور أحداً غيرنا تقريباً • انها تمت إلى الأمير سوكولسكى بقرابة بعيدة ، وكذلك الى الأمراء سوكولسكى • أظن أنها للأمير بمثابة جدة •

- فهل تقيم عند الأمير ؟

- بل الأمير يقيم عندها •

- لمن الشقة اذن ؟

- لها • انها تملك الشقة منذ سنة • وقد وصل الأمير منذ قليل فنزل ضيفاً عليها • وهى نفسها لم تجيء الى بطرسبرج الا منذ أربعة أيام •

- طيب •• حفظها الله هى وشقتها ! ••

- ولكنها سيدة لطيفة •

- لا أنكر عليها ذلك • ثم انها تملك للطف وسائله وأسبابه • نحن أيضاً أناس لطف • انظرى الى هذا النهار ما أجمله ! ما أبدع هذا الجو ! وما أجملك اليوم يا ليزا ! ما أنت الا طفلة على كل حال •

- قل لى يا آركادى : أرأيت الى حكاية تلك الفتاة بالأمس ما كان

أهولها ! ••

- آه •• شىء محزون يا ليزا ، محزون جداً !

- محزون حقاً • يا لهذا المصير ما أشد هوله ! أليس شراً يا آركادى

أن نكون نحن فرحين هذا الفرح كله بينما تهوم روحها الآن في
الظلمات ، في ليل بهيم ليس له قرار ، حاملةً اثمها معها ؟ قل لي
يا آرКАДى : من المسئول عن الائم الذى ارتكبته ؟ آه .. ما أشد هول
هذه المسألة ! هل تفكر أحياناً في تلك الظلمات ؟ آه .. لشدما أخاف
من الموت ! وهذا أيضاً اثم ! اننى لا أحب الظلمة . هذه الشمس أحلى
كثيراً ! تقول ماما ان الخوف من الموت شر .. قل لي يا آركَادى : هل
تعرف ماما حق معرفتها ؟

- لم أعرفها بعد الا قليلاً يا ليزا ، قليلاً !

- يا لها من انسانة ! يجب أن تعرفها ، يجب أن تعرفها . يجب
على المرء أن يفهمها خاصة !

- أنت أيضاً كنت لا أعرفك ، وهأنذا أعرفك الآن معرفة تامة ! ..
في دقيقة واحدة ، نفذت الى حقيقتك كلها ! .. ليزا ، مهما تخافى من
الموت ، فلا بد أنك ذات كبرياء ، وجسارة ، وشجاعة . أنت خير منى ،
خير منى كثيراً . أحبك حب الجنون يا ليزا . ليزا ، يستطيع الموت أن
يجيء متى شاء ، أما الآن فلنعش ، فلنعش ! لنا أن نتألم لتلك البائسة ،
ولكن فلنبارك الحياة . ألسنت على حق ؟ ان لى « فكرتى » يا ليزا . ليزا ،
هل تعلمين أن فرسيلوف تنازل عن الميراث ؟

- كيف لا أعرف ذلك ؟ لقد تعاقنا أنا وماما .

- انك لا تعرفين ما بنفسى يا ليزا ، لا تعرفين ماذا كان هذا الرجل
فى قلبى !

- دعك من هذا الكلام ، اننى أعرف كل شيء !

- تعرفين كل شيء ؟ نعم ، حتماً . أنت ذكية . أنت أذكى من
فاسين . ان لك ولما عيوناً نافذة ، انسانية ، أقصد النظرة ، لا العيون ..
لقد أخطأت التعبير . ما أعجبنى أحياناً يا ليزا .

- بل أنت فى حاجة الى من سيطر عليك . هذا كل شىء .

- فسيطرى علىّ يا ليزا . ما أحلى النظر اليك اليوم يا ليزا ! هل تعلمين أنك رائمة الجمال ؟ لم أر عينيك قبل اليوم أبداً . . رأيتهما الآن أول مرة . من أين جئت بهما يا ليزا ؟ من أين اشتريتهما ؟ كم دفعت ثمنهما ؟ ليزا ، أنا لم يكن لى أصدقاء ، حتى لقد كانت هذه « الفكرة » حماقة ، أما الصداقة معك أنت فليست حماقة . . هل تقبلين أن تكون صديقتين ؟ هل تفهمين ماذا أريد أن أقول ؟

- أفهم كل الفهم .

- أقصد صداقة بغير عقد ، بغير شروط . نكون صديقتين وكفى ، ببساطة !

- نعم ، صداقة وكفى ، ببساطة . . غير أن لى شرطاً : اذا اتفق ان اتهم احدهنا الآخر يوماً ، اذا ساءنا أمر من الأمور ، اذا اعتكر مزاجنا ، بل اذا نسينا أيضاً كل شىء . فلن ننسى أبداً هذا اليوم ولا هذه الساعة ! فلتتعاهد على هذا . لتتعاهد على أن تذكر الى الأبد ، هذا اليوم الذى سرنا فيه معاً وقد أمسك كل منا يد الآخر ، وضحكنا فيه كثيراً ، وسعدنا فيه هذه السعادة كلها . . هل تقبل ؟ تقبل ؟

- نعم يا ليزا ، نعم ، أقسم لك . يخيل الىّ يا ليزا اننى أسمعك الآن أول مرة . . ليزا ، هل قرأت كثيراً ؟

- لم تلق على هذا السؤال قبل اليوم ! أمس فقط ، حين أخطأت فى كلمة ، تفضلت فانتبهت الى هذا أيها السيد الفيلسوف !

- لماذا لم تبادرينى أنت بالحديث بعدما رأيت أننى غبى الى ذلك الحد من الغباء ؟

- كنت أنتظر أن تصبح أكثر ذكاء . لقد عرفتك منذ البداية

يا آرКАДى ماكاروفتش ، فسرعان ما قلت لنفسى : لسوف يجىء ، لسوف
يجىء آخر الأمر حتماً . وآثرت أن أدع لك شرف القيام بالخطوة
الأولى . قلت لك فى سرى : « لا ، عليك أنت أن تجرى الآن ورائى ! »
_ ها . . يا للصغيرة المغناج ! طيب قولى بصراحة يا ليزا : لا بد
أنتك ضحككت منى كثيراً طوال هذا الشهر ، أليس كذلك ؟

_ طبعاً . لأنك مضحك فعلاً ، مضحك جداً يا آرКАДى ! ولكن
هل تعلم ؟ لعلى لهذا السبب انما أحييتك هذا الشهر ، ذلك أنتك كنت
طريقاً . غير أن طرافتك رديشة أحياناً . أقول لك هذا حتى لا تتباهى
وتفتخر . ولكن هل تعلم مَنْ ضحك منك أيضاً ؟ ماما . ضحكنا معاً .
كنا تتهامس قائلين : « غريب الأطوار ! ما أغرب أطواره ! » . وكنت
أنت تظن طوال هذا الوقت أننا نرتعد رعباً منك .

_ ليزا ، ما رأيك فى فرسيلوف ؟

_ هناك أشياء كثيرة يمكن أن تقال فيه . لكننا لن نتكلم عنه الآن .
ليس هذا اليوم أو ان الحديث عنه ، أليس كذلك ؟

_ أنت على حق . لا ، لا ، ان ذكالك رهيب حقاً يا ليزا . انك
أذكى منى حتماً . انتظرى قليلاً ، اننى متى فرغت من هذه الشئون
كلها ، سوف أذكر لك فى النهاية بعض الأشياء . . .

_ ما بالك تقطب حاجيك ؟

_ لم أقطب يا ليزا ، ما هذا بشىء . . اسمى يا ليزا . . الأفضل
أن أقولها بصراحة : ان لى سمه خاصة هى أن فى نفسى نقاطاً حساسة
لا أحب أن يلمسها أحد . . أو قولى ان لى مشاعر معينة لا أحب عرضها
طلباً لاعتجاب الناس . مخجل ، أليس كذلك ؟ ولهذا أفضل أحياناً أن
أقطب الحاجيين ولا أقول شيئاً . أنت ذكية ، فعليك أن تفهمى .

- ولكننى مثلك • اتنى أفهمك فهماً كاملاً • وماما أيضاً مثلك •
- آه يا ليزا ! كل ما أتمناه هو أن نعيش فى هذه الحياة الدنيا مدةً طويلة • ماذا قلت ؟
- لم أقل شيئاً •
- انك تنظرين الىّ •••
- وأنت تنظر الىّ أيضاً • اتنى أنظر اليك ، واتنى أحبك •••
- رافقتها حتى البيت تقريباً • وذكرت لها عنوانى • وحين تركتها ، قبلتها أول مرة فى حياتى •

هذا كله كان حسناً ، لولا أن هناك ظلاً كان يعكره : ان فكرة حزينه كانت تضطرب في نفسى منذ الليل ولا تبارح خيالى . ذلك أتى حين التقيت في مساء الأمس بتلك المسكينه قلت لها انى سأترك البيت ، وان على المرء أن يبنى عشه بعيداً عن الأشرار ، وان لفرسيلوف عدداً من أولاد الزنا ؟ فلا شك أن هذه الكلمات التى يقولها ابن عن أبيه قد أكدت جميع شكوكها فى فرسيلوف ، وعززت احساسها بأنه أراد بها سوءاً . لقد كنت أنهم ستييلكوف ، ولعلنى أنا الذى صيبت على النار زيتهاً . فكرة رهيبه ، رهيبه حتى اليوم . ولكننى فى ذلك الصباح ، رغم كل ما عانيت من عذاب فى أول الأمر ، قد بدا لى أن الأمر ليس من الخطورة فى المحل الذى أحله فيه ، وكنت أكرر لنفسى من وقت الى آخر: « دعك من هذا الكلام ، فان فى نفسها من الحقد المتراكم قبل أن تراها وقبل أن تقول لها شيئاً ما كان سيدفعها الى الاقدام على فعل ما فعلته حتماً ! هيا . . . سينقضى الأمر ، وسأبرأ من هذه الوسوس . . . وسأكفر عن غلظتى بطريقة من الطرق . . . بعمل من الأعمال الحسنه . فما يزال فى عمرى خمسون عاماً ! » .

ولكن الفكرة ظلت تتحرك وتضطرب فى نفسى .

الجزء الثاني

الفصل الأول

١



شهران تقريباً . أرجو من القارئ أن لا يقلق : فسوف يتضح له كل شيء . وكما دوت في بداية يومياتي تاريخ ١٩ أيلول (سبتمبر) ، فأننى أسجل هنا تاريخ ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ، وهو يوم لا أنساه ، وذلك لأسباب كثيرة . يجب أن أذكر أولاً ان من رأتى منذ شهرين لن يعرفنى اذا هو رأتى الآن . هذا من جهة المظهر على الأقل . أقصد انه سيرفنى ، ولكنه لن يفهم شيئاً . انى أرتدى الآن ثياباً تبلغ غاية الأناقة بل الفندرة . هذه نقطة أولى . ان الحياط الذى أوصانى به فرسيلوف يوماً ووصفه بأنه فرسى دقيق فى عمله رفيع الذوق قد خاط لى ثياباً كاملة ، ولكننى لا أرتديها فهى لا تبلغ المستوى الذى يليق بأنيق مثلى . وانما لى الآن خياطان من درجة أعلى ، خياطان من الدرجة الأولى ، حتى انهما فتحا لى حساباً . ولى حساب مفتوح أيضاً فى مطعم راق . ولكننى ما أزال فى هذا المجال تعوزنى الجسارة : فما ان أملك مالاً حتى أبادر الى سداد الدين ، رغم علمى بأن هذا أمر ناب أعرض به مهاتى للانتقاص . ولى فى شارع نفسكى حلاق فرسى من باريس ، يروى لى النوادر والملح كلما ذهبت اليه لقص

شعري ، حتى أصبحت حكاياته معروفة لى مألوفة عندي . وأعترف بأننى
أتمرن معه على الكلام بالفرنسية . اتنى أعرف اللغة الفرنسية ، بل أعرفها
معرفة مناسبة ، ولكننى فى المجتمع الراقى أشعر دائماً بخجل فلا أجرؤ على
التكلم بها مجازفاً . هذا عدا أن لهجتى لا بد أنها بعيدة عن اللهجة الباريسية .
ولى كذلك عربة وحودى هو ما تفتى ، يليينى كلما ناديت . انه يقود مركبة
فخمة يجرها حصان كميث ممشوق (أنا لا أحب الحيل الصهباء) . غير أن
هناك أشياء ليست كما أحب . نحن الآن فى اليوم الخامس عشر من شهر
تشرين الثانى (نوفمبر) . البرد قارص منذ ثلاث أيام . ومعطى المصنوع
من فراء الراتون ، وهو هدية أهداها لى فرسيلوف ، قد أصبح قديماً ،
فلو شئت أن أبيعهُ لما جاءنى بأكثر من خمسة وعشرين روبلاً . لا بد لى
من معطف جديد . وجيبى خاوى . وعدا ذلك يجب على أن أحصل على
مال لهذا المساء ، بأى شكل من الأشكال . والا « أفلسنت وهلكت » . هذه
هى الألفاظ التى كنت أستعملها فى ذلك الأوان . أواه ! يا للشقاء ! من أين
جاءت هذه الألفوف ، وهذه الحيلول ، وهذه المطاعم (أمثال مطعم بوريل)
على حين فجأة ؟ كيف أمكن أن أنسى كل شىء ، وأن أتغير كل هذا
التغير ؟ يا للخزى والعار ! أيها القارىء ، انى محدثك الآن عن خزيبى ،
عن تلمطخى بالعار ، ولا شىء يمكن أن يخسل بالشرف عندي كهذه
الذكريات !

اننى أحكم فى الأمر كما يحكم قاض ، وأعرف أننى مذنب . فرغم
أنى والزوبمة تجرفنى ، كنت وحيداً بلا مرشد ولا ناصح ، فلقد كنت
أشعر بسقوطى ، فوالله ليس لى اذن من عذر . ومع ذلك كنت شبه
سعيد خلال ذينك الشهرين . لماذا شبه سعيد ؟ بل لقد كنت سعيداً
مسرراً فى السعادة ، حتى لقد بلغت من فرط السعادة أن شعورى بتلمطخ
شرفى ، وهو شعور يخالجنى فى لحظات كثيرة متكررة ، ويهز نفسى هزاً
قويماً ، كان يغمرنى بمزيد من النشوة والسكر ، هل تصدقون ؟ كان
لسانى حالى يقول : « ما دمت أسقط ، فلأسقط الى الدرك الأسفل ؟ على

اننى لن أسقط ثم لا أخرج ، بل سأخرج . ان لى نجماً يهدينى ! « .
على جسر هزيل نحيل من نثارة ، جسر بغير درابزين ، كنت أسير فوق
الهاوية ، وكان يسعدنى أن أسير هذا السير . وكان منظر الهاوية يقتن
لبى . نعم ، كان يفرحنى أن أشعر أتى فى قلب الخطر . و « الفكرة » ؟
لا خوف عليها . سوف تأتى من بعد ، فى وسعها أن تنتظر . ما هذا كله الا
« انحرافه » : « . . . لماذا لا يهب المرء لنفسه شيئاً من مسرة ؟ » ذلكم هو
عيب « فكرتى » ، تلكم هى آفتها : أنها تتساح فى جميع الانحرافات .
فلعلها لو كانت أقل صلابة ومتانة ، لكانت تقى بها أضعف ، ولكن يمكن
أن أخشى الانحراف عنها .

ما أزال محتفظاً بمسكنى الصغير . لقد احتفظت به دون أن
أسكنه ، وأودعته حقيبتى وصرتى وأشياء أخرى . أما اقامتى فاكترها عند
الأمير سرجى سوكولسكى . أمكث عنده ، وأبيت عنده ، وأقيم أسابيع
كاملة . . . أما كيف حدث هذا ، فسوف ترون ذلك بعد قليل . ولأحدثكم
الآن عن مسكنى الصغير . انه عزيز فى نفسى . اليه انما جاء يزورنى
فرسيلوف بنفسه أول مرة ، بعد المشاجرة التى قامت بيننا ، ثم جاء مراراً
كثيرة . أكرر أن تلك المدة لم تكن الا عاراً فظيماً ، ولكنها كانت سعادة
كبيرة أيضاً . . . كنت فى تلك الفترة أوفق فى كل شىء ، وكان كل
شىء يبتسم لى ! وكنت أقول لنفسى فى تلك اللحظات من النشوة : « علام
ذلك الوجه المتجهم والسحنة الكالحة ؟ فيم ذلك الانقباض ، وتلك الطفولة
المنعزلة المكتئبة والأحلام المستحيلة تحت الغطاء فى الفراش ، وتلك
الأيمان والحسابات ، وحتى « الفكرة » ؟ ذلك كله أخیلة وأوهام ! العالم
شىء آخر . وكنت فرحان جداً . كان كل شىء رائماً . كان لى أب :
فرسيلوف . وكان لى صديق : الأمير سرجى . وكان لى أيضاً . . .
لكن دعونا من هذا . واحزنناه ! ان كل ما حدث عندئذ باسم الحب والنبيل
والشرف قد ثبت بعد ذلك أنه كان قبحاً شنيعاً وعاراً وغشاً .
كفى !

جاء الى أول مرة بعد قطيعتنا بثلاثة أيام • ولم أكن في البيت •
فانتظرنى • ورغم أنني انتظرتة طوال هذه الأيام الثلاثة فقد بلغت من
الاضطراب حين دخلت غرفتي الصغيرة أن عينيَّ ضربت عليهما غشاوة ،
وأن قلبي خفق خفقا شديداً ، فوقفت في العتبة • ومن حسن الحظ أن
مؤجري قد استحسن أن يجالس الزائر فوراً حتى لا يصيبه ضجر ، فلما
دخلت كان يقص عليه حكاية من الحكايات مندفعاً بخرارة • انه موظف
بسيط ، في نحو الأربعين من العمر ، مجبور الوجه ، مدقع الفقر ، مثقل
بعبء زوجة مصدورة وابن مريض ، له طبع منفتح مسالم مواع رقيق •
فابتهجت بوجوده ، بل ان وجوده قد أخرجني من مأزق ، والا فما عساي
أقول لفرسيلوف ، وكيف كان يمكن أن أكلمه ؟ كنت أعرف أن فرسيلوف
سيجيء من تلقاء نفسه ، أنه سيكون هو البادئ بالسعي اليّ ، كما كنت
أريد تماماً ، لأنني ما كنت لأبدأ أنا بالسعي اليه مهما يكن من أمر ،
لا معاندة له ، بل حياً به ، مدفوعاً الى ذلك بنوع من غيرة المحب ، بنوع
من عاطفة لا أعرف كيف أعبر عنها ، لا أعرف كيف أصفها • انني
لا أجيد الافصاح ، ولا بد أن القارئ قد أُلّف أن لا يجيد في كتابتي
فصاحة أو بلاغة • ولكن رغم انني انتظرتة طوال هذه الأيام الثلاثة ،
وكنت أتصوره في كل حين داخلاً عليّ ، فقد كنت عاجزاً عن تخيل
الحديث الذي سيجري بيننا بعد كل ما حدث من صدام عنيف ، مع أنني
بذلت جهوداً كثيرة في سبيل أن أتصور ما قد يدور عليه كلامنا •

قال لي دون أن ينهض :

— ها ••• هانت ذا •••

ومد الى يده ، واستطرد يقول :

- اجلس هنا ، الى جانبنا . ان بطرس هيبوليتوفتش يروى لى قصة شائقة جداً عن تلك الصخرة التى كانت تترى قريبة من نكنة بافلوفسكى ، أو ربما قريبة من هنا ...

فأسرعت أجيبي قائلاً وأنا أجلس على كرسى بجانبهما :

- نعم ، أعرفها ... تلك الصخرة ...

كانا أمام الطاولة . وكانت الفرقة الصغيرة مربعاً لا يتجاوز طول ضلعه أربعة أمتار . وكنت أتنفس بمشقة .

التمتع فى عيني فرسيلوف وميض فرح : لا شك أنه لم يكن هادى ، النفس ، لا شك أنه كان يتوقع أن أقوم بحركات ، ثم اطمأن الآن . وأردف يهيب بمؤجري أن يكمل قصته :

- أتمم يا بطرس هيبوليتوفتش .

كانا قد أخذنا. يتخاطبان منذ الآن بالاسم التائى ، اسم الشخص وأبيه . فالتفت بطرس هيبوليتوفتش الى وتابع كلامه يقول منقبض الهيئة كأنما هو يخشى سلفاً أن لا أكون مستمعاً حسناً :

- نعم ، حدث الأمر فى عهد الامبراطور الراحل . أنت تعرف اذن

تلك الصخرة ، تلك الصخرة الضخمة التى تجثم فى وسط الشارع ولا تزيد على أن ترعيج . لقد مر الامبراطور بذلك المكان مراراً كثيرة ، وكانت الصخرة فى مكانها دائماً . فضاقت بها أخيراً . الخلق أنها كانت أشبه بجبل حقاً ، أشبه بجبل فى وسط الشارع ، يؤذى منظرها الأبصار . فها هو ذا الامبراطور الراحل يقول : « فلتخفف الصخرة من هذا المكان ! » . نعم قال : « فلتخفف ! » . تعرفون ماذا يعنى أن يقول الامبراطور الراحل : « فلتخفف الصخرة من هذا المكان ! » . هل

تذكرون الامبراطور الراحل ؟ فما العمل بالصخرة ؟ طاش صواب
الجميع . وكان المجلس البلدى حاضراً ، وكان آخرون لا أذكر الآن
من هم ، حاضرين أيضاً . غير أن واحداً من أعلى شخصيات ذلك العهد
قد كُلف بتنفيذ أمر الامبراطور الراحل . فاليكم ما علمه ذلك الرجل :
لقد قيل له ان تنفيذ أمر الامبراطور سيكلف خمسة عشر ألف روبل ،
لا تنقص كوبكاً واحداً ، بل تكلف خمسة عشر ألف روبل فضة (ذلك
أن الأوراق المالية قد بدلت روبلات فضة في عهد الامبراطور) . « خمسة
عشر ألف روبل ؟ هل يعقل هذا ؟ » . أراد الانجليز في أول الأمر أن
يمدوا سككاً حديدية ، فيزلقوا الصخرة فوقها ، ثم يجرونها بقاطرة
بخارية . ولكن كم كان يمكن أن يكلف هذا من نفقات ؟ لم تكن قطارات
السكك الحديدية قد وجدت بعد ، وكان خط تسارسكوييا سيلو هو الخط
الوحيد الذى يعمل ...»

فقاطعته أقول متبرماً ممتلئ النفس أسفاً وبخجلاً أمام فرسيلوف :

— ألم يكن فى الامكان قطعها ؟

ولكن فرسيلوف كان يصغى الى كلام المحدث بسرور ظاهر للعين .
فأدرت أنه يرحب بوجود الرجل ، لأنه كان هو أيضاً يشعر بخجل
أمامى ، ويحس بحرج من الانفراد بى . حتى لقد كان ذلك منه بادرة
مؤثرة .

— قطعها ؟ تلك هى بعينها الفكرة التى خطرت بالبال حينذاك . هى
فكرة مونفران الذى كان ، كما تعلمون ، يبنى فى ذلك العهد كاتدرائية
القديس اسحاق . قال سوف نقطع الصخرة نثراً بالمنشار ، ثم نقلها .
نعم ، ولكن ما النفقات ؟

— لا مجال لنفقات كبيرة ، 'تقطع نثراً بالمنشار ثم تنقل ، هذا كل

شئ !

- لا ، اسمح لى . كان لابد من تركيب ماكينة ، ماكينة بخارية .
ثم الى أين تنقل الصخرة ؟ الى أين ينقل جبل هذه ضخامته ؟ قيل ان
النفقات لن تقل عن عشرة آلاف روبل ، عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً .

- اسمح يا بطرس هيبوليتوفتش . هذه سخافات . لم يحدث هذا
كله على هذا النحو ...

ولكن فرسيلوف رمانى فى تلك اللحظة بغمزة خفيفة لا ترى ،
رأيت فيها اشفاقاً كبيراً على مؤجرى بل تألماً شديداً له ، فأعجبني ذلك
منه كثيراً ، وضحكت مجاملاً .

لم يلاحظ الرجل شيئاً وكان يخشى أكبر الخشية كسائر أمثاله
من القصاصين أن يقاطعه أحد بالقاء أسئلة ، فقال فرحاً جذلاً :

- نعم ، هو كذلك ، هو كذلك ، هو كذلك . لقد جاء شاب من
الضواحي روسى السحنة تماماً ، له لحية صغيرة مدبية ، يرتدى فطباناً
طويلاً يغطى الكمين ، ثعل بعض الثمل ، بل لم يكن ثملاً . جاء فى
اللحظة التى كان فيها الانجليز و مونفران يعقدون مؤتمراً يتبادلون فيه
الآراء ، ووقف يستمع الى أحاديثهم . ووصل الشخص الكبير المكلف
بالإشراف على تنفيذ أمر الامبراطور راكباً عربة فضمة ، فأصغى الى كلام
المؤتمرين فنارت ثأثرته : كيف تطول المناقشات هذه المدة كلها ثم
لا يتوصلون الى نتيجة ؟ وفجأة وقع بصره على ذلك الشاب واقفاً على
مسافة غير قريبة ، مبتسماً ابتسامة زائفة ... لا زائفة .. ليس
هذا هو اللفظ المناسب .. بل .. بل ..

فقال فرسيلوف يحاول مساعدته فى العثور على الكلمة المناسبة
بلباقة .

- ساخرة ؟

- نعم ساخرة ! أفصد ساخرة قليلاً ... انها تلك الابتسامة الروسية

التي تعرفونها • ومن شدة استياء الرجل الكبير زعق يسأل الشاب :
« وأنت يا ذا اللحية هناك ؟ ما وقوفك ؟ ماذا تنتظر ؟ من أنت ؟ » •

فأجاب الشاب :

– أنظر الى الصخرة الصغيرة يا سمو الأمير • نعم بهذا ناداه : سمو
الأمير • أظن أنه كان الأمير سوفوروف الايطالى • خسارة : نسيت من
هو • ولكن هبه أميراً فلقد كان روسياً صرفاً ، كان نموذجاً روسياً حقاً ،
رجلاً وطنياً ، قلباً روسياً رجباً واسماً • فالتطاع أن يدرك كل شيء •
وقال يخاطب الشاب الآتى من الضواحي :

– هيه ! أتولى أنت نقل الصخرة ؟ والا فما ضحكك ؟

– يضحكنى الانجليز يا سمو الأمير • فلأن الحزينة الروسية عامرة ،
ولأنهم ليس فى بلادهم ما يأكلونه ، تراهم يطلبون أسعاراً فاحشة ! أعطنى
مائة روبل يا سمو الأمير ، فلا ترى للحجر أثراً فى مساء غد ! فى وسعكما
أن تتصور المشهد • أراد الانجليز أن يلتهموه نيثاً • وضحك مونفران •
والأمير وحده – هذا القلب الروسى الطيب – قال : « اعطوه مائة روبل !
أنتقل الصخرة اذن ؟ » •

– فى مساء غد نكون قد نقلناها يا سمو الأمير •

– وكيف تعمل حتى تنقلها ؟

– لا يسيئك جوابى يا سمو الأمير اذا قلت : هذا سرنا نحن •

قال له ذلك بلغة روسية أصيلة • فأعجب الأمير ، وقال : « اعطوه
كل ما يريد ! » • وتركوه هناك ، فماذا تظنان ؟ هل وفى بما قال ؟

توقف المتحدث لحظة عن الكلام ، وأجال علينا نظرة رقيقة زاخرة
بالعاطفة • فقال فرسيلوف مبتسماً :

– لا أدرى •

وكتت أنا متجههم الهيئة •

فهتف الآخر هتاف المنتصر ، كأنه هو الذى حقق المعجزة ، هتف

يقول :

- بل وفى بما قال • كيف ؟ استأجر فلاحين ومجارف ••••• مجارف
روسية طيبة ••••• وحفر حفرة بجانب الصخرة • ظلوا يحفرون طول
الليل • حفروا حفرة ضخمة ، بضخامة الصخرة نفسها ••••• بل أعمق
قليلاً • حتى اذا فرغوا من حفر الحفرة ، فقدت الصخرة توازنها • فلما
فقدت توازنها دفعوها الى الحفرة صائحين : « هوررا » • فسقطت الصخرة
فى الحفرة • ثم أسرعوا يهيلون عليها التراب ، ومهدوا التراب بمخباط ،
وفرشوا حصى صغيرة ، فعاد الطريق كما كان • ولم يبق للصخرة أثر !

قال فرسيلوف :

- انظر الى هذا الخدق !

- وجاء ناس كثير ، هرعت جماهير كبيرة • واغتاظ الانجليز انذين
أدوكوا كل شىء فوراً • ووصل مونفران وقال : « هذا عمل بسيط ،
بسيط جداً ، يقوم به فلاحون ! » ولكن ذلك بعينه هو السر : عمل بسيط
جداً ، ثم لم يخطر لكم على بال أيها الأغبياء • سأقول لكما شيئاً آخر :
ان الرئيس الكبير ، الشخص الحكومى العظيم ، احتضن الرجل وقبله ،
ثم سأله : « من أين أنت ؟ » فأجابه الرجل : « من إقليم ياروسلاف يا سمو
الأمير • مهنتى خياط ، وفى الصيف أجيء الى العاصمة أبيع فاكهة • • •
ووصل الأمر الى علم السلطات • فأمرت للرجل بمداية تتدلى من عنقه •
ومضى يتجول والوسام فى عنقه ، ثم مضى يشرب • تملمان أننا معشر
الروس لا نستطيع أن نسيطر على أنفسنا • وذلك هو السبب فى أننا نزال
ندع للأجانب أن يأكلونا ، أليس كذلك ؟

قال فرسيلوف :

— حتماً ، الذكاء الروسى ...

ولكن شاء حسن الحظ أن تنادى القصاص امرأته فى تلك اللحظة ،
فهرع اليها . ولولا ذلك لما استطعت أن أصبر . وأخذ فرسيلوف يضحك .

— لكنه يا عزيزى قد سلاّنى ساعة كاملة قبل أن تصل ... ان قصة
هذه الصخرة ... هى من أتفه ذلك الركام من القصص المعبرة عن
الوطنية ، الشائعة بين الناس فى بلادنا . ولكن كيف أقاطعه ؟ لقد كان
ينوب فرحاً كما رأيت . أظن أن الصخرة لا تزال فى مكانها اذا لم
أخطئ ، ولم ينزلها أحد فى حفرة ...

فهمت أقول :

— طبعاً ... كيف تجرأ فزعم ما زعم ؟ ...

— ما هذا الذى تقول ؟ ما بالك تستاء هذا الاستياء فيما أرى ؟ لا بد
أنه مزج بين شيئين : لقد سمعت فى طفولتى قصة من هذا النوع عن
صخرة ، ولكنها ليست هذه الصخرة . « وصل الأمر الى علم السلطات » .
كانت نفسه كلها تننى لحظة قال هذا . ان أمثال هذه الحكايات ضرورية
فى هذه البيئة المسكينة . وان عندهم ذخيرة كبيرة منها ، ولا سيما بسبب
ميلهم الى المغالاة . انهم لم يتعلموا شيئاً ، ولا يعرفون أمراً من الأمور معرفة
دقيقة صحيحة . فهم الى جانب قيامهم بأعمال مهنتهم ولعبهم بالورق ،
يشتاقون الى الحديث عن شىء انساني ، شعري ... من هو بطرس
هيوليتوفتش هذا ؟

— انسان فقير بائس .

— أرايت ؟ ولعله لا يلعب بالورق أبداً . فاذا روى هذه الحكايات
الخيالية كان يرضى بذلك ما يملأ نفسه من حب الانسان لأخيه الانسان :
لقد أراد أن يسرنا . وهو يرضى بذلك أيضاً ما يزرخ به قلبه من روح

وطنية • انظر مثلاً في هذه القصة الأخرى التي يروون فيها أن الانجليز عرضوا على زوفالوف مليوناً في مقابل أن لا يضع ماركة على بضاعته...•••

- نعم نعم ، أعرف هذه الحكاية •••

- من ذا الذى لا يعرفها ؟ هو أيضاً كان يعرف حين روى لك قصة الصخرة أنك قد سبق لك أن سمعتها حتماً ، ولكنه يرويها مع ذلك ، متخيلاً « عن عمد » أنك لا تعرفها • ان الحكاية التي تتحدث عن رؤيا ملك السويد قد أصبحت قديمة فيما يبدو ، ولكن الناس كانوا في أيام شبابه يتناقلونها همساً مثلذين • وكذلك تلك القصة الأخرى التي كانت تروى عن شخصية في مطلع هذا القرن أنها جثت راکمة أمام أعضاء مجلس الشيوخ في أحد اجتماعاته • وقد راجت أيضاً قصص كثيرة عن الكومندان باخونشسكى ، ومن بين تلك القصص تلك التي تتحدث عن انتزاع النصب التذكارى • ان ابناء الشعب مولعون كثيراً بالقصص المتعلقة بالبلاط • من ذلك حكاياتهم عن تشرنيشيف ، وهو أمير من العهد السابق عمره سبعون عاماً استطاع فيما تروى القصة أن يبدل سحنه تبديلاً كبيراً ، فاذا رآه أحد لم يخطر بباله أن يكون قد تجاوز من عمره الثلاثين ، حتى ان الامبراطور الراحل كان لا يصدق عينيه حين يراه في الاستعراضات •••

- هذه أيضاً أعرفها •

- من ذا الذى لا يعرفها ؟ ان هذه الحكايات كلها تبلغ الذروة من فساد الذوق • ولكن اعلم ان هذا النوع من فساد الذوق أوسع انتشاراً وأعمق ذبوعاً مما نظن • ان هذه الرغبة في الكذب من أجل مسرة الآخرين شائعة حتى في أرقى مجتمع ، لأننا نعانى جميعاً من داء الغلو الذى يضطرم في قلوبنا • كل ما هنالك من فرق هو أن القصص التي نلقاها في المجتمع الراقى تنتمى الى نوع آخر : كم نحكى عن أمريكا مثلاً ؟ وعن رجال الدولة أيضاً ؟ لا أكتمك اننى أنا نفسى أتمنى الى هذه الفئة من الناس ، ولشدها عانيت من ذلك طول حياتى !

– أنا أيضاً قصصت حكاية تشرنشيف مراراً •

– أنت أيضاً؟

– فى هذا البيت الذى أسكنه يسكن مستأجر آخر هو موظف مجبور الوجه كالأول ، متقدم فى السن ، لكنه واقعى الى درجة رهيبه ، فما ان يفتح بطرس هيوليتوفتش فمه ، حتى يأخذ يقاطعه ويمارضه ويكذبه • وقد بلغ من نجاحه فى ذلك أن بطرس هيوليتوفتش يتملقه كعبد ، ولا يرجو الا أن يسره ، لا لشيء الا أن يحمله على الاصغاء اليه •

– وهذا نوع آخر من فساد الذوق ، بل لعله أدعى الى النفور من النوع الأول • الأول حماسة كله • « كل ما أطلبه هو أن تتيح لى أن أتكلم ، وسوف ترى أن ما سأقوله جميل جداً » • أما النوع الثانى فهو خال من روح الشعر ، وهو اسفاف وكآبة : « لا تقل لى سخافات • اين وقع هذا؟ متى؟ فى أية سنة؟ » • ان من يقف هذا الموقف انسان لا قلب له • يا صديقى ، اسمح دائماً للناس أن يكذبوا قليلاً • هذا كذب برىء • بل اسمح لهم أن يكذبوا كثيراً • فأنت بذلك تبرهن أولاً على رقة شعورك وحسن أدبك ، وأنت بذلك تحصل ثانياً على حق الكذب أيضاً : فائدتان فى آن واحد • يجب على الانسان أن يحب أخاه الانسان •

وأضاف فرسيلوف قائلاً وهو ينهض عن كرسيه :

– انى مستعجل • يجب أن أنصرف • مسكنك رائع • سأذكر لصوفيا أندريفنا ولأختك أنتى زرتك فوجدتك فى صحة حسنة • الى اللقاء يا عزيزى •

كيف؟ أهذا كل شيء؟ أنا لم تكن حاجتى الى هذا • كنت أنتظر شيئاً آخر ، كنت أنتظر الشيء « الجوهري » ، رغم أنتى أدركت أن الأمور لا يمكن أن تجرى على غير هذا النحو • وسرت معه الى السلم حاملاً شمعة • وهمّ المؤجر أن يخرج من غرفته بهدوء ، ولكننى أمسكت ذراعه

ورددته بقسوة وشدة ، دون أن يلاحظ فرسيلوف ذلك ، فنظر الى مدهوشاً ، ولكنه اختفى فوراً .

قال فرسيلوف ماطاً كلماته ، لا لسبب الا أن يتكلم ، وربما لكي يمنعنى أنا من أن أقول شيئاً :

– هذه السلالم وعرة .. وأنت فى الطابق الثانى .. طيب .. كفى .. الآن أهتدى الى طريقي .. لا تقلق .. يا عزيزى .. لا تنزل معى أكثر مما نزلت . أخشى أن تصاب بزكام .

ولكننى لم أتركه . ونزلنا معاً الى الطابق الأول . فاذا أنا أقول له :
– انتظرتك ثلاثة أيام .

أفلتت منى هذه الجملة كأنما برغم ارادتى . وكنت أحتق من شدة الانفعال .

– شكراً يا عزيزى .

– كنت أعلم أنك آت الى حتماً .

– وأنا كنت أعلم أنك تعلم أنتى آت اليك . شكراً يا عزيزى .

وصمت . صرنا أمام الباب . وما أزال أتبعه . وفتح الباب ، فاذا بالرييح تندفع فجأة فتطفىء الشمعة . فأمسكت عندئذ ذراعه . وكان الظلام حالكأ . فارتعش ولكنه لم ينطق بكلمة . وارتميت على يده ، وأخذت أقبلها بشراهة عدة مرات ، بل مراراً كثيرة .

قال :

– لماذا تحبنى هذا الحب كله يا بنى العزيز ؟

ان صوته الآن صوت آخر ، صوت مختلف ، له نبرة جديدة كل الجدة ، لكأن المتكلم شخص غيره .

وأردت أن أجيب ، لكننى عجزت عن ذلك ، ورجعت أصعد السلم
مسرعاً . ونبت هو فى مكانه ينتظر . ولم أسمع الباب الخارجى يفتح ثم
يفلق مقرقماً الا حين صرت فى طابقى . وانسلت الى غرفتى متحاشياً
المؤجر الذى رأيت فى طريقى مرة أخرى ، وشدت المزلاج لأحكام اغلاق
الباب ؟ وبدون أن أشعل شمعة ، ارتميت فوق سريرى مكباً بوجهى على
المخدة ، وبكى ، وبكى . تلك أول مرة أبكى فيها بعد مدرسة توشار !
وكان نشيجى يخرج من صدرى قوياً جداً وكنت أنا سعيداً جداً
ولكن كيف أستطيع أن أصف ؟

خططت الآن هذه الأسطر دون أن يحمر وجهى ، لأن ذلك كله
لعله كان حسناً رغم كل ما فيه من غرابة مستحيلة !

ولكن ذلك كلف أبى ثمناً باهظاً . فلقد برهنت على اننى انسان
طاغية . لم يجز أى حديث بيننا عن ذلك المشهد الذى جرى فى الظلام .
التقينا مرة أخرى بعد ثلاثة أيام ، فجرى كل شيء وكأن ما حدث كان
حلماً . حتى لقد كنت فظاً . وتم اللقاء الثانى فى غرفتى كاللقاء الأول :
ذلك أننى رغم رغبتى فى رؤية أمى لم أرد له زيارته .

ظلت أحاديثنا طوال تلك المدة ، أى خلال هذين الشهرين ، تدور
على نظريات عميقة ومسائل مجردة : حرصنا حرصاً شديداً على تحاشي
الأمر الجوهرى . وكان هذا الأمر الجوهرى هو بعينه ما يتطلب ايضاحاً ،
بل يتطلب ايضاحاً سريعاً . وعن هذا الأمر الجوهرى انما كنا نتقى
الكلام . لم أتكلم لا عن أمى ولا عن ليزا (كنت أزورها كل أسبوع)
ولا عن نفسى ، ولا عن قصتى كلها . أفكان هذا الصمت خجلاً ، أم كان
نوعاً من حماقة الشباب ؟ أغلب الظن أنه كان نوعاً من حماقة الشباب ،
لأن الخجل يستطيع المرء أن يتغلب عليه بطريقة من الطرق آخر الأمر .
لقد سمت فرسيلوف سوء العذاب . حتى لقد كنت فى معاملته وقحاً عدة
مرات ، وكان ذلك على مضض منى أيضاً : كانت الوقاحة تنطلق من تلقاء
ذاتها ، على نحو لا سبيل الى مغالته ومقاومته ، فكنت لا أملك أن أنهى
نفسى عنها . وكان فى لهجته هو شيء من سخريه ، على عهدى به ، وان
تكن هذه السخريه رقيقة فى الواقع . ومما أدهشنى أيضاً أنه كان يفضل
أن يجيء الى ، حتى صرت فى النهاية لا أذهب الى أمى الا قليلاً ، مرة
واحدة فى الأسبوع لا أكثر ، ، ولا سيما فى الآونة الأخيرة ، حين طاش
صوابى تماماً . وكان يأتى دائماً فى المساء ، فنظف ثرثره ، وكان يحب
أيضاً أن يثرثر مع مؤجرى ، فكان يحقنى أن يصدر هذا عن رجل مثله .

وقد برق فى ذهنى خاطر : أترأه ليس له صديق يذهب إليه ؟ ولكنى كنت أعلم علم اليقين أن له معارف ، حتى انه فى المدة الأخيرة قد جدد كثيراً من العلاقات القديمة بالمجتمع الراقى ، بعد أن أهمل تلك العلاقات فى السنة الماضية . ولكن كان لا يبدو مقتوناً بهذه العلاقات كثيراً ، وكأنه لم يجدد عدداً كبيراً منها الا تجديداً رسمياً شكلياً ، وانما هو يؤثر أن يجيء الى . • ومما يؤثر فى قلبى أحياناً أنه حين يجيء فى المساء ، يكاد يشعر كل مرة بشيء من الخجل لحظة يفتح الباب ، فينظر الى فى البرهة الأولى بعينين تعبران عن قلق خاص كأنه يسأل : « ألا أضايقت ؟ اذا كنت أضايقت فقل لى ذلك فأنصرف ! » • بل كان يلقي السؤال أحياناً • ففى ذات مرة ، فى الآونة الأخيرة ، دخل على • وكنت قد فرغت فى تلك اللحظة نفسها من ارتداء بدلة جديدة جاءتنى من عند الخياط منذ لحظة ، وكنت أتهياً للخروج ذاهباً الى الأمير سرجى من أجل أن نمضى معاً الى مكان لى فيه عمل (أما ما هذا المكان ، فسوف أشرح ذلك فيما بعد) • دخل فرسيلوف وجلس ، ربما دون أن يلاحظ أتنى أتهياً للخروج • ان له ذهولاً عجيباً فى بعض الأحيان • ربما يشبه المصادفة ، أدار الحديث عن المؤجر • فتأرت تأترتى ، وقلت :

— ليذهب المؤجر الى الشيطان !

فاذا هو ينهض فجأة ، ويقول :

— معذرة يا عزيزتى • أظن أنك تهياً للخروج ، وأتنى أضايقت ،

فسامحنى ، أرجوك •••

وأسرع يخرج بمذلة • ان هذه المذلة يظهرها لى رجل مثله ، رجل يبلغ منزلته فى المجتمع الراقى ، ويتصف بما يتصف به من روح الاستقلال ، ويملك ما يملكه من أصالة الشخصية ، ان هذه المذلة كانت لا تلبث أن تثير فى قلبى على الفور كل ما يضره له من محبة حنان ، وكل

ما يحمله له من ثقة به واطمئنان إليه • ولكن اذا كان يحبني هذا الحب كله • فلماذا لم ينهني ولم يزجرني حين أخذت أهوى الى الدرك الأسفل ؟ لعله كان يكفى أن يقول لى كلمة واحدة حتى أتوقف عن الانهيار • أو لعله كان لا يكفى ذلك • ولكنه كان يرى فرط تأنقى وتندرى ، ويلاحظ تشدقى وتبججى وتبجحى ، ويبصر سائق عربتى الخوذى ما تفىء (حتى لقد أردت مرة أن أوصله الى بيته بعربتى فرفض ، بل لقد تكرر هذا نفسه مراراً فكان فى كل مرة يرفض) • وكان يرى أننى أتلف أموالاً طائلة ، ثم هو لا يقول كلمة واحدة ، ولا ينطق بحرف واحد ، ولا يبدى أى ميل الى الاستطلاع • ان هذا لا يزال يدهشنى حتى اليوم • وكنت أنا لا أتحرج أمامه • بل كنت أعرض كل شىء ، دون أى شرح أو تعليق طبعاً • كان هو لا يسألنى ، وكنت أنا لا أتكلم من تلقاء نفسى •

ومع ذلك أوشكنا مرتين أو ثلاث مرات أن نتكلم عن الأمر الجوهري ، مرة فى البداية بعد التنازل عن الميراث • فقد سأله حينذاك مم سيعيش الآن ، فأجابنى قائلاً : بصوت هادىء هدوءاً خارقاً :

— سأدبر أمرى يا صديقى •

انى أعلم الآن أن المبلغ الصغير الذى تملكه تاتيانا بأفلوفنا ، أن هذا المبلغ الصغير نفسه قد أنفق نصفه على فرسيلوف فى هاتين السنتين الأخيرتين •

ومرة تكلمنا عن أمى : قال فيجأة بحزن :

— كثيراً ما قلت لصوفيا أندريفنا فى مطلع حياتنا المشتركة • بل فى مطلعها ووسطها ونهايتها : « يا عزيزتى ، اننى أعذبك وسأظل أعذبك عذاباً شديداً ؛ ولست آسف لذلك ما دمت أمامى • ولكننى أعلم أننى سأنتحر معاقبة لنفسى اذا أنت مت • • • »

وانى لأذكر من جهة أخرى أنه كان فى ذلك المساء صريحاً صراحة
خاصة ، قال :

– ليتنى على الأقل كنت امرءاً تافهاً لا ارادة له ، مثلماً من أنه كذلك!
ولكن لا • فانا أعلم اننى قوى قوة لا نهاية لها • ما مكن قوتى فى رأيك ؟
ان قوتى هى فى هذه القدرة المباشرة على التلاؤم مع كل شىء ، وهى قدرة
يتميز بها جميع الرومن الأذكيا من أبناء جيلنا • لا شىء يستطيع أن
يدمرنى ، ولا شىء يستطيع أن يدهشى • اننى قوى جم النشاط ككلب
الرعى أستطيع أن أحس عاطفتين متعارضتين فى لحظة واحدة معاً ، بسهولة
لا تفوقها سهولة ، ودون أن تشارك فى ارادتى • ولكننى أعرف مع ذلك
أن هذا أمر فيه حطة ، لأن فيه فرط تعقل • لقد عشت حتى الآن قرابة
خمسین عاماً ، وما أزال الى الآن أجهل أهو شر أم هو خير أن أبلغ هذه
السن • لا شك فى أننى أحب الحياة ، وهذا ما تشهد به الوقائع وتدل عليه •
ولكن حب الحياة عند رجل مثلى ، شىء فيه جبن • هناك أمور جديدة فى
هذه الأزمنة الأخيرة ؛ فأمثال كرافت لا يتلاممون فينتحرون • واضح أن
أمثال كرافت حمقى • ومعنى ذلك أننا نحن أذكيا • فليس هناك تواز
يمكن أن نقيمه ، وتبقى المسألة مفتوحة • هل يعقل أن لا تكون الأرض
قد وجدت الا لأناس مثلنا ؟ جائز ! ••• ولكن هذه الفكرة تحزن النفس
وتشبط العزيمة • الخلاصة • الخلاصة • المسألة تبقى مفتوحة •

كان يتكلم بحزن • ومع ذلك لا أدرى أكان صادقاً أم لا • ان فى
نفسه على الدوام نوعاً من سر لا يريد أن يكشف عنه بحال من الأحوال •

أعرقته عندئذ بالأسئلة • هجمت عليه هجوم الجائع على قطعة خبز • فكان يجيبني دائماً بمودة وبساطة ، ولكنه ينتهي في الختام الى حكم عامة وقوالى مأثورة ، فيستحيل عليّ أن استخرج من أقواله شيئاً • وكانت هذه الأسئلة جميعها قد أفلقتني طوال حياتي • وانى لأعترف لكم صريحاً كل الصراحة بأنني كنت أرجي • الاجابة عنها دائماً الى حين لقائنا ببطرسبرج • حتى لقد أعلنت له ذلك ، فلم يسخر مني ، بل شد على يدي •

فيما يتعلق بالسياسة العامة والمسائل الاجتماعية لم أستطع أن أتزع منه شيئاً على وجه التقريب ؛ وكانت هذه المسائل مع ذلك هي التي تقلقني أكثر من كل ما عداها ، بحكم فكرتي • وفيما يتعلق بأناس مثل درجاتشيف استطعت أن أتزع منه في ذات مرة هذه الملاحظة : « انهم أدنى من أي نقد » • ولكنه سرعان ما أردف يضيف أنه يحتفظ لنفسه بهذا الحق : وهو أن لا يخلع على رأيه هذا أي « قيمة ذات بال » • أما ما ألقته عليه من أسئلة عن الدول المعاصرة ما مألها ، وعن العالم ما مصيره ، وعن السلام الاجتماعي كيف يتحقق ، فانه أصم أذنيه عن سماعه زمناً طويلاً ، ثم استطعت في النهاية أن أتزع منه هذه الأقوال :

— أظن أن هذا كله سيتم على نحو عادي جداً • ان جميع الدول ، رغم توازن الميزانيات ، و « عدم وجود عجز » ستفقد « ذات صباح » فإذا هي متورطة تورطاً حاسماً ، واذا هي جميعاً ترفض أن تدفع ، واذا هي في افلاس شامل • ولكن جميع العناصر المحافظة في العالم بأسره ستناهض هذا ، لأن هذه العناصر ستكون هي مالكة الأسهم وستكون هي الدائنة ، فلا تريد أن تقبل الافلاس • وبطبيعة الحال ، سيحدث عندئذ نوع من

- الأكسدة : يزداد عدد اليهود ، ويقوم حكمهم ، وبعد ذلك ، فان جميع الذين لم يملكوا أسهماً في يوم من الأيام ، ولا ملكوا شيئاً بعامه ، أى جميع الشحاذين ، سيرفضون المساهمة في الأكسدة طبعاً . فتقوم المعركة . . . وبعد سبعين هزيمة بيد الشحاذين مالكي الأسهم ، ويأخذون أسهمهم ، ويحلون محلهم ، كمساهمين أيضاً بطبيعة الحال . وقد يقولون شيئاً جديداً ، وقد لا يقولون . وأغلب الظن أنهم سيفلسون هم أيضاً . أما فيما عدا هذا يا صديقى ، فانتى لا أستطيع أن أوغل مزيداً من الايغال فى قراءة المصائر التى سوف تغير وجه العالم . على كل حال ، اقرأ رؤيا يوحنا . . .

- ولكن هل ستكون الأمور مادية الى هذا الحد ؟ هل شئون المال وحدها هى التى ستتهى العالم الحاضر ؟

- أنا لم أنظر الا الى زاوية من اللوحة طبعاً ، ولكن هذه الزاوية مرتبطة بسائرهما ارتباطاً لا انفصام له .

- فما العمل اذن ؟

- أوه ! لا تسرف فى التسرع يا عزيزى : هذا كله ليس ونيك الحدوث . أفضل شىء على كل حال ، هو أن لا يعمل المرء شيئاً البتة . فيكون ضميرك مرتاحاً على الأقل ، لأنك لا تكون شاركت أية مشاركة . . .

- دعنا من هذا الكلام . لتتكلم جادين . أريد أن أعرف ما الذى يجب على أن أفعله ، وكيف ينبغى أن أعيش ؟

- ما الذى يجب عليك أن تفعله يا عزيزتى ؟ كن شريفاً ، لا تكذب أبداً ، لا تشته أن تملك منزل جارك . . . الخلاصة : عليك بالوصايا العشر فأعد قراءتها . . . ان كل شىء مدون فيها الى الأبد .

- كفى كفى ، هذا كله قديم جداً ، وما هو الا ألفاظ ، وانما المهم أن نعمل .

- طيب ، اذا كنت فريسة ضجر شديد ، فحاول أن تحب أحداً أو أن تحب شيئاً ، أو حتى أن تتعلق بشئ .

- انك لا تزال تسخر ! ثم ما عساي أفعل وحدي ، باتباع وصاياك العشر ؟

- تطبقها غير متشرد بين المشكلات والشكوك فتصبح انساناً عظيماً .

- مجهولاً من جميع الناس .

- لا سر يبقى خافياً .

- انك ما تزال تمزح !

- طيب ، اذا كنت تأخذ كل شئ مأخذ الجد الى هذه الدرجة ، فالأفضل أن تسارع الى التخصص : كن مهندساً أو محامياً . فيكون لك شاغل حقيقي جدى ، وتهدأ بالآ ، وتنسى جميع هذه الأمور الصيانية !

سكت . ما عسى أستطيع أن أستخرج منه ؟ ولماذا كنت بعد كل حديث من هذه الأحاديث اضطرر مزيداً من الاضطراب ، ويربو قلقي عما كان عليه من قبل ؟

ثم اننى كنت أرى رؤية واضحة أنه لا يزال فى نفسه نوع من سر لا يكشف عنه . وكان هذا ما يجذبني اليه مزيداً من الجذب يوماً بعد يوم .

قاطعه يوماً أقول :

- اسمع ، لقد ساورنى دائماً أنك لا تقول هذا الكلام الا عن غضب وألم ، أما فى قرارة نفسك فأنك شديد الحماسة لفكرة عليا تخفيها أو تخجل من الاعتراف بها .

- شكراً يا عزيزتى •

- اسمع ! لا شيء أسمى من أن يكون المرء نافعاً • فقل لى : فى أى شىء يمكننى فى لحظة معينة أن أكون نافعاً أكبر نفع ؟ أعرف أنك لن تحل المسألة • ولكننى فى حاجة الى رأيك : قل لى رأيك ، فأخذ به ! عَين لى فكرة عظيمة •

- تبادل الحجارة خبزاً ، هذه هى الفكرة العظيمة •

- أعظم فكرة ؟ الواقع أنك رسمت طريقاً يجب اتباعه • ولكن قل لى : أهذه أعظم فكرة ؟

- هى عظيمة جداً يا صديقى ، عظيمة جداً • ولكنها ليست العظمى • هى عظيمة ، ولكن عظمتها من مرتبة ثانية ، وهى عظيمة فى الوقت الراهن فحسب : فمتى شبع الانسان لم تبق عظيمة • بل ان الانسان سرعان ما سيقول : « طيب ، هأنذا شبت ، فماذا أعمل الآن ؟ » • ويبقى السؤال قائماً الى الأبد •

- لقد تكلمت عن « آراء جنيف » • ولم أفهم أنا ما « آراء جنيف » هذه •

- « آراء جنيف » يا عزيزى ، هى الفضيلة بغير يسوع المسيح • تلك هى أفكار هذه الأيام ، بل قل هى فكرة الحضارة الحديثة كلها • الخلاصة : هذه حكاية من تلك الحكايات الطويلة التى تبعث على الضجر والسأم • فالأفضل أن نصمت •

- تود دائماً لو تصمت !

- تذكر يا صديقى أن الصمت لا خطر منه ، وأنه براءة وجمال •

- الصمت جميل ؟

- طبعاً • الصمت جميل دائماً ، والصامت أجمل من المتكلم دائماً •

- ولكن الكلام على نحو ما نتكلم أنا وأنت أشبه باصمت على كل حال . تبا لهذا الجمال ، تبا لهذا الجمال ، بثت هذه الميزة !

قال لى فجأة وهو يغير لهجته قليلاً ، حتى لقد كان كلامه عاطفة وكان فيه شيء من الحاح خاص :

- يا عزيزتى ، لا أريد أبداً أن أغويك فأبدل مثلك العليا بفضيلة من الفضائل البورجوازية . لا أريد أن أقول لك ان « السعادة خير من البطولة » . بالعكس : البطولة أسمى من أى سعادة ، واستعداد المرء للبطولة هو فى ذاته سعادة . ذلك أمر لا جدال فيه بيننا . تلك مسألة محلولة . واذا كنت أحترمك فلأنك استطعت فى عصرنا هذا المعفن أن تنشئ لك فى قرارة قلبك « فكرة » (اطمئن ، اتنى أتذكر هذا الأمر) . ولكن يستحيل عليك أن لا تفكر أيضاً فى القصد والاعتدال . ذلك أنك تحلم الآن ب حياة لها دوى ، تحلم أن تحرق لا أدري ماذا ، وأن تمزق لا أدري ماذا ، أن تسمو فوق روميا كلها ، أن تمر مرور سحابة ساطعة ، أن تفرق العالم كله فى الرعب والاعجاب ، ثم تمضى تختفى فى الولايات المتحدة ! ان فى قلبك شيئاً كهذا حتماً ، لذلك أرى أن من المفيد أن أحذرك ، لأننى أحمل لك عاطفة صادقة .

ماذا كان فى وسعى أن استخرج من هذا أيضاً ؟ ان هذا الكلام لا يتضمن الا قلقاً على بصدد حالتى المالية . هو الأب بعواطفه الحالية من كل روح شعرية ، وان تكن عواطف طيبة . ولكن أهذا ما كنت فى حاجة اليه ازاء أفكار ينبغى لسكل أب صادق أمين أن يرسل ابنه الى الموت تضحية فى سبيلها ، كما فعل هوراس القديم بذويه فى الزمان الحالى من أجل الفكرة الرومانية ؟

وكنت أسأله كثيراً عن الدين ، ولكن الضباب فى هذا المجال كان اكثف من الضباب فى كل مجال آخر . فاذا سألته : ماذا يجب على أن

أعمله فى هذا المجال ؟ أجبى أجبى اجابة ، كما يجب طفل صغير ، فقال :
« يجب أن تؤمن بالله يا عزيزى ! » •

وقد اشتد حتى مرّة فهتفت أقول له :

– فاذا كنت لا تؤمن بهذا كله ؟

فاذا هو يقول لى :

– ذلك حسن جداً يا عزيزى !

– حسن جداً ؟ كيف ؟

– هذه علامة طيبة يا صديقى ، بل هى أضمن علامة ، لأن الملحد
الروسى – هذا اذا كان ملحداً حقاً وكان على شىء ولو قليل من الذكاء –
هو خير انسان فى هذا العالم ، فهو يعامل الله بالحسنى لأنه طيب ، وهو
طيب لأنه مسرور بالحاده سروراً كبيراً • ان الملحدين فى بلادنا روسيا
أناس جديرون بالاحترام ، أناس يوثق بهم ، وهم دعامة الوطن ان صح
التعبير •••

هذا شىء طبعاً • لكنه ليس كل ما كنت أريده • مرة واحدة أفصح
عن فكرته ، ولكن بطريقة تبلغ من الغرابة أن دهشتى ازدادت ، ولا سيما
بعد الذى ترامى صده الى سمعى عما يأخذ به نفسه من كفارات ومن
عبادات كاثوليكية • قال لى يوماً ، لا فى البيت بل فى الشارع ، بعد حديث
طويل ، وكنت أوصله الى منزله :

– يا عزيزى ، يا صديقى ، ان حب البشر على ما هم عليه أمر
مستحيل • ومع ذلك يجب أن نحبهم • لذلك يجب أن تصنع لهم خيراً
وأن تكظم عواطفك وتسد أنفك وتغض عينك (هذا الشرط الأخير
لا غنى عنه) • تحمّل ما يفعلون من شر ولا تؤاخذهم ان استطعت ،
« متذكراً أنك أنت أيضاً انسان » • هذا لا ينفى أن من حَقَّ أن تقسو
عليهم اذا وهب لك أن كان ذكاًوك أعلى من متوسط ذكائهم • البشر

منحطون بطبيعتهم ، وهم يحبون أن يحبوا عن خشية وخوف .
فلا تستسلمن لهذا الحب ، ولا تكف عن احتقارهم . فى سورة من سور
القرآن يأمر الله نبيه بأن ينظر الى الكفار نظرتة الى قرآن ، وأن يحسن
اليهم ، ويمضى فى طريقه .

ان فى هذا شيئاً من تعالٍ ، ولكنه صدق وحق . فاحقر البشر ،
حتى حين يكونون طيبين ، فحين ذلك انما هم أشد ما يكونون عقناً وتناً .
يا صديقى ، أنا لا أقول هذا الكلام الا لأننى أعرف نفسى معرفة جيدة !
لا يملك انسان غير غيبى الا أن يحقر نفسه ، شريفاً كان أو غير شريف .
يستحيل على الانسان أن يحب أخاه الانسان ولا يحقره . رأى أن
الانسان يُخلق بتكوين جسمه عاجزاً عن حب أخيه الانسان . لقد وقع
خطأ لغوى منذ البداية . ما ينبغى أن تفهم من « حب الانسانية »
الا الانسانية التى خلقتها لنفسك فى قرارة قلبك (بتعبير آخر : أنا أخلق
نفسى وأخلق لها الحب) ، أى الانسانية التى لن توجد حقيقة واقعة فى
يوم من الأيام أبداً .

– لن توجد أبداً ؟

– أعترف يا صديقى بأن ذلك أمر سخيف ، ولكن ليس الذنب ذنبى
أنا . وكما لم أسأل رأيبى حين خلق العالم ، فإنى احتفظ لنفسى بالحق فى
أن يكون لى رأى .

هتفت أقول :

– كيف يمكن بعد هذا أن يقال عنك انك مسيحي متحمس
ومبشر ، وأنت تأخذ نفسك بكفارات وعبادات ؟

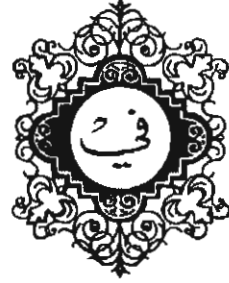
– من ذا يقول عنى هذا ؟

فقصصت عليه ما سمعت • فاصفني الى كلامي بانتباه شديد ، ولكنه
علق الحديث ...

لا أفلح في تذكر المناسبة التي جرتنا الى هذا الحديث الذي لا أنساه •
ولكنني أذكر أنه زعل ، وذلك أمر كان لا يكاد يحدث له أبداً • كان
يتكلم بان دفاع ، وبغير سخريه ، كأنما هو يوجه كلامه الى شخص غيري •
ولكنني هنا أيضاً لم أصدقه : فما كان له ، مع غيبي مثلي ، أن يعالج بالجد
موضوعات كهذه •

الفصل الثاني

١



ذلك الصباح من ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) رأيتَه عند الأمير سرجي • اتنى أنا الذى وصلت بينهما ، ولكن كان بينهما تقاط التقاء كثيرة من قبل أن أصل أنا بينهما (أقصد تلك القمص التى وقعت بينهما فى الحارج ، النخ) • وعدا ذلك كان الأمير قد قطع له عهداً بأن يكون له ثلث الميراث على الأقل ، أى قرابة عشرين ألف روبل • وأذكر أننى قد دهشت من أن يخص فرسيلوف بثلث الميراث لا بنصفه • ولكننى لم أقل شيئاً • ولقد بذل الأمير هذا الوعد بمبادرة منه • أما فرسيلوف فلم ينطق بنصف كلمة ، ولا جازف بأية اشارة • ان الأمير هو الذى قَدَّم العرض ، فلم يقابله فرسيلوف الا بالصمت ، ولا ذكَّر به فى يوم من الأيام ، ولا بدا عليه أن يتذكره البتة • يجب أن أشير عابراً الى أن الامير قد افتنن به فى أول الأمر افتتاناً كبيراً ، ولا سيما بأحاديثه ، حتى لقد تحمس له ، وأعرب لى عن ذلك مراراً • بل انه كان فى بعض الأحيان ، حين يخلو الى ، يهتف قائلاً عن نفسه بما يشبه اليأس « اتنى انسان ضئيل الحظ من الثقافة ، واننى أسير فى طريق خطأ ، ... ذلك أننا كنا حيثنذ صديقين حميمين ! وقد حاولت من جهتى أن أوحى الى فرسيلوف برأى

حسن فى الأمير ، مدافعاً عن عيوبه ، مع أنتى أراها • ولكن فرسيلوف
كان يقى صامتاً أو كان يتشم •

وقد صحت ذات يوم أقول لفرسيلوف منفرداً به :

- اذا كانت له عيوب ، فان له مزايا تساويها •

فأجابنى فرسيلوف وهو يضحك ساخراً :

- انك تبالع فى مدحه !

- أين المبالغة ؟ لست أفهم !

- المبالغة فى قولك ان مزاياه تساوى عيوبه • فلو كانت له مزايا بقدر

عيوبه لصنع معجزات !

ولم يكن هذا رأياً بطبيعة الحال • المهم أنه كان يتحاشى الكلام عن
الأمير كتحاشيه الكلام عن الأمور الجوهرية عامة ، بل كان تجنبه الكلام عن
الأمير أشد من تجنبه الكلام عن تلك الأمور الجوهرية • وكنت أقدر أنه
يزور الأمير فى غيابه ، وأن بينه وبينه علاقات خاصة • ولكننى كنت راضياً
بالأمر • وكان لا يثير غيرتى أن يكون فى حديثه مع الأمير من الجد والدقة
والوضوح ما ليس فى حديثه معى من مثل ذلك كله ، وأن يخلو حديثه
إليه مما يمازج حديثه إلى من سخريه • بل قد بلغت من فرط السعادة
أن ذلك كان يرضينى ويعجبينى • وكان يشفع لفرسيلوف فى هذا عندى
أن الامير رجل محدود الذكاء قليلاً ، فالتلميح لا يعنى معه عن التصريح
حتى لقد يحتاج حتى يفهم الى الحاح ، والا فقد يفوته ادراك معنى بعض
الأمازيح • ولكن ها هو ذا قد أخذ يتحرر فى الآونة الأخيرة • وبدا
أن عواطفه نحو فرسيلوف قد تتغير • ولاحظ فرسيلوف ذلك بما أوتى من
لطافة الحس • ولاحظت تغيراً كهذا فى علاقات الأمير بى • حتى لقد كان
هذا التغير واضحاً كل الوضوح • فلم يبق من صداقتنا الأولى الحارة الا
صور ميتة • ومع ذلك ظللت أذهب إليه • وهل كان يمكننى أن أفعل غير

هذا بعد أن أبحرت؟ آه... ما كان أشد سذاجتى! هل يمكن لبسطة القلب أن تؤدي بانسان الى مثل هذه الدرجة من الحرقاة والحطة؟ كنت أقبل منه مالا، وفي ظنى أن ذلك ليست له عواقب، وأنه من طبيعة الأمور. بل قل لم يكن الأمر كذلك: لقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذا ليس ما كان يجب على أن أعمله، ولكننى كنت لا أفكر فى الامر كثيراً، ولا أنلبث عليه طويلاً. ولم أكن أذهب اليه من أجل المال، رغم حاجتى الشديدة الرهية الى المال. وكنت أعلم أنتى لا أذهب اليه من أجل المال، ولكننى أدرك أنتى أجيء كل يوم فأخذ مالا. على أنتى أدور فى الزوبعة وكانت نفسى عدا ذلك مشغولة بشيء آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف. كانت نفسى كلها تفتنى!

حين دخلت فى نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح، وجدت فرسيلوف عند الأمير مشارفاً على ختام حديث مستفيض. كان الأمير يصغى وهو يندرع الغرفة ذاهباً آيباً. وكان يبدو على الأمير شيء من الاضطراب. ان فرسيلوف يبت فى نفسه بعض الاضطراب دائماً. فالأمير شديد التأثير الى درجة السذاجة، وكان هذا يجعلنى أنظر اليه من عل. ولكننى أعود فأكرر أنه فى هذه الأيام الأخيرة قد ظهر فيه شيء من خبت وشر. فلما رأتى توقف، وتقبض وجهه قليلاً. وكنت أعرف بينى وبين نفسى كيف أفسر هذا الظل يظهر على وجهه فى ذلك الصباح، ولكننى لم أتوقع أن تتبدل سحنته هذا التبدل. كنت أعلم أن هناك أنواعاً شتى من المنغصات قد تراكمت عليه، ولكن المؤسف أنتى كنت لا أعرف عشر معشارها، وكان ما عدا ذلك سرّاً أجهله جهلاً تاماً. ومما يزيد الأمر مضايقة لى أنتى كنت أتدخل فى شئونهِ أحياناً كثيرة محاولاً أن أواسيه وأن أسدى اليه بالنصح، دون أن يفوتنى أن أسخر من ضعفه فى استعلاء قائلاً له: ما هذا الاستسلام لمثل هذه «الترهات»! وكان يلتزم الصمت. ولكن يستحيل أن لا يكرهنى كرهاً رهيباً فى تلك اللحظات: لقد كنت

في وضع زائف دون أن يخطر ببالى ذلك • آه •••• شهد الله أن الأمر
الجمهورى ما كان يدور فى خلدى ، ولا كان يخطر على بال !

ومع ذلك مد الى يده بحزكة مهذبة • وهز فرسيلوف رأسه محيياً
دون أن يقطع حديثه • واستلقت على الديوان •

ما أعجب تلك الأساليب التى كنت أصطنعها فى ذلك الوقت ! كنت
أنظر اليه من عل ، وأعامل أصدقاءه معاملة أصدقائى • آه •••• لو كان
يمكن أن أتقهقر الآن فى الزمان الى الوراء ، لسلكت سلوكاً آخر ••••

كلمتان أخيرتان قبل أن أنسى : كان الأمير ما يزال يسكن تلك الشقة
نفسها ، لكنه يشغلها الآن كلها تقريباً ، فان مالكتها ستوليافا لم تقض
فيها الا شهراً واحداً ثم سافرت •

كانا يتكلمان عن طبقة النبلاء أو طبقة الأشراف . يجب أن أذكر أن هذه المسألة كانت تشغل بال الأمير كثيراً ، وتعذبه كثيراً ، رغم ما يصطنعه من مظاهر التقديمية ؛ حتى لأعتقد أن كثيراً من الجوانب السيئة في حياته قد نشأت عن ذلك ، أو بدأت بذلك : انه من فرط ولوعه بلقب الأمير قد قضى حياته كلها يبذر المال ويفرق في الديون مدفوعاً بزهو بطل وكبرياء كاذبة ، رغم أنه لا يملك ثروة . وقد أسمعه فرسيلوف مراراً أن النبالة ليست في هذا ، وحاول أن يدخل في قلبه تصوراً ارفع من هذا التصور . ولكن الأمير تأذى في آخر الأمر ، وأهانته أن يلقنه أحد دورساً . ولا شك أن مشهداً من هذا النوع هو ما كان يجري في ذلك الصباح ، ولكنني لم أحضر بدايته . وقد بدت لي أقوال فرسيلوف في البداية رجعية ، ولكنه استدرك بعد ذلك .

كان يقول (وأنا أثقل المعنى وحده بقدر ما تسعفني الذاكرة) :

— ان كلمة الشرف تعني الواجب . فحين تسيطر في دولة من الدول طبقة ذات امتيازات ، فان البلاد تكون قوية عزيزة الجانب . ولهذه الطبقة دائماً شرفها ولها دائماً ديانة شرف تعتقها . وقد تكون هذه الديانة خطأ ولكنها رباط يحقق تلاحم الأمة ، فهي نافعة في الأخلاق ، وهي نافعة في السياسة خاصة . ولكن العيب يتألمون وأعنى بالعيب جميع اولئك الذين لا ينتمون الى تلك الطبقة ؛ فمن أجل أن لا يتألموا توهب لهم المساواة في الحقوق . فهذا ما حدث عندنا ، وهو أمر حسن جداً . غير أن جميع التجارب التي تمت حتى الآن ، وفي كل مكان (أي في أوروبا) ، تدل على أن المساواة في الحقوق تؤدي الى انخفاض في مستوى الشرف ،

وفى مستوى الواجب تبعاً لذلك • فالأناية حلت محل الفكرة القديمة
التي كانت تشد البلاد برباط قوى ، وصار كل شيء الى حرية للأفراد •
فلما تحرر البشر ، وخلوا من فكرة تشد بعضهم الى بعض ، بلغوا من
فقدان كل رابطة عليا أنهم أصبحوا لا يدافعون عن حريتهم • ولكن النبالة
الروسية لم تشبه نبالة الغرب فى يوم من الأيام • وحتى فى أيامنا هذه ،
بعد أن فقدت حقوقها ، تظل نبالتها قادرة على أن تبقى نظاماً أعلى يحافظ
على الشرف والأنوار والعلم والمعاني السامية والأفكار الرفيعة ، ولا سيما
إذا هى كفت عن أن تكون طبقة مغلقة ، والا كان فى انغلاقها موت الفكرة •
وقد ظلت أبواب النبالة فى بلادنا مشقوقة منذ مدة طويلة ، والآن حان
الوقت الذى يجب ان تفتح فيه هذه الأبواب على مصاريمها • فاذا كل
مأثره من مآثر الشرف أو العلم أو الشجاعة تهب لصاحبها حق الانتماء
الى هذه الطبقة العليا • فبذلك تستحيل الطبقة من تلقاء نفسها الى جمع
يضم خيار الناس بالمعنى الصادق الحق لهذه الكلمة ، لا بالمعنى القديم من
حيث أنها طبقة مغلقة ذات امتيازات • ففى هذه الصورة الجديدة ، أو قل
هذه الصورة المجددة يمكن أن تبقى هذه الطبقة وأن تستمر •

فكشفت الأمير أسنانه قائلاً :

– وماذا يبقى عندئذ من النبالة ؟ ان ما تتصوره لهو محفل ما سونى
لا طبقة نبلاء •

يجب أن أعود فأكرر أن الأمير رجل جاهل جهلاً رهيباً ، حتى
لقد استدرت على ديوانى غضباً ، رغم أنني لم أوافق فرسيلوف على مقاله
موافقة تامة • وأدرك فرسيلوف أن الأمير حائق • فأجاب يقول له :

– لا أدري ماذا تعنيه بالمسونية • ولكن اذا رفض أمير روسى هذه
الفكرة ، كان معنى ذلك أن الوقت لم يحن بعد ، وأن الفكرة سابقة
لأوانها • صحح أن الفكرة القائلة بأن الشرف والثقافة والعلم شرط

الانتماء الى طبقة لا تغلق أبوابها ولا تجمد على حالها بل ما تنفك تتطور وتتجدد ، هي حلم يتوق اليه الانسان ، ولكن هل هي مستحيلة ؟ يكفي أن هذه الفكرة قائمة ولو في عدد قليل من الأذهان حتى نقول انها لم تضع ، فهي تسطوع كسطوع نقطة مضئية في ظلمات كثيفة .

قال الأمير :

– أراك تحب أن تستعمل هذه الألفاظ : « فكرة عليا » ، « فكرة كبيرة » ، « فكرة تربط الناس وتشدهم بعضهم الى البعض » ؛ فأريد أن أفهم ما الذي تمنيه على وجه الدقة من قولك : « فكرة كبيرة » ؟

فأجاب فرسيلوف بتهكم ناعم :

– لا أدري بماذا أجيبك يا عزيزي الأمير . بل لعلي أكون أقرب الى الصدق اذا قلت لك اننى عاجز عن الاجابة . ان الفكرة الكبيرة هي في العادة عاطفة تظل بدون تعريف خلال مدة طويلة أحياناً . ولكننى أعلم أن هذه العاطفة هي ما ولد الحياة الحية دائماً ، أقصد الحياة التي ليست حياة مصنعة مستخرجة من الكتب وقائمة على الألفاظ ، بل حياة حقة ، حياة يتدفق فيها الفرح ولا يخالطها حذر . فالفكرة العليا التي تنبع منها هذه الحياة هي اذن ضرورة لا غنى لها ، وان ساءت الناس طبعاً .

– ولماذا تسوء الناس ؟

– لأن الناس يسأمون أن يعيشوا بأفكار ، ويهجمهم أن تخلو معيشتهم منها .

وبلغ الأمير هذه القمزة . ثم قال يسأل وقد استمر غضبه استعاراً واضحاً :

– وما تلك الحياة الحية في رأيك ؟

- لا أدري أيضاً يا أمير • ولكننى أعرف أنها شيء بسيط غاية البساطة ، شيء عادى الى أبعد الحدود ، شيء ظاهر للعيان كل يوم فى كل دقيقة ، بل شيء يبلغ من البساطة أننا لا نكاد نصدق أنها تبلغ هذا المبلغ من البساطة ، وأتانا نلقاها فى طريقنا منذ ألوف السنين دون أن نلاحظها أو أن نتعرفها •

قال الأمير :

- لكننى أردت أن أقول ان فكرتك عن النبالة هى فى الوقت نفسه انكار للنبالة ونفى لها •

- فاعلم اذن ، ما دمت حريصاً على ذلك ، أن النبالة لعلها لم توجد عندنا فى يوم من الأيام •

- هذا الكلام كله غامض غموضاً رهيباً ، مبهم ابهاماً فظيماً • حين يتكلم الانسان ، يجب عليه فى رأى أن يشرح ويوضح ...

وتغضن جبين الأمير ، وألقى نظرة على ساعة الجدار • فتناول فرسيلوف قبعة ونهض وهو يقول :

- 'يشرح ويوضح؟ لا بل الأفضل أن لا يشرح وأن لا يوضح •

وهذه آفة من آفاتى على كل حال : فأنا لا أفيض فى الشرح والايضاح • نعم ، هو كذلك • وثمة سمة غريبة أخرى من سمات طبعى : اذا اتفق لى أن أخذت أشرح وأن أوضح فكرة أو من بها ، فانتى فى جميع الأحيان تقريباً أنتهى أنا نفسى الى الكف عن الايمان بها ، وانتهى الى جحودها • وأخش أن تجرى الأمور اليوم هذا المجرى • الى اللقاء يا عزيزى الأمير • انتى استرسل فى الحديث وأتقاد للثرثرة عندك ، وهذا أمر لا يقفّر •

• وخرج • فشيعة الأمير بأدب ، ولكننى تأذيت وجرح شعورى •

وقال لى الأمير دون أن ينظر الى وجهها لوجه ، ودون أن يتوقف :

- ما بالك تقطب حاجبيك ، وما بال وجهك يتجهم ؟

فأجبتة أقول متهدج الصوت :

- يتجهم وجهي لأننى أرى فيك تبديلاً تجاهى وحتى تجاه فرسيلوف تبديلاً يبلغ من الغرابة أن . . . لا شك أن كلام فرسيلوف قد كان فى البداية رجعيًا ولكنه استدرك فى النهاية ، و . . . لعل أقواله كانت فكرة عميقة ، ولكنك لم تفهمها ، و . . .

- لا أريد أن يلقننى أحد درساً ، وأن يعاملنى معاملة صبي صغير .

كذلك قال الأمير بلهجة قاطعة غاضبة . فقلت له :

- يا أمير ، ان هذه الأقوال . . .

- دعنا من الحركات المسرحية ، من فضلك ! اننى أعلم أن ما أفعله فيه حطة ، فأنا مبذر ، وأنا مقامر ؛ وربما كنت لصاً . . . نعم ؛ ربما كنت لصاً ؛ لاننى أتلغ مال أسرتى ، ولكننى لا أريد قضاة يحكمون على من فوق . لا أريد ذلك ، ولا أطيعه ، ولن أقبله . أنا قاضى نفسى . وما معنى هذا الكلام المتبسبب الذى يقوله ؟ اذا كان يريد أن يقول لى شيئاً ، فليعبر عنه بصراحة بدلاً من الايقال فى هذه المتاهات المظلمة والنبوءات الغامضة . ومع ذلك ينبغى أن يكون قبل كل شىء أهلاً لأن يقول لى شيئاً ، يجب أن يكون له حق فى هذا ، يجب أن يكون هو نفسه رجلاً شريفاً . . .

- أولاً : أنا لم أحضر بداية الحديث ، وأجهل عمّ كتما نتكلمان .

ثم لماذا تقول ان فرسيلوف ليس شريفاً ؟ هلا أذنت لى بالقاء هذا السؤال !

- كفى كفى ، أرجوك . لقد طلبت منى بالأمس ثلاثمائة روبل .

فإليك هى !

قال ذلك ووضع المال على الطاولة ، وجلس فى مقعد ، وارتد مسنداً

ظهره إليه بحركة عصبية ، ووضع ساقاً على ساق . فوفقت مضطرباً
وتتمت أقول :

- لا أدري . لقد طلبت منك هذا المبلغ فعلاً وأنا فى حاجة
ماسة إليه حقاً ولكن ازاء هذه اللهجة التى تخاطبني بها ، فانتى
- دعك من اللهجة . وانى لأعتذر اليك اذا كنت قد نطقت بكلام
يجرح شعورك فانتى ما أردت أن أسئ اليك . وأؤكد لك أن هناك
هموماً أخرى تملأ نفسى ! اسمع ، لقد تلقيت رسالة من موسكو . انك
تعلم أن أخى ساشا قد مات وهو صبي منذ ثلاثة أيام . وتعلم أن أبى
مصاب بشلل منذ ستين . وقد كتبوا الىّ أن حالته سامت حتى أصبح
لا يستطيع أن ينطق بكلمة ، ولا يقدر أن يتعرف أحداً . وهم هناك
مبتهجون منذ الآن ، بسبب الميراث ؛ ويريدون أن يذهبوا به الى خارج
البلاد . ولكن الطيب كتب الىّ قائلاً ان أبى لن يبقى حياً أكثر من
أسبوعين آخرين . وهكذا سنبقى انا وأمى وأختى فكأنتى سأكون
وحيداً . بل هأنذا وحيد وذلك الميراث ، ذلك الميراث ، آه
ألا ليته لم يجيء أبداً ! ولكن اليك ما كنت أريد أن أبلغك اياه : لقد
وعدت بطرس أندريفتشس أن يناله من هذا الميراث ما لا يقل عن عشرين
ألف روبل ولكن هل تصور أننا بسبب الاجراءات الرسمية لم
نستطع بعد أن نحصل على هذا الميراث حتى الآن ؟ حتى انتى أقصد . . .
حتى انا أقصد حتى ان أبى لم يصبح هذا الميراث فى حوزته . ومع
ذلك ما أضخم المبالغ التى أنفقتها فى هذه الأسابيع الثلاثة الأخيرة !
وما أشنع الربا الذى يأخذه هذا الوغد الدنيء سستيلكوف انتى
أعطيك الآن آخر ما معى

- لا يا أمير ، اذا كان الأمر كذلك

- ليست هذه هى المسألة . أبداً . ان سستيلكوف سيجيئنى اليوم

بمال قطعاً ، وسيكون ما يجيئني به كافياً الآن . ولكن ما احقر هذا الرجل ! لقد توسلت اليه ضارعاً أن يجد لي عشرة آلاف روبل ، فاستطاع أن أعطي آندره بتروفتش عشرة آلاف على الأقل . ان الوعد الذي بذته بأن أترك له ثلث الميراث يعذبني تعذيباً شديداً . لقد قطعت على نفسي عهداً ، فنبغي أن أفي به . وأحلف لك أنني احترق رغبة في تحقيق التزاماتي . انها ثقيلة على نفسي ؟ ثقيلة جداً . ان هذه العلاقة ترهقني انتي لا أستطيع أن أرى آندره بتروفتش ، لأنني لا أستطيع أن أنظر اليه وجهاً لوجه لماذا يستغل سوء حالتي هذه ؟

- كيف يستغل سوء حالتك يا أمير ؟

قلت له ذلك وأنا أقف أمامه مبهوتاً . وأضفت:

- هل المع أو غمز أو عرض أحيانا ؟

- أبدأ . انتي لأقدر له هذا . لكنني أنا الذي أعرض بنفسى . وما

أبرح ازداد تورطاً وارتباطاً . ما احقر ستيلكوف هذا !

- اسمع يا أمير ، هدى نفسك ، أرجوك . أرى أنك كلما أمعت

في هذا السبيل اشتد اضطرابك ، وتفاقم عذابك . وقد لا يكون الأمر مع

ذلك الا سراياً آه أنا أيضاً تورطت تورطاً دنيئاً لا يفتخر . لكنني

أعرف أن هذا عارض طارئ سوف يكفيني أن أربح مبلغاً ثم

قل لي : ان دينك علىّ يصبح ألفين وخمسمائة وربلاً إذا أنا أخذت هذه

الثلاثمائة ، أليس كذلك ؟

- أظن أنني لا أطالبك بسداد هذا الدين .

قال الأمير ذلك وابتسم فجأة .

قلت :

- تقول انك ستعطي فرسيلوف عشرة آلاف روبل ، فاذا قبلت الآن

ما أخذته منك فيجب أن يدخل في حساب العشرين ألفاً التي ستخص

بها فرسيلوف • ولن أقبل أن يكون الأمر غير ذلك • ولكن ••• ولكنني سأرد اليك المبلغ بنفسى حتماً • هل تظن أن فرسيلوف يجيئنا من أجل هذا المال ؟

قال الأمير بلهجة تحمل معنى اللغز :

— ليت مجيئه للمال •

— تكلمت عن « علاقة ترهقك » ••• فإذا كنت تعنى فرسيلوف وتنيني فهذا كلام جارح • وقلت أيضاً : لماذا لا يكون هو كما يريد من الناس أن يكونوا ؟ هذا هو منطقتك ، فاسمح لي أن أقول لك ان هذا ليس بمنطق • هبه لا يلتزم بما يطلبه من غيره ، ان هذا لا يمنعه من الدعوة الى الحقيقة • ولماذا كلمة الدعوة أو التبشير هذه ؟ ثم انك تستعمل كلمة النبوءات ، فقل لي : هل أنت الذى وصفته فى ألمانيا بأنه « نبي للنساء » ؟

— لا ، لست أنا •

— ذكر لي ستيلكوف أنك قائل هذه الجملة ؟

— كذب • لست قادراً على خلع القاب فكهة • ولكن اذا أراد أحد أن يدعو الى الفضيلة أو أن يبشر بها ، فليكن فاضلاً هو نفسه : ذلك منطقي ••• ولا يهمنى كثيراً أن يكون هذا المنطق خطأ • أريد هذا ، وسيكون • فلا يجروُن أحد بعد على أن يجيئ الى ليحكم علىّ وليعاملني معاملة صبي صغير •

وهتف أخيراً يقول وهو يحرك يده باشارة تهيب بي أن لا أعقب على كلامه :

— كفى ! آه ••• أخيراً •

وافتح الباب ودخل ستيلكوف •

لا يزال كما كان ، حسن الهندام ، ناهداً بصدرة الى أمام ، مجدداً
بنظرة تحديقاً أبله ، ظاناً نفسه أمكر من غيره ، راضياً عن ذاته أعظم
الرضى . ولكنه حين دخل هذه المرة ألقى على الغرفة نظرة مستطلعة
غريبة ، وكان في نظرتة شيء من روية ونفرس ، فكأنه يحاول أن يحزر
من رؤية وجهينا شيئاً من الأشياء . على أنه لم يلبث أن اطمان بالاً ،
وأضاءت شفتيه ابتسامة غرور ووجهة كنت أتأذى منها كثيراً .

ولقد كنت أعلم منذ مدة طويلة أنه يزعج الأمير كثيراً . وسبق
أن جاء الى الأمير ، وأنا عنده ، مرة أو مرتين . وأنا أيضاً . . . كان لي معه
شأن في الشهر الأخير ، ولكنني في هذه المرة استغربت زيارته بعض
الاستغراب لسبب من الأسباب .

قال له الأمير حتى دون أن يحييه :

— حالاً .

وأدار لنا ظهره ، وأخرج من مكتبه أوراقاً وحسابات .

ولقد كنت من جهتي متأدياً من الكلمات الأخيرة التي قالها لي الأمير
تأدياً شديداً . فان اشارته الى أن فرسيلوف رجل غير شريف، كانت تبلغ
من شدة الوضوح (وشدة ما تبعثه في النفس من الدهشة أيضاً) أنه كان
يستحيل أن أصرف النظر عنها ، وأن لا أطلب لها بايضاح . ولكن كان
لا يمكن أن يخطر هذا بالبال أثناء وجود ستييلكوف .

وعدت أتمدد على الديوان ، وفتحت كتاباً كان أمامي ، فرأيتني أقول

للأمير بلهجة لملها لا تخلو من سخرية :

- بيلنسكى ، الجزء الثانى ! ... هذا شىء جديد ! واضح أنك حتى التفت الى وقال لى بخشونة :

وكان الأمير منهمكاً فى تقليب أوراقه ، ولكنه ما ان سمع كلمتى التفت الى وقال لى بخشونة :

- دع هذا الكتاب وشأنه ، من فضلك !

فكانت جملته هذه تتجاوز الحدود المألوفة ، ولا سيما أمام ستيلكوف ! وبمصادفة تشبه العمد جعد ستيلكوف وجهه بحركة دنيئة ماكرة ، وغمزنى مشيراً الى الأمير خلصة • فاشحت وجهى عن هذا الرجل الغبى • وقلت أخاطب الأمير :

- لا تزعل يا أمير ، فهنا إذا أدعتك للرجل الرئيسى ، وأنسحب •

كنت قد قررت أن لا أتحرج فى كلامى • فقال ستيلكوف جذلاً وهو يشير الى نفسه باصبعه :

- أنا الرجل الرئيسى ؟

- نعم أنت • أنت الرجل الرئيسى ، وانك لتعرف ذلك حق معرفته !

- لا ، اسمح لى • ان فى كل مكان على هذه الأرض رجلاً ثانياً • فأنا الرجل الثانى • الرجل الأول يفعل ، والرجل الثانى يأخذ • فبذلك يصبح الثانى أول ويصبح الأول ثانياً • أصحیح أم لا ؟

- جائز ، ولكننى لا أفهم عنك ، على عادتى •

- اسمح لى • لقد قامت فى فرنسا ثورة • وأعدم الناس بالمقصلة • ثم جاء نابوليون فأخذ كل شىء • فالثورة هى الأولى ، ونابوليون هو الثانى •

ولكن نابليون أصبح هو الأول ، وأصبحت الثورة هي الثانية • أصحح
أم لا ؟

يجب أن أذكر عابراً أنني حين أخذ يتكلم عن الثورة الفرنسية
رأيت في كلامه ذلك المكر نفسه الذي لاحظته في المرة الأولى فأضحكني
كثيراً • انه ما يزال ينظر الى نظرتي الى رجل ثورى ، فكلمنا لقيني رأى
من واجبه أن يقذف بعبارات من هذا النوع •

قال الأمير :

— هيا بنا !

وانسللاً كلاهما الى غرفة أخرى • حتى اذا خلوت الى نفسى اتخذت
قراراً قاطعاً بأن أرد اليه الثلاثمائة روبل متى انصرف ستيلكوف • لقد
كنت في حاجة الى هذا المال ؟ ولكننى عزمت أمرى واتخذت قرارى •

لبنا عشر دقائق لا يُسمع لهما صوت ، ثم اذا هما يتكلمان بصوت
عال على حين فجأة • أصبحا يتكلمان كلاهما في آن واحد ، ويقاطع
أحدهما الآخر ، ولكن الأمير لم يلبث أن أخذ يصرخ ، فلو سمعته لقلت
انه غاضب غضباً يبلغ درجة الخنق الشديد • وكان يندفع في بعض
الأحيان اندفاعاً قوياً • لذلك غفرت له أشياء كثيرة • ولكن خادماً دخل
في تلك اللحظة نفسها ، فدللته على الغرفة التى فيها الأمير ، فما ان دخل
عليهما حتى هدأ كل شىء فى الغرفة دفعة واحدة • وسرعان ما خرج
الأمير مهموم الهيئة ولكنه مبسم • ورجع الخادم راکضاً ، فما انقضت
دقيقتان حتى دخل زائر •

انه رجل مهيب الطلعة ، تزدان بزقه بالأوسمة ، ويحمل صدره
رقماً امبراطورياً ، ولا يزيد عمره على ثلاثين عاماً فى أكثر تقدير ، وهو
من أبناء المجتمع الراقى ، تعبر هيئته عن صرامة وقسوة • يجب أن أنبه
القارئ الى أن سرجى بتروفتش كان لا يتسمى حقاً الى المجتمع

البطرسبرجى العالى ، رغم شوقه المحرق الى ذلك ، ورغبته المحمومة فيه (كنت أعرف فيه هذه الرغبة) ، فلا بد أن يقدر مثل هذه الزيارة قدراً عظيماً وأن يعدها شرفاً كبيراً . ولقد تم التعارف بين الرجلين منذ مدة قصيرة بعد جهود كبيرة بذلها الأمير ، (كنت أعرف ذلك) ، والزائر انما يرد الآن للأمير زيارة سابقة ، ولكن شاء سوء الحظ أن يجيئه مباغتاً . فرأيت ما زخرت به سحنة الأمير من ألم ، وما كان فى نظرتيه من زيغ حين التفت لحظة الى ستيلكوف . ولكن ستيلكوف احتمل هذه النظرة كأن شيئاً لم يكن ، ولم يخطر بباله أبداً أن ينصرف ، بل جلس على الديوان طلق الحركة منبسطة الأسارير ، وأخذ ينكس شعره بيده اظهاراً لاستقلاله فى أغلب الظن . حتى لقد اصطنع الوقار والمهابة . الخلاصة أنه كان لا يطاق ! أما أنا فكنت فى ذلك الأوان قد تعلمت حسن التصرف وكياسة السلوك ، فما كان لأحد أن يحمر خجلاً من وجودى . ولكن ما كان أشد دهشتى حين لحت فى الأمير تلك النظرة نفسها ، النظرة الزائفة الغاضبة المسكينة الكارهة ، فأدركت أنه خجل من وجودنا كلياً ، وأنه لا يفرق بينى وبين ستيلكوف من هذه الناحية ! فأحقتى هذه الفكرة . فرأيت نفسى استرخى على المقعد استرخاء أدعى الى الراحة ، وأخذت أقلب الكتاب غير مكترث ، كشخص لا يعنيه شيء البتة . ولا كذلك ستيلكوف ، فقد حملق عينيه ، ومال الى أمام ، وأصاح بسمعه الى الحديث ، ولعله كان يظن أن هذا من الأدب واللفظ والكياسة والتودد . فألقى عليه الزائر نظرة أو نظرتين ، وكذلك فعل لى على كل حال .

أخذ الأمير والزائر يتأقنان أبناء عائلة . كان الزائر قد عرف أم الأمير التى هى سليله أسرة كريمة المحتد مشهورة . واذا صح ما أدركته فقد كان الزائر ، رغم ما فى سكونه من بساطة ولطافة ، كان يشعر باستعلاء ، ويحس بأنه يبلغ من رفعة القدر أن زيارة منه لا بد أن تكون شرفاً عظيماً لمن يحظى بها . ويقينى أن الأمير ، لو خلا الرجلان أحدهما

الى الآخر ، لبدا عليه وقار أكبر وحذق أعظم ، غير أن شيئاً من الاختلاج
فى ابتسامته التى لعلها كانت مفرطة فى التودد ، وشيئاً من الدهول الغريب ،
كانا يفضحان ما هو فيه من حرج وضيق .

وما ان انقضت خمس دقائق حتى أُعلن عن وصول زائر آخر
شامت المصادفة التى تشبه العمد أن يكون حضوره محرراً للأمير مسيئاً
الى سمعته . اننى أعرف هذا الزائر : سمعت عنه كثيراً وان لم يعرفنى
هو يوماً . انه شاب فى غضارة الشباب ، وان يكن فى الثالثة والعشرين
من العمر ، يرتدى أجمل الثياب ، وينتمى الى أسرة كريمة ، ويتمتع
بوسامة حلوة ، ولكن لا شك أنه لا يختلف الى المجتمع الراقى . ولقد
كان فى العام الماضى ما يزال يعمل فى فوج من أشهر أفواج فرسان
الحرس ، ولكنه أُحيل على التقاعد ، وعلم جميع الناس بسبب احالته على
التقاعد . حتى ان أهله أعلنوا فى الصحف أنهم غير مسئولين عن ديونه .
ولكن هذا لم يمنعه من الاستمرار فى اللهو والقصف والمجون ، مقترضاً
بفائدة تبلغ عشرة فى المائة على الأقل ، مقامرماً بمبالغ ضخمة فى مجتمعات
القمار ، مدمراً نفسه فى سبيل « فرنسية » شهيرة . ولقد ربح منذ أسبوع
تقطع ، فى سهرة واحدة ، قرابة اثنى عشر ألف روبل ؛ فحقق بذلك
نصراً . وهو على علاقة طيبة بالأمير ، حتى لقد كانا يقامران بمبالغ
مشتركة فى كثير من الأحيان .

ارتعش الأمير حين رآه . لاحظت ذلك وأنا جالس فى مكاني . وكان
هذا الفتى يشعر أنه فى بيته حيث كان ، ويتكلم بصوت عال دون أى
تخرج أمام أى انسان ، ويقول كل ما يخطر بباله مرحاً فرحاً . وما
كان له أن يلاحظ طبعاً ان الأمير يرتجف خجلاً من صحبته أمام زائره
العظيم .

وسرعان ما بادر يقاطعهما متحدثاً عن لعب الليلة البارحة حتى قبل أن
يجلس . قال مخاطباً الضيف الكبير وهو يحسبه واحداً من الصحب :

- أظن أنك كنت حاضراً بالأمس .

ولكنه بعد أن أُنعم النظر فيه استدرك يقول هاتفاً :

- آ آ آ آ آ معذرة آ آ آ آ آ ظننتك واحداً من العصبة !

فبادر الأمير يعرف الرجلين أحدهما بالآخر :

- ألكسى فلاديميروفتش دارزان ! هيليت ألكسندروفتش

ناشتشوكين !

وكان الفتى رغم كل شيء حسن الهيئة ، وكان اسمه طيباً ومعروفاً .
غير أن الأمير لم يقدمه اليه ، أنا وستيلكوف ، فلبثنا في ركبتنا . وأبيت
أنا اباء قاطعاً أن ألفت وجهي نحو الجمع . ولكن ستيلكوف ابتسم ابتسامة
صغيرة فرحة ، وهمّ أن يفتح فاه متكلماً . وأخذ هذا كله يسليني .

قال دارزان :

- كنت في العام الماضي ألكاك كثيراً عند الأميرة فيريجينيا . فأجاب

ناشتشوكين بظرف :

- أذكر هذا . ولكنك كنت في ذلك الوقت ترتدي بزة عسكرية

فيما أظن .

- نعم ، كنت أرتدي بزة عسكرية ، ولكن بسبب آ آ آ آ آ هه ! هذا

ستيلكوف ! ما المصادفة التي جاءت بك الى هنا ؟ آ آ آ آ آ بسبب

أمثال هؤلاء السادة أصبحت لا أرتدي البزة العسكرية .

قال ذلك وهو يشير الى ستيلكوف صراحة ، وانفجر ضاحكاً . واعد

ستيلكوف هذه العبارة تودداً لطيفاً ، وفرح بها وضحك هو أيضاً . واحمر

الأمير خجلاً ؟ وأسرع يلقى على ناشتشوكين سؤالاً ما ؛ بينا اقترب

دارزان من ستيلكوف وانخرط معه في حديث حار ، ولكن بصوت خافت .

سأل الزائر الأمير :

- لا بد أنك عرفت في الخارج كاترين نيقولايفنا آخماكوففا ؟

- آ .. طبعاً .. كانت معرفتي بها حسنة جداً .

- أظن أن نبأ سيداع هنا في القريب . يقال انها ستزوج البارون

بيورنج فصاح دارزان يقول :

- هذا صحيح !

فقال الأمير يسأل ناشتسوكين باضطراب واضح ونبرة خاصة :

- أنت تعلم هذا ... علم اليقين ؟

- بل 'ذكر لي' . وأظن أن الناس قد بدت تتحدث فيه منذ الآن .

لكنني لا أعلمه علم اليقين .

قال دارزان وهو يدنو منهما :

- النبأ صحيح ، أكدته لي دوياسوف أمس ، و دوياسوف أول من يعلم

أمثال هذا الأخبار . ولا بد أن الأمير يعرف على كل حال ...

انتظر ناشتسوكين أن يفرغ دارزان من كلامه ، ثم التفت الى الأمير

من جديد يقول له :

- أصبحت لا تختلف الى المجتمع الا نادراً .

فقال الأمير بلهجة جافة :

- كان أبوها مريضاً في الشهر الماضي .

فاذا بدرارزان يقول فجأة :

- هذه آسفة لها مغامرات !

فرفعت رأسى ونصبت جذعي ، وقلت :

- يسرنى أنتى أعرف كاترين نيقولايقنا معرفة شخصية ، وأظن أن من واجبي أن أؤكد لكم أن تلك الشائعات جميعها ليست الا أكاذيب دينية ... اختلقها أولئك الذين حاموا حولها ثم لم يظفروا بطائل ...

وصمت بعد هذه المقاطعة الحمقاء ، وظللت أنظر الى الحضور ملتهب الوجه قائم الجذع . فالتفت الجميع الى ، ولكن ستييلكوف لم يلبث أن ضحك ساخراً . ودهش دارزان فابتسم أيضاً .

وقال الأمير مشيراً الى ، معرفاً بى دارزان :

- آر كادى ماكاروفتش دولجوروكى !

فقال دارزان وهو يلتفت الى صريح الهيئة باش الوجه :

- صدقنى يا أمير : لست أنا من يتحدث فى الأمر . ثمة شائعات .

ولست أنا من يذيعها وينشرها .

فأجبهته قائلاً بسرعة :

- لست أتهمك .

ولكن ستييلكوف كان قد انفجر يضحك كما لا يليق بأحد أن يضحك ، لأن دارزان نادانى بقوله « يا أمير » . هذا « مقلب » آخر يدبره لى هذا الاسم المشؤم ! ومازلت الى الآن أحمر خجلاً حين أتذكر أنتى لم أستطع - بسبب ذلك الحجل الزائف طبعاً - أن أصحح ذلك الخطأ فوراً وأن أعلن أنتى لست الأمير دولجوروكى ، بل دولجوروكى فحسب . تلك أول مرة يحدث لى فيها هذا . وكان دارزان ينقل بصره مدهوشاً بين ستييلكوف ضاحكاً وبينى مبهوتاً .

ثم اتجه الى الأمير يسأله فجأة :

- ها ... نعم ... من تلك المرأة الجميلة التى رأيتها الآن على

سلم بيتك لطيفة نضرة ؟

فأسرع الأمير يجيبه وقد احمر وجهه :
- لا أدري !

فقال دارزان ضاحكاً :

- فمن يدري اذن ؟

فتمتم الأمير يقول :

- مع ذلك ... من الجائز ... من الجائز أن ...

فقال ستييلكوف وهو يشير الى :

- نعم نعم ... هي اخته • أنا أيضاً رأيتها منذ مدة قصيرة •

فقال الأمير مؤيداً ، ولكن بهيئة وقورة جادة فى هذه المرة :

- ها ... نعم ! لا بد أنها اليزابت ماكاروفنا ، صديقة آنا تيودوروفنا
ستولبايفا التى أسكن الآن فى بيتها • لا بد أنها زارته اليوم داريا أو نيسيموفنا
التى عهدت اليها آنا تيودوروفنا بالبيت حين سافرت •

وكان كلام الأمير صحيحاً • ان داريا أونيسيموفنا هى أم تلك الفتاة
المسكينة التى سبق أن تكلمت عن انتحارها • لقد كفلتها تاتيانا بافلوفنا فى
أول الأمر ثم جاءت بها الى ستولبايفا • وكنت أعلم أن ليزا تجيء الى
ستولبايفا ، وأنها كانت ترى أحياناً داريا أونيسيموفنا التى أصبح جميع أهل
بيتنا يعطفون عليها ويحبونها • ولكننى فى تلك اللحظة ، بعد ذلك الكلام
الدقيق الذى قاله الأمير ، وبعد تلك الفورة السخيفة من ستييلكوف ، وربما
أيضاً لأننى سميت أميراً ، شعرت باضطراب قوى ، واحمر وجهى احمراراً
شديداً • ومن حسن الحظ أن ناشتوكين نهض فى تلك اللحظة نفسها
مودعاً ، ومد يده الى دارزان أيضاً • فلما لم يبق معنا الا ستييلكوف ، أوماً
ستييلكوف الى دارزان الذى كان فى العتبة مديراً لنا ظهره ، فلوحت
لستييلكوف بقبضة يدي •

وما أن تقضت دقيقة حتى انصرف دارزان هو أيضاً ، بعد أن اتفق على موعد مع الأمير غداة غد ، في بيت من بيوت القمنار طبعاً • وأثناء خروجه هتف يقول شيئاً لستيلكوف ، وانحنى لى انحناء خفيفاً أيضاً • فما ان انصرف حتى وثب ستيلكوف من مكانه ، وتسمر فى وسط الغرفة رافعاً اصبعه فى الهواء ، وقال :

– ان هذا السيد الصغير قد اقترف فى الأسبوع الماضى ما يلى : ووقع على سند توقيماً مزيفاً باسم آفريانوف • ورُفض السند ، فما يزال موجوداً : جريمة يلاحق مرتكبها من قبل الحق العام • ثمانية آلاف روبل ! فسألته وأنا أرشقه بنظرة كاسرة :

– وهل السند عندك أنت ؟

– أنا عندى مصرف ؟ عندى « بنك اقراض » ، لا سند • انك تعرف ما « بنك اقراض » بباريس ! هو خبز وسعادة للفقراء • فأنا عندى « بنك اقراض » خاص بى •••
فلما رجع الأمير ، أوقفه عن الكلام بقسوة ، وقال له بلهجة عنيفة :

– ما عمالك هنا ؟ لماذا بقيت ؟

فقال له ستيلكوف وهو يطرف عينيه :

– ماذا ؟ والمسألة ؟

فصرخ الأمير قائلاً وهو يضرب بقدميه الأرض :

– كلا ثم كلا ثم كلا ! قلت لك •••

– طيب ••• اذا كان الأمر كذلك ، فليكن كذلك ••• ولكن الأمر

لن يكون كذلك •••

قال ستيلكوف هذا ، ثم استتدار وخرج بحرقة عنيفة ، خلفاً

رأسه ، حانياً ظهره • وصرخ الأمير يقول له فى العتبة :

- واعلم أنتى لست خائفاً منك يا سيد !

كان الأمير مستعز الغضب والحقق • وأراد أن يجلس ، لكنه رآنى فلم يفعل • وكانت نظرتة كأنها تقول : « وما بقاؤك أنت ؟ » • فبدأت أتكلم فقلت له :

- يا أمير •••

لكنه قاطعنى قائلاً :

- لا وقت عندى يا آر كادى ماكاروفتشس ! حقاً لا وقت عندى ! يجب على أن أخرج •

- لحظة قصيرة يا أمير • أمر هام جداً • اليك أولاً الثلاثمائة روبل •

- ما معنى هذا ؟

لقد كان يمشى فتوقف • قلت :

- بعد الذى حدث ••• وبعد الذى قلته عن فرسيلوف من أنه رجل غير شريف ••• ثم بعد لهجتك هذه فى الكلام طول الوقت ••• بعد هذا كله ، لا يمكننى أن أقبل أخذ هذا المال •

- ومع ذلك ظللت تقبل طوال شهر كامل •

وجلس فجأة • وكنت واقفاً أمام الطاولة أفرك كتاب بينسكى باحدى يدي ، وأمسك قبعتى بالأخرى • قلت :

- كانت العواطف غير العواطف يا أمير ••• وما كان لى أن أصل الى ذلك المبلغ الضخم لولا القمار على كل حال • المهم أنتى لا أستطيع اليوم أن أقبل •••

- أنت غاضب لأنك لم تستطع أن تجتلى فى أى أمر من الأمور • هلا أرحت هذا الكتاب ، من فضلك !

- ماذا تعنى بقولك اننى لم « أستطع أن أجلى فى أى أمر من الأمور » ؟ ثم انك ، بحضور ضيوفك ، قد عاملتني كعاملتك ستيلكوف وجعلتني فى مثل منزلته •

فقال وهو يضحك ضحكة لاسعة :

- ذلك هو السر • وعدا هذا فقد اضطربت حين سُميت أميراً •
كانت ضحكته شريفة • فانفجرت أقول :

- لست أفهم ... ثق أن لقب الأمير هذا الذى تفخر به أنت ،
لا أرضى أنا أن أشيله من الأرض ...

- أعرف طبعك • لشدما صحت صباحاً مضحكاً للدافع عن
آخماكوفاً ... اترك هذا الكتاب !

فهتفت أقول :

- ما معنى كلامك ؟

فاذا هو ينتصب على مقعده غاضباً كأنه بهم أن يشب • ويزأر قائلاً :
- اترك الكتاب !

فقلت وأنا أسارع الى الخروج من الغرفة :

- ذلك ما يتجاوز أخيراً جميع الحدود •

ولكن ما كدت أتجاوز الصالون حتى سمعته يناديني من مكتبه :

- ارجع يا أركادى ماكاروفتش ! تعال ! تعال ! .. تعال .. حالا !

فلم استمع له ، وانصرفت • لكنه لحق بي راکضاً ، حتى اذا أدركني
أمسك ذراعي وجرتني الى مكتبه ، فلم أقاوم •

قال لي وقد شحب لونه من شدة الانفعال ، ومدّ الى الثلاثمائة روبل
التي تركتها:

- خذها ! خذها ! أصر على هذا ••• والا فانا ••• خذها ••• أصر على هذا !

- ولكن كيف يمكنني أن آخذ يا أمير ؟

- أنا مستعد لأن اعتذر اليك اذا شئت • هاناذا اعتذر • معذرة •

- يا أمير ، أنا قد أحييتك دائماً ، فاذا كنت ، أنت أيضاً •••

- أنا أيضاً ••• خذها !

فأخذتها • وكانت شفاته ترتجفان •

- انني أفهمك يا أمير • انك غاضب من ذلك الوعد ••• ولكنني لن

أقبل أن آخذ المال رغم كل شيء الا اذا تعاقنا ، كما كذا تفعل بعد مشاجراتنا السابقة •

و كنت ارتجف أيضاً وأنا أقول هذا الكلام •

فقال الأمير وهو يتسهم خجلاً :

- ياللمواطف الرقيقة !

لكنه مال علىّ وقبلني • فسرت رعدة في جسمي : ذلك انني حين

قبلني رأيت في وجهه اشمزازاً واضحاً •

- هل جاءك بالمال على الأقل ؟

- لا قيمة لهذا !

- من أجلك انما •••

- جاء بالمال ، جاء به •••

- يا أمير ، لقد كنا أصدقاء ••• وأخيراً ••• ان فرسيلوف •••

- طيب ••• طيب •••

- ما زلت لا أدري حقاً هل هذه الثلاثمائة روبل ••• وكان المبلغ

بيدي • فقال :

- خذها ! خذها !

وعاد يضحك من جديد ، لكن ضحكته كانت تشتمل على شر

وسوء +

أخذت المال •

الفصل الثالث

١



المال منه لأننى كنت أحبه • ولمن لا يصدقنى
سأقول اننى فى اللحظة التى أخذت فيها المال
كنت مقتماً اقتناعاً جازماً بأن فى وسعى أن
أحصل على المال من مصدر آخر لو شئت • ومعنى
هذا أننى لم آخذه عن حاجة ، بل أخذته على سبيل الكياسة حتى لا أجرح
شعور الأمير • كذلك كنت أفكر فى ذلك الحين والأسفاه ! على اننى حين
تركت الأمير كنت أحس بضيق وانزعاج رغم كل شيء • لقد أحسست
بتبدل ضخم فى سلوكه معى ذلك الصباح • انه لم يسبق ان استعمل فى
مخاطبتي لهجة كتلك اللهجة يوماً • أما على فرسيلوف فقد كانت نورتته
صريحة معلنة • لا شك أن ستيلكوف كان قد عكز مزاجه • ولكن تبدل
سلوكه قد بدأ قبل ذلك • أعود فأقول : ان هذا التبدل كان يلاحظ منذ
الأيام السابقة ، ولكنه لم يكن قوياً هذه القوة ، لم يكن قد بلغ هذه
الدرجة •

ولعل من العوامل التى كان لها تأثيرها أيضاً ، ذلك النبأ الأحمق

الذى يتعلق بالبارون بيورنج ، مرافق صاحب الجلالة • ولقد انصرفت مضطرباً أنا أيضاً ••• ولكن شعاعاً آخر كان يلوح أمام عيني حينذاك ، فكنت أفوت كثيراً من الأمور لأوليها انتباهاً ، وكنت أتعجل انقضاءها ، أطرد كل ما هو مظلم ، ولا ألتفت الا الى كل ما هو مضيء لامع ساطع ••

ان الساعة لم تبلغ الواحدة بعد • ومن عند الأمير ذهبت مع سائق عربتي ماتفىي رأساً الى عند ستيلكوف ، سواء أصدقتموني أم لم تصدقوني • لم تفاجئني زيارته للأمير (وكان قد وعده بأن يجيئ الى) بقدر ما فاجأتني غمزات أرسلها الى ، على عادته القبيحة ، ولم تناول ما كنت أتوقع أن تناوله • كان ستيلكوف قد بعث الى بالبريد ، فى مساء أمس ، رسالة ملغزة يتوسل الى فيها أن أزوره اليوم بين الساعة الواحدة والساعة الثانية ، قائلاً : « ان هناك أشياء غير متوقعة يريد أن يبلغنى اياها » • ولم يشر الى هذه الرسالة بكلمة واحدة حين كنا عند الأمير • ما عسى يكون بينى وبين ستيلكوف من أسرار ؟ ان الفكرة وحدها سخيفة مضحكة • ومع ذلك فانتى ، بعد كل ما جرى ، كنت أشعر بشيء من الارتجاف وأنا ذاهب اليه • صحيح أنتى اتجهت اليه مرة ، منذ خمسة عشر يوماً ، لاقتراض بعض المال ، وقد عرض على أن يقرضنى ، ولكننا لم نصل الى اتفاق ورفضت العرض : لقد جمعتم عندئذ بكلمات غامضة على عادته ، وبدا لي أنه يريد أن يفرض على شروطاً خاصة • واذ أنتى أعامله باستعلاء كلما التقينا عند الأمير ، فقد رفضت فكرة فرض شروط خاصة ، رفضتها باباء وشمم ، وخرجت رغم أنه ركض ورائى الى الباب يحاول صدى عن الخروج • واقترضت المال يومئذ من الأمير •

ان ستيلكوف يسكن مستقلاً ، ويميش حياة باذخة : منزل يتألف من اربع غرف واسعة ، جميلة الأثاث : مع خادمين ، رجل وامرأة : ومع مديرة لبيت متقدمة فى السن •

دخلت غاضباً • وبدأت أتكلم منذ أن اجترت الباب ، فقلت :

- اسمع يا عزيزى ، قل لى أولاً : ما هذه الرسالة التى بعثتها الى ؟
اننى أرفض أن يكون بيننا مكاتبة • ولماذا لم تقل ما تريد قوله ، حين كنا
منذ قليل عند الأمير ؟ كنت بين يديك !

- وأنت ، لماذا لم تتكلم حينئذ أيضاً ؟ لماذا لم تسألنى عن شيء ؟

قال ذلك وفتح فاه بابتسامة تعبر عن رضاً كامل • فصرخت أقول
غاضباً :

- الجواب بكل بساطة هو أن المحتاج منا الى الآخر هو أنت لا أنا •
- فلماذا تجيى الى اذن ؟

وكاد يقفز من شدة سروره • فسرعان ما امتدورت أريد أن أنصرف ،
ولكنه أمسك كفى وقال :

- لا ، لا ، كنت أمزح • ان الأمر جد • سترى •

فجلست • أترف بأن الفضول قد انتصر • جلسنا متقابلين عند طرف
مكتب كبير • ورأيته يبتسم ابتسامة رقيقة ، ويرفع اصبعه ، فهتفت أقول
له غاضباً من جديد :

- أرجوك ، لا رقة ولا اصبع ! ولا رموز بخاصة ! هلم الى الوقائع
رأساً ، والا انصرفت فوراً •

فقال عاتباً عتياً غيباً وهو يترجج على كرسيه ويرفع جميع غضون
جيبه :

- انك ••• متكبر •

- بالتكبر تجب معاملتك !

- أخذتَ اليومَ ٠٠٠ مالاَ من الأمير : ثلاثمائة روبل • وأنا أملك
مالاً • ومالى خير من ماله •

- من أين عرفتَ أننى قبلت ؟ أهو الذى قال لك ؟
وشدعتَ شدهاَ قوياَ •

- هو قال لى • ولكن هدىء نفسك • لم يقل لى ذلك الا عرضاً •
لم يقله متعمداً • ولكنه قال لى • وكان فى امكانك مع ذلك أن لا تقبل •
أهذا صحيح أم لا ؟

- ولكننى • فيما سمعت عنك • تسلخ جلود الناس سلخاً بما تأخذه
من ربا ؟

- ان لى « بنك تسليف » • فلا أسلخ جلد أحد • ولا أقرض الا
الأصدقاء • أما غير الأصدقاء فيمكنهم أن يقرضوا من « بنك تسليف
المحتاجين » •

ان « بنك التسليف » هذا الذى يشير اليه ستيلكوف مصرف يقرض
مبالغ من المال على رهون • ومقره فى مسكن آخر • وكانت أحواله
مزدهرة •

وأردف ستيلكوف يقول :

- وللأصدقاء أعطى مبالغ ضخمة •

- هل الأمير واحد من هؤلاء الأصدقاء ؟

- هو واحد منهم • لكنه يقول علينا سخافات • يجب أن ينتبه

ويحاذر !

- أهو بين يديك الى هذه الدرجة ؟ هل ديونك عليه ضخمة ؟

- عليه ؟ ••• ضخمة !

- سيدفع لك • ان له ميراثاً •••

- هذا الميراث ليس له • وهو مدين لى بمال ، وبغير المال أيضاً !••
الميراث لا يكفى • سأفرضك بغير فائدة •

قلت ضاحكاً :

- بصفتى صديقاً كذلك ؟ ما الذى جعلنى استحق هذه الصداقة ؟

- سوف تستحقها •

وتقدم نحوى بكل جسمه وهم أن يرفع اصبعه • فهتفت أقول له:

- ستيلكوف ! لا اصبع ! والا انصرفت •

فقال وهو يغمز غمزة مأكرة :

- اسمع ••• قد يتزوج آنا آندريفنا !

- اسمع يا ستيلكوف ، ان حديثك يتخذ طابع الفضيحة ••• كيف

تجرؤ أن تجيء على ذكر اسم آنا آندريفنا ؟

- لا تغضب !

- اننى أجبر نفسى على الاستماع اليك ، لأننى أرى أن ثمة مكيدة

تدبر ، فأريد أن أعرف كل شيء ••• ولكن نفذ صبرى يا ستيلكوف !

- لا تغضب • دعك من التكبر • دع التكبر لحظة قصيرة ثم تعود

اليه متى شئت • أنت تعرف آنا آندريفنا ؟ وتعرف أن الأمير قد يتزوجها؟

- سمعت عن مثل هذا المشروع طبعاً • أعرف كل شيء • ولكننى

لم أكلم الأمير فى هذا الموضوع يوماً ، وان كنت أعرف أن الفكرة انما

هى فكرة الأمير سوكولسكى المعجوز الذى هو الآن مريض • وأنا لا يد

لى فى هذه القصة كلها ، ولم أشارك فيها أية مشاركة • والآن أريد أن

ألقي عليك سؤالين : أولاً - لماذا تكلمنى فى هذا الموضوع ؟ ثانياً - هل كاشفتك به أنت ؟

- ليس هو الذى يكلمنى فى هذا الأمر . هو لا يريد أن يكلمنى فيه ، ولكننى أكلمه فيه أنا ، فلا يريد أن يصغى الى . وقد أخذ يصرخ صراحاً قوياً حين كنا عنده منذ قليل .

- اننى أفهمه ! واننى أؤيده !

- ان الأمير سوكولسكى ، العجوز ، سيعطى آنا أندريفنا مهراً كبيراً ، فهى تعجبه . فاذا خطبها الأمير سوكولسكى الشاب استطاع أن يرد الى مالى . وسوف يرد الى الدين الآخر أيضاً . سيرده الى حتماً ! أما الآن فلا يستطيع ذلك .

- ولكن قل لى : ما شأنى أنا فى الأمر ، وما النفع الذى ترجوه منى ؟

- تستطيع أن تنفعنى فى أمر أساسى . انك على صلة بهم . وأنت معروف فى كل جهة . فتستطيع أن تطلع على كل شىء .

- وما الذى يجب أن أطلع عليه ؟

- يجب أن تعرف : هل الأمير يريد ؟ هل آنا أندريفنا تريد ؟ هل الأمير العجوز يريد ؟ تستطيع أن تعرف الحقيقة .

فانتفضت مستاءة وقلت له :

- كيف تجرؤ أن تعرض على أن أكون لك جاسوساً ، وأن أكون لك جاسوساً فى سبيل مال أيضاً ؟

- لا تكبر ! لا تكبر ! دع التكبر مدة قصيرة أخرى ، خمس دقائق لا أكثر !

وأجلسنى • وكان واضحاً أنه لا يهاب لا اشارات يدي ، ولا صيحات صوتي • وقررت أن أصفي اليه حتى النهاية •

– وانما يجب علىّ أن أعرف بسرعة ، أن أعرف بسرعة ، فقد يفوت الأوان بعد حين ! لقد لاحظت كيف بلغ الأمير المسألة حين تكلم الضابط عن البارون والسيدة آخماكوكفا ، أثناء وجودنا عنده منذ قليل ، ألم تلاحظ ؟

شعرت بخجل من نفسي لأننى أصفي الى كلامه ، وأحسست أننى أخفض قدرى بالحديث معه ، ولكن فضولى كان قد ناز فلا سبيل الى مغالته •

قلت بلهجة قاطعة :

– اسمع ! أنت ••• أنت وغد • واذا كنت أبقي هنا ، وأصفي الى كلامك ، وأسمح لك بأن تتكلم عن هؤلاء الأشخاص ••• وحتى اذا كنت أجيبك ، فليس معنى ذلك أبداً أننى أعترف لك بهذا الحق • كل ما هنالك أننى أرى أن نعمة مكيدة تدبر • ما عسى أن يكون أمل الأمل فيما يتعلق بكاترين نيقولايفنا ؟

– ليس له أى أمل • غير أنه ساخط •

– هذا خطأ •

– انه ساخط • فيما يتعلق بأخماكوكفا ، انتهى الأمر • بقى مخرج واحد : آنا أندريفنا • سأعطيك ألفى روبل ، بلا فوائد ولا سند •

قال ذلك وارتد الى ظهر مقعده ، وحملق ناظراً الىّ • وحملت أنا أيضاً •

– انك ترتدى بدلة مشتراة من شارع « ميلبونايا الكبير » • فأنت

في حاجة الى مال ، في حاجة الى مال • ومالى خير من ماله • سأدفع أكثر
من ألفى روبل •••

- ولكن لماذا؟ لماذا؟ لست أفهم!

وضربت الأرض بقدمى غاضباً ، فمال على وقال بלהجة معبرة :

- حتى لا تعرقل وتمنع!

فصرخت أقول :

- ولكننى أقول :

- ولكننى لا أتدخل!

- أعرف أنك تصمت • وهذا حسن •

- لست في حاجة الى استحسانك • وهبنى تمنيت لهذا الزواج أن

يتم ، فسأظل لا أتدخل ، لأننى أرى أن لا شأن لى فى الأمر وأن تدخلى
لا يليق!

- صحيح ، صحيح ، لا يليق!

ورفع اصبعه • ثم أردف يقول :

- نعم ، لا يليق!

وانفجر ضاحكاً • ثم تابع كلامه فقال :

- أفهم ، أفهم ! لا يليق بك أن تدخل ! ولكنك لن تصنع حواجز ،

أليس كذلك؟

وغمز بعينه ، لكننى رأيت فى غمزته وقاحة فظيمة ، بل رأيت فيها

سخريه واستهزاء ، وحطة وخسة • لقد افترض وجود دناءة فى نفسى ،

وكان يعول على هذه الدنائة • ذلك واضح • لكننى لم أدرك بعد ما الذى

كان يريد أن يصل إليه •

وهذا هو يقول :

- ان آنا أندريفنا هي أيضاً أختك .
- أمنحك من الكلام عنها . وليس من حقت أن تتكلم عنها .
- لا تتكبر . اصبر على دقيقة أخرى . اسمعني : سوف يقبض مالا . فيكفلنا « جميعاً » . هل تتابع كلامي ؟
- وقد شدد على قوله « جميعاً » . قلت :
- أتظن اذن انني سأقبل ماله ؟
- ألسنت تقبله الآن ؟
- الآن آخذ النصيب الذي يخصني .
- النصيب الذي يخصك ؟
- النصيب الذي يخصني من مال فرسيلوف : انه مدين لفرسيلوف بعشرين ألف روبل .
- هو مدين لفرسيلوف ، لا لك أنت .
- فرسيلوف أبي .
- لا . أنت أسمك دوجوروكي ، وليس فرسيلوف . على أن النتيجة واحدة . والحق أنني فكرت هذا التفكير . كنت أعلم أن لهذا شأنًا هاماً جداً . فلم أكن غيباً الى ذلك الحد . ولكنني أكرر لك أنني ما فكرت هذا التفكير الا « كيسة » .
- صرخت أقول :
- كفي . انني لا أفهم شيئاً البتة . وكيف تجرؤ فتدعوني لكل هذه السخافات ؟
- هل يعقل أنك لم تفهم حقاً ؟ أتراك تعتمد عدم الفهم تعمداً ؟

كذلك قال ستييلكوف وهو يرشقى بنظرة نافذة تصحبها ابتسامة
شك • فقلت أجه :

- أحلف لك اننى لا أفهم •

- أقول انه سيكفلنا جميعاً ، جميعاً ، جميعاً • وانما المهم أن لا تحول
أنت دون اتمام الأمر •

- أرى أنك فقدت عقلك ! ما الذى تعنيه بقولك « جميعاً » • أترأه
يكفل فرسيلوف مثلاً ؟

- لن يكفلك وحدك ، ولن يكفل فرسيلوف وحده ، بل سيكفل
آخرين ••• ان أنا أندريفنا اختك ، مثل « الزباث ماكروفنا » سواء
• سواء •

نظرت اليه محملاً • فاذا أنا أرى فى نظرتيه الدنيئة الى نوعاً من
شفقة على • وقال :

- لا تفهم ؟ طيب ! هذا أحسن ! انه لحسن جداً أن لا تفهم • هذا
أمر محمود ••• اذا صح أنك لا تفهم حقاً !

فبلغ حلقى ذروته ، فصرخت أقول وأنا أتناول قبعتى :

- شيطان يأخذك أنت وسخافاتك ! انك رجل مختل العقل •

- ما هذه سخافات ! وسوف ترجع •

فأجبت قائلاً بلهجة قاطعة وقد صرت فى العتبة :

- لا •

- بل سوف ترجع ••• وستقول عندئذ كلاماً آخر • سيدور بين

حديث هام • ألفا روبل • تذكر هذا ولا تنسه !

لقد أحدث فى نفسى أثراً يبلغ من الاضطراب والدنائة أنتى حين خرجت من عنده حاولت أن لا أفكر فيه ، واقصرت على أن بصقت ، اشمزازاً • وكنت كلما تصورت أن الأمير كلمه عنى وعن هذا المسال أحسبت بما يشبه وخز الأبر • وقلت أحدث نفسى : « سوف استرد خسارتى ، فارجع اليه أمواله فى هذا اليوم نفسه » •

وأصبحت أرى ستييلكوف الوغد رجلاً متألقاً ، رغم أن كل غبائه وتوقده ، لا سيما وأنتى قدرت أن ثمة مكيدة تحاك حتماً • غير أن وقتى كان لا يتسع للاهتمام بالكشف عن مكائده ، وذلك هو السبب الرئيسى فى عماوتى الطارئة العابرة !

نظرت فى ساعتى قلقاً ، فرأيت أنها لم تبلغ الثانية • أستطيع اذن أن أقوم بزيارة ، والا لهلكت من فرط الانفعال الى أن تحين الساعة الثالثة • فذهبت الى آنا آندريفنا فرسيلوف ، أختى • كانت قد انعقدت الصلة بينى وبينها منذ مدة غير قصيرة عند الأمير المعجوز أثناء مرضه • وكان شعورى بأننى لم أرها منذ ثلاثة أيام أو أربعة يعذب ضميرى • ولكن آنا آندريفنا هى التى ساعدتني : كان الأمير يحبها حباً عظيماً ، حتى لقد وصفها أمامى ذات يوم بأنها ملاكة الحارس • يجب أن أقول بالمناسبة : ان فكرة تزويجها الأمير سرجى بتروفش انما نبئت فعلاً فى رأس صاحبى الأمير المعجوز ، حتى لقد عبر لى عن هذا غير مرة ، فى السر طبعاً • وقد نقلت الخبر الى فرسيلوف لأننى كنت قد لاحظت أنه يهتم اهتماماً كبيراً بالأبناء التى أنقلها اليه عن لقاءاتى بآنا آندريفنا ، رغم أنه

قليل الاكترات بسائر الأخبار مهما تكن ذات شأن . وقد جمجم فرسيلوف عندئذ قائلاً ان آنا آندريفنا تملك من الذكاء ما يجعلها قادرة على الاستغناء عن نصائح الآخرين في أمر يبلغ هذا المبلغ من الدقة والخرج . ولقد كان ستيلكوف على حق حين افترض أن العجوز سيخص آنا آندريفنا بمهر ضخم ، ولكن كيف اجترأ أن يعوّل على شيء له هو ؟ ان الأمير الشاب قد صرخ يقول له انه لا يخافه : ولكن ألم يكن مدار حديثهما في مكتب الأمير على آنا آندريفنا في الواقع ؟ آه . . . اننى أتصور الحق الذى كان يمكن أن يستعر فى نفسى لو كنت فى مكانه .

ولقد كنت فى الآونة الأخيرة أذهب الى آنا آندريفنا أحياناً كثيرة . ولكن كان يحدث دائماً شيء غريب : انها هى التى كانت تحدد لى موعداً فى جميع المرات ، وكانت تنتظرنى حتماً ، ولكن ما ان أدخل حتى تشعرنى بأننى وصلت على غير توقع . لاحظت ذلك فيها ، ولكنه لم يضعف تعلقى بها . وكانت تقيم عند فاناريوتوفا ، جدتها ، كربية لها طبعاً (كان فرسيلوف لا يدفع شيئاً لمولها) ، ولكن دورها عندها يختلف كل الاختلاف عن الدور الذى يسند عادة الى ربيبات السيدات الكيرات ، كما نلاحظ ذلك مثلاً فى قصة بوشكين « البنت البستونية » ، ربيبة الكوتيسة العجوز . لقد كانت آنا آندريفنا نوعاً من كوتيسة هى نفسها . كان لها فى المنزل مسكنها الخاص ، المستقل كل الاستقلال ، رغم أنه يقع فى نفس الطابق الذى تسكنه فاناريوتوفا ، وفى نفس الشقة ، ولكنه يتألف من غرفتين منفصلتين ، فلم أصادف أحداً من آل فاناريوتوفا فى يوم من الأيام ، لا حين كنت أدخل ، ولا حين كنت أخرج . وكان من حقها أن تستقبل من تشاء ، وأن توزع وقتها التوزيع الذى تحب . ولكن يجب أن نذكر أنها كانت قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها . وقد انقطعت عن التردد الى المجتمع منذ السنة الماضية انقطاعاً يكاد أن يكون تاماً ، رغم أن فاناريوتوفا كانت لا ترضى بأية نفقة على حفيدتها التى كانت

تحبها كثيراً فيما سمعت . وكان يعجبني في أنا أندريفنا أنتى كنت ألقاها
في ثياب بسيطة دائماً ، وأراها عاكفة على شغل أو على كتاب في جميع
الأحيان . وكان في هيئتها تقشف يشبه أن يكون تقشف سكان الأديرة ،
فكان هذا يعجبني فيها أيضاً . وكانت قليلة الكلام ، وكانت تزن كلامها
وتعرف كيف تصغى الى كلام غيرها ، وذلك ما كنت أنا عاجزاً عنه .
وكان وجهها يتخضب بالحمرة قليلاً اذا قلت لها انها تذكرني كثيراً
بفرسيلوف رغم أنني لا أرى بينهما أية سمة مشتركة . وكانت تحمر
في كثير من الأحيان ، وكانت تحمر احمراراً سريعاً ، ولكن الحمرة التي
تخضب وجهها حمرة ضئيلة دائماً ، فكانت هذه الصفة من صفات وجهها
تعجبني كثيراً . وكنت عندها لا أسمى فرسيلوف باسمه أبداً ، وانما
اسميه أندره بتروفتش ، وكان هذا يبدو طبعياً فهو يتم من تلقاء نفسه
بدون تكلف . حتى لقد لاحظت أن آل فاناروتوف عامة يشعرون بخجل
وعار من فرسيلوف . لاحظت هذا خاصة على أنا أندريفنا ، وان كنت
لا أستطيع أن أقول هل كلمة « الخجل » أو « العار » هي الكلمة المناسبة .
ولكن كان ثمة شيء من هذا القبيل . وكنت أكملها أيضاً عن الأمير سرجى
بتروفتش ، فكانت تصغى الى كلامى كثيراً ، وكان يبدو عليها الاهتمام
بما أحمل اليها من مثل هذه الأنباء . ولكن كان يحدث دائماً أنني أنا الذى
أنقل اليها هذه الأنباء ، أما هي فلم تسألني عن شيء في يوم من الأيام .
ولم أجرؤ أبداً أن أكلمها عن امكان زواج بينهما ، رغم أنني رغبت أن
أفعل ذلك مراراً كثيرة ، لأن هذه الفكرة كانت تعجبني وتسرنى أنا
أيضاً . ولكن ما أكثر الأشياء التي أصبحت لا أجرؤ أن أتعرض لها
بحديث عندها ، ومع ذلك كنت أشعر في غرفتها بارتياح كبير . ومما كنت
أحبه كذلك حباً كبيراً أنها كانت واسعة الثقافة ، فهي تقرأ كثيراً ، بل
تقرأ كتباً ليست سهلة ، وكانت أكثر منى اقبالاً على القراءة وانهماكاً
فيها .

انها هي التي استدعتني اليها في المرة الأولى • وقد قدرت أنها ربما كانت تريد أن تعلم مني أمراً ما • آه • ما أكثر الأمور التي كان كثير من الناس في ذلك الأوان يستطيعون أن يعلموها مني ! ••• وقلت لنفسي في تلك المرة الأولى : « لا ضير ! انها لا تستقبلني لهذا السبب وحده » • الخلاصة انني قد أسعدتني أن أكون قادراً على أن أفيدتها في أمر من الأمور ، و ••• حين كنت أجلس بقربها ، كان يبدو لي دائماً أن أختي هي التي تجلس بجانبى ، رغم أننا لم نتكلم يوماً عن قرابتنا لا تصريحاً ولا تلميحاً • فكأن هذه القرابة لم توجد في يوم من الأيام • كان يبدو لي حين أزورها انني يستحيل عليّ استحالة تامة أن أتعرض لهذا الموضوع ، وكنت حين أنظر اليها تبرق في خاطري أحياناً فكرة عجيبة : أنها ربما كانت تجهل هذه القرابة ما دامت تقف مني هذا الموقف وتعاملني هذه المعاملة •

حين دخلت عليها وجدت عندها ليزا • فكذت أشده • كنت اعرف
 أنهما قد التقتا قبل الآن • حدث ذلك اللقاء عند « الطفل الرضيع » • قد
 أتكلم فيما بعد ، اذا عرضت لى فرصة ، عن تلك النزوة التي اعترت
 آنا أندريفنا ، ذات الكبرياء والخفر ، وهي أن ترى ذلك الطفل ، وقد
 أتكلم أيضاً عن اللقاء الذي تم بينها وبين ليزا هناك • ولكن لم أكن أتوقع
 أبداً أن تقوم آنا أندريفنا بدعوة ليزا إليها • لذلك دهشت حين رأيتهما ،
 وكانت دهشة لذيذة • وبدون أن أظهر شيئاً من هذه الدهشة طبعاً ،
 حيث آنا أندريفنا ، وصافحت ليزا مصافحة حارة ، وجلست بقربها •
 وكاتنا كلناهما منكبتيين على عمل « خطير الشأن » : كان فستان السهرة
 التي تملكه آنا أندريفنا ، وهو فستان جميل لكنه قديم ، أى ألبس قبل
 الآن ثلاث مرات ، كان ذلك الفستان ممدوداً على الطاولة وعلى ركبهما
 تفكران فى تغيير شكله • ان ليزا « فنانة » كبيرة فى هذا المجال ، وانها
 صاحبة ذوق مرهف • هذا اذن مجلس حرب تعقده « سيدات عاقلات » •
 وتذكرت فرسيلوف ، فضحكت ، وكنت مشرق المزاج على كل حال •

قالت آنا أندريفنا مبرزة كل كلمة من كلماتها بوقار :

- أنت اليوم جذل جداً • هذا شئ ممتع !

ان لها صوتاً دافئاً مختلفاً ، ولكنها تنطق كلماتها دائماً بهدوء
 ورفق ، خافضة أهدابها الطويلة قليلاً ، على ابتسامة خاطفة تطوف
 بوجهها الشاحب •

قلت مرحباً :

- تعرف ليزا كم أكون مزعجاً حين لا أكون جذلاً .

فقلت ليزا بمكر :

- وربما كانت آنا آندريفنا تعرف ذلك .

هذه وخزة من ليزا . آه لو عرفت ما كان يجشم على صدر ليزا
العزيرة في ذلك الوقت ، وما ذا كان يفيض به قلبها من هموم !

وقالت آنا آندريفنا تسألني :

- ماذا تعمل الآن ؟

(لاحظوا أنها هي التي رجتني أن أجيء إليها !) . قلت

أجيبها :

- أنا الآن هنا . واني لأتساءل لماذا يحلون لي دائماً أن أراك قارئة
في كتاب أكثر مما يحلون لي أن أراك عاكفة على شغل من أشغال الحياطة
والتطريز وما الى ذلك . لا ، لا ، لا ، حقاً ان أشغال السيدات لا تناسبك .
أنا من هذه الناحية أشارك آندره بتروفتش رأيه .

- ألم تحزم. أمرك على دخول الجامعة بعد ؟

- أشكرك شكراً لا حدود له على أنك ما نسيت أحاديثنا السابقة .
هذا دليل على أنني أخطر بك أحياناً . ولكن ... فيما يتعلق بالجامعة ،
لم أثبت على أمر بعد . ثم ان لي أهدافي .

قالت ليزا :

- اي ان له سره .

قلت :

- دعني هذه الأمازيح يا ليزا ! ان رجلاً ذكياً قال في الأيام
الأخيرة ان حركتنا التقدمية كلها خلال الخمسة والعشرين عاماً قد
برهنت قبل كل شيء على مدى ايغالنا في الجهل ، ولم ينس أن ينسب هذا

الى جامعتنا طبعاً • من المسئول عن هذا الجهل ان لم تكن الجامعات هي
المسئولة ؟

فقلت ليزا :

- لا بد أن بابا هو الذى قال هذا الكلام • فأنت فى أكثر الأحيان
لا تزيد على أن تكرر أقواله •

- لكأنك تفترض يا ليزا أننى ليس شيء من فكر •
وقالت أنا أندريفنا مدافمة عنى :

- ليس بالأمر الشائع كثيراً فى هذا الزمان أن نرى أناساً يحسنون
الاستماع الى أقوال أشخاص أذكاء ، ثم يحسنون حفظها وتذكرها فى
الوقت المناسب •

فاستأنفت كلامى قائلاً بحرارة :

- حقاً يا أنا أندريفنا • ان من لا يفكر الآن فى روسيا ليس
بمواطن ! ربما كنت أنظر الى روسيا من زاوية خاصة : لقد تحملنا الغزو
التتري ، ثم تحملنا قرنين من العبودية ، ولعل تحملنا هذا أن يكون مرده
الى أن الأمريين كليهما قد أرضيانا • والآن وهبت لنا الحرية ، ويجب أن
تحمليها : فهل نحن على ذلك قادرون ؟ هل الحرية ترضينا وتتفق
وذوقنا ؟ هذا هو السؤال •

ألقت ليزا نظرة سريعة على أنا أندريفنا • فسرعان ما غضت
أنا أندريفنا طرفها ، وتظاهرت بأنها تبحث عن شيء ما • ورأيت ليزا
تحاول أن تسيطر على نفسها بكل ما أوتيت من قوة • ولكن بصرينا
التقيا مصادفة على حين فجأة ، فاذا بليزا تضحك • فانفجرت قائلاً :

- ليزا ، ان المرء لا يفهمك حقاً •

فأسرعت تكف عن الضحك ، وتقول بلهجة يخالطها حزن :
- اغفر لى • لا أدرى ماذا فى رأسى •

واختلجت فى صوتها دموع على حين فجأة • فخبجت خجلاً
شديداً ، وتناولت يدها قبلتها بشدة •

فقالآ آنا آندريفنا برفق ووداعة • وهى ترانى اقبل يد ليزا :
- انك طيب القلب نيل النفس •

- انى ليسعدنى يا ليزا أن أراك مرة تضحكين • هل تصدقين
يا آنا آندريفنا اننى منذ بضعة أيام أرى فى وجهها كلما لقيتها نظرة غريبة ،
نظرة يتموج فيها قلق ، فكأنها تساءل : « ترى هل علم شيئاً ؟ هل يجرى
كل شىء مجرى حسناً ؟ » • حقاً ان فيها شيئاً من هذا النوع •

فأقلت عليها آنا آندريفنا نظرة بطيئة ثابتة ، فخفضت ليزا عينها •
وقد أدركت على كل حال أن الصلة بينهما أوثق مما تصورتها حين
دخلت • فسرتنى هذه الفكرة وأبهجتنى • قلت مخاطباً آنا آندريفنا
بعاطفة :

- قلت منذ هنيهة اننى طيب القلب ، فلا تستطيعين أن تتصورى
يا آنا آندريفنا مدى من أصيب من تحسن حين أكون عندك ، ومدى ما
أشعر به من سعادة حين ألقاك !

فأجابتنى قائلة بوقار :

- وأنا يسرنى أن أسمعك تقول هذا الكلام فى هذه اللحظة •

يجب أن أذكر أنها لم تكلمنى فى يوم من الأيام عن حياة الفوضى
التي أعيشها ، وعن الزوبعة التي كانت تجرفنى أعاصيرها ، رغم أنها
كانت - فيما أعرف - على علم بكل شىء ، حتى انها سألت عنى بعض

الناس • فكان هذا أول الماع منها ، فما زادني ذلك الا ميلاً اليها •

وقلت أسألها :

- وكيف صحة مريضنا ؟

-تحسنت كثيراً • نهض عن فراشه • وقد خسر ج يتزهر أسس
واليوم بالعربة • ولكن ألم تذهب اليه أنت اليوم ؟ انه ينتظرك •

- اننى مذنب فى حقّه • ولكنك أنت التى تزورينه الآن ، فتحلين
محلّى تماماً • انه رجل لا وفاء له ، استغنى بك عنى ، واستبدلك بى •
فانقلب وجهها قليلاً • لأن مزاحتى يمكن أن تبدو عامية مبتذلة •
قلت :

- أنا آت من عند الأمير سرجى بتروفتش ، و ... بالمناسبة يا ليزا:
هل كنت منذ قليل عند دارية أونيسيموفنا ؟

فقلت ليزا مقتضبة ، دون أن ترفع رأسها :

- نعم •

ثم سألتنى فجأة ، كأنما لتقول أى شىء :

- ولكن كنت أظن أنك تذهب الى الأمير المريض كل يوم ؟

فأجبت أقول ضاحكاً :

- أذهب • ولكننى لا أكمل الطريق اليه ، فما ان أدخل البيت

حتى أمضى يسرة •

قلت أنا آندريفنا :

- حتى الأمير نفسه لاحظ أنك تزور كاترين نيقولايفنا كثيراً •

تكلم عن هذا أمس وضحك كثيراً •

– مم ضحك ؟

فأجابت آنا أندريفنا ضاحكة :

– كان يمزح كما تعلم • قال : « والله ••• يظهر أن المرأة الجميلة لا تنفّر دائماً قلب شاب في غضارة الصبا ••• » •

هتفت أقول :

– عبارة بارعة • لا شك أنها ليست منه ، بل منك أنت •

– لماذا ؟ بل هي منه •

فاذا أنا أنبرى فجأة فأسألها بجرأة غيبة :

– فما قولكما اذا كانت هذه المرأة الجميلة تتبته الى الشاب رغم أنه لا قيمة له ولا شأن ، ورغم انه شديد الحجل والبساطة والسذاجة ، يقبع في ركنه حائفاً من أنه « صغيرها » ، ثم اذا هي تفضله فجأة على جميع من يحومون حولها ويحيطون بها مولهين عابدين ؟

كان قلبي يخفق • فانفجرت ليزا تقول ضاحكة :

– اذن لقد ضعت !

فهتفت قائلاً :

– ضعت ؟ لا • لم أضع • وأظن انني لن أضيع أبداً • اذا وقفت امرأة في طريقى ، فسوف تكون مضطرة أن تتبغنى • لا يسد أحد طريقى الا ويناله عقاب •

لقد قالت ليزا في ذات يوم ، عرضاً ، بعد ذلك بمدة طويلة ، انني قد نظقت بهذه الجملة على نحو غريب ، بجدٍ شديد ، كأنني أزن كل كلمة وأفكر في كل لفظة • ولكن العبارات كانت عندئذ تبلغ من فرط السخف والاضحاك أنه لم يكن للمرء سبيل الى السيطرة على نفسه ، والامتناع عن الضحك •

وقد انفجرت آنا أندريفنا تضحك مرة أخرى بالفعل •
فصحت أقول منتشياً ، لأن هذا الحديث والمجربى الذى سار فيه قد
طابا لي كثيراً :

- اضحكى يا آنا أندريفنا • اضحكى منى • ضحكك لذة لي •
اننى أحب ضحكك يا آنا أندريفنا ان لك موهبة مميزة : تصمتين ساكنة
وادعة ، ثم اذا أنت تتطلقين فى ضحك ما كان لشيء فى وجهك قبل ثانية
واحده أن يندربه • عرفت سيده بموسكو كت أحتلس النظر اليها
أحياناً • انها تكاد أن تكون فى مثل جمالك ، ولكنها لا تحسن الضحك ،
فكان وجهها ، الذى لا يقل فتنة وسحراً عن وجهك ، يفقد هذه الفتنة
وهذا السحر متى ضحكك ، بينا هما يزددان توهجاً فى وجهك حين
تضحكين • اننى منذ مدة طويلة أريد أن أذكر لك هذا •

ولقد مكرت حين نطقت بتلك الجملة عن السيدة التى « تكاد تكون
فى مثل جمال » آنا أندريفنا • تظاهرت بأن الجملة أفلتت منى بدون
ارادة ، وحتى بدون أن ألاحظ ذلك • كت أعرف أن مثل هذا المديح
الذى يفلت من فائله « افلاتاً » يؤثر فى المدوح أضعاف تأثير المديح
المقصود • ولقد كت واثقاً بأن آنا أندريفنا سرت رغم الحمرة التى تخضب
بها وجهها • والسيدة التى زعمت أنها فى مثل جمال آنا أندريفنا انما
كانت من تليفق خيالى : فانى ما عرفت فى يوم من الأيام سيده كهذه
السيدة بموسكو • وما كان ذلك منى الا بقصد ازجاء المديح لآنا أندريفنا ،
وبعث المسرة فى قلبها •

قالت وهى تبسم ابتسامة لطيفة :

- يترامى للمرء أنك فى هذه الأيام خاضع لتأثير امرأة جميلة •••
فأحسست أننى أظير ••• وكدت أن أبوح لهما •• لكننى سيطرت
على نفسى وأمسكت عن الكلام •

- بالناسبة ، لقد قلت منذ قليل عبارة قاسية في حق كاترين
نقولايضا +

فقدحت عيناى شرراً ، وانبريت أجيب قائلاً :

- لقد أسأت التعبير وانما يرجع ذلك الى تلك النميمة
الحيثة التي تزعم أن كاترين نيقولايفنا تناصب آندرة بتروفتشس العداء .
وهم يتجنون عليه أيضاً ، ويقولون فيه النمام اذ يزعمون أنه أحبها
وعرض عليها عروضاً ويزعمون أموراً أخرى أيضاً . وليست هذه
النميمة أخبت من تلك النميمة الثانية التي تزعم أنها عرضت على الأمير
سرجى بتروفتشس ، أثناء حياة زوجها ، أن تتزوجه متى ترملت ، ثم لم
تف بوعودها . اننى أعلم علم اليقين أن هذا كذب وافشاش ، وأن الأمر
كله لم يكن الا مزاحاً ؛ ففي ذات مرة ، قالت للأمير أثناء لحظة مرح في
الخارج : « ربما في المستقبل ، . ولكن كان هذا كلاماً في الهواء ؟
وأنا أعلم حق العلم أن الأمير من جهته لا يمكن أن يصدق مثل هذا
الوعد .

ثم استدركت أضيف :

- ولا هو اهتم بأن يصدقه .

وأضفت أدرس بمكرٍ قولى :

- أظن أن في ذهنه أفكاراً أخرى . صدقاني اذا قلت لكما انه ،
حين حدثه ناشتسوكين في بيته منذ قليل عن أن كاترين نيقولايفنا قد
تزوج البارون بيورنج ، استقبل النبا أحسن استقبال .

هنا سألت أنا آندريفنا قائلة برصانة يخالطها نوع من الدهشة :

- ناشتسوكين ؟ ناشتسوكين كان عنده ؟

- نعم ، ناشتسوكين نفسه • انه واحد من أولئك الرجال الذين
يوحون بالاحترام و ...

- وناشتسوكين هو الذى كلمها عن هذا الزواج من بيورنيج ؟

كذلك تابعت آنا آندريفا أسئلتها وقد استيقظ اهتمامها فجأة
فقلت :

- عن الزواج ، لا ؛ بل هو كلمها عن امكان الزواج ، عن شائعة
قال انها تروج فى المجتمع • أما أنا فانى مقتنع بأنها حكاية ملفقة !

ففكرت آنا آندريفا ثم عكفت على شغلها •

وأضفت أقول بحماسة مباغتة :

- انتى أحب الأمير سرجى بتروفتش • صحيح أن له عيوبه ؛ فهذا
أمر لا يمكن نكرانه وقد سبق أن كلمتك عنه ... انه محدود الأفكار •
ولكن ألا تشهد له هذه العيوب نفسها بأنه امرؤ نبيل النفس ؟ فى هذا
اليوم مثلاً كدنا أن تتساجر من أجل فكرة : هو مقتنع بأن على المرء اذا
أراد الكلام عن النبيل أن يكون هو نفسه نبيلاً ، والا فان كل ما يقوله
كذب • فهل هذا الكلام منطقى ؟ لا ... ولكنه يشهد لقائله بأنه شديد
المطالب فيما يتعلق بالنبيل والواجب والعدالة • ألسنت على حق ؟

وهتفت فجأة أقول وقد وقعت عيني مصادفة على الساعة الموضوععة
فوق المدفأة :

- آ ... كم الساعة ؟

فقال آنا آندريفا بهدوء بعد أن نظرت الى الساعة :

- الثالثة الا عشر دقائق •

وكانت طول مدة حديثي عن الأمير تصنى الى كلامي خافضة
عينيها ، معبرة عن شيء من سخريه ماكرة لكنها لطيفة : لقد كانت تعرف
لماذا أمدحه هذا المديح كله . وكانت ليزا تنصت مائلة على شغلها ، ولكنها
أصبحت لا تشارك في الحديث منذ مدة طويلة .

انتفضت مودعاً كمن أصابه حرق . فقالت آندره آندريفنا تسألني :

- أنت مستعجل ؟

- نعم .. لا .. بل أنا مستعجل ، هذا صحيح . ولكن لحظة
يا آنا آندريفنا ...

كذلك بدأت أقول منفعلًا انفعلاً شديداً وتابعت كلامي :

- كلمة واحد يا آنا آندريفنا ... لا أستطيع أن لا أقول لك اليوم
ما أريد قوله ! أريد أن أعترف لك بأنني قد باركت مراراً ما أظهرته لي
من طيبة ولطف اذ دعوتني الى زيارتك .. وقد أحسنت الى هذا العلاقات
التي قامت بيننا احساناً كبيراً . انني هنا أتظهر من أدراكي ، فأخرج من
عندك وأنا خير ما كنت قبل أن أجيء . هذا صحيح . حين أكون الى
جانبك لا أستطيع أن أقول سوءاً ، بل لا أستطيع حتى أن تراودني أفكار
سيئة . فالأفكار السيئة تتلاشى من ذهني متى رأيتني معك . فاذا برقت
في خيالي ذكرى سيئة وأنا بقربك ، احمر وجهي فوراً وخجلت من
نفسي . ولقد سرني مسرة خاصة في هذا اليوم أن أجد أختي عندك .
ان هذا يدل على كثير من النبل فيك ... انه يدل على عاطفة جميلة ...
الخلاصة : لقد قلت أشياء « أخوية » جداً ، اذا سمحت لي أخيراً أن أحطم
الجليد ، وأن ..

كانت آنا آندريفنا أثناء كلامي قد نهضت من مكانها ، وأخذ وجهها
يحمر مزيداً من الاحمرار شيئاً بعد شيء . وها هي ذى ترتاع فجأة

كأن لكل شيء حدوداً ما ينبغي تجاوزها ، وتسرع الى مقاطعتي قائلة :
- ثق أنني سأقدر عواطفك بكل قلبي ... ولقد كنت أفهم حتى
قبل أن أسمع كلامك ... منذ مدة طويلة ...
وقطعت كلامها مضطربة وهي تصافحني مودعة • وسرعان
ما أدركتني ليزا في الغرفة الأخرى •

قلت أسأل ليزا :

- ليزا ، لماذا شددتني من كمي ؟

- انها شريرة ، انها ماكرة ، انها لا تستحق • انها لا تحرص عليك
الا لتستدرجك الى الكلام •

كذلك أسرت الى ليزا بهمس سريع مبغض حاقد • لم آراء ليزا
هينة كهذه الهينة في يوم من الأيام • قلت :

- ما هذا الذي تقولينه يا ليزا ؟ انها فتاة عذبة جداً !

- اذن أنا الشريرة •

- ماذا بك يا ليزا ؟

- أنا شريرة جداً • ربما كانت أعذب فتاة ، وكنت أنا السيئة
الشريرة • هيا ، دعني • اسمع : ان ماما تطلب منك « مالا تستطيع أن
تكلمك فيه • • هذه ألقاها نفسها • يا عزيزي آر كادي ، انقطع عن
القمار ، اترك القمار يا عزيزي ، أرجوك ؟ أتوسل اليك • • • وماما
أيضاً • • •

- ليزا ، أعلم هذا بنفسى ، ولكن • • • أنا أعلم اننى بما فعلته قد
برهنت على ضعف فى الادارة وخور فى العزيمة • • • ولكن ما هذه الا
سخافات عابرة لا أكثر • اسمعى : لقد راكمت على نفسى ديوناً رهيبه. كما
لا يفعل ذلك الا رجل أحمق ، وانما أريد الآن أن استرد ما خسرت له لأدفع
تلك الديون • والربح ممكن • كنت حتى الآن أقامر على غير هدى ،

أفامر متقاداً للمصادفة ، أفامر بقباء • أما الآن فلسوف أرتعش خوفاً على كل روبل ألقيه على مائدة القمار ، ولن ألقيه عليها الا بروية وتفكير • لن أكون أنا اذا لم أربح ! ليس القمار عندي هو ملك على نفسي واستبد بي • ليس القمار بالشيء الأساسي • ما هو الا عرض طارىء • أوكد لك ذلك ! أنا أقوى من أن لا أكف متى شئت ••• سأرد الديون أولاً ، ثم أكون لكم دون غيركم ، وقولي لماذا انتى لن أترككم •••

— ما أبهظ الثمن الذى دفعته للحصول على تلك الثلاثمائة روبل ! •••

قلت مرتعشاً :

— من أين عرفت هذا ؟

— سمعت داريا أونيسيوفنا كل شيء •

وفجأة رفعت ليزا ستارة ودفعتنى الى داخل « الصباح » وهو حجرة صغيرة مدورة كلها نوافذ ؟ فما ان أفقت من ذهولى حتى سمعت صوتاً أعرفه ، وصليل مهماز ؟ ومشية عرفت صاحبها • فهمست أسأل ليزا :

— أهو الأمير سرجى ؟

فأجابتنى بهمس أيضاً :

— هو نفسه •

— لماذا أراك خائفة هذا الخوف كله ؟

— هكذا ! لا أريد بحال من الأحوال أن يرانى هنا •

— « غريب » ! أتراه يحاول مغازلتك مثلاً ؟ لسوف أريه ••

قلت هذا ضاحكاً ، ثم أردفت أسألها :

— الى أين تذهين ؟

- لنخرج • أنا ذاهبة معك •

- هل ودعت هناك ؟

- نعم ، ومعطفى فى حجرة المدخل •

وخرجنا • وفيما كنا نهبط السلم ساورتنى فكرة ، فقلت :

- هل تعلمين يا ليزا ؟ لعله جاء يعرض عليها الزواج •

فأجابت ليزا قائلة بهدوء ولهجة قاطعة ، وصوت خافت :

- لا ... لن يعرض عليها •

- هل تعلمين يا ليزا ؟ اننى رغم المشاجرة التى وقعت بينى وبينه -

ما دام قد روى لك كل شئ • - أحبه حباً صادقاً وأتمنى له النجاح ،

أحلف لك • لقد تصالحنا • حين نكون سعداء ، نكون أخياراً • ان فى

نفسه أفكاراً نبيلة ، أو قولى على الأقل ان نفسه تربة صالحة لنمو أفكار

نبيلة • فاذا أصبح بين يدى فتاة مثل أنا فرسيلوف ، التى تتمتع بقوة الارادة

وثبات الجنان وحصافة الرأى ، أمكن أن يكون انساناً طيباً وسعيداً •

يؤسفنى اننى مستعجل جداً • ولكننا سنسير بضع خطى معاً • أريد أن

أحكى لك •

- بل اذهب وحدك • وسأسير أنا فى اتجاه آخر • هل تأتى

للغداء ؟

- سأتى ، سأتى • هذا وعد • اسمعى يا ليزا • هناك شخص حقير ،

بل شخص هو أدنا المخلوقات طراً ، اسمه ستيلكوف اذا كنت تعرفينه :

ان لهذا الشخص تأميراً رهيباً وسلطاناً كبيراً على شئون الأمير سرجى

وأعماله ... ان لديه سندات مالية ... الخلاصة انه قابض عليه برجليه

قبضاً شديداً ، وقد بلغ الأمير من فرط السقوط أن الاثنين كليهما أصبحا

لا يريان مخرجاً من المصاعب المالية الا هذا الزواج من أنا أندريفنا •

فيجب تسيبها تسيباً جدياً • هذه سخافات على كل حال • استولى ترتيب
كل شيء بنفسها فيما بعد • ثم ما رأيك ؟ هل ترفضه ؟
فقاطعتني ليزا قائلة :

– الى اللقاء • ليس في وقتي متسع •

ورأيت فجأة في نظرتها السريعة الحافظة كرهاً يبلغ من القوة أنني
لم أملك الا أن أصبح مرتاعاً :

– ليزا ، عزيزتي ، لماذا ؟

– ليس هذا الكره لك • ولكن انقطع عن القمار •••

– آه ••• أسبب القمار ؟ فلن أقامر اذن ، انتهى !

– قلت منذ هنيهة : « حين نكون سعداء » • فهل أنت « سعيد ،
جداً ؟

– سعيد سعادة هائلة يا ليزا ! سعادة هائلة ! آه ••• رباه •• الساعة
بلغت الثالثة ، بل تجاوزتها ! استودعك الله يا صغيرتي العزيزة ليزا •
قولى يا ليزا ، يا عزيزتي ، هل يستطيع المرء أن يدع امرأة تنتظره ؟
أيجوز هذا ؟

– أنت على موعد ؟

أقلت على هذا السؤال وهي تبسم ابتسامة خفيفة ، ابتسامة ولدت
على شفيتها ميتة ، ابتسامة راعشة مختلجة • قلت لها :

– فاوليني يدك لتجلب لي الحظ !

– لتجلب لك الحظ ؟ يدي ؟ يستحيل أن أفعل بحال من الأحوال !

وابتعدت مسرعة • وقد أطلقت تلك الصرخة جادة كل الجسد !

وارتميت على عربتي فركبتها •

نعم ، نعم ، ان تلك « السعادة » هي التي جعلتني ، كالخلد الأعمى ،

لا أدرك شيئاً ولا أرى الا نفسي !

الفصل الرابع

١



اليوم حتى بخوف من سرد القصة . كل ما سأرويه قد أصبح قديماً . ولكن ذلك كله ما يزال الى هذه الساعة يبدو لي أشبه بسراب . كيف أمكن أن تضرب امرأة مثلها « موعداً » لصبي تافه كالصبي الذي كنته في ذلك الأوان ؟ ذلك ما يبدو في الوهلة الأولى أنه حدث !

بعد أن تركت ليزا ، وابتعدت مسرعاً ، خفق قلبي ، وتصورت أنني فقدت عقلي حقاً : ان فكرة « موعداً » تضربه لي هذه المرأة قد بدت لي مستحيلة استحالة صارخة على حين فجأة ، فلا سبيل الى تصديقها . ومع ذلك كان لا يساورني أى شك فيها . أكثر من هذا أن تصديقي الفكرة كان على قدر قوة استحالتها ، فكلمة بدت لي استحالتها أقوى ، كان تصديقي لها أكبر .

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة قليلاً ، فكان هذا ما يقلقني : « مادام هناك موعداً ، فكيف يمكن أن أصل متأخراً ! » . وعرضت لذهني أسئلة

غبية من نوع هذا السؤال : « أيهما أفضل : الجسارة أم الحجيل ؟ » • ولكن ذلك كله كان يمضى عابراً • أما انشياء الأساسى فهو يمكث فى قلبى ، وهو ما لم أستطع أن أحدهه •

لقد قالت بالأمس : « غداً ، فى الساعة الثالثة ، سأكون عند تاتيانا بافلوفنا » • ذلك كل شىء • فاليكم الاسئلة التى كانت تهمنى على فكرى • اولاً : لقد كانت تستقبلنى فى شقتها دائماً على انفراد ، وكانت تستطيع أن تقول لى كل ما تريد دون أن تنتقل الى بيت تاتيانا بافلوفنا • فلماذا تحدد فى هذه المرة مكاناً آخر هو بيت تاتيانا بافلوفنا ؟ ثانياً : اذا كان الأمر أمر « موعد » ، فيجب أن لا تكون تاتيانا بافلوفنا فى بيتها ، فكيف السيل الى حملها على الغياب عن البيت بدون أن يشرح لها كل شىء سلفاً ؟ هل يكون معنى هذا أن تاتيانا بافلوفنا مطلعة على السر ؟ كان هذا يبدو لى أمراً لا يمكن تصوره ، كان يبدو لى مقترراً الى الحياء بل خالياً من الحشمة •

ثالثاً وأخيراً : لعل الأمر كله لا يزيد على أنها تتوى زيارة تاتيانا بافلوفنا ، فأبلغتنى رغبتها أمس بدون أى هدف آخر ، فطفقت أنا أتصور وراء ذلك أشياء لا وجود لها • لقد قالت ما قالته عرضاً ، وقالته باهمال ، وقالته بهدوء ، وقالته بعد جلسة مملّة جداً ، لأننى طوال الوقت الذى مكنته عندها كنت مضطرباً ، فأنا جامد فى مكاني أجمع بكلام مشوش ، ولا أعرف ماذا أقول ، وكانت هى - كما اتضح ذلك فيما بعد - تنهياً للخروج ، فكان يسرها أن ترانى أنصرف • تلك الأفكار كلها كانت تغلى وتفور فى رأسى ؟ وعزمت أمرى أخيراً ، فأثلاً لنفسى : « سأذهب الى هناك ، وأفرع الجرس ، فتفتح لى الطباخة ، فأسأل هل تاتيانا بافلوفنا فى البيت ؟ فان لم تكن تاتيانا بافلوفنا فى البيت كان معنى ذلك أن الأمر أمر « موعد » حقاً • ولكن لم يكن يساورنى أيسر شك ، لم يكن يساورنى أى شك •

صعدت راکضاً • وهناك ، على فسحة السلم ، أمام الباب تبدد كل رعبى • قلت لنفسى : « هيا ، ليحدث أى شىء » ، فانما المهم أن أعرف حقيقة الأمر بأقصى سرعة ! • وفتحت الطباخة الباب • وبصوتها الأذن وبرودتها الكريهة قالت ان تاتيانا بافلوفنا ليست بالبيت • « وليس بالبيت أحد آخر ؟ ألا ينتظر أحد تاتيانا بافلوفنا ؟ » • لقد أردت أن ألقى عليها هذا السؤال ؟ ولكننى لم أقم ؛ وانما قلت محدثاً نفسى : « سأرى بعينى » • وجمجت أقول للطباخة اننى سأنتظر تاتيانا بافلوفنا ، وخلعت معطفى ، وفتحت الباب •

كانت كاترين تقولايضا جالسة أمام النافذة « تنتظر تاتيانا بافلوفنا » • فما ان رأتنى حتى بادرت تسألنى مهمومة قلقة :

– أهى اذن غائبة ؟

وكان صوتها ووجهها لا يتفقان وما كنت أتوقع ، فجمدت فى العتبة • وتمتمت أسألها :

– من هى ؟

– تاتيانا بافلوفنا ! لقد رجوتك أمس أن تبلغها أننى سأجىء إليها فى الساعة الثالثة •

– أنا ... ما رأيته •

– هل نسيت ؟

جلست كمن حكم عليه بالاعدام هذا هو الأمر اذن : انه واضح وضوح النهار ! ومع ذلك لم أستسلم • قلت أقاطعها نافذ الصبر :

– لا أذكر أنك رجوتى أن أبلغها شيئاً • انك لم تطلبى منى شيئاً : كل ما قلته لى هو أنك ستكونين بيتها فى الساعة الثالثة •

ولم أكن أنظر إليها وأنا أقول هذا الكلام •

فهتفت تقول فجأة :

- اذا كنت قد نسيت أن تبلغها ، واذا كنت تعرف أنني سأكون هنا
فلماذا جئت اذن ؟

فرفعت رأسي ، ونظرت اليها ، فلم أرفى وجهها لا سخريه
ولا غضباً ، وانما رأيت ابتسامة مضيئة مرحة ، ورأيت ذلك المكر الذي
يشبه أن يكون مكر طفل ، والذي يعبر عنه وجهها دائماً ، فكأن هيئتها
كانت تقول : « ها قد غلبتكَ ، فما عساك قائلاً الآن » .

لم أشأ أن أجيب ، وخفضت عيني . ودام هذا الصمت نصف
دقيقة . ثم اذا هي تسألني :

- أأنت قادم من عند بابا ؟

قلت :

- بل من عند آنا أندريفنا . لم أكن عند الأمير يقولوا ايغاتوفتش . .
ثم أضفت :

- ولقد كنت تعلمين هذا حق العلم !

- ألم يحدث لك شيء عند آنا أندريفنا ؟

- أتقصدين أن هيئتي هيئة مجنون ؟ لقد كانت هيئتي هيئة مجنون
من قبل أن أذهب الى آنا أندريفنا .

- فهل استرددت عندها شيئاً من عقلك ؟

- لا . وانما علمت هناك أنك ستزوجين البارون بيورنج .

فظهرت عليها علائم الاهتمام فجأة ، وسألتي .

- أهى التى قالت لك هذا ؟

- بل أنا الذى أعلمتها به ، لأننى سمعت ناشتشوكين يقوله للأمير

سرجى بتروفتش .

وما زلت خافضاً عيني لا أنظر اليها • لأن النظر اليها معناه أن أغرق
في الضياء والفرح والسعادة • وأنا لم أشأ أن أكون سعيداً • ثم وخزت
الحسرة قلبي ، فاذا أنا أتخذ قراراً ضخماً في لحظة واحدة • فطفقت
أتكلم وأتكلم ، دون أن أعرف ماذا أقول • كنت أختق ، وأتمتم ، وأتلطم ،
ولكنني أصبحت أنظر اليها بجسارة • وكان قلبي يخفق • وقلت جملة
لا أدري ماذا كانت ، جملة لا شأن لها بما نحن فيه ، ولكنها جملة بارعة
محكمة • فكانت في البداية تصغي الى كلامي مبتسمة ابتسامتها الهادئة التي
لا تبارح وجهها أبداً ، ولكن الدهشة ثم الارتياح لم يلبثا أن أخذا يبرقان
في نظرتها الساكنة • ومع ذلك لم تفارقها ابتسامتها ، غير أن هذه الابتسامة
نفسها أخذت تختلج في بعض الأحيان •

ورأيته ترتعش كلها ، فسألته فجأة :

– ماذا بك ؟

فأجابتي كالمدعورة :

– أنا خائفة منك •

– فلماذا لا تنصرفين ؟ انك تعلمين أن تائبانا بأفلوقنا غائبة ، ولا شيء

يدل على أنها آتية بعد قليل • فما عليك الا أن تنهضي وتنصرفي •

– كنت أريد أن أنتظرها ••• أما الآن فالأفضل فعلاً أن •••

قلت ذلك ونهضت نصف نهوض •

فقلت وأنا استوقفها :

– لا ، لا • ابقى جالسة • هأنت ذى ترتعشين من جديد • ولكنك

ما تزالين في ذعرك تبسمين •• ابتسامتك هذه لا تفارقك أبداً ••• وهأنت

ذى تبسمين ابتسامة صريحة كاملة •••

– أنت تهذي ؟

- نعم أهذى •

همست تقول مرة أخرى :

- أنا خائفة ...

- مم ؟

فقلت وهي تبسم أيضاً ، ولكنها مذعورة مع ذلك :

- خائفة من أن تحترق الجدار •

قلت :

- لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك !

وظقت أتكلم وأتكلم من جديد • كنت كمن يطير طيراناً • كان شيء ما يدفنى • لم أكن قد كلمتها قبل الآن على هذا النحو في يوم من الأيام أبداً ، لأننى كنت شديد الحجل دائماً • أذكر أننى حدثتها عندئذ عن وجهها ، فقلت لها هاتفاً على حين فجأة : «أصبحت لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك • ولقد كنت أتخيلك ، وأنا بموسكو ، رهية ، رانعة ، تظلمتين الكلام زاخراً بالمر على عادة أبناء المجتمع الراقى ! ... نعم ، بموسكو • كنا منذ الحين نتكلم عنك هناك أنا وماريا ايفانوفنا ، ونحاول أن نراك كما لا بد أن تكونى ... هل تذكرين ماريا ايفانوفنا ؟ لقد ذهبت إليها مرة • وفى أثناء السفر حلمت بك طول الليل فى القطار • وهنا ، قبل وصولك ، ظلت شهراً كاملاً أنظر الى صورتك فى مكتب أريك ، فلم أستطع أن أحزر شيئاً • ان تعبير وجهك مزيج من مكر طفولى وبساطة لا نهاية لها : ذلك ما يشى به وجهك ! ما رأيت وجهك ! ما رأيت وجهك مرة الا أعجبت به • آه ... أنت أيضاً تعرفين كيف تصطنعين هيئة التكبر والاستعلاء ، وكيف تجعلين نظرتك ساحقة : اننى أتذكر كيف نظرت الى عند أريك حين وصلت من موسكو • لقد رأيتك عندئذ ، ومع ذلك لو سألتى أحد عنك بعد ذلك فوراً ، لما استطعت أن أقول له شيئاً فى

وصفك ، بل لما استطعت أن أجيئه بشيء حتى عن قامتك ! ذلك اننى ما ان رأيتك حتى صرت أعمى . ان صورتك لا تشبهك البتة : عينك ليستا قائمتين بل هما واضحتان ، غير أن أهدابك الطويلة هى التى تلقى عليهما ظلالاً فتبدوان قائمتين . وانت بدينة الجسم ، ربة القامة ، ولكن بدانتك قوة وخفة ؛ هى بدانة قروية شابة معافاة . ووجهك أيضاً قروى ؛ انه وجه قروية حسناء . لا تزعلي ، انه لوجه رائع . . . هذا الوجه المستدير المورد الواضح الجسور الضاحك و . . . الحجول ! نعم ، الحجول ! انه خجول يا كاترين نيقولايفنا آخماكوفنا ! خجول وعف ، أحلف لك . بل هو أكثر من عف : هو وجه طفلة . ذلك هو وجهك ! لظالما خطف بصرى ، فتساءلت : أهذه هى تلك المرأة نفسها ؟ وأنا أعلم الآن أنك ذكية جداً ، أما فى أول الأمر ، فكنت أظنك محدودة الفكر قليلاً . وان لك روحاً فرحة ، ولكن بدون تجمل مصطنع . وأحب فيك أيضاً ابتسامتك هذه الأبدية : هى جنتى التى عرضها السماوات والأرض ! وأحب أيضاً هدوءك ، وعذوبتك ، وحديثك الرصين الهادى الذى يكاد يكون وانياً . اننى أحب هذا النونى . يخيل الى أنك لو هوى تحت قدميك جسر لظلمت تتكلمين بهذه اللهجة الرصينة الموزونة . . . كنت أظنك ذروة التكبر والاهواء الجامحة ، ثم يمضى شهران فلا اسمع منك خلالهما الا حديثاً كحديث طالب لطالب . . . ولم أتخيل فى يوم من الأيام جبهة كهذه الجبهة : انها ضيقة قليلاً كجباه التماثيل ، لكنها طرية بيضاء كالمرمر ، تحت شعر غزير رائع . وان لك صدرأً عالياً ، ومشيية مرنة ، وجمالاً خارقاً ؛ لكنك لا تشعرين من ذلك بخيلاء . الآن انما أقتنع بهذا ، وكنت أرفض دائماً أن أصدقه ! » .

أنصت الى كلامى المستفيض محملقة . وكانت ترى اننى ارتجف . وقد حاولت عدة مرات أن تقفنى عن الاسترسال فى هذا الحديث بحركة رشيقة من يدها الصغيرة المغمودة فى قفاها ، ولكنها كانت لا تلبث فى كل

مرة أن تسحب يدها مضطربة حائرة منهية • حتى لقد كانت تراجع كلها بحركة سريعة في بعض الأحيان • ومرتين أو ثلاث مرات ، عادت الابتسامة تضيء وجهها • وفي لحظة من اللحظات تخضب خداهما بحمرة شديدة ، ولكنها في النهاية خافت فعلاً وشحبت لونها • فما كدت أتوقف عن الكلام حتى مدت اليّ يدها ، وقالت بصوت ضارع مبتهل ، ولكنه ما يزال رصيناً :

– ما ينبغي أن يقال هذا ••• لا يجوز للمرء أن يتكلم هكذا ! •••

ونَهَضَتْ فجأة ، وتناولت شالها و فروتنيّ يديها بغير تعجل •
فَهتفتُ أسألها :

– أتصرفين ؟

فأجابت بلهجة فيها حسرة وعتاب :

– حتماً • أنا خائفة منك ••• انك تسرف •••

– اسمعي ! لن أخترق الأسوار ، أحلف لك •

– لكنك بدأت تخترقها •

ولم تستطع أن تكبح نفسها ، فابتسمت • وأضافت تقول :

– حتى انني لست واثقة بأنك ستدعني أنصرف •

أظن أنها كانت تخشى حقاً أن أسد عليها طريقها • قلت :

– بل سأفتح لك الباب بنفسى ، ها اذهبي ••• ولكن ••• ألا فأعلمي

أني اتخذت قراراً ضخماً • فاذا كنت تريدان أن تهبي لنفسي ضياءً ،

فارجعي واجلسي واسمعي مني كلمتين أخيرين • واذا لم تريدي ،

فانصرفي ، وسأفتح لك الباب بنفسى •

فَنظرت اليّ وعادت تجلس •

فَهتفتُ أقول ثملاً :

- لو كنت امرأة أخرى لخرجت مستاءةً أشد الاستياء • ولكنك
عدت تجلسين •

- انك لم تبح لنفسك أن تقول لى مثل هذا الكلام فى يوم من
الأيام •

- كنت خجولاً • ومازلت خجولاً • وحين وصلت الى هنا ، كنت
لا أعرف ما عسانى أقول • أتظنين أننى أصبحت غير خجول ؟ لا • اننى
ما أزال خجولاً • لكننى اتخذت قراراً ضخماً على حين فجأة ، وأحسست
أننى سأنفذه • فلما اتخذت ذلك القرار طاش صوابى وطفقت أتكلم •
اسمى الكلمتين اللتين أريد أن أقولهما لك : أنت تتخذينى جالسوساً
أم لا ؟ أجيبنى ! هذا هو السؤال !

فاحمر وجهها بفته • واستدركت ' أقول لها :

- لا تجيبنى بعد ' يا كاترين نيقولايفنا • استمرى على الاصغاء ، ثم
قولى لى الحقيقة كلها •

لقد قلبت جميع الحواجز دفعة واحدة ، وأصبحت أطيير فى
الفضاء •

- منذ شهرين ، كنت واقفاً هناك وراء الستارة ، وكنت أنت
تحدثين مع تاتيانا بافلوفنا عن الرسالة . فظهرت لكما ، وأسرفت في
الكلام خارجاً عن طوري بغير روية . فأدركت على الفور أنني على علم
بشيء ما . . . ولم يكن في وسعك الا أن تدركي . . . كنت تبحثين عن
وثيقة هامة ، وتحشين خطرهما عليك خفية كبيرة . انتظري يا كاترين
نقولاً يفنا ، لا تتكلمي بعد . انني أعلن لك بأن شبهاتك كانت في محلها :
فالوثيقة موجودة . . . فقد رأيتها بعيني . . انها رسالتك الى أندرونيكوف ،
أليس كذلك ؟

فسألتني بسرعة وقد امتلأت نفسها اضطراباً وانفعالاً :

- رأيت تلك الرسالة ؟ أين رأيتها ؟
- رأيتها . . . رأيتها عند كرافت . . . كرافت الذي انتحر .
- حقاً ؟ رأيتها بعينيك ؟ وماذا صارت اليه ؟
- مزقتها كرافت .
- مزقتها أمامك ؟ رأيتَه يمزقها !
- مزقتها أمامي ، ربما لأنه كان يتبأ بموته . ولم أكن أعرف أنه
سيقتل نفسه بمسدس . . .
- اذن أتلّفها . الحمد لله !
- كذلك قالت ببطء ، بعد أن تنفست الصعداء . ثم رسمت اشارة
الصليب .

لم أكذب عليها • بل لقد كذبت ، لأن الوثيقة كانت عندي ، ولم تكن عند كرافت في يوم من الأيام • ولكن ذلك أمر لا قيمة له • وأنا لم أكذب فيما يتعلق بجوهر القضية ، لأنني في اللحظة التي كذبت فيها قطعت عهداً على نفسي لأحرقن تلك الرسالة في هذا المساء نفسه • ويميناً لو كانت الرسالة في جيبى حينذاك ، لأخرجتها وناولتها إياها • ولكنني لم أكن أحملها ، وإنما كانت في البيت • وقد لا أعطيها الرسالة مع ذلك لأن من الصعب عليّ أن أتعرف لها بأن الرسالة كانت عندي طول هذه المدة فاحتفظت بها ولم أسلمها إليها • ولكن لا فرق : فلقد قررت أن أحرق الرسالة على كل حال ، وأنا اذن لم أكذب ! أقسم لقد كنت صادقاً في تلك اللحظة •

وتابعت أقول خارجاً عن طوري :

— فاذا كان الأمر كذلك ، فأرجو أن تجيبني عن هذا السؤال : لماذا جذبتني اليك ودللتني واستقبلتني في بيتك ؟ أليس لأنك قدّرت انني على علم بأمر الوثيقة المقلقة ؟ انتظري يا كاترين يقولاننا ، انتظري دقيقة أخرى ، لا تتكلمي ؛ أتيجي لي أن أنهى كلامي : انني طوال المدة التي ظللت أزورك في أثنائها ، كنت أقدر أنك لا تلاحظيني ولا تدليني الا لتستدرجيني الى الكلام عن تلك الرسالة ، ولتجبريني على الاعتراف ••• انتظري دقيقة أخرى • كنت أقدر وأشبهه ، ولكنني كنت أتألم وأتعذب • أصبحت لا احتعل منك هذا الرياء ••• ذلك أنني اكتشفت أنك بين سائر مخلوقات الله أنبلها نفساً ! أقول لك بصراحة ، نعم ، أقول لك بصراحة : انني كنت عدوك ، ولكنني وجدت أنك أنبل مخلوقات الله ، فغلبتني دفعة واحدة • ولكن الرياء ••• أقصد شسبهه الرياء كانت ترهقني ••• فيجب الآن أن يتقرر كل شيء ، أن يتوضح كل شيء • لقد حان الوقت • ولكن انتظري قليلاً ، لا تتكلمي ، واعرفني كيف أنظر أنا الى هذا كله الآن ، في اللحظة الراهنة : اذا كانت الأمور قد جرت على

هذا النحو فلن أغضب ، بل أقصد : لن أستاذ ، لأن هذا طبيعي . اننى ادرك ذلك حق الادراك . اى شىء فى هذا يخالف الطبيعة أو يتصف بأنه شر ؟ الوثيقة تعذبك وتقلقك ، وأنت تقدرين أن فلاناً من الناس على علم بكل شىء ، فمن حقت أن تمنى أن يتكلم فلان هذا ليس فى هذا شر ؟ ليس فيه أى شر . اننى أتكلم صادقاً كل الصدق . ومع ذلك يجب أن تقولى لى الآن شيئاً يجب أن تعترفى (اغفرى لى استعمال هذه الكلمة) . اننى فى حاجة الى معرفة الحقيقة ، فى حاجة ماسة الى معرفة الحقيقة ! فقولى لى : هل من أجل أن تستدرجىنى الى الكلام عن تلك الوثيقة انما لاطفتنى ودلمتنى يا كاترين نيقولايفنا ؟

كنت أتكلم ولا أستطيع التوقف عن الكلام ، وكان جينى يحترق احترافاً . وكانت تصغى الى الآن بغير قلق ، حتى ان هيتها كانت تتم عن عاطفة . ولكن نظرتها كانت تشتمل على خجل ، ربما من شعورها بشىء من العار .

ثم قالت بصوت بطيء خافت :

- نعم من أجل ذلك .

وأضافت تقول فجأة وهى ترفع اليّ يديها قليلاً .

- سامحنى ، أخطأت .

لم أكن أتوقع هذا . توقعت كل شىء الا هاتين الكلمتين ، حتى منها هى التى كنت أعرفها الآن . صحت أقول :

- وتقولين « أخطأت » ؟ بكل هدوء تقولين « أخطأت » ؟

- انى لأشعر بأخطائى فى حقت منذ مدة طويلة ويسعدنى

اليوم أن يكون كل شىء قد توضح . .

- منذ مدة طويلة ؟ فلماذا لم تقولى ذلك فى حينه ؟

فابتسمت وقالت :

- ذلك أنتى كنت لا أعرف كيف أقوله .

وابتسمت مرة أخرى وأضافت تقول مستدركة :

- أو قل كان فى امكانى أن أعرف ... لكننى كنت أشعر بعذاب الضمير ... لأننى ، كما تقول ، لم « أجذبك » فى أول الأمر الا من أجل ذلك الهدف ، ثم ألبت أن أحسست أنا باشمئزاز ... وسئمت ذلك الزيف كله ... أؤكد لك ! وسئمت تلك الارتباكات كلها ...

أضفت ذلك بلهجة تتم عن مرارة .

قلت :

- لماذا ، لماذا لم تسألينى صراحة ؟ كان فى وسعك أن تقولى لى :
« أنت تعرف أمر الرسالة ، فعلام التظاهر ؟ » . فلو ألقيت على ذلك السؤال لاعترفت لك فوراً بكل شئ !

- كنت ... كنت خائفة منك بعض الخوف . بل يجب أن أعترف
بأننى كنت أثق بك . ثم لقد مكرت أنا ومكرت أنت !

قالت هذه الجملة الأخيرة وهى تضحك . فهتفت أقول مصعوقاً :

- نعم نعم ، لقد كتبت دنيئاً . آه ... انك لا تعرفين عمق الهوة
التي سقطت فيها !

- هأنت تعود الى الكلام عن الهوة التي سقطت فيها ، والدرك
الأسفل الذى انحدرت اليه ... اننى أعرف أسلوبك !

وابتسمت ابتسامة رقيقة ، ثم أضفت تقول بحزن :

- ان تلك الرسالة هى من حوادث حياتى أبعثها على الحزن ، وهى
من أفعالى أكثرها خفة وطيشاً . لطالما أنبى ضميرى على كتابتها . اننى

بتأثير الظروف وتأثير مخاوفى قد شككت فى أبى العزيز الشهم . واذ قدرت أن هذه الرسالة يمكن أن تقع بين أيدي أناس أشرار ومن حقى أن أقدر هذا (قالت ذلك بحرارة) ، فقد ارتمدت خوفاً من أن يستخدموها وأن يطلعوا عليها بابا وكان يمكن أن يؤثر ذلك فى صحته تأثيراً شديداً بسبب حالته التى هو فيها ، فإذا هو يكرهنى
ثم أضافت تقول وقد حدثت فى عينى فلاحظت فى نظرتى بعض الالتماع فى أغلب الظن :

- نعم وخفت أيضاً على نفسى خفت أن يحمله مرضه على أن يحرمنى من أرزاقه كان هذا الشعور مائلاً هو أيضاً . ولكن لا شك أننى كنت هنا مخطئة فى حقه : فهو أطيب قلباً وأكرم نفساً من أن لا يغفر لى . ذلك كل ما حدث . أما عن سلوكى معك ، فما كان ينبغى لى أن أتصرف كما تصرفت ! اننى أشعر الآن بخزى .

بذلك ختمت كلامها وقد اعترأها خجل مبالغت . فهتفت أقول :

- لا ، ليس لك أن تشعرى بخزى .

- لقد عوّلت فملاً على حرارة اندفاعك ، أعترف بذلك .

قالت هذا وهى تخفض عينها .

فهتفت أقول كالسكران :

- كاترين نيقولايفنا ، من ذا يجبرك على مثل هذه الاعترافات ؟ ماذا كان يكلفك من جهد أن تنهضى فتبرهنى لى بالفاظ منتقاة أنه كان ثمة شىء . ما فعلاً ، ولكن هذا الشىء لا قيمة له كما يجيد أن يفعل ذلك أبناء مجتمعك الراقى فى مواجهة الحقيقة ؟ اننى امرؤ غيبى بليد ، فلو فعلت ذلك لصدقتك على الفور ، ولصدقت كل ما قد تقولينه لى ! ماذا كان يكلفك من جهد أن تفعلى هذا ؟ ولم تكونى خائفة منى مع ذلك ، فكيف ارتضيت أن تخفضى قيمتك أمام دساس حقير ، ومرافق تافه ؟

فقلت بوقار شديد ، لأنها لم تدرك تعجبي في أغلب الظن :

- أنا لم أخفض قيمتي أمامك ، لأنني قلت الحقيقة على الأقل .

- بالعكس ، بالعكس . ان هذا بعينه هو ما أعترض عليه .

صاحت تقول وهي تحمل يدها الى وجهها كأنما لتخفيه بها :

- كان هذا منى شراً وا أسفاه ! كان طيشاً وقبحاً ! وأمس كنت أشعر بالحزى ؟ فلذلك كنت سيئة الحال شديدة الانزعاج حين جئت تزورنى *

ثم أضافت تقول :

- والواقع أن الظروف توجب علىّ حتماً أن أعرف الحقيقة كاملة عن مصير تلك الرسالة المشثومة ، ومع ذلك كنت قد أخذت أسماها ... فكنت استقبلك فى بيتى لا بسبب تلك الرسالة وحدها ...

أضفت هذه الجملة الأخيرة بغتة * فوجف قلبى * وتابعت كلامها

فقلت :

- نعم ، لم أكن أستقبلك بسبب تلك الرسالة وحدها .. لا ..

حتماً .. اننى ..

وألتمت بشفتيها ابتسامة رقيقة * وأردفت قائلة :

- اننى .. لقد عبرتَ أنتَ عن هذا منذ قليل يا أركادى ماكاروفتش .. فذكرتَ أننا كثيراً ما نتحدث كما يحدث طالب طالبة .

أؤكد لك أننى فى كثير من الأحيان أشعر فى المجتمع بضجر وسأم ، ولا سيما بعد إقامتى فى الخارج ، وبعد تلك المصائب العائلية كلها ... حتى لقد أصبحت لا أخرج كثيراً ، وليس هذا عن كسل منى . وكثيراً ما أتمنى أن أعتزل فى الريف ، فأعيد هناك قراءة كتبى المفضلة التى هجرتها منذ زمن طويل ، والتى لا أتمكن من إعادة قراءتها هنا . على أننى قد قلت

لك هذا كه من قبل . انك تذكر ذلك . حتى ضحكت لأننى أقرأ
الجرائد الروسية ، بمعدل جريدتين فى اليوم ، أليس كذلك ؟

- لا ، لم أضحك ...

- ربما لأنك كنت أنت أيضاً متأثر . لقد اعترفت لك منذ مدة
طويلة بأننى روسية ، وبأننى أحب روسيا . تذكر أننا كنا نشترك دائماً
فى قراءة « الوقائع » كما كنت تسميها (وابتسمت) . ورغم أنك كنت
فى كثير من الأحيان ... غريباً متفرداً بعض الشيء ، فقد كنت فى أحيان
أخرى تتحمس فتعرف كيف تقول كلمة حق ، وكنت تهتم بنفس الأشياء
التي كنت أهتم بها أنا . انك لطيف وأنيس وأصيل متى كنت « طالباً » .
أما الأدوار الأخرى فلا تلائمك كما يلائمك دور الطالب .

أضفت هذه الجملة الأخيرة وهى تبسم ابتسامة حلوة فيها مكر
محبب . واستطردت تقول :

- تذكر أننا كنا فى بعض الأحيان نقضى ساعات كاملة فى الاهتمام
بالأرقام فحسب وقياس ، نحصى عدد المدارس فى بلادنا ، ونسأل عن
تطور التعليم وما يقود إليه ؟ وننظر فى عدد جرائم القتل ، وجرائم السطو
ونقارن ذلك كله بالأخبار السارة ... كنا نحاول أن نعرف أين يتجه هذا
كله ، وما الذى سنصير إليه آخر الأمر . ووجدت فىك الصدق . ان
الرجال فى المجتمع الراقى لا يخاطبوننا بهذه اللغة نحن معشر النساء .
كنت فى الأسبوع الماضى أكلم الأمير « ... سوف » عن بسمارك ،
لأننى شديدة الاهتمام ببسمارك ، وكنت لا أعرف ماذا يجب أن
يكون رأى فيه . فهل تتصور ما فعله الأمير ؟ جلس الى جانبى ، وطفق
يقص على حكايات شتى مسرفاً فى ذكر التفاصيل ، وكان فى كلامه كله
نوع من سخريه ، وكان فى كلامه ذلك النوع من التواضع والتنازل الذى
يصطنعه « كبار الرجال » فى العادة حين يكلموننا نحن النساء اذا « تدخلنا

فيما لا يعيننا ، • لقد أصبحت لا أطيق هذا التواضع المصطنع الزائف •
هل تذكر كم من مرة أوشكنا أن نتشاجر في كلامنا عن بسمارك ؟ كنت
تريد أن تبرهن لي على أن لك « فكرة أعلى كثيراً » من فكرة بسمارك •
قالت هذا وضجكت فجأة • واستطردت تقول :

- ما رأيت في حياتي الا رجلين اثنين كلماني جادين حقاً ؛ فأما
الأول فهو المرحوم زوجي الذي كان رجلاً ذكياً ، ذكياً جداً ••• وكانت
نفسه تزخر نبلاً (قالت هذا بلهجة مؤثرة) ، وأما الثاني فانك تعرف •••
فهتفت أقول لاهتاً :

- فرسيلوف ؟

- نعم • كنت أحب كثيراً أن أسمعه • وقد أصبحت في النهاية •••
صريحة معه كل الصراحة ، بل لعلي أسرفت في هذه الصراحة ، غير أنه
أصبح عندي لا يصدقني •
- لا يصدقك ؟

- وما صدقتي أحد في يوم من الأيام على كل حال •
- ولكن فرسيلوف ! فرسيلوف !

قالت وهي تخفض عينيها وتبتسم ابتساماً غريباً :

- لم يقتصر على أن لا يصدقني ، بل قرر جازماً أنني « أتصف
بجميع العيوب » •

- ليس فيك عيب واحد •

- بل ان لي بعض العيوب ، أنا أيضاً •

هتفت أقول وقد سطعت عيناى :

- كان فرسيلوف لا يجبك ، فلذلك لم يفهمك •

فتغير شيء ما في وجهها وقالت بحرارة والحاح شديد :

- دع هذا الأمر ، ولا تكلمنى أبداً عن هذا ... عن هذا الرجل .
ولكن كفى ، لقد حان الوقت ...

ونهدت لتتصرف قائلة لى وهى تحديق فى تحديقاً صريحاً :
- فماذا ؟ أتتفر لى أم ؟

- أنا ؟ أغفر لك ؟ اسمعى يا كاترين بقولايضا ، ولا تغضبى : هل
صحيح أنك ستزوجين ؟

فقال مضطربة ، كالمتراعة :

- لم يتقرر الأمر بعد +

- أهو رجل طيب ؟ معذرة ، اغفرى لى هذا السؤال +

- نعم ، هو طيب جداً ...

- لا تجيبى بعد الآن ، لا تعمى على بأن جواب + أنا أعلم أن هذه
الأسئلة مستحيلة حين ألقبها أنا ! وقد أردت أن أعرف أهو جدير أم لا .
ولكننى سأعرف منه بنفسى +

فالت متراعة :

- لا ... اسمع !

- طيب ، طيب ... سأمتنع ، سأمتنع ، سأصرف النظر عن هذا
الأمر + ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك : أسأل الله أن يهبى لك جميع
أنواع السعادة ، جميع أنواع السعادة التى تمنيتها ... جزاء ما وهبت لى
من سعادة فى هذه الساعة القصيرة ! ان ذكراك قد نقشت الآن فى نفسى
الى الأبد + لقد كسبت كنزاً عظيماً هو فكرة الكمال هذه التى تجسدينها +
كنت أقدر فيك خداعاً وغنجاً زائفاً ، فكنت من ذلك شقياً ... لأننى لم
أستطع أن أوفق بين هذا الاشتباه وبين ما أراه فيك + وأصبحت فى الأيام

الأخيرة أفكر في هذا الأمر ليلاً ونهاراً • أما الآن فقد وضع لي كل شيء وضوحاً تاماً ! حين كنت آتياً الى هنا كنت أتصور أن ألقى نفاقاً ومكرآ ، وحية لائبة ، فاذا أنا أجد سعادة ، وعظمة ••• اذا أنا ألقى طالبة ! ••• أتضحكين ؟ اضحكي ! ولكنك قديسة ، فلا يمكنك أن تضحكي مما هو مقدس •••

– أنا لا أضحك الا لأنك تستعمل تعابير رهيبة • فما هي هذه «الحية اللائبة» التي ذكرتها ؟

وانفجرت تضحك • ولكنني تابعت كلامي متحمساً أقول :

– لقد أفلتت منك اليوم كلمة ثمينة • كيف أمكنتك أن تقول انك كنت تعوّلين على « حرارة اندفاعي » ؟ صحيح أنك قديسة ، وأنت نفسك تقرّين بهذا ما دمت تتخيلين أنك ارتكبت ذنوباً تريدن التكفير عنها ••• مع أنه ليس ثمة ذنب في الواقع ، لأن كل ما يصدر عنك فهو مقدس ولأنه لا شيء يمكن أن يُلطّخك • ولكن كان في امكانك مع ذلك أن لا تنطقى بذلك التعبير •

واستطردت أقول صائحاً مشوشاً :

– ان هذه الصراحة التي ليست أمراً مألوفاً انما تدل على عفوك العظمى ، وعلى ما تضمينه لي من احترام وعلى ما تحسّينه من ثقة بي • لا تحمري لا تحمري ••• من ذا الذي تقول عليك فزعم أنك امرأة جامحة الهوى ؟ آه ••• اغفري لي ••• انني أرى في وجهك تعبيراً عن ألم ! اغفري لمرأى مندفع عباراته الحرقاء ! ولكن هل الأمر اليوم أمر عبارات ، أمر تعابير ؟ ألسنت فوق كل التعابير ؟ قال فرسيلوف يوماً : لئن قتل عطيل ديمونة ثم قتل نفسه ، فانه لم يفعل ذلك عن غيرة ، وانما فعله لأنه سلب مثله الأعلى • انني أفهم اليوم هذا الكلام ، بعد أن رُدّ الى مثلي الأعلى !

قالت بعاطفة :

- انك تسرف في مدحى : أنا لا أستحق هذا المدح !

ثم أضافت تقول مازحة :

- هل تذكر ما كنت أقوله عن عينيك ؟

- كنت تقولين عنهما انهما مجهران ، واننى أرى الذبابة جملاً !

لا ، لا ، انتى لا أضخم الأمور الآن ... ماذا ؟ أتصرفين ؟

كانت فى وسط الغرفة تحمل شالها وفروتى° يديها ، فأجابتنى

تقول :

- بل سأنتظر أن تصرف أنت ، ثم أمضى بعدك . على أن أكتب

كلمتين لثانيانا بأفلوفنا .

- أنا منصرف ، أنا منصرف ، ولكن اليك كلمتين أخريين : أرجو

لك السعادة ، وحيدة أو مع من تختارين ! أما أنا فلست فى حاجة الا الى

مثلى الأعلى .

- عزيزى ، عزيزى الطيب آرКАДى ماكاروفتش ، صدق أنتى

سأفكر فيك . ان أبى يصفك دائماً « بالفتى اللطيف ، الطيب » . صدق

أنتى سأذكر دائماً ما رويته لى عن الصبى الصغير المسكين الذى ترك عند

غرباء ، وما رويته لى عن أحلامه فى عزله . انتى لأفهم كيف تكونت

نفسك فهماً واضحاً كل الوضوح .

ثم أضافت تقول وهى تبسم ابتسامة ضارعة زاخرة بالحياء والحفر ،

وتشد على يدي مصافحة :

- ولكن لا يجوز لنا بعد اليوم أن نلتقى كما كنا نلتقى ، مهما تكن

طالين ... و ... هل تفهم ما ذا أريد أن أقول ؟

- لا يجوز ؟

- لا ، لا يجوز . وسيستمر ذلك مدة طويلة ... هذا ذنبى أنا .
اننى أرى أن اجتماعنا بعد الآن مستحيل استحالة مطلقة . على أننا سوف
نلتقى أحياناً عند بابا ...

- أتخشين حرارة اندفاعى وحمياً عواطفى ؟ ألا تثقين بى ؟

أردت أن أهتف ملقياً عليها هذا السؤال ، ولكنها بلغت من شدة
الحجل أما فى تلك اللحظة فان الألفاظ لم تخرج من حلقى .
وتوقفت فجأة بقرب الباب وقالت تسألنى :

- قل لى : هل رأيت ... بعينيك ... أن تلك الرسالة قد تم
تمزيقها ؟ هل تذكر هذا تذكراً واضحاً ؟ وكيف عرفت أن الورقة التى
تم تمزيقها هى نفسها رسالتى الى آندرونيكوف ؟

- حدثنى كرافت عن مضمونها ، بل أطلعننى عليها ... استودعك
الله ! كنت اذا جئت اليك أفقد كل شجاعة ، فاذا خرجت لحظة هممت
أن أقبل الموضوع الذى وطأته بقدميك من الأرض .
قلت هذا الكلام الأخير لا أدرى كيف ولا لماذا . ثم خرجت
بسرعة دون أن أنظر اليها .

أسرعت الى بيتى . كانت نفسى مترعة بحماسة شديدة وافتنان
قوى . وكان كل شىء مصصف فى خاطرى كزوبعة . وكان قلبى زاخراً
مفعماً . فلما اقتربت من منزل أمى تذكرت فجأة ما رأيته فى ليزا من
التكر لجميل أنا آندريفنا ، وتذكرت الكلمة القاسية الرهيبة التى قالتها فى
حقها منذ قليل ، فشعرت بقلبي ينسحق ألماً لهما كليهما ! « ما أقسى قلوبهن
جميعاً ! ولكن ليزا ما بالها ؟ » . كذلك تساءلت وأنا أضع قدمى على درج
الباب .

وصرفت ماتفتى ، بعد أن أمرته بأن يعود الى فى الساعة التاسعة .

الفصل الخامس

١



متأخراً عن موعد الغداء ، ولكنهم لم يكونوا قد
جلسوا الى المائدة : كانوا ينتظروننى . وقد
أعدوا للغداء ألواناً من الطعام اضافية ، ربما
لأنتى كنت لا آكل عندهم الا نادراً ، فكان على
المائدة مشهيات وسردين وما الى ذلك . ولكن ما كان أشد دهشتى وما كان
أكبر حزنى حين رأيتهم جميعاً مهمومين مكفهرين : فأما ليزا فانها حين
رأنتى لم تكذب ترسم على شفتيها ابتسامة ، وأما ماما فكان واضحاً أنها قلقة ،
وأما فرسيلوف فقد تبسم ولكن بجهد . سألت نفسى : « أترامهم
تشاجروا ؟ » وجرى كل شىء فى البداية مجرى حسناً ، باستثناء أن
فرسيلوف امتعض حين جىء بحساء الشمعيرة ، ثم سحق حين جىء
بالكفتة ، فقال غاضباً :

- يكفى أن أتبأ أن صنفاً من أصناف الطعام لا تحتمله معدتى حين
أراه فى الغداة على المائدة !

فقالتمى تجييه خجلى :

— ماذا تريد يا آندره بتروفتش ؟ لا يستطيع المرء أن يخترع في كل يوم لوناً جديداً •

— ان أملك على نقيض بعض صحفنا التي ترى في كل جديد شيئاً حسناً •

لقد أراد فرسيلوف أن يمزح ، أن يقول شيئاً فيه مزح وصدافة ، ولكنه لم يفلح ، بل لم يزد على أن أربع أمي مزيداً من الرعب ، وهي لم تفهم شيئاً من تلك المقارنة بينها وبين الصحف طبعاً ، ومضت ترسل نظرات زائفة هنا وهناك • وفي تلك اللحظة دخلت تاتيانا بافلوفنا ، فلما دُعيت الى المشاركة في الغداء أعلنت أنها تغدت ، وجلست على الديوان قريبة من أمي •

لَمْ أكن قد أفلحت بعد في الحصول على حظوة هذه الانسانة • هي لقد كان تهجمها علىَّ يزداد بمناسبة كل شيء ، وبغير أية مناسبة • وكان استياؤها قد اشتد في الآونة الأخيرة : فهي لا تستطيع أن ترى ثيابي الأنيقة ، وقد روت لي ليزا عنها أنها كادت تصاب بنوبة عصبية حين علمت بأن لي خوذياً تحت امرتي • وقد أصبحت في النهاية أتحاشاها ما استطعت الى ذلك سبيلاً • أذكر أنني منذ شهرين ، حين رفض أبي الميراث هرعته الى بيتها أحدثها عن سلوك فرسيلوف ، ولكنني لم أحظ منها بأي عطف على هذا السلوك ، حتى لقد استاءت استياء رهيباً : لقد أسخطها أشد الاسخاط أن فرسيلوف رد الميراث كله بدلاً من أن يرد نصفه ، ووجهت الىَّ أنا ملاحظة لاذعة فقالت :

— أراهن أنك على ثقة بأنه رد الميراث ودعا الآخر الى المباراة لا لشيء إلا أن يملو قدره واعتباره في نظر أركادي ماكاروفتش •

كادت تحزر ! فلقد كنت أحس بشعور من هذا النوع حينذاك •

وما ان دخلتُ حتى أدركتُ فوراً أنها ستهجم عليّ ، بل كنت مقتنعاً
أنها ما جاءت الا لهذا الغرض . لذلك بادرت الى اصطناع لهجة طليقة
جداً ، ولم يكلفني هذا جهداً كبيراً ، لأنني كنت لا أزال مفعم النفس
فرحاً . يجب أن أشير الى أن هذه اللهجة الطليقة كانت لا تناسبني أبداً ،
ولا توافق سحنتي اطلاقاً ، وأنها كانت كثيراً ما تجليني بالحزى ، وذلك
ما حدث ، فسرعان ما قبض عليّ متلبساً بجريمة الكذب ، ذلك أنني - بدون
أية عاطفة سيئة ، بل بدافع الحفة وحدها - حين لاحظت أن ليزا حزينة
حزناً شديداً ، أفلت من لساني على حين فجأة ، دون أن أفكر فيما أقوله ،
أفلت من لساني قولي :

- منذ قرن من الزمان لم أكل هنا ، ثم هأنت ذي عابسة الوجه ،
متجهمه الهيشة يا ليزا . فهل اخترت لحزنك وكأبتك هذا اليوم اختياراً ؟

فأجابتي ليزا تقول :

- أعاني من صداع .

ثم اذا بتاتيانا بافلوفنا تهجم هجمتها قائلة :

- ما قيمة أن تكوني مريضة ؟ لقد تفضل آر كادي ماكاروفتش فجاء

الى هنا : فيجب عليك أن ترقصي وأن تبتهجي !

فأبريت أقول :

- انك بلية حياتي حقاً يا تاتيانا بافلوفنا ! ان أجيء بعد اليوم أبداً

متى كنت هنا !

قلت ذلك و خبطت المائدة بيدي في غضب صادق . فانتفضت أمي ،

وألقي عليّ فرسيلوف نظرة خاصة غريبة . وانفجرت أنا أضحك واستغفر .

قلت ملتقاً الى تاتيانا بافلوفنا ، بلهجة ما تزال طليقة :

- انني أسحب كلمة « البلية » .

فأجابت تقول جازمة :

- لا ، لا ، ثق أنك تمدحني مدحاً عظيماً حين تصفني بأنني بلية حياتك ، ولا تصفني بنقيض ذلك !
وقال فرسيلوف مبتسماً :

- يا عزيزي ، يجب على الانسان أن يعرف كيف يتحمل البلايا الصغيرة في هذه الحياة . ولا جمال للحياة بغير بلايا !
فصحت أقول وأنا أضحك ضحكاً عصبياً :
- انك في بعض الأحيان رجعي رهيب !
- يا صديقي ، هذا لا يهمني !

- لا يهمك ؟ انك مسرف في الأدب والتهديب . لماذا لا تتطلق على السجية فتقول لعمار انه حمار ؟

- أنفك تعني ؟ أنا أولاً لا أريد ولا أستطيع أن أحكم على أحد !
- لماذا لا تريد ، لماذا لا تستطيع ؟

- كسللاً واشتمزازاً . قالت لي امرأة ذكية في يوم من الأيام : ليس من حقى أن أحكم على الآخرين ، « لأننى لا أجيد الألم » ، ومن أجل أن ينصب المرء نفسه حاكماً وقاضياً ، يجب عليه أن يكتسب حق الحكم بما يقاسى من آلام . صحيح أن هذا الرأى يشتمل على غلو وتفخيم ، ولكن لعله يصدق في تطبيقه علىّ ، وقد ارتضيت أن أصدقه وأن أتقيد به .
هتفت أسأله :

- هل يمكن أن تكون تانياً بافلوفا هي التى قالت لك هذا الرأى ؟
فقال فرسيلوف وهو يرشقتنى بنظرة دهشة :
- كيف حزرت ؟

- من النظر فى وجهها ، فقد انمط فجأة ••

الحق أننى لم أحزر الا مصادفة • وقد علمت فيما بعد أن هذه الجملة
انما قالتها تاتيانا بافلوفنا لفرسيلوف بالأمس أثناء مناقشة حامية • وأخذت
أدرك بمزيد من القوة أننى جئت اليهم منطلق النفس مفعم القلم فرحاً فى
غير الأوان المناسب : فقد كان لكل منهم هم ثقيل جائم على صدره •

قلت :

- اتنى لا أفهم شيئاً ، لأن هذا الكلام كله مجرد جداً • انك تحب
الكلام فى أمور مجردة يا أندره بتروفتش • وهذه سمة من سمات
الأنانية • فجميع الأنانيين يحبون أن يتكلموا فى الأمور المجردة !

قال :

- عبارة جميلة ! ولكن دعنى ولا تلح •

فتابعت كلامى منطلقاً أقول بحرارة :

- بل اسمع لى ! ما معنى قولك • أن يكتسب حق الحكم بما يقامى من
آلام • ؟ كل انسان شريف فهو قاض • ذلك رأىى أنا •

- لن تقع اذن على عدد كبير من القضاة •

- أعرف واحداً •

- من هو ؟

- انه هنا يتحدث مئى !

فضحك فرسيلوف ضحكة غريبة ، ومال على أذنى بجسمه كله ،
وأمسك كفتى ، وهمس يقول لى : « انه يكذب عليك » •

لم أستطع أن أفهم ' ماذا أراد أن يقول ، ولكن لاشك أنه كان فى
تلك اللحظة مضطرباً اضطراباً شديداً (عقب علمه بنبأ من الأنباء كما عرفت

ذلك فيما بعد) ، ولكن هذه الجملة « انه يكذب عليك » قد قيلت بلهجة
تبلغ من الجذو وهيئة تبلغ من الغرابة والبعد عن المزاح ، أثنى رأيتنى أرتعش
ارتعاشاً عصيباً ، حتى لكأثنى مرتاع ، وألقت عليه نظرة متوحشة • ولكن
فرسيلوف أسرع يضحك •

قلت أمدى بعد أن خافت حين رأته يهمس فى أذنى :

- الحمد لله ! لقد ظننت أن •• لا ترعل منا يا أركادى • الأذكياء فى
هذا العالم كثير ، ولكن من عسى يجهك كما نجهك ، بعد أن نرحل نحن
عن هذه الحياة ؟

- لهذا السبب أرى أن حب الأيوين مناف للأخلاق ، فهو حب
لا يحظى به المرء عن جدارة واستحقاق • وانما ينبغى أن يكون الحب
مستحقاً •

- ستستحقه فيما بعد ، وبانتظار ذلك نجهك لغير سبب يدعو الى
الحب •

أخذ الجميع يضحكون • فهتفت أقول ضاحكاً كذلك :

- لملك يا ماما لم تقصدى أن تسددى الى هدف معين ، ولكن أصبت
قلب هذا الهدف •

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تهجم على من جديد فقالت :

- أتراك كنت تظن أن هناك أسباباً تدعو الى جهك ؟ نعم ، انهم
يجبونك لغير سبب يدعو الى جهك ، بل قل انهم يجبونك من خلال
الاشمئزاز منك !

فهتفت أقول مرحاً :

- اه •• لا ! •• أتعرفين من قال لى اليوم انه يجبنى ؟

فأسرعت تاتيانا بأفلوفنا تقول بمكر غير مألوف ، فكأنها قد توقعت منى
تلك الجملة نفسها:

— اذا قال لك أحد انه يحبك ، فانما قال ذلك ليسخر منك • نعم ،
لا بد لانسان مرهف الشعور ، ولا بد لامرأة بخاصة أن تشمئز من نفسك
السوداء • ان لك فرقا في شعر رأسك ، وانك تلبس قميصاً ناعماً ، وترتدى
تياباً يخطئها لك الخياط الفرنسي الشهير ، ولكن ذلك كله ليس الا وحلاً !
من ألبسك ؟ من يطعمك ؟ من يعطيك مالا لتقامر فى الروليت ؟ تذكر
من الذى لا تستحى أن تطلب منه هذا المال !

تخضبت أسمى بحمرة شديد • لم أر فى حياتى خجلاً كهذا الخجل
يجلجل وجهها • فنار حنقى وقلت محمر الوجه :

— اذا كنت أنفق فانما أنفق مالى ، وليس على حساب أوديه لأحد !
— مالك ؟ مالك أنت ؟ كيف ؟

— اذا لم يكن مالى فهو مال آندره بتروفتش الذى يمنعه عنى • آخذه
من الأمير سداداً لدين آندره بتروفتش عليه •••
فقال فرسيلوف بلهجة جازمة :
— يا صديقى ، ليس لى عليه كوبك واحد •

كانت الجملة ذات مغزى رهيب • فتسمرت فى مكاني صامتاً • ولاشك
أننى كان فى وسعى أن أتذكر الحالة النفسية المشوشة العجيبة التى كنت
عليها حينذاك ، فأخرج من الحرج باندفاعه « نبيلة » أو بكلمة ذات تأثير أو
بأية حيلة أخرى • ولكننى لاحظت فجأة فى وجه ليزا المكفهر تعبيراً شريراً
فيه اتهام وظلم ويكاد يشتمل على سخريه ، فاذا بشيطان يدفنى فأقول لها
وأنا التفت اليها :

— يدو لى يا آنسة أنك تزورين كثيراً داريا أونيسيموفنا فى بيت

الأمير • فهل أستطيع أن أطلب منك أن تعطى الأمير هذه التلاميذ روبل
التي أبتغونى عليها اليوم هذا التائب كله ؟

وسللت المال من جيبي ومددته إليها • هل يصدق أحد أن هذه
الكلمات الشريرة قد قيلت بغير أى قصد ، أعنى أنها كانت خالية من أى
تلميح الى أى امر ؟ بل كان لا يمكن أن تشتمل على أى تلميح ، لأننى
كنت حتى تلك اللحظة لا أعرف شيئاً البتة ؟ ولعل كل ما أردت أن أفعله
هو أن أخزها وخزة بريئة ، وكأن أقول مثلاً : « يا أنسةً تتدخل فيما
لا يعينها ، هلا رضيت - ما دمت تحرصين على أن تحشرى أنفك فى كل
مكان - أن تذهبي الى هذا الأمير ، الى هذا الشاب ، الى هذا الضابط
البطرسبرجى ، فتتلقى اليه هذه الرسالة » ما دمت تحيين كثيراً أن تتدخل
فى شئون الشباب • ولكن ما كان أشد انشدهاى وما كان أعظم ذهولى
حين رأيت أمى تنهض بحركة سريمة مفاجئة ، وترفع اصبعها مهددة
ايأى ، وتصرخ قائلة لى :

- اخرس !

ما كان فى وسعى أن أتوقع منها شيئاً من هذا القليل ، فاذا أنا أنتفض ،
: من ذعر ، بل من ألم ، من جرح فى القلب نازف موجه ، لأننى أدركت
بجأة أنه قد وقع شئ فظيع رهيب • ولكن ماما لم تصمد طويلاً ، فما هى
الا برهة قصيرة حتى دفنت وجهها فى يديها وخرجت من الغرفة مسرعة ،
وتبعها ليزا دون أن تنظر الى الجهة التى كنت فيها ؛ وتأملتنى تاتيانا بأفلوفنا
فى صمت نصف دقيقة ، ثم هتفت تقول ملغزة وهى تنظر الى مدهوشة :

- هل يُعقل أنك أردت أن تقول كلاماً قدرأ ؟

وبدون أن تنتظر منى جواباً ، خرجت هى أيضاً • ونهض فرسيلوف
عن المائدة وفى وجهه تعبير عن عداوة تكاد تكون شريرة ، وتناول قبعته من
ركن فى الغرفة ، وجمجم يقول مستهزئاً :

كنت أقدر أن لا تكون غيباً هذا الغباء كله وانما أن تكون
بريئاً لا أكثر . اذا رجعت فقل لهن أن لا ينتظرنى لتناول الحلوى ، فسأقوم
بجولة .

بقيت وحدى . ووجدت الأمر فى البداية غريباً ، ثم وجدته مهينا
جارحاً ، ورأيت فى النهاية أننى على خطأ . ولكننى لم أدرك ما خطئى ،
وانما كنت أحس احساساً بأن خطأً قد صدر عنى . وجلست أمام النافذة
أنتظر . وبعد عشر دقائق تناولت قبعتى أنا أيضاً ، وصعدت الى غرفتى
القديمة التى تقع تحت السقف . كنت أعلم أنهما هناك ، أعنى أمى وليزا ،
وأن تاتيانا بافلوفنا قد ذهبت الى بيتها . وقد وجدتهما فى غرفتى فعلاً ،
جالستين على ديوانى تتهامسان . فما ان رأيتنى حتى انقطع تهامسهما . وما
كان أكبر دهشتى حين لم تظهرا لى غضباً ! ان ماما على الأقل قد طالعتنى
بابتسامة .

أردت أن أتكلم فقلت :

– اغفرى لى يا ماما

ولكن ماما قاطعتنى قائلة :

– هيا هيا ! لا قيمة لهذا ولكن فليجب كل منكما الآخر ،
ولا تتشاجرا أبداً . أسأل الله أن يمن عليكما بالسعادة .

فقلت ليزا بعاطفة واقتناع :

– هو يا ماما لن يسيء الى يوماً . نقى بأنه لن يسيء الى أبداً .

وهتفت أقول :

– لولا تاتيانا بافلوفنا هذه لما حدث شيء من هذا كله . انسانة

مسيئة .

قالت ليزا وهى تشير الى :

– أرأيت يا ماما؟ أسمعت؟

وصححت أقول :

– واليكما ما أحب أن أعلنه لكما كلكيما : اذا كان أحد يفسد الحياة فهو أنا ، ولولاي لكان كل شيء بهيجاً !

– لا تزعل يا صغيرى آر كادى ، يا بنى العزيز ، ولكن ليتك تكف
عن

– عن القمار؟ عن القمار؟ سأكف يا ماما . سأقامر اليوم آخر مرة ، ولا سيما بعد الذى أعلنه أندره بتروفتش صراحة منذ هنيهة اذ قال انه ليس له على أحد هناك كوبك واحد . لا تستطيعين أن تتصورى مدى ما أشعر به من عار ولكن على أن أشرح ما بنفسى ماما العزيزة ، لقد قلت هنا فى آخر مرة كلمة خرقاء كذبت يا ماما : الحق أنتى أريد صادقاً أن أوامر كان ذلك منى تبجحاً . فأنا أحب المسيح

كنا فى المرة السابقة قد جرى بيننا حديث من هذا النوع فعلاً . وقد تأملت أمدى كثيراً وارتفعت كثيراً . فلما سمعت ما قلته الآن ابتسمت لى كما يتسم المرء لطفل ، وقالت :

– ان المسيح يا صغيرى آر كادى سيفر كل شيء : سيفر تجديداتك وما هو أسوأ منها أيضاً . المسيح أب ، المسيح ليس فى حاجة الى شيء ، وسيظل يتلأأ حتى فى أعمق الظلمات

ودعتهما وخرجت مفكراً فى احتمالات لقائى فرسيلوف فى هذا اليوم نفسه . هناك أشياء كثيرة يجب أن أحادثه فيها ، وقد استحال ذلك منذ قليل . وقد رت أنه لا بد أن يكون الآن فى بيتى ينتظرنى . فذهب الى بيتى ماشياً . ان المشى ليحلوا فى مثل هذا الجو البارد .

كنت أقيم بقرب جسر « الصعود » فى عمارة كبيرة ، وكان مسكنى
يطل على فناء العمارة • فما ان دخلت بوابة العمارة حتى رأيتى
أصطدم بفرسيلوف الذى كان خارجاً من عندى • وقال :

- على عادتى ، كنت أتزده ماشياً فوصلت الى مسكنك ، حتى لقد
انتظرتك عند بطرس هيوليتوفتش ، ولكننى ضجرت فى النهاية • انهم فى
هذا البيت لا يكفون عن التشاجر • بل ان زوجته مستقلة الآن فى فراشها
تبكى • ألقى نظرة ثم انصرف •

شعرت بشىء من الاستياء • وقلت :

- أظن اننى الشخص الوحيد الذى تزوره ، فكأنك لا تعرف أحداً
فى بطرسبرج الا أنا وبطرس هيوليتوفتش !

- أى بأس فى هذا يا صديقى ؟

- فأين تذهب الآن ؟

- لا ، لن أصعد اليك ثانية ، فاذا شئت تنزهنا ماشين ، فالأمسية
رائحة •

قلت فجأة :

- لو انك ، بدلاً من الاسترسال فى تأملات مجردة ، قد قلت لى
شيئاً انسانياً ، لو انك - مثلاً - قلت كلمة عن حماقتى التى تدفعنى الى
العمار ، فلعلنى ما كنت لأنجرف ذلك الانجراف كما يفعل أبله معته •

فقال وهو يزن كلماته :

– أنت نادم؟ هذا حسن • لقد قدرت دائماً أن انغماسك في القمار ليس أصلاً فيك ، وإنما هو انحراف عابر ••• ! انك على حق يا صديقي ، فالقمار من الموبات ، ناهيك عن أن المرء قد يخسر •
– وقد يخسر مال غيره أيضاً •

– هل خسرت مال غيرك؟

– خسرت مالك أنت • كنت اقترض من الأمير على حساب دينك عليه • ولاشك أنه سخف وحمافة منى أن أعد مالك مالى ، ولكننى كنت أريد دائماً أن ألعب لأسترد الحسارة •

– أنبهك مرة أخرى يا عزيزى الى أن الأمير ليس عليه لى دين • أنا أعرف أن هذا الشاب يعانى هو نفسه ضيقاً شديداً ، وأرى أنه ليس مديناً
•••••

ا كانت حالى سيئة سوءاً مضاعفاً ••• بل كانت تدعو

• فما صفتى الآن حتى يعطينى وأخذ منه؟

شأنك أنت ••• ولكن قل لى بصراحة : أليس هناك أى

سبب ••• خاص يبيح لك الاقتراض منه ، هه ؟

– لا شيء الا كوننا رفقين •

– لا شيء الا كونكما رفقين؟ أليس هناك أى سبب آخر يسوغ لك

أن تقترض منه؟ أليس هناك اعتبارات معينة مثلاً؟ •••

– ما عسى يكون هنالك من اعتبارات؟ لست أفهم!

– هذا أفضل • الأفضل أن لا تفهم! أعترف لك يا صديقي بأننى

كنت على يقين من هذا • « طيب ، لنقف عند هذا الحد يا عزيزى »! وحاول

أن تكف عن القمار مع ذلك •

- نيتك أسديت لى هذه النصيحة من قبل ! بل انك حتى فى هذه اللحظة تسديها الى بلهجة تخلو من كل حرارة .

- لو نصحتك قبل الآن لما زدنا على أن نختصم ، ولما سرّك كثيراً أن تستقبلنى فى بيتك مساء . اعلم يا صديقى أن جميع هذه النصائح التى تستهدف نفع الآخرين ليست الا تدخلاً فى شئونهم لا حق لأحد فيه . ولطالما تدخلت هذا التدخل فما جنيت منه الا المنفصات والسخريات . وهبنى لم أعبأ بالمنفصات والسخريات ، فإن الشيء الهام هو أن هذا التدخل لا يثمر أبداً ، فما من أحد يستمع لك ، ويأخذ الناس يكرهونك .

- يسعدنى أنك بدأت تكلمنى فى غير الأمور المجردة . هناك شيء آخر أريد أن أسألك عنه منذ مدة طويلة ولكننى لم أستطع ذلك حتى الآن . ان المثلثى فى الشارع يشجع على المسارة والتجوى . هل تذكر ذلك المساء الذى كنا فيه عندي ، فى « تابوتى » ، منذ شهرين ، فسألتك عن ماما وعن ماكر ايفانوفتش ؟ هل تذكر كيف استرسلت فى الكلام منطلقاً « بغير تخرج » ؟ فهل كان يجوز لابن أن يخوض فى الكلام عن أمه بهذه الألفاظ ؟ ولكنك لم تصدر عنك كلمة اعتراض واحدة ! حتى لقد « حللت أزرارك » أنت نفسك ، فشجعتنى على المزيد من خلع العذار .

- يا صديقى ، يسعدنى أن أسمعك تفصح عن ... مثل هذه المشاعر ... نعم ، أتذكر تذكراً واضحاً ... لقد كنت أتوقع فى تلك اللحظة فعلاً أن أى حمرة فى وجهك ، ولئن أرخيت لك العنان ، فلعلنى انما فعلت ذلك لأبجلك تبلغ آخر الحدود ...

- فلم تزد اذن على أن خدعتنى ، وعكرت النبع الصافى الذى كان فى نفسى مزيداً من التعكير ! نعم ، ما أنا الا مراهق شقى ، وائى لأجهل فى بعض الأحيان ما هو خير وما هو شر . فلو أرئيتنى الدرب ولو قليلاً لفهمت ولسرت فى الطريق القويمه فوراً . ولكنك لم تزد على أن أثرت حنقى .

- « ايها الابن العزيز » ، لقد أوجست دائماً أننا سنتفق فى يوم من الأيام حتماً : فهذه « الحمرة » فى وجهك قد ظهرت الآن من تلقاء نفسها بدون أن أدلك على شيء ، وأحلف أن هذا خير لك ... اننى ألاحظ يا عزيزى أنك قد تحسنت كثيراً فى هذه الآونة الأخيرة ... أياكون الفضل فى هذا لصحبة ذلك الأمير الشاب ؟

- لا تمدحنى ، فاننى لا أحب هذا . لا تخلق فى قلبى هذا الاشتباه الأليم وهو أنك انما تمدحنى نفاقاً ورياءً على حساب الحقيقة حتى لا أكف عن الاعجاب بنفسى . هل تعلم أنتى فى هذه الآونة الأخيرة قد ترددت على نساء ؟ هل تعلم أن آنا أندريفنا مثلاً تحسن استقبالى فى بيتها وتكرم وفادتى ؟

- أعرف ذلك منها نفسها يا صديقى . نعم ، انها لطيفة وذكية . ولكن « لنقف عند هذا الحد يا عزيزى » . شيء غريب . حالتى اليوم سيئة . لعله السأم . اننى أصب هذا الى البواسير . ما أخبار البيت ؟ لا شيء ؟ تصالحتم وتمازقتهم طبعاً ، هه ؟ هذا ما جرى قطعاً . انه أمر محزن أحياناً أن يضطر المرء الى العودة اليهما حتى بعد جولة مزعجة . ولكم يتفق لى أن أطيل الطريق تحت المطر المنهمر حتى أؤخر لحظة العودة ... ما أشده سأمًا

- أمى ...

- أمك أكمل مخلوقات الله وأعذبها ، « ولكن » ... الخلاصة : يظهر اننى لا أسلو بهما قيمة . بالمناسبة : ما بالهما اليوم ؟ ان هيتهما تدل فى هذه الأيام الأخيرة على ... ماذا أقول ؟ ذلك اننى أحاول دائماً أن أجهل ، ولكن لا بد أنهما تدبران اليوم أمراً ... ألم تعلم شيئاً ؟

- لا أعلم شيئاً البتة ، بل ما كان لى أن ألاحظ شيئاً لولا هذه اللعينة تانياً بافلوفنا التى لا تستطيع أن تمتنع عن العض . انك على حق : لا بد أن

هناك أمراً • لقد وجدت ليزا عند آنا أندريفنا ، وكانت ••• حتى لقد
أدهشتي حالهما • أظن أنك تعلم أن آنا أندريفنا تستقبلها ؟

– أعلم يا صديقي • وأنت ••• متى كنت عند آنا أندريفنا ؟ في أية
ساعة على وجه الدقة ؟ انتى فى حاجة الى معرفة هذا بسبب واقعة ما •

– بين الساعة الثانية والساعة الثالثة • وتصور أنتى حين خرجت
رأيت الأمير داخلاً •••

وحكى له زيارنى من أولها الى آخرها تفصيلاً • فأصغى الى كلامى
دون أن يقول كلمة واحدة • ولم يعقب بشيء على احتمال زواج الأمير
بآنا أندريفنا • وحين قلت المديح لآنا أندريفنا متحمساً تحمساً شديداً عاد
يقول مرة أخرى أنها « لطيفة » • وقلت فجأة كأنما أفلتت منى الجملة
افلاتاً :

– لقد أدهشتها اليوم ادهاشاً هائلاً حين نقلت اليها ذلك النبأ الجديد
كل الجدة وهو أن كاترين نيقولايفنا ستزوج البارون بيورننج •

– أدهشتها ؟ فما رأيك اذا قلت لك انها أبلغتني هذا النبأ هي نفسها
فى هذا الصباح قبل الظهر ، أى قبل أن تدهشها أنت ذلك الادهاش
الهائل ؟

– ما هذا الذى تقول ؟

وتسمرت فى مكاني ، واستطردت أتكلم فقلت :

– من أين أمكنها أن تعرفه ؟ ولكن ما هذا الذى أقوله أنا ؟ انه الأمر
محقق أنها استطاعت أن تعرف النبأ قبلى ، ولكن هل تتصور أنها أصغت
الى كلامى اصغاءها الى نبأ جديد يثير الدهشة ؟ الخلاصة ••• عاشت رحابة
الصدر ! يجب على المرء أن يقبل جميع الطباع بجميع خصائصها ، ليس
كذلك ؟ فأنا مثلاً اذا علمت نبأ من الأبناء طفقت أذيعه فوراً ، أما هي

فانها تحكم اغلاق علبة التبغ على كل ما تعرف ... حسن ، حسن ! انها
مع ذلك أطف المخلوقات ، وان طبعها أروع الطباع !

- لكل انسان خلقه طبعاً ! ولكن الشيء الفريد العجيب هو أن هذه
الطباع الرائعة تمتاز أحياناً بأنها تلقى عليك ألبازاً غريبة . تصور أن أنا
آندريفنا قد رشقتنى فى هذا اليوم نفسه بهذا السؤال من غير لف ولا
دوران : « أحب كاترين نيقولايفنا آخما كوفاً أم لا ؟ » .

هتفت أقول مشدوهاً مرة أخرى :

- يا للسؤال العجيب السخيف !

واضطرب فكرى لحظة . اننى لم أبحث معه هذا الأمر فى يوم من
الأيام ، وها هو ذا الآن ، من تلقاء نفسه ...

قلت :

- وكيف شرحت سؤالها ؟

- لم تشرحه يا صديقى ... وانما عادت علبة التبغ 'تفلق' باحكام
أشد . يجب أن تلاحظ من جهة أخرى أننى لم أقبل فى يوم من الأيام
أن تجرى بيننا أحاديث من هذا القبيل ... ولا هى قبلت ذلك أبداً من
قبل . ولكنك تقول انك تعرفها ، ففى وسعك اذن أن تتخيل أن مثل هذا
السؤال يناسب جمالها كثيراً . أترك تعرف شيئاً ؟

- ان صدور هذا السؤال عنها لفر فى نظرى كما هو لفر فى نظرك .

لعله فضول ، لعله مزاح ؟

- بالعكس . لقد كان فى السؤال جد كثير . حتى انه لم يكن سؤالاً
بل استجواباً ، ولا شك أنها ألقته مدفوعة بأسباب خارقة قاطعة . سوف

تراها ، أليس كذلك ؟ فهل تستطيع أن تعرف منها شيئاً ؟ بل اننى أطلب منك هذا طلباً ، لأن الأمر ، كما ترى ...

- ولكن امكان افتراض أنك تحب كاترين يقولايضا يحيرنى ويذهلنى . معذرة : اننى لا أعرف كيف أخرج من هذه الحيرة وهذا الذهول . أنا لم أبج لنفسى فى يوم من الأيام أبداً أن أكلمك فى هذا الموضوع ولا فى أى موضوع من هذا النوع ..

- ولقد تصرفت تصرفاً حكيماً يا عزيزى !

- ان مغامراتك القديمة لا يليق أن تكون موضوع حديث بيننا طبعاً . ولو كلمتك عنها لكان ذلك منى حماقة . ولكننى لا أكلمك أنتى فى هذه الآونة الأخيرة ، فى هذه الأيام الأخيرة ، قد هتفت متسائلاً بينى وبين نفسى : « لو أنه أحب هذه المرأة فى يوم من الأيام ولو لحظة واحدة ، لما اقترف فى حقها خطأ يبلغ ذلك المبلغ من الهول الذى بلغه خطؤك بعد ذلك . » اننى أعرف ما وقع : أعرف عداوتكما المتبادلة وما يشعر به كل منكما نحو الآخر من نفور وكره ان صح التعبير . لقد سمعت عن هذا ، سمعت عنه كثيراً منذ كنت بموسكو ؛ وما يبرز واضحاً للعيان هنا هو أن نمة كرهاً شديداً وعداوة ضارية هما نقيض الحب . فكيف تسألك أنا أندريفا فجأة هل أنت تحب كاترين يقولايضا ؟ أمر غريب جداً . لابد أنها أرادت أن تضحك !

قال فرسيلوف بصوت لاحظت فيه شيئاً من اضطراب عميق ينفذ الى القلب ، وهذا ما لا يحدث له الا نادراً :

- لكننى ألاحظ يا عزيزى أنك تتكلم أنت نفسك عن كاترين يقولايضا بحرارة شديدة . لقد قلت منذ لحظة انك تتردد الى نساء ... واننى لأشعر بحرج طبعاً اذا أنا سألتك عن أمر كهذه الأمر ... ولكن أليست « هذه المرأة » فى عداد صديقاتك الجديديات ؟

اختليج صوتى فجأة وقلت :

- هذه المرأة... اسمع يا أندره بتروفنش ، اسمع : ان هذه المرأة
هى ما وصفته منذ حين عند الأمير بأنه « الحياة الحية » ، هل تتذكر هذ
الذى قلته ؟ ولقد شرحت كلامك عندئذ بأن هذه الحياة الحية شىء يبلغ من
الصراحة والوضوح والبساطة وينظر اليك نظرة تبلغ من الاستقامة أنك
بسبب هذه الاستقامة وبسبب هذا الوضوح وهذا الجلاء انما يستحيل عليك
أن تصدق أنه هو ما ظللنا نبحت عنه طوال حياتنا بكثير من المشقة والعناء ،
فانظر اذن بأى عينٍ استقبلت أنت تلك المرأة المثالية ، وانظر كيف رأيت
فى الكمال وفى المثل الأعلى « جميع العيوب والرزائل » ! ذلك هو رأى
يستطيع القارىء أن يتصور مدى الاضطراب الذى كنت فيه ، ومدى
ما وصلت اليه من خروجى عن طورى !

صاح فرسيلوف يقول :

- « جميع العيوب والرزائل ! » أوه ! هذه كلمة أعرفها . اذا كانت
العلاقة بينكما قد بلغت من العمق أنها ذكرت لك تلك العبارة ، فربما كار
يحسن أن أهنتك ! ان هذا يفترض أن بينكما صلة تبلغ من الصميمية أنه
يجب على المرء أن يحمد لك تواضعك وتكتمك اللذين لا يقدر عليهما كثير
من الشبان ...

كان فى صوته رنين من ضحك لطيف ، ضحك مودة ، ضحك
ملاطفة ... وكان شىء من كياسة ومن اغاظة فى أقواله وفى وجه
المتألق ، اذا صدق ما لمحته فى الظلام . كان فى حالة احتياج شديد ،
وأشرقت نفسى رغم ارادتى .

هتفت أقول محمر الوجه وأنا أشد فى الوقت نفسه على يده التو
كنت قد تناولتها ثم لم أتركها بدون أن أشعر :

- تواضع ! تكتم ! لا ، لا تواضع ولا تكتم . ولا محل لهتسى ، ولن يحدث شيء من هذا أبداً ، أبداً .

كنت أختنق اختناقاً ، وأطير طيراناً . كانت تملؤني رغبة قوية في أن أطير ، ان في الطيران فتنة عظيمة ! واستطردت أقول :

- وهب شيئاً من ذلك حدث في يوم من الأيام ، ولو مرة واحدة ، فان رأيت يا بابا العزيز اللطيف - هل تسمح لي بأن أناديك بابا ؟ - رأيت أنه عار على أي إنسان ، لا على ابن وأبيه فحسب ، أن يتحدث الى شخص آخر عن علاقاته بامرأة ، مهما تكن هذه العلاقات طاهرة نقية ! بل كلما كانت هذه العلاقات أظهر وأنقى كان كتمانها أوجب وألزم . ان الحديث في هذه الأمور عيب وليس في هذا المجال نجى يفضى اليه المرء بأسراره ! فكيف اذا لم يكن ثمة شيء البتة ؟ هل يجوز الكلام في هذه الحالة ؟ هل يجوز ؟

- الا اذا اشتهى المرء أن يتكلم . . .

- سؤال محتشم ، محتشم جداً : انك قد عرفت في حياتك نساء ، وكانت لك بهن علاقات . . . أليس كذلك ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال عاماً . . . عاماً لا خاصاً !

احمر وجهي وكنت أختنق حماسة . قال :

- لنفرض اننى عرفت نساء وكانت لي بهن علاقات ، فما هو السؤال الذى تريد أن تلقيه ؟

- اليك حالة أريد أن تفسرها لي ، ما دامت تجربتك أكبر : هذه امرأة تقول لك وهى تودعك ، تقول لك فجأة ، بغير مقدمات ، وهى تنظر الى جانب : « سأكون فى الساعة الثالثة من الغد فى مكان كذا . . . » عند تاتيانا بافلوفنا مثلاً . . .

ها قد اندفعت ومضيت الى النهاية . كان قلبي يخفق ، بل لقد كف

قلبي عن الحفان • أردت أن أمسك عن الكلام : ولكن استحال على ذلك •
وكان هو يصغى باتباه شديد • استطردت أقول :

- وفي الساعة الثالثة من الغد ، كنت عند تاتيانا بافلوفنا • دخلت •
وكنت أفكر على النحو التالي : « ستفتح لى الطباخة - هل تعرف طباحتها؟ -
فأسألها فوراً : هل تاتيانا بافلوفنا هنا ؟ فإذا أجبتنى بأنها ليست هنا ، وبأن
سيدة تنتظرها ، فما الذى يجب أن أستخلصه من هذا ؟ قل لى اذا كنت ...
أقصد اذا كنت ...»

- يجب أن تستخلص من هذا أن موعداً قد ضرب لك ولكن هل
حدث هذا ؟ وهل حدث اليوم ؟ نعم ؟

- أوه ! لا ، لا ، لا ! أبداً ! أبداً ! لقد حدث ، ولكنه لم يحدث
على هذه الصورة ! هو موعد ، ولكن لا لهذا الأمر • أعلن ذلك قبل كل
شئ ، حتى لا أكون رجلاً غير شريف • لقد حدث ، ولكن ...»

- يا صديقى ، هذا كله قد بلغ من الغرابة اننى اقترح عليك
أن ...»

- كنت فى الماضى أتصدق بذهب على كل سائل ... مضى ذلك
الزمان ! بضعة كوبكات فقط • ان ضابطاً برتبة ليوتنان هو الذى يستجديك
بضعة كوبكات ، ضابط سابقاً •

ان قامة طويلة هى قامة شحاذ لعله ضابط محال على التقاعد فعلاً قد
سدت طريقنا فجأة • وكان أعجب ما فى أمره أن هندامه أحسن كثيراً
من أن يكون هندام شحاذ • ولكن ذلك لم يمنعه من مدّ يده مستعظياً •

إذا كنت أذكر واقعة اللبوتان هذه الشقية فأنى أفعل ذلك عامداً ،
لأن فرسيلوف انما يعرض لذاكرتى دائماً محاطاً بجميع تفاصيل هذه
الواقعة ، حتى التفاصيل الدقيقة منها ، وهي واقعة كانت لى حاسمة مشؤمة ،
ولكننى لم أكن أعرف أنها كذلك .

رفع فرسيلوف صوته عالياً غير طبيعى على حين فجأة ، وقال يخاطب
اللبوتان وهو يقف امامه :

— دعنا ، والا ناديت الشرطة فوراً !

ما كان لى أن أتوقع غضباً كهذا الغضب ، من فيلسوف كهذا الفيلسوف ،
لسبب تافه هذه التفاهة . ولاحظوا أننا قطعنا حديثنا عندئذ فى نقطة هى
أكثر النقاط اثاره لاهتمامه واجتذاباً لاتباهه ، كما قال ذلك هو نفسه منذ
هنيهة .

فصرخ اللبوتان يقول بغتة وهو يحرك يده :

— أليس معك خمسة عشر كوبكاً ؟ أى وغد لا يملك خمسة عشر
كوبكاً فى هذه الأيام ؟ وغد ! سافل ! يرتدى فاخر الثياب ، ثم هو يجعل
الخمسة عشر كوبكاً قضية كبيرة من قضايا الدولة !

فصاح فرسيلوف منادياً :

— يا شرطى !

وكان الشرطى هناك فعلاً ، فى ناصية الشارع ، وكان قد سمع شتائم
اللبوتان ، فقال له فرسيلوف :

— أرجو أن تكون شاهداً على الشتم ! أما أنت فتعال معنا الى المخفر !

فقال الشحاذا :

— ها ها ! يستوى عندي . . . لك ما تشاء . . . لن نستطيع أن تثبت

شيئاً ! وخاصة لن نستطيع أن تثبت ذكائك !

فقال فرسيلوف جازماً :

— أيها الشرطي ، لا تتركه ، وخذنا الى المخفر .

فهمست أسأل فرسيلوف :

— الى المخفر ؟ لماذا ؟

— حتما يا عزيزي . ان هذه الفوضى في شوارعنا قد أخذت تضجرتي ،

فلو قام كل امرئ بواجبه ، لكان في ذلك خير للجميع . « ذلك مضحك ،

ولكن هو ما سنفعله » .

مشينا مائة خطوة كان الليوتنان يصخب ويتعجرف ، مؤكداً أن

هذه المعاملة شيء « غير معقول » ، وان خمسة عشر كوبكاً لا تستحق

أن . . . الخ ؛ ثم مال على الشرطي يهمس في أذنه ، وكان يبدو على

الشرطي ، وهو رجل عاقل يكره الفضائح في الشوارع ، أنه يوافق على

رأيه ، ولكن بمعنى واحد ، فكان يجمع قائلاً له بصوت خافت : « لاسيل

الآن » ، « لقد نشأت قضية » ، « لو تعتذر فيقبل السيد اعتذارك ، لكان

يمكن أن . . . » .

فصرخ الليوتنان يقول :

— طيب . اسمع يا سيد . الى أين تذهب بنا ؟ انني أسألك : الى أين

نركض هذا الركض ؟ هل هذا من العقل في شيء ؟ ما رأيك في أن يعتذر

لك هذا الانسان الشقي وهو يعاني ما يعاني من ألوان العذاب . . . ما رأيك

في أن تكفني بما أوقعت فيه من اذلال حتى الآن . . . هو ! لسنا في صالون

على كل حال ... نحن في الشارع ... وفي الشارع تكفى اعتذارات
كهنه ...

فتوقف فرسيلوف وانفجر ضاحكاً • فكنت أتصور أنه لم يسترسل
في هذه القصة كلها الا على سبيل التسلية • ولكن الأمر لم يكن كذلك
قال :

- اننى أعذرك كل العذر يا حضرة الضابط ، وأؤكد لك أنك
لا تخلو من موهبة • ولك أن تتصرف هذا التصرف حتى في الصالونات •
قريباً سيكون هذا صالحاً كل الصلاح للصالونات أيضاً • وبانتظار ذلك ،
إليك أربعين كوبكاً فاشرب بها وكل • وأعتذر إليك عن ازعاجك
يا حضرة الشرطى ، وأهنتك على ما أظهرت من نبل •
ثم التفت فرسيلوف الى قائلاً :

- ويا عزيزتى •• ان هناك مشرباً ليس في حقيقته الا مكاناً قدراً ،
ولكننا نستطيع أن نشرب فيه شايًا ، فأنا أدعوك ••• لستا بعيدين عنه ،
فهلم بنا اليه •

أعود فأقول مرة أخرى اننى ما رأيته مهتاجاً هذا الاحتياج فى يوم
من الأيام • ومع ذلك كان وجهه مرحاً مشرقاً بالضياء • لكننى لاحظت أنه
حين أخرج من محفظة نقوده قطعتين بأربعين كوبكاً ، كانت يدها ترعشان
وكانت أصابعه لا تطاوعه ، حتى انه رجاني أخيراً أن أقوم عنه باخراج
النقود واعطائها اللبوتان • لا أستطيع أن أنسى هذا •

وقادنى الى مشرب صغير تحت مستوى أرض الشارع • ولم يكن
فى المشرب ناس كثير • وكان يُعزف فيه على أرغن من برباريا مبجوح
الأصوات متنافر الأنغام • وكانت تنتشر فى جوه روائح أشبه برائحة
قوطة ملوثة بالدمسم • وجلسنا فى ركن •

- لعلك لا تعرف أنتى أحب أحياناً ، من فرط الضجر ، من فرط
 الضجر الرهيب الذى يرهق القلب ، أن أنزل الى هذه الأماكن . فهذه
 الموائد ، وهذا اللحن الشاز الذى يعزف « لوسيا » ، وهؤلاء الخدم الذين
 يرتدون ثياباً وطنية روسية تموزها اللياقة والحشمة ، وهذا الدخان الذى
 يتصاعد من احتراق التبغ ، وهذه الصرخات يطلقها لاعبو البليارد و ، ذلك
 كله يبلغ من العامية والابتذال أنه يكاد يكون من صنع الجبال .
 طيب يا عزيزى ، ماذا كنا نقول ؟ ان ذلك الابن من أبناء اله الحرب مارس
 قد قطع علينا الحديث عند أهم نقطة فيما أظن ولكن اليك الشاى .
 اننى أحب الشاى حباً شديداً هنا تصور أن فيليب هيوليتوفتش كان
 يؤكد منذ قليل لذلك المستأجر الآخر المجدور أن البرلمان الانجليزى قد
 شكل فى القرن الماضى لجنة من رجال القانون مهمتها أن تدرس جميع
 الجوانب من دعوى المسيح أمام كبير الكهنة وبيلات ، لا لشيء الا أن يعرف
 كيف يمكن أن تجرى الأمور اذا طبقت قوانيننا ، وقد هيئت لهذه التمثيلية
 جميع أسباب الأبهة والجلال ، وحشد لها جهاز قضائى كبير ، فمن محلفين
 الى محامين الى سائر ما هنالك وأن المحلفين قد اضطروا بعد مداورات
 أجروها فى قاعتهم المغلقة أن يخرجوا بقرار ادانة شىء يثير الدهشة!
 وقد أخذ المستأجر العبى يناقش ويجادل ، ثم غضب وسخط وأعلن أنه
 سيرك البيت منذ الغد وأخذت المؤجرة تذرف دموعاً غزيرة لأنها
 ستفقد بتركة البيت ايراداً « ولكن دعنا من هذا » . ان فى هذه
 المشارب عنادل أحياناً . هل تعرف تلك الحكاية الموسكوية القديمة التى
 تروى على غرار حكايات بطرس هيوليتوفتش ؟ يقال ان عندليباً كان يفر
 فى مشرب بموسكو . فدخل المشرب واحد من أولئك التجار الذين
 لا يحبون هذا الفناء الذى يجرى على وتيرة واحدة . وقال يسأل : « كم
 تمن عندليب ؟ » فقيل له « مائة روبل » فقال : « أقلوه وجيئونى به ! » ،
 ففعلوا ، فلما صار عندليب على مائدته قال : « اقطعوا لى منه شريحة

بفرشين ! • • لقد رويت هذه الحكاية يوماً لبطرس هيبوليتوفتش ، ولكنه لم يشأ أن يصدقها ، حتى لقد استاء •••

وتكلم فرسيلوف كثيراً أيضاً • اننى لا أروى هذه الجمل التى قالها الا على سبيل المثال • وكان يقاطعنى كلما فتحت فمى لأشعر فى سرد قصتى ، فيمضى يقول ترهات لا يربط بينها رابط ولا علاقة لها بما نحن فيه • وكان يتكلم بحرارة ومرح كأنه نمل • وكان يضحك لكل أمر من الأمور ، بل كان يقهقه هائثاً ، وذلك ما لم أعهد فيه من قبل قط • وقد شرب كأساً من الشاي دفعة واحدة ، وسكب لنفسه كأساً أخرى • اننى أتهم الآن الحالة النفسية التى كان فيها : كان مثله كمثل رجل تلقى رسالة عزيزة غالية هامة طال انتظاره لها ، فلما وصلته وضعها أمامه وتعمد أن لا يفضها ، فهو يقبلها بين أصابعه مدة طويلة ، وينعم النظر فى غلافها ، ويتأمل خاتم البريد الذى عليها ، ويمضى الى غرفة أخرى يصدر أوامره الى الخدم ، أى هو يؤجل الدقيقة الهامة التى يعلم أنها لن تفلت منه ، وذلك ليزيد لذته ومتعته وبهجته •

قصصت عليه كل شىء طبعاً •• كل شىء •• من البداية •• ودام حديثى قرابة ساعة • وكيف لا أقص عليه كل شىء ؟ لقد كنت شديد الظمأ الى الكلام حتى قبل ذلك • بدأت بالحديث عن لقائنا الأول فى منزل الأمير المعجوز عقب وصولها • ثم رويت له كيف تابعت الأحداث شيئاً بعد شىء • لم أغفل شيئاً ، لم أسقط شيئاً ، ولا كان فى امكاني أن أسقط شيئاً : كان هو نفسه يضعنى فى الطريق ، ويحزر ، ويلقننى ، حتى خيل فى بعض اللحظات اننى أعيش حكاية خيالية ، وأنه كان دائماً هناك ، جالساً أو واقفاً فى مكان ما وراء الباب ، فى كل مرة ، طوال هذين الشهرين : كان يعرف سلفاً كل حركة من حركاتى وكل عاطفة من عواطفى • ووجدت فى هذا الاعتراف له لذة لا نهاية لها ، لأننى كنت أرى فيه كثيراً من اللطف والرفقة والمودة ، وكثيراً من نفاذ

الصبر فى النفس الانسانية ، ورأيت فيه قدرة مدهشة على أن يحزر كل شىء من نصف كلمة . وكان يصغى الى اصغاء فيه حب وحنان ، كما تصغى امرأة . وقد استطاع خاصة أن يحسن التصرف فما شعرت بأى خجل . وكان يستوقفنى فى بعض الأحيان بفتةً ليسألنى عن أمر تفصيلى ، وكثيراً ما كان يقاطعنى ويردد بلهجة عصبية قائلاً : « لا تنس التفاصيل ، التفاصيل خاصة ، فكلما كانت واقعة من الوقائع أصغر شأنًا فى نظر المرء لأول وهلة ، كانت أعظم خطراً فى حقيقة الأمر أحياناً . » وقد عاد الى هذه الفكرة مراراً . وطبعى اننى فى بداية قصتى قد تعاليت قليلاً ، ولكن سرعان ما رجعت الى الحقيقة ، فرويت له صادقاً أننى كنت مستعداً لأن أقبل المكان الذى تطوَّها قدمها من أرض العرقة . وكان أروع وأجمل ما فى الأمر أنه فهم فهمًا كاملاً أن فى وسع امرأة أن « تتعذب خوفًا من وثيقة » ، وأن تبقى فى الوقت نفسه طاهرة نقية لا مأخذ عليها ، كما ظهرت لى فى هذا اليوم . وقد فهم كذلك كلمتى الطالب والطالبة حق فهمها . ولكن حين شارفت على النهاية لاحظت أن ابتسامته الطيبة كان يلوح فيها من حين الى حين نوع من نفاق الصبر ، والقسوة ، والذهول . وكان هذا واضحاً وضوحاً شديداً وحين وصلت الى « الوثيقة » . تساءلت بينى وبين نفسى : « أقول له الحقيقة أم لا ؟ » ، ثم لم أقلها له رغم حماسى كلها . أسجل هذا هنا لأذكره مدى الحياة . لقد شرحت له أمر الوثيقة على نحو ما شرحت لها هى ، أى أقصحت كرافت . فالتمعت عيناه ، وارتسم على وجهه غصن غريب شديد القمامة ، وقال يسألنى :

— أتذكر تذكراً واضحاً أن تلك الرسالة قد أحرقتها كرافت بلهب سمعته ؟ ألسنت متوهماً ؟

فأجبتة مؤكداً :

— لا ، لست متوهماً

- ذلك أن لهذه الرسالة شأنًا خطيراً عندها ، فإذا كانت بين يديك
كان في وسعك منذ اليوم أن ...

ما الذى « فى وسعى أن .. » ؟ لم يذكر هذا . وإنما تابع كلامه
يسألنى :

- هل صحيح حقاً أن الرسالة زالت فليست الآن بين يديك ؟

فارتعشت ، ولكن فى داخل نفسى لا فى ظاهرها . أما فى الظاهر
فأنتى لم أفصح أمرى بشئ ، ولا طرفت لى عين . حتى أنتى أردت أن
لا أصدق سؤاله ، فقلت :

- ماذا ؟ بين يدي ، الرسالة بين يدي ؟ كيف تكون بين يدي
وقد حرقها كرافت ؟

- حرقها ؟

وحدق الى بنظرة من نار ، نظرة جامدة ما أزال أذكرها . وظل مع
ذلك مبتسماً ، غير أن كل ما كان فى وجهه من طيبة ، ومن رقة قد
اختفى فجأة . وعبرت هيئته عن حيرة وإبهام . وازداد ما كان يظهر عليه
من ذهول . فلو كان أكثر سيطرة على نفسه ، لو أنه سيطر على نفسه
كما كان يسيطر عليها حتى الآن ، لما ألقى على ذلك السؤال عن الوثيقة .
أما وأنه فعل ، فهذا دليل أكيد على أنه كان خارجاً عن طوره . ولكننى
اليوم إنما أقول هذا الكلام . أما فى ذلك الوقت فأنتى لم أدرك التغير الذى
أصابه ، بمثل هذه السرعة ، وظللت أظن ، وظلت نفسى زاخرة بتلك
الموسيقى نفسها . ولكن قصتى انتهت . ونظرت اليه . فقال لى فجأة منذ
فرغت من الحديث :

- شئ غريب ، غريب يا صديقى : تقول انك كنت هناك من الساعة

الثالثة الى الساعة الرابعة ، وان تانيا بافلوفنا لم تكن فى البيت ، أليس كذلك ؟

- من الساعة الثالثة الى الساعة الرابعة والنصف تماماً .

- تصور أنى ذهبت الى تانيا بافلوفنا فى الساعة الثالثة والنصف تماماً ، فاستقبلتنى فى المطبخ . اننى أصعد إليها على سلم الخدمة فى كل مرة تقريباً فهتفت أقول وأنا أتقهقر الى وراء من شدة الدهشة :

- ماذا ؟ استقبلتك فى المطبخ ؟

- نعم ، وقالت لى انها لا تستطيع أن تستقبلنى ، فلم أمكث الا دقيقتين . وما كنت قد ذهبت إليها الا لأدعوها الى الغداء على كل حال .

- لعلها وصلت فى تلك اللحظة نفسها ؟

- لا أدرى . ولكن لا . مستحيل . لقد كانت لابسة قميصاً . كانت الساعة هى الثالثة والنصف تماماً .

- ولكن ... ألم تقل لك تانيا بافلوفنا انى عندها ؟

- لا ... لم تقل لى انك هناك ... والا لكنت عرفت فما سألتك عن شىء ...

- اسمع ، هذا أمر خطير جداً ...

- خطير أو غير خطير ، ذلك يتوقف على الجهة التى تنظر اليه منها ... ولكننى أرى أن وجهك قد اصفر لونه ... فأين الخطورة فى الأمر ؟

- لقد ضحك على كما يضحك على طفل ...

- بل كل ما فى الأمر أنها « خافت من حرارة اندفاعك » ، كما قالت لك ، فاختبأت وراء تانيا بافلوفنا .

- ما هذه القصة يارب؟ اسمع، لقد أنطقتى ذلك الكلام كله بحضور شخص ثالث، أمام تاتيانا بافلوفنا. معنى هذا أن تاتيانا بافلوفنا سمعت ما قلته! هذا... هذا رهيب! بل رهيب تصوره!

- كل شيء نسبي يا عزيزي! ثم انك قد ناديت برحابة الفكر، للمرأة عامة، وهنتت تقول: «عاشت رحابة الفكر».

- لو كنت أنا عطيل، وكنت أنت ياجو، لما استطعت أن تقول خيراً من هذا... ولكنني أفرح... أضحك... فلا يمكن أن يكون هنا عطيل، إذ ليس ثمة علاقات من هذا النوع. وكيف لا أضحك؟ ليكن ما كان! اننى أظل رغم كل شيء مؤمناً بما هو أسمى منى كثيراً، ولا أفقد مثلى الأعلى!... ان كان ذلك مزاحاً منها، فانى أغفره لها. ماذا أن تمزح مع مراهق مسكين؟ اننى أقبل منها هذا المزاح واضحك... أنا من جهتي لم ألبس أى قناع. والطالب... «الطالب» كان هناك رغم كل شيء... كان... كان فى قلبها، كان فى نفسها... كان وبقي وسيبقى. وكفى الآن! اسمع: ما رأيك؟ أمضى اليها فوراً فأعرف الحقيقة كلها، أم لا؟

قلت «أضحك»، ولكن الدموع كانت تترقق فى عيني.

- افعل ما يحلو لك يا صديقي، اذهب اليها اذا كنت ترغب فى ذلك.

- أحس أننى لطلخت نفسى إذ قصصت عليك هذا كله. لا تزعل، ولكننى أرى أنه لا يجوز لرجل أن يتحدث عن امرأة الى شخص آخر. ذلك رأى أكرره وأصر عليه. ان من تتخذه نجياً وتفضى اليه باسراك لن يفهم أبداً. الملاك نفسه لن يفهم. حين تحترم امرأة فلا تتخذ لك

نجياً تبوح له بأمورك • وإذا كنت تحترم نفسك فلا تفعل ذلك أيضاً • انتهى
الآن لا أحترم نفسي • الى اللقاء • لن أفقر لنفسي ما فعلت •••

- دعك يا صديقي ، انك تبالغ ! أنت نفسك قلت « انه لم يحدث
شيء » •••

وخرجنا ، وودع كل منا الآخر • وقال لي وفي صوته ارتعاش
خاص :

- ولكن ألا تريد أن تقبلني يوماً من كل قلبك ، كما يقبل ابن
اباه ؟

فقبلته بحرارة •
قال :

- عزيزي ••• كن طاهراً نقياً على الدوام كما أنت طاهر نقي في
هذه اللحظة •

لم أقبله قبل هذه المرة في حياتي ، ولا كان يمكني أن أتصور أن
يطلب مني هو نفسه ذلك •

دوستوييفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

إن معاصري دوستوييفسكي قد أساءوا ففهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبانين" فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية "التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستوييفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستوييفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف. سربرنيف